دار الشروق

ثلاثية غرناطة

رضوى عاشور

مزيد من الكتب المجانية

Books-Sea.com

دار الشروق

ثلاثية غرناطة

رضوى عاشور

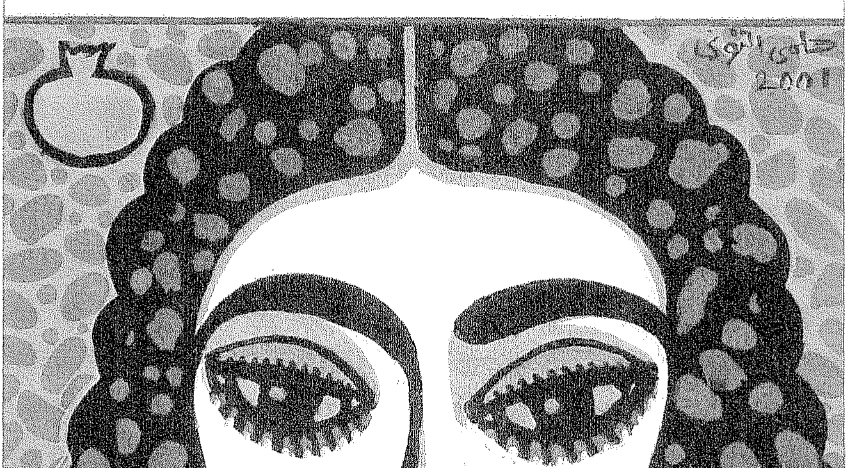

Books-sea.com

ثلاثية غرناطة

Books-sea.com

الطبعة الثالثة
١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

جميع جقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk, com.

Books-sea.com

رضوى عاشور

ثلاثية غرناطة

دار الشروق

Books-sea.com

الإهـــداء

إلى ابني
تميم البرغوثي

Books-sea.com

١
غرناطة

Books-sea.com

١

ذلك اليوم رأى أبو جعفر امرأة عارية تنحدر في اتجاهه من أعلى الشارع كأنها تقصده. اقتربت المرأة أكثر فأيقن أنها لم تكن ماجنة ولا مخمورة. كانت صبية بالغة الحسن ميّادة القد، ثدياها كأحقاق العاج، وشعرها الأسود مرسل يغطي كتفيها، وعيناها الواسعتان يزيدهما الحزن اتساعا في وجه شديد الشحوب.

ولما كان الشارع مهجورا والحوانيت لم تزل مغلقة، وضوء النهار لم يبدد بنفسج السحر بعد فقد بدا لأبي جعفر أن ماشاهده رؤيا من رؤي الخيال. حدّق وتحقّق ثم غالب دهشته وقام إلى المرأة وخلع ملفّه الصوفي وأحاط به جسدها وسألها عن اسمها ودارها فلم يبد أنها رأته أو سمعته. تركها تواصل طريقها وظل يتابع مشيتها الوئيدة وحركة خلخاليها الذهبيين حول كاحلين لوثتهما، وحول طريق تخوض فيه قدماها الحافيتان.

ورغم البرد القارس وصفير رياح تعصف بأشجار الجوز المغروسة على جانبي الطريق، بقي أبو جعفر واقفا بباب حانوته حتى أرسلت الشمس خيوطا صفراء واهية حددت معالم الشارع.

في الحانوت تبادل مع نعيم كلمات معدودة، ثم انتحى ركنا وجلس صامتا. لم يفت الصبي وجوم معلمه، فاستبدل بصخبه المعتاد حركات وجلة محكومة، وراح يعمل بين رغبة في إتقان عمله إرضاءً له، وقلق عليه يشتته ويدفعه إلى اختلاس النظر إليه بين لحظة وأخرى.

Books-sea.com

ـ ما اسمك يا ولد؟

كان الرجل مديد الطول مهيب الهيئة لا يختلف مظهره عن أولئك الكبار الذين يفزعونه، فما إن يستوقفه واحد منهم حتى يقفز مبتعداً كأرنب بري نفور. رفع عينيه متسلقا الجسد العالي حتى وصل إلى عينيه، كانتا زرقاوين وديعتين. لم يركض، تمتم.

ـ نعيم.

ـ وأين أهلك يا نعيم؟

ـ رحلوا أو ماتوا.. لا أدري.

مد أبو جعفر يده وأطبقت كفه الكبيرة على يد الصغير الذي تبعه بفتح ساقيه على اتساعهما ليواكب خطوته.

أطعمه أبو جعفر وآواه وعلّمه أسرار الحرفة، درّبه على دباغة جلد الماعز وصباغته وإعداده، وعلّمه ترتيب أوراق المخطوط ولصق الغلاف، سمح له بالقيام بكافة المهام باستثناء مهمتين كان يفضّل أن يقوم بهما بنفسه ويطلب منه متابعته لكي يتعلم: يلضم الخيط في المخرز وبدقة وبطء يمرر المخرز والخيط في كعب المخطوط مرة وثانية وثالثة ورابعة ذهابا وإيابا حتى يُحكم خياطته. ثم يترك له لصق الكعب في الغلاف ووضع الكتاب في المكْبس وبعد أيام عندما يُخرج الكتاب من المكبس يقوم أبو جعفر بكتابة العنوان واسم المؤلف واسم المالك بماء الذهب أو بغيره حسب الطلب، ثم يزين الغلاف ويزخرفه.

يتحرق أن يسمح له معلمه أن يقوم بذلك ويلح فيناوله ورقة وهو يبتسم.

ـ هاك ورقة اكتب عليها الفاتحة.

فيشعر أنه وقع في شر أعماله لأن خطه كان يتعرج صعودا وهبوطا كالسكة الجبلية.

Books-sea.com

ـ هل أنت مريض يا أبا جعفر؟

لم يجبه أبو جعفر ولم يلتفت إليه، بل ظل مطرق الرأس زائغ العينين، شاردا. انقضى النهار وطيف الصبية ماثل أمام عينيه. كان مضطربا وحزينا وإن لم يتملكه التوجس إلا في اليوم التالي حين سمع بأمر اجتماع الحمراء، وترددت الشائعات عن غرق موسى بن أبي الغسان في نهر شنيل، فهل تكون الصبية العارية إشارة صادقة كالرؤى والنبوءات؟

استتب تطيره وترسخ في قلبه بعد أيام معدودة عندما حكى له نعيم عن امرأة وجدوا جثتها عارية تطفو على صفحة النهر. سأله:

ـ في حَدَرُّه أم شَنِيل؟

ـ في شَنِيل.

ـ إذن لا مفر!

تطلع إليه نعيم مستفهما ولكن أبا جعفر ظل صامتا ولم يفسر شيئا من كلماته. ابتلعت دوامات النهر الأمل الباقي، وانفرط عقد الأمة وتيتمت العباد.

لثلاث ليال لم تنم غرناطة ولا البيازين. تحدث الناس بلا انقطاع ليس عن المعاهدة، بل عن اختفاء موسى بن أبي الغسان. استغرقهم الخبر الذي انتشر من نهر شَنِيل إلى عين الدمع، ومن باب نَجْد إلى مقابر سهل بن مالك. سرى في الشوارع والحواري والجنّات. حمله ماء شَنِيل من أطراف المدينة ثم دخلها مع نهر حَدَرُّه وانتقل إلى ضفته الغربية، ومنها إلى السبيكة والحمراء وجنَّة العرِّيف، وإلى ضفته الشرقية، ومنها إلى القصبة القديمة والبيازين، ثم تجاوز الأسوار والأبواب والأبراج وأطواق الكروم إلى جبل الثلج من ناحية وجبل الفخّار من الناحية الأخرى.

قال البعض إن ابن أبي الغسان خرج من اجتماع الحمراء، وقد قرر أن يقاتل

Books-sea.com

القشتاليين، وقاتل جموعهم وحده، ولما أصابوه وكادوا يظفرون به ألقى بنفسه في النهر.

وقال البعض الآخر: بل قتله محمد الصغير لينفذ ما يريد دون مخالفة ولا معارضة. سلم الشقيتو المنحوس البلد وباعها، وما كان بإمكانه أن يفعل وابن أبي الغسان يقف له بالمرصاد.

وقال فريق ثالث لا أغرق نفسه ولا قتلوه، بل صعد إلى الجبال ليدرِّب الرجال ويستعد.

وقال فريق رابع، غرق أم لم يغرق لا فرق، ليس هذا زمانه ولا زماننا فلنحمل ما نقدر عليه من متاع ونرحل فبلاد الله واسعة، أو نبقى مسلمين أمرنا لله وللأسياد الجدد ونعيش.

كيف؟! كان السؤال يقطع في روح أبي جعفر كنصل باتر يتّقيه كباقي العباد بالحديث مع نفسه ومع الآخرين. وكان يحدث نفسه حين مرَّ المنادي معلنا بنود الاتفاقية. اتجه إليه ووقف ملاصقا له. استمع إلي شروطها كاملة، من شرطها الأول الذي يقضي على ملك غرناطة والقادة والفقهاء والحجّاب والعلماء والمفتين والوجهاء بتسليم المدينة في مدة أقصاها ستون يوما، حتى شرطها الأخير الذي يقضي بتعهد الملك فرديناند والملكة إيزابيلا بتنفيذ كافة ما ورد في المعاهدة والتزام من يخلفهما من أبناء وأحفاد بما جاء فيها. وعندما تحرك المنادي قاصدا مكانا آخر تبعه أبو جعفر.

الناس في غرناطة تسمع وتتقصى وتجمع التفاصيل، وحين يعلن المنادي الخبر أو يعتلي إمام المسجد المنبر قبل صلاة الجمعة، يسهب فيه ويفسره ويدافع عنه، ينصت الناس من باب التأكد أو المضاهاة، ويملئون بأنفسهم الفراغات بالحقائق التي جمعوها وأسقطت من القول المعلن.

ورغم أن المنادي لم يعلن، ولا إمام المسجد أشار إلى تفاصيل اجتماع

Books-sea.com

الحمراء الذي أقر المعاهدة، فقد عرف أبو جعفر كغيره من أهل المدينة ما دار فيه:

أبو القاسم بن عبدالملك ويوسف بن كماشة، الوزيران اللذان أوفدهما الملك للتفاوض، دخلا القاعدة بصحبة دي ثافرا مندوب ملكي قشتالة وأراجون. وكان ثلاثتهم يحملون نص المعاهدة لقراءتها. بكى أبو عبدالله محمد الصغير وقال: إن الله كتب عليه أن يكون شقيا، وأن يتم ضياع البلاد على يديه. انتحب الوزراء والقادة والعلماء ورددوا لا حول ولا قوة إلا بالله ولا راد لقضاء الله. اعترض موسى بن أبي الغسان على الاتفاق، وطالب الحاضرين برفضه؛ ولما لم يجد من يسانده غادر القصر غاضبا واعتلى حصانه واختفى. كرر الحاضرون أنه لا مفر من قضاء الله، وأن شروط المعاهدة أفضل ما يمكن الحصول عليه... بكوا ووقعوا.

كيف يتعهد ملك بتسليم ملكه؟ وكيف يقضي بتعهد قادة البلاد وفقهائها وكافة أهلها بأن يسلموا طواعية قلاع الحمراء وحصنها وأبراجها؛ وأبواب غرناطة والبيازين وضواحيها؟

سار أبو جعفر خلف المنادي في حشد كبير من الناس، زاغت العيون من العيون، والرأس مال يحجب مرآته المكسورة ورعشة الجفنين، والذراعان انهدلتا على الجانبين. تحركت الأقدام وئيدة ثقيلة في فضاء صامت يتأكد صمته مع رنين صوت المنادي وحفيف أوراق الشجر المصفرّة الجافة.

ولما ذهب المنادي وانفرط الحشد، وجد أبو جعفر نفسه يسير وحيدا في برد الشارع لا يقصد مكانا بعينه، بل تحمله قدماه اللتان تألفان الطرقات. يقول لنفسه هذا المنحوس ليس أولهم ولا آخرهم. يقول سيذهب أبو عبدالله ولن يخلفه ـ منحوس أو غير منحوس ـ سوى ملوك الروم. تتزعزع أحشاؤه للخاطرة فيدرؤها عن نفسه، يغلق دونها بابه ويحشد وراءه الأسانيد والوقائع والحجج. كل شيء يتبدل إلا وجه الله ذو الجلال. ألم يعقد السلطان يوسف

Books-sea.com

المول معاهدة أحط وأسوأ مع القشتاليين وجاء السلطان الأيسر وألغى المعاهدة وحاربهم؟ والسلطان أبو ا لحسن كان يدفع الجزية ثم توقف عن دفعها ورد رسولهم: «قل لملكي قشتالة إن دار السّك لا تنتج إلا السيوف هذه الأيام». وهذا الزغيبي المنحوس ألم يبدأ ولايته بمقاتلتهم حتى أسروه؟ من يدري ما الذي يحدث غدا؟! ليس أولهم ولا آخرهم، جاء كما جاء سواه، ويذهب كما ذهبوا وتبقى غرناطة محروسة بإذن الله وإرادته.

كان يجتهد في تهدئة نفسه المطوَّقة وهي تضرب بجناحيها مستريعة على حد السكين. يكرر لها غرناطة محروسة وباقية، يشاغلها بالكلام، يمد لها عبر الشباك يده، يلامس ريشها المبتل وبدنها الراجف، يحنو ويعطف ويُربِّت ويغني لها همسا أغنية أليفة تطيب لها.

مالت شمس الضحى على الطرقات، ثم مالت أكثر وغابت وأبو جعفر يواصل السير حتى وجد نفسه على ضفة شَنيل. حدّق في مائه فأتاه طيف الصبية عارية كأنها تخرج من الماء إليه، ثم حدّق فلم ير سوى تجعيدات الماء، ثم عاد فرأى الصبية على صفحته عاجية تكبر في الموت حتى غطت صفحة النهر فارتج جسده وراح يتصبب عرقًا.

Books-sea.com

٢

كان أبو منصور جالسا على مصطبة المعلم في الحمام يمين البوابة. رد تحيتهما متمتما وأشار بيده إلى الخزانة التي صفت فيها المناشف المطوية النظيفة. حمل سعد ثلاث مناشف وصعد خلف سيده الدرجات الثلاث التي توصل إلى المقصورة الغربية، حيث عاونه على خلع ملابسه وستر عورته بإزار لَفَّهُ حول خاصرته. طوى ملابس سيده بعناية ولفها في منديل حريري كبير، ثم خلع ملابسه سوى السروال وصرّها في منديل قديم. أسلم اللفافة الكبيرة والصرة الصغيرة إلى أبي منصور الذي أومأ برأسه ولم يقل شيئا ولم يتطلع إليه.

قبل أن يدلفا إلى الحمام الجوّاني دخل سيده إلى بيت الخلاء، فجلس سعد على إحدى المصطبتين الشرقيتين ينتظر. لم يكن في الوسطاني إلا ثلاثة رجال. جلس اثنان منهم كلٌّ على مصطبة في مواجهة سعد، وراح الثالث الذي كان طويلا ونحيفا يقطع القاعة ذهابا وإيابا بين بابها المفضي إلى البرّاني؛ وبابها المفضي إلى الجوّاني.

ترى ما الذي أصاب أبا منصور؟ كاد سعد يسأله إن كان مريضا ولكنه استحى. ليس من عادته أن يجلس في المدخل كغيره من أصحاب الحمامات؛ بل يجلس أحد معاونيه لاستلام الأمانات، وينطلق في حركة نشطة بين الجوّاني والوسطاني حاملا صابونة لهذا وطستا لذاك، متزرا أو منشفة، يحكي المُلح؛ ويطلق النكات ويثير قهقهات رواد الحمام الذين يمسكون خصورهم من شدة الضحك. كان رجلا بدينا في الخمسين أو الأربعين من عمره، بشرته وردية

Books-sea.com

وملامحه دقيقة وذقنه ملساء، له رأس صغير وكرش كبير يهتز اهتزازا وهو يضحك. لكنه اليوم كان يجلس ساهما زاهدا في أي سلام أو كلام. «من الذي يضمن؟! من الذي يضمن؟!».

رفع سعد عينيه فرأى الرجل النحيل يمر من أمامه في دورته المتكررة؛ وهو يتمتم بهذه الكلمات لنفسه، ويواصل المشي وقد ارتفعت كتفاه الضيّقتان حتى كادتا تلامسان أذنيه. صاح أحد الرجلين الجالسين مقابل سعد: «أصَبْتَنَا بالدوار يا أخي لِمَ لا تهدأ وتجلس مثل الناس!» ولكن الرجل لم يعره اهتماما واستمر في دورته وتمتماته.

كان الجوّاني مكتظا بالرجال، منهم من جلس على بلاط مصطبة بيت النار يتصبب عرقا من البخار، ومنهم من نزل المغطس ليسقط الجنابة قبل الحمام، ومنهم من استلقى على ظهره أو بطنه مسلما نفسه لخادمه أو لغيره من العاملين في الحمام يكيسه أو يُلَيِّفه أو يسكب الماء الساخن على رأسه. وكانوا جميعا يشاركون في الحديث فتتقاطع أصواتهم من طرف الحمام إلى طرفه الآخر، حتى من دخل منهم المقصورة الخاصة بإزالة الشعر كان يسهم بما لديه من وراء الستار الذي يحجب عريه الكامل.

جلس سعد وسيده متربعين في مكانهما المعتاد بالقرب من أحد أجران الماء الساخن. مد سيده ذراعيه على امتدادهما وغسل سعد الكيس وصبّنه، ثم بدأ بتكييس اليد اليمنى فالذراع اليمنى وتحت الإبط، ثم انتقل إلى اليد اليسرى. قال أحدهم:

ـ يا أبا جعفر... يا أبا جعفر الله يرضى عليك، نحن لا نختار بين بديلين بل هو قدر مكتوب. نحن مهزومون فمن أين الاختيار؟!

قاطعه آخر:

ـ أنا معك، الاتفاقية شر لا بد منه. كان مولانا في مأزق والمواجهة التي كان

Books-sea.com

يريدها ابن أبي الغسان محكوم عليها سلفا، فما الذي يملكه أو نملكه نحن أمام جيوشهم الجرارة والأنفاط اللُّمباردية الجديدة؟!

قال أبو جعفر:

ـ بإمكاننا محاربتهم، أقسم برب الكعبة أنه بإمكاننا محاربتهم.

كان سعد يتابع الحوار بأذنيه ولا يملك أن يرى أيا من المتحدثين إذ كان يجلس مقابل سيده لا يرى من الحمام سوى الحائط وجرن الماء إلى يساره.

ـ ولماذا نحاربهم ألم تكفنا عشر سنوات من الحرب؟! هل تريد أن يحل بنا ما حل بأهل مالقه فنأكل البغال والحمير وأوراق الشجر؟!

ـ سينكّلون بنا بعد التسليم، والمعاهدة ليست إلا ورقة لا قيمة لها. لو سلمناهم غرناطة سيفرضون علينا الركوع حين يمر ركب القساوسة، ويرغموننا على الحياة في حي مغلق ليس له إلا باب واحد، ويشرعون سيف الترحيل على رقابنا. ما الذي يمنعهم من فعل ذلك حين يملكون البلد ويصبح لهم؟!

انبطح سيده على ظهره فارتكز سعد على ركبتيه ومال بجذعه؛ وفرك له صدره وبطنه ووجه ساقيه، ثم انقلب سيده على بطنه ففرك له سعد ظهره.

ـ التسليم يرد شرهم عنا ويحفظ لنا حقوقنا.

ـ كيف؟!

كررتها أصوات متتابعة في حدة أقرب إلى الصراخ.

أزاح سيده يده واعتدل جالسا.

ـ المعاهدة تنص على معاملتنا معاملة شريفة واحترام ديننا وعاداتنا وتقاليدنا وحريتنا في البيع والشراء. ومن حقنا الاحتفاظ بأملاكنا وأسلحتنا وخيولنا، ومن حقنا اللجوء إلى قضاتنا للفصل في خلافاتنا. حتى أسرانا سيعودون إلينا أحرارا معافين.

Books-sea.com

ـ حبر على ورق!

واصل سعد التكييس، وعندما انتهى مد يده إلى سيده ليشاهد بنفسه فتائل الوَسَخ التي أطلعها من جسده والتي يطلب رؤيتها كل مرة لكي يتأكد أن خادمه أحسن فرك جسمه.

أمسك سعد بالطاس واغترف ماءً ساخنا من الجرن، وسكب على سيده، ثم بدأ في تصبين رأسه.

ـ لو رفضنا المعاهدة وصمدنا ستأتينا النجدة من عُدوة المغرب ومن مصر ومن بني عثمان.

ـ لن يأتينا شيء!

ـ بلي لن يتركونا نواجه وحدنا!

ـ أنا مع أبي جعفر، وابن أبي الغسان لم يمت كما يشيع المغرضون. لن يفلت القشتاليون منا، نحن من أمامهم ورجال ابن أبي الغسان من خلفهم، وأساطيل مصر والمغرب وبني عثمان تطبق الحصار عليهم فلا يكون لهم من خلاص سوى الموت.

أشار له سيده بالتوقف عن سكب المزيد من الماء الساخن على رأسه وقال وهو يضغط على مخارج الألفاظ وينطقها ببطء وقوة:

ـ غرناطة ساقطة لا محالة، وابن أبي الغسان كان أحمق يريد لنا خوض قتال لا قبل لنا به. الحمد لله أنه مات وأراحنا واستراح!

لم يفهم سعد ما الذي حدث إذ قفز سيده فجأة من أمامه وانطلق راكضا. استدار سعد فإذا بأبي منصور يمسك بعصا غليظة ويركض مهتاجا. متي دخل أبو منصور الحمام؟ ومن أين أتي بتلك العصا وما الذي حدث؟ كان أبو منصور يزأر متوعدا ويصيح:

Books-sea.com

ـ مركوب ابن أبي الغسان أشرف منك وألف من أمثالك يا كلب يا ابن الكلب .

سقط إزار سيده وهو يركض فزعا من عصا أبي منصور الذي استمر في ملاحقته وهو يصرخ :

ـ أمك الساقطة وليست غرناطة . يا غراب الشوم ، اخرج من حمامي وإلا قتلتك !

اندفع المستحمون لكي يحولوا بين أبي منصور وضرب الرجل ؛ من كانوا في المقاصير المستورة ، أو في المغطس خرجوا عراة كما ولدتهم أمهاتهم ، ومن كان جالسا أو راقدا يتحمم سقط عنه إزاره في الركض المفاجئ ، ووقف سعد مشدوها يعي أن عليه اللحاق بسيده ، ولا يتحرك كأنما تثبتت قدماه في الأرض .

أن تهيم على وجهك نهارا وتستقبل المساء جالسا في زاوية المسجد تؤلمك قرصة الجوع ولا ينقذك منها سوى النوم متدثرا بملفك الخشن . . . ما الجديد في ذلك؟

لم تكن المرة الأولى التي يجد فيها سعد نفسه بلا مورد رزق تواجهه أيام يبدو المستقبل فيها كصباح شتائي يجثم عليه الضباب ، فلا يكاد المرء يبصر فيه موقع قدميه .

في تلك الأيام كان يجتر الماضي ، الماضي الأبعد ، والغصن ينمو تلقائيا ، والماضي الأقرب وقد صار مقطوعا من الشجرة تتقاذفه الريح . ، وكلما استعاد ما مر به تحضره تفاصيل جديدة أفلتت من ذاكرته فيدهشه أنها أفلتت ، ويدهشه أكثر ظهورها المفاجئ ، فيوقن بعد تأمل أن لا شيء يضيع ، وأن عقل الإنسان صندوق عجيب صغير ما دام محمولا في الرأس ، ويحتفظ رغم ذلك بما لا يحصى أو يعد : رائحة البحر ، وجه أمه ، خيوط صفراء واهية تنفذ في خضرة أوراق الكروم المبللة بقطرات المطر ، خيوط الحرير على نول أبيه ، سعلة جده

Books-sea.com

في الصباح، ضحكات الصغيرة، مذاق حبة لوز أخضر، جرة مكسورة يسيل الزيت منها، وحبة مسبحة مفروطة تدحرجت إليه في مخبئه خلف الخزانة.

بعد ثلاثة أيام من البحث عن العمل نهارا والنوم في المسجد ليلا، فكر سعد في طلب المساعدة من أبي منصور، قال له:

ـ تركت سيدي، أقصد طردني سيدي وأبحث عن عمل.

ـ هل تعرف حارة الورّاقين؟

ـ أعرفها.

ـ اذهب إلى هناك واسأل عن حانوت أبي جعفر، قل له إنني الذي أرسلتك إليه.

ثم أردف:

ـ إن لم يجد لك عملا، عد إليّ.

قال أبو جعفر وهو يقوم لمواصلة عمله:

ـ عليك أن تراقب كل ما أقوم به وما يقوم به نعيم. وإن شاء الله تتعلم بسرعة... هل تقرأ وتكتب؟

ـ لا.

ـ هذه مشكلة أخرى علينا التغلب عليها. تعال يا نعيم هذا سعد جاءنا من مالقة، سيكون رفيقك في العمل وعليك أن تساعده، ألم تعد معلما ماهرا؟!

ابتسم نعيم باعتداد للمهمة الموكلة إليه، ولكن سعدا لم يبتسم وهو ينظر إلى نعيم إذ رآه صبيا صغيرا له جسد نحيل، وعينان عسليتان تلتمعان ببريق ماكر. لم يكن سعد قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره، ولكنه كان يشعر أنه رجل ولم لا وقد بلغ ونما جسمه واخشوشن صوته، وخط شاربه، فكيف يعلمه هذا الصغير الذي بدا له كفأر مكتوم اللون؟!

Books-sea.com

وفي الليل تأكدت مشاعر سعد تجاه الولد وازداد منه نفورا، إذ كان ثرثارا يتحدث بداع وبلا داع. راح نعيم يسأله عن مالقة وعن أبيه وعن أمه وكيف وصل إلى غرناطة وحده، ولماذا لم يبق معهما، وأين كان يعمل قبل مجيئه إلى أبي جعفر.

كان الولد يسأل بلا كلل وسعد لا يرغب في الإفضاء بشيء، فيجيب إجابات مقتضبة أو مراوغة.

ولما وجد نعيم أن سعدا ليس لديه ما يحكيه انطلق يحكي له عن نفسه. قال إنه لا يعرف، لا يذكر، لا أمه ولا أباه. كل ما يذكره هو تلك العجوز التي كانت ترعاه، ولما ماتت لم يجد سوى الطرقات، ثم التقى بأبي جعفر.

ـ تعرف يا سعد، أنا لا أخاف المشي في الطرقات ليلا ولا الكلاب الضالة ولا متولي الشرطة وهو يسير منتفخا كأنه كيس طحين، حتى العفاريت لا أخافها. يخيفني فقط أن يمرض أبو جعفر أو يصيبه مكروه.

قالها نعيم وقد اكتسى وجهه بمسحة حزن مفاجئ. مرت لحظة صمت ثم واصل حكايته:

ـ حملني أبو جعفر من الطريق إلى أم جعفر وطلب منها أن تحممني. وما أن سكبت على رأسي الماء الساخن حتى صحت بأعلى صوتي وقفزت بعيدا وفي نيتي الهرب من البيت، لكنها قبضت عليّ وقرفصت وأجلستني عنوة وأحاطت صدري بذراعها اليسري، وخصري بساقيها القويتين، فلم أعد أملك سوى الصياح طالبا النجدة. وكلما علا صوتي فركت جسمي بقوة أكبر حتى بدا لي أنني سأموت بين يديها. حممتني النهار بطوله.

ـ النهار بطوله؟!

ضحك نعيم:

ـ هذا ما شعرت به ساعتها!

Books-sea.com

٣

لم يكن المؤذن قد أذّن لصلاة الفجر بعد، ولا ديك الجارة صاح صياحه المتكرر، عندما انطلق حارس من حرّاس الحمراء الذين أنهيت خدماتهم يركض في الطرقات صائحا بكلمات غير مترابطة بعضها مفهوم وبعضها الآخر غامض. كان الصوت الموتور العالي يقول من بين ما يقول إن جنود الروم يدخلون الحمراء اليوم ويتسلمون مفاتيحها.

قام أبو جعفر من نومه وراح يحسب الأيام مرة في عقله ومرة على أصابعه، وجدها سبعة وثلاثين يوما.

ظل جالسا في مكانه. سمع صياح الديك مرة ومرتين وثلاثا، ثم أذّن المؤذن وطلع النهار وتقدّمت ساعاته.

الصوت الذي أيقظ أبا جعفر أيقظ سعدا، فجلس واجما في عتمة الحانوت لا يدري إن كان ما سمعه حلما أم علما، ثم قام وانتعل سباطه وتدثر بملفه الصوفي وخرج إلى الطريق.

مشى يتابع الأزقة الملتوية الهابطة إلى باب الدّقّاق. وعندما اجتازه طالعته التلة الحمراء غائمة في بنفسج السحر والقصور من فوقها ناهضة تحميها أسوارها وأبراجها. لعله كان كابوسا. تقدم إلى قنطرة القاضي وعبر إلى الجهة الأخرى من النهر، ثم عاد وعبر القنطرة ثانية إلى جهة البيازين وحدق في ماء النهر. كان حدرُه يجري في أمان الله، وشجرة التين التي أكل من تينها الأخضر قبل شهور قليلة على حالها واقفة. تعرّت غصونها ولكن الغصون

Books-sea.com

هناك. تطلّع إلى أعلى الطريق، كان مهجورا وما زال. سار باتجاه قنطرة الهرّاسين، وجلس على مصطبة حجرية على ضفة النهر وراح ينتظر. رأى الأفق من وراء القصور يتلون بورد الصباح أرجوانا غائما ممزوجا بزرقة السحر، ثم يشتعل أرجوانا صريحا. كانت الشمس على شروق، ثم أشرقت في سكون مطبق يعززه تغريد عصافير متفرقة. ثم طلع النهار وتحددت الحمراء بكامل هيبتها: الأسوار المسننة التي تستعصي، والأبراج العالية، والقصور المنيفة، وأشجار السرو والنخيل خصيبة وسامقة وممتدة. هدأ وكاد يدير ظهره ويمضي عائدا إلى الحانوت ولكنه سمع صوتا واهنا، أرهف السمع، تأكد. كان صوتا بعيدا ويقترب. بعد فترة ميّز قرع الطبول ونفخ الأبواق ورنين المثلثات. هل يتقدمون لاستلام الحمراء؟ هل يتقدمون من الجهة الشرقية حيث لا يملك رؤيتهم؟ هل صح كلام الرجل؟ ظل متحجرا في مكانه يتابع قرص الشمس. كان صوت الموسيقى يزداد اتضاحا ويعلو، فتتسارع دقات قلبه وتسري في بدنه، رغم البرد القارس، رجفة المحموم.

قرب الضحى رأى سعد جنودا قشتاليين يرفعون صليبا فضيا كبيرا فوق برج الحراسة. وعندما انتهوا من تثبيته رفعوا علم قشتالة وراية القديس ياقُب؛ ثم صاحوا بلغة أعجمية كلاما لم يميز منه سوى اسمي فرديناند وإيزابيلا، ردَّدوه ثلاثا ثم دوّت الطلقات في الفضاء.

لم ينتظر سعد المزيد بل ركض كالممسوس صاعدا تلة البيازين حتى إذا وصل إلى الحي راح يعوي في الشوارع: «دخلوا الحمراء، رأيتهم»، «أخذوا الحمراء، سمعتهم»، «يا أهل البيازين، رأيتهم، سمعتهم».

كانت الطرقات مقفرة، لا بشر، لا دواب، لا طيور، والأبواب مغلقة كأبواب القبور وهو يعوي بينها، ويركض حتى وجد نفسه في الحانوت عاريا من مِلَفّه الصوفي وسبّاطه. انهد جالسا وانخرط في النشيج.

فاجأ سعد نعيما فوقف حائرا لا يدري ماذا يفعل أو يقول، ثم تحرك متعثرا يبحث عن جرة الماء ليفرغ منها شربة لزميله.

Books-sea.com

ـ ماذا حدث يا سعد . . لماذا تبكي هكذا؟!

ولكن سعدا كان يواصل انتحابه، ولم يملك نعيم سوى أن يعود لجرة الماء. ملأ طستا وحمله إلى صاحبه، مسح له وجهه برفق ثم انحنى على قدميه وراح يغسلهما من وحول الطريق وآثار الدماء التي خلفتها الحجارة والأشواك.

قضى أبو جعفر يومه في محل نومه، يجلس ويقوم، يدور بين الجدران الأربعة. هل أخطأ وأخطأ كل أهل البيازين حين ساعدوا أبا عبدالله على التمكن من حكم البلاد؟ ناصروه واشتبكوا مع أهل غرناطة من أجل هذا الزغيبي المنحوس. ساعتها لم يبد الفتى لاشقيا ولا منحوسا بل وعدا يُخلِّصهم من مظالم أبيه الغارق حتى أذنيه في الملذات. انحازوا إلى ابن الحُرّة وأغلقوا أبواب البيازين في وجه الطاغية أبيه فارتد عن الأسوار خائبا مخلوعا. هل أخطئوا في الانحياز ـ وهم المظلومون ـ إلى أمير مظلوم؟ هل أخطئوا حين نَصَّبوا الوعد بأمير عادل؟ وما الذي أصاب الأمير الفتى . . . هل أعطبه الأسر وهزمته الهزيمة، أم أنه المسطور في اللوح المحفوظ؟ وهل يسطر الله في لوحه هزيمة عباده الصالحين؟! تأخرت النجدة . . . تأخرت . . . ولكنها قادمة من أهلنا في مصر والشام والمغرب . . . سيأتون بأمر الله وإرادته . . . وإن لم يأتوا؟!

تطلع أبو جعفر من طاقة في الجدار إلى الفضاء. لا أرض بلا سماء: يا أحكم الحاكمين يا صاحب الزرقاء العالية يا وعد الحق . . يا الله.

مالت شمس الضحى، ثم مالت أكثر في سكون. وأتى المساء وتوغل، واستتب الليل، والناس في بيوتهم واجمون. كما لم يخرجوا في النهار إلى أعمالهم لم يأووا في الليل إلى فراشهم، وبقيت المدينة التي أطبق الصمت عليها في الصباح صامتة في الليل أيضا، ولكن أحدا لم ينم حتى الصغير حسن الذي ضربته أمه ضربا مبرِّحا لم يفهم له سببا.

Books-sea.com

كان حسن قد خرج للعب في الزقاق مع رفاقه، ولما لم يجد أحدا منهم مر على أخوين في بيت مجاور فاستبقته أمهما ليلعب معهما في الدار.

لم تنتبه أم حسن لخروجه ولا لغيابه، ولما انتبهت أصابها الهلع وبحثت عنه في الحواري المجاورة فلم تجده. وما إن دخل الصغير البيت ورأته حتى انهالت عليه بالضرب الشديد. بكى الولد وصاح مستنجدا بجدته التي هرولت إليه وانتزعته من بين يدي أمه وهي تصرخ فيها موبخة.

قضى حسن باقي اليوم منكمشا في ركن من أركان الدار. أعرض عن مشاركة أخته سليمة اللعب، وبقي مقرفصا في مكانه تنحدر الدموع من عينيه، يمسحها بظهر كفه، ويمسح مخاطه في طرف كمه في صمت.

ما الذي أصاب أمه؟ هل فقدت عقلها وأصبحت مجنونة، كذلك الرجل الذي يسكن الزقاق المجاور ويخافونه ويركضون فزعا لمجرد رؤيته؟ لم تضربه أمه أبدا حتى عندما كان يتسبب في كسر جرة أو إضاعة دراهم. ضربته كثيرا وبلا سبب، وعندما انتزعته جدته من بين يديها ظلت أمه تنتحب. كان خائفا منها وخائفا عليها، يبكي لأنها ضربته ويبكي أكثر لأنها تبكي. قالت له جدته وهي تعطيه قطعة من الحلوى وتمسح دموعه: «اليوم دخل القشتاليون غرناطة. خافت أمك، ظنت أنهم سرقوك لبيعك في السوق» ولو سمع حسن هذا الكلام من جدته في وقت آخر لضحك، فهل يباع الصغار كالحمير في الأسواق؟! وهل تظنه حمارا ليصدقها؟!

نادته جدته لإطعامه فلم يُلبّ دعوتها ولا هي كررتها. ولما آوى إلى فراشه بقي مؤرقا يفكر في سلوك أمه الغريب وسلوك جده أبي جعفر أيضا. ضربته أمه وعلا صوته بالبكاء ولطمت هي وجهها وانتحبت، وكان جده في الدار ولكنه لم يحرك ساكنا كأنه لم يسمع. فما الذي جرى لأهله اليوم... ما الذي جرى؟!

Books-sea.com

لم يجد حسن إجابة عن سؤاله لا في تلك الليلة ولا في الليالي التالية. حتى عندما صار عمره سبع سنوات واصطحبه جده إلى فقيه ليعلمه؛ كانت ذكري ذلك اليوم تستحضر له لغزا يستعصي. عرف أنه كان يوما حزينا لكل أهل غرناطة، وأن القشتاليين كانوا قد أخذوا نساء وأطفالا ورجالا أيضا من قرى مجاورة وباعوهم فأصبحوا عبيدا. ولكنه لم يفهم لماذا ضربته أمه بهذه القسوة، ولا استطاع إدراك كيف يبيع رجل رجلا مثله أو طفلا أو امرأة. ثم إنه لم ير في جنود قشتالة ما ينفِّر أو يخيف. كانوا كغيرهم من الرجال لا تميزهم عن أبناء العرب سوى بشرتهم الأكثر توردا وملابس مختلفة تثير إعجابه بستراتها الغريبة وسراويلها الضيقة والقبعات التي كثيرا ما يعلوها ريش ملون. وكان هؤلاء القشتاليون يبدون في أبهى حالاتهم حين يعتلون خيولهم ويمرون في ركب تسبقه البيارق الملونة، وحاملو الطبول ونافخو الأبواق فيصبح الطريق بهيجا كيوم العيد.

فلماذا كل هذا الحزن لدخولهم المدينة؟!

Books-sea.com

٤

لو قُدِّر لأهل غرناطة قراءة الغيب هل كانت تبدو السنوات القليلة التي أعقبت ضياع بلادهم قاعا لا قاع بعده، للمهانة والانكسار؟

عاشوا هَمَّ يومهم لا يُهَوِّن عليهم ما وَرد في المعاهدة من ضمانات تصون حقوقهم في التجارة والعبادة وممارسة حياتهم بالشكل الذي يرتضونه، ولا يخفف من وطأته أن الكونت تانديا حاكمهم الجديد كان يسوسهم برفق، وأن دي تالاڤيرا كبير أساقفة غرناطة كان يجتهد رغم شيخوخته، في التواصل معهم إلى حد تعلم اللغة العربية ومطالبة المبشرين بتعلمها. ولكن زمن الاحتلال هو زمن الاحتلال، وأهل غرناطة شغلتهم هموم عديدة خيَّمت على حياتهم، كذلك الصليب الفضي الكبير المشرف على المدينة من فوق أبراج الحمراء.

كان أمر المعاهدة السرية بين أبي عبدالله محمد الصغير والملكين الكاثوليكيّين قد افتضح وشاع. سلمهم الملك الصغير مفاتيح الحمراء فكافئوه بثلاثين ألف جنيه قشتالي ويصون حقه الأبدي في ملكيّة قصوره وضياعه وممتلكات أهل بيته. «أخذ المنحوس حقوق ملكيته الأبدية ورحل»، عاشوا يومهم تثقلهم مرارة اكتشاف أنهم بيعوا كقطيع أبقار أو غنم.

رأوا الهجرة الجماعية للأشراف وعلية القوم والأغنياء، هرج ومرج، ركض محموم، بيع وشراء، كل شيء يباع، وكل شيء يشترى: بيوت وضياع وجنَّات ومخطوطات ثمينة وسيوف أورثها الأجداد وأجداد الأجداد. «اشتر يا

Books-sea.com

أبا جعفر، فالثمن بخس والشراء مكسب»، وأبو جعفر كبغل حرون لا يريد بيعا أو شراء، غاضب لا يرى في رحيل السفن إلا نعوشا سابحة.

رأوا الأمراء يتنصَّرون. سعد ونصر ولدا السلطان أبي الحسن سميا نفسيهما الدوق فرناندو دي غرانادا والدوق خوان دي غرانادا وزاد سعد على أخيه درجة، فالتحق بجيش قشتالة مقاتلا في صفوفه. «استرح في قبرك يا أبا الحسن... نم قرير العين حتى تهب عليك رياح الجنة... تاجرت ذريتك في تجارة نادرة فأوفت وأبلت بلاء حسنا يا أبا الحسن!».

والوزير يوسف بن كماشة الذي فاوض باسم الأمة، وأعد المعاهدتين العلنية والسرية كلل مسيرته بالتنصر ودخول سلك الرهبنة.

كان أبو جعفر وهو يخطو في عقده السابع يزداد صمتا. صمت كثيف يحجب عن عيون أقرب الناس إليه إعصارا داخليا. لا ينام أو ينام ساعة أو بعض ساعة، ثم يقعد حتى إذا انفصل الخيط الأبيض عن الخيط الأسود، خرج من البيت يمشي في الحي في انتظار فتح أبوابه، وما إن تفتح الأبواب حتى يغادره. يهبط إلى رصيف حدره، ويسير محاذيا النهر يتملى السبيكة وقلاع الحمراء وقصورها والأشجار المزروعة على الضفتين: أشجار السرو والنخيل والصنوبر على سفح التلة في الجهة الأخرى من النهر، وأشجار التين والزيتون والرمان والجوز والكستناء من جهة البيازين. يمر بالأشجار يتفحصها ويحدق في النهر. وعندما يصل إلى الجامع الأعظم يكون النهار طالعا ومستتبا، يدور بعينيه في الساحة منتبها للحركة الدءوبة للباعة والشارين ولألفة الأصوات التي تنادي على بضائعها، ثم يواصل سيره ويشرِّق حتى غرناطة اليهود وباب نجد، ثم يعود أدراجه إلى الأسواق يمر بزنقة العطارين ودرب الفخّارين والزجّاجين والنحّاسين والصيّاغ، ثم يدخل إلى القيصرية ولا يترك زقاقا من أزقتها العديدة إلا ويمشي فيه متأملا الأقطان والأصواف والحرير، المنسوج منه والخام، والرجال المنهمكين في القياس والوزن والبيع والشراء وتسليف العملة

Books-sea.com

وتبديلها، ثم يخرج من القيصرية إلى شارع السقاطين، ومنه مرّة أخرى إلى رحبة المسجد الجامع، يدخله ويتوضأ ويصلي أربع ركعات فرض صلاة الظهر وركعتين سنة، ثم يقفل عائدا إلى حارة الوراقين حيث حانوته.

وفي اليوم التالي يكرر الجولة نفسها أولا يكررها فيبدأ بزيارة ابنه ووالديه في مقبرة سهل بن مالك، يقرأ لهم الفاتحة، ثم يقطع الحي من أقصاه إلى أقصاه ليذهب إلى مقبرة الفخارين؛ ويلتقي بصديق له تحت التراب، يحدثه قليلا.

كان أبو جعفر يتفقد عمائر المدينة، مدارسها وجوامعها وروابطها وزواياها وأرباضها وحدائقها؛ كأنما يتعين عليه أن يرسم تفاصيلها ويحيط. يخرج من بيته ويعود ثم يخرج، لا يتبادل حديثا مع أحد وإن حكمت الضرورة ينطق بكلمات مقتضبة ولا يزيد.

وفي الحانوت لم يكن هناك عمل يذكر وقد شحّت الأرزاق بعد أن هاجر من هاجر، ويبقي من صرفته الهموم وضيق ذات اليد عن الانشغال بغلاف جميل لمخطوطة جديدة.

كانت زوجته تعزو صمته لضائقتهما المالية؛ فتحاول إيجاد مخرج ولكنها كلما فتحت له بابا أغلقه.

- بع بيت عين الدمع.

- إنه لحَسن وهبته لأبيه فورثه عنه.

- والمخطوطات؟

- تبقى لحسن وسليمة. لم يبق لي ما أتركه لهما إلاها.

- بإمكانك التخفف من أجر سعد ونعيم.

- لا أهل لهما فهل ألقي بهما إلى الطريق!

- لا داعي إذن لدروس الصغيرين.

Books-sea.com

- سليمة تحب الدراسة وحسن يحتاجها.

أبو جعفر يسلك كأنما الحال مستورة والزمان هو الزمان.

- من أين يا أبا جعفر وكيف؟

- لم يبق لي في الدنيا إلا القليل، دعيني أفعل ما أريد!

ولكن الهموم التي تأكل قلوب الكبار وتسارع بخطواتهم إلى القبر لا تقدر على الصغار وهم يشبّون عن الطوق فتحملهم سيقانهم وتعلو، تنبض قلوبهم في حضرة الصبايا وكحل العيون والنهود المستوردة كأنما تقصد مكايدة خيالاتهم التي تزداد اتقادا.

كان سعد ونعيم يضحكان وهما يسترجعان الأيام الأولى لتعارفهما. يقول سعد: «قلت صبي مغرور في حجم الفأر، مكتوم اللون مثله» فيجيبه نعيم «وأنا قلت ابتلانى أبو جعفر برفيق ثقيل الظل، نكد!».

لم يعودا مجرد زميلين قضت ظروفهما بالبيات معا في الحانوت الذي يعملان فيه بل صاحبين يألف كل منهما تاريخ الآخر وكأنما هو تاريخه الشخصي، لا يفترقان فيقول أهل حارة الوراقين «سعد ونعيم مؤخرتان في لباس واحد» كانا دائما معا يشاهدهم الناس في رواحهما وغدوهما في ملابس متشابهة يتبادلانها أحيانا رغم أن ملابس سعد كانت تبدو فضفاضة بعض الشيء على نعيم وملابس نعيم ضيقة قليلا على سعد.

كان سعد يكبر نعيم بعام واحد، له وجه أسمر منحوت يشي بشيء من تجهم أو صرامة، نما شاربه فأخفى الكبر النسبي للأنف وغلظة الشفتين. أما العينان الكحلاوان اللتان كانتا تستوقفان الناظر في سنوات سابقة فقد بدتا أقل اتساعا بعد بروز عظمتي الحاجبين وإن بقي ذلك الشيء المميز للوجه كله: عمق سواد العينين ونظرة عتب حزينة تنفي ماتشي به الملامح من صرامة. كان سعد متوسط الطول مربوعا وعريض المنكبين، أما نعيم فكان أنحف من صاحبه وله

Books-sea.com

الطول نفسه تقريبا. لون بشرته يضرب إلى صفرة، وملامح وجهه أدق، وشعره كستنائيّ أملس، يعلو شفتيه زغب أشقر خفيف يتحرق لرؤيته ينمو. لكنه لا ينمو، وكانت ملامحه الدقيقة وعيناه العسليتان الملتمعتان ذكاء تضفيان على الوجه عذوبة وملاحة.

كان نعيم وهو في الرابعة عشرة من عمره يبدو طفلا. وكان رغم ذلك، غارقا في الحب حتى أذنيه، يعيش حالة من الوله المتجدد المستمر. يرى صبية يفتنه جمالها فتتسارع دقات قلبه، ويشتعل وجهه فيتبعها كالممسوس، يسأل عن اسمها وأهلها وعنوان دارها. تحمله قدماه كل يوم إلى حيِّها لعله يراها. يردد اسمها ويكتبه في حجاب صغير يتحرز به أسبوعين، ثلاثة، وربما أربعة، ثم تظهر حبيبة جديدة تحل محل القديمة في قلبه وفي الحجاب.

يضحك سعد متندِّرا على نعيم الذي يغضب من صاحبه ويخاصمه نهارا أو بعض نهار. وفي الليل عندما يغلقان باب الحانوت يتحرق نعيم لإنهاء الخصام فيبادئ سعدا بالحديث:

ـ لقد أسأت إلي...

ـ آسف، لم أقصد إلا مداعبتك.

تتكرر الافتتاحية بينهما إلى حد أنها أصبحت تضحكهما وهما يرددانها كطقس أليف وطريف يؤذن بانطلاق الحديث المحجوز الذي يتدفق بقوة وصخب.

* * *

كان على سليمة أن تقنع جدها بالسماح لها هي وأخيها أن يذهبا. قال أبو جعفر:

ـ إنه موكب كباقي المواكب، لا أرى داعيًا للذهاب!

Books-sea.com

- أرجوك يا جدي، أرجوك، دعنا نذهب.

- لا داعي!

ولكن سليمة عادت تلح في اليوم التالي وناصرتها جدتها التي قالت إنها لا ترى ما الذي يمنع ذهابهم «ما دام ذلك يفرحهم ويسري عنهم»، ثم انتحت بأبي جعفر جانبا وهمست:

- يا أبا جعفر، الصغار صغار، الحداد لا يليق بهم ولا صبر لهم عليه، دعهم يذهبون لأجل خاطري.

حين تنشغل سليمة بأمر ما تنهمك فيه انهماكا كاملا، فلا يقوى أي من أهل الدار ولا كلهم مجتمعين على زحزحتها بعيدا عنه. وحين ترغب في شيء تظل تطلبه وتلح، ولا تكل ولا تَمَلّ ولا تهدأ ولا تترك أحدا يهدأ إلا عندما تحصل عليه. تقول أمها «في سليمة من البعوض صفتان: الزن وعدم المنفعة!»، فتضحك أم جعفر وتقول «إنها كالملكة بلقيس تريد أن تأمر فتطاع ولا يملك أحد أن يأمرها بشيء!» وكانت أم جعفر كثيرا ما تشير لها مداعبة باسم بلقيس بدلا من سليمة وكانت رغم كلامها المازح، قلقة على حفيدتها التي لا تعرف حتى كيف تقلي بيضة ومن في سنها من بنات الجيران يعاوّن أمهاتهن في شتى الأعمال المنزلية. وأخوها الذي يصغرها بعامين يفوقها دربة ونشاطا، يرسلونه إلى فرن الحي فيحمل على رأسه السمك أو الفطير المطلوب خبزه، وينتظر ويحاسب الفرّان، ويعود إلى الدار بالمخبوز من الطعام.

ولم يكن أبو جعفر قلقا مما يُقلق زوجته وزوجة ابنه، إذ كان يعرف أن كسل البنت يعوّضه نشاط من نوع آخر. كان عقلها نشطا كطاحونة لا تكف عن الدوران، تراقب وتتأمل وتسأل وتنهمك. وكانت وهي بعد لم تبلغ التاسعة من عمرها، قد أتمت ثلث القرآن حفظا، وتقرأ بسهولة ويسر وتكتب بخط واضح وسليم، يطري عليها أستاذها لسرعة فهمها واستيعابها ما يشرحه لها من قواعد النحو.

Books-sea.com

يرق قلب أبو جعفر وهو يتطلع إلى حفيدته فيرى أنها وإن أخذت عنه زرقة العينين، فقد أخذت عن أبيها تلك النظرة المتوقدة بحضور متألق وذكاء وحيوية. كانت البنت في تلك الأيام منشغلة انشغالا شديدا بما يتردد عن اكتشاف عالم جديد. سألته.

- لماذا جديد؟

- لأنه اكتشف حديثا. . . لم نكن نعرف أنه موجود من قبل.

- لكن يا جدي هذا لا يجعله جديدا! عندما سمعت العبارة لأول مرة تخيَّلت أنه عالم خلقه الله مؤخرا، وتصورت أن أشجاره شجيرات صغيرة، وأن كل المخلوقات فيه صغيرة حديثة الولادة.

ضحكت من نفسها وقالت:

- كنت بلهاء!

سمح أبو جعفر لسليمة وحسن بالذهاب لمشاهدة الموكب واشترط أن يرافقهما سعد ونعيم. وقال لحسن:

- احرص على أختك فقد يكون هناك شباب قشتاليون يتطاولون على بنات الناس، انتبه وأبقِ يدها في يدك ولا تغفل عنها لحظة.

بعد يومين توجه الأربعة، حسن وسليمة وسعد ونعيم، إلى المكان المعلوم. ورغم نسمة باردة إلا أن السماء كانت صحوا وأشعة الشمس تضفي على النهار دفئا محببا في صباح ربيعي. وكان الأربعة يتحدثون ويضحكون في صخب مستثار بالرحلة التي انتزعوها انتزاعا؛ وبالموكب العجيب الذي يتوقعون مشاهدته.

وكلما اقتربوا من المكان زاد الزحام حتى إذا ما وصلوا وجدوا الطريق مكتظة بالبشر، وكذا شرفات البيوت والنوافذ والأسطح المطلة على الجانبين.

Books-sea.com

كان الناس يتحدثون ويضحكون ويتصايحون، أو يشترون لصغارهم من الباعة المتجولين لوزا أخضر وتينا مجففا وفطائر محلاة بالعسل.

ثم هدأ الناس، وسكتت الأصوات، واشرأبت الأعناق، وتثبتت العيون على أعلى الطريق. ميَّزوا قرع الطبول ونفخ الأبواق ورنين المثلثات والأجراس وهي تقترب وتتعالى فيزداد صمت الناس وتتسع عيونهم كأنما بإمكانهم أن يروا أكثر. ثم ظهر حاملو البيارق الملونة ومن خلفهم العازفون بملابسهم القشتالية، السراويل الضيقة المقطوعة على حجم الجسد والسترات المزينة والقبعات.

هتف رجل بالقشتالية:

- إنه هو . . . هذا هو . . . انظروا!

كان يشير إلى فارس يتقدم معتليا حصانا أبيض مطهما، يطأ الأرض بخفة متهاديا كأنما يتيه بحسنه.

- يعيش كريستوبال كولون . . . يعيش كريستوبال كولون!

رفع الرجل الملتحي قلنسوته السوداء وحيا الناس بها وابتسم ابتسامة عريضة معتدة كأنه ملك على الملوك.

قالت سليمة بحماس متقد:

- يقولون إن الأرض التي اكتشفها كلها ذهب وفضة، إنه في طريقه الآن إلى برشلونة لإعطاء الملكين ما وجده من الكنوز.

قال حسن:

- ولم لا يأخذ الكنوز لنفسه؟!

قالت سليمة.

- لا يملك!

Books-sea.com

سألها سعد.

ـ لماذا؟

أجابته:

ـ لقد دفع الملكان المال اللازم للرحلة.. كأنهما استأجراه للقيام بها، انظر يا سعد.. انظر!

بعد مرور الفرسان الذين يتبعون الأدميرال ظهر في الموكب رجال يحملون أقفاصا كبيرة بها طيور مدهشة الألوان، بعضها صغير كالعصافير، وبعضها متوسط الحجم كالببغاوات، وبعضها كبير كالأوز، منها ما له مناقير كبيرة لم تشهد العين لها مثيلا، وأعراف دقيقة كالتيجان. ومن بعدهم مر رجال يحملون صناديق زجاجية بها مخلوقات غريبة: عناكب ضخمة، وحيات عملاقة، وزواحف هائلة يفزع الإنسان من مجرد النظر إليها. كان الناس يتابعون الموكب مبهوري الأنفاس موزعين بين التوقد والخوف من ذلك العالم الجديد المجهول الذي اكتشفه الفارس.

بعدها، وكأنما أراد منظمو الموكب أن يلتقط الناس أنفاسهم، مر حاملو النباتات، فامتلأت الطريق بسعف نخيل ليس بنخيل، وأفرع أشجار لا يعرف المرء نوعها، وثمار غريبة منها الملتحف بغطاء بنيّ كالصوف، ومنها المغطى بقشور كأنه قُدّ من جذع نخلة. ثم تقدم فرسان آخرون يحملون كمن سبقهم علبا من زجاج مغلقة على المعروض فيها، يلتمع التماعا في ضوء الشمس، يخطف الأبصار. صاحت امرأة: «إنه الذهب!» «الذهب» ترددت الصيحة ثم انعقدت الألسنة وتسارعت دقات القلوب واتسعت العيون تُحَدِّق في العلب التي تحمل تبرا «رمالاً من الذهب»، أو قطعا كاملة من الذهب الخالص. سبائك كبيرة لم يسمع الناس إن في الأرض لها مثيلا.. هتفت امرأة:

ـ يعيش كريستوبال كولون!

Books-sea.com

تردد الهتاف أكثر خفوتا هذه المرة وكأنما الدهشة والانبهار سحبتا ما في الأبدان من قوة.

هتفت سليمة

- ليس عالما جديدا، إنه عالم مختلف، هذا هو كل ما في الأمر!

ولم تكن المدهشات قد انتهت بعد إذ ظهر في نهاية الموكب الأسرى. وسرى الهمس بين الصفوف:

- أهل البلاد.. إنهم أهل البلاد... سكان العالم الجديد!

كانوا يمشون بخطى وئيدة وأيديهم مقيدة خلف ظهورهم يحيط بهم الحراس من الجانبين. كانت لهم ملامح دقيقة وأجساد نحيلة لا تخلو من هشاشة، والرجال كالنساء تنسدل شعورهم، سوداء ملساء طويلة، تغطي أكتافهم. ورغم الملابس القشتالية التي كانوا يرتدونها إلا أن اختلافهم كان واضحا وبيّنا بسبب ملامحهم أو نظرة عيونهم أو الريش الملون المنغرس في عصبات تحيط برءوسهم. وكانت هيئتهم على غرابتها لا تثير النفور، بل على العكس تماما من ذلك، ربما لملاحة الوجوه ورشاقة القدود وربما لسبب آخر. ولكن بعض القشتاليين كانوا يضحكون. التفتت سليمة إلى سعد:

- ما الذي يضحكهم؟!

- لا أدري!

كانت الضحكات قد فاجأت سعدا أيضا وأربكته ثم استفزّته.

صاح نعيم:

- سعد، هل ترى هذه الصبية؟

- أية صبية؟

Books-sea.com

ـ الأسيرة التي ترتدي ثوبا أبيض.

أشار نعيم بيده إلى فتاة ممشوقة كالعود كانت تعثرت وسقطت على الأرض، وحاول أحد الحراس إعانتها على النهوض فدفعته بكتفها وتحاملت وقامت وحدها رغم يديها المقيدتين وواصلت المشي.

ـ ترى ما اسمها؟

ـ ومن يدريني!

ـ ليتني أعرف اسمها!

مر الموكب مجللا بنقر الدفوف ودق الطبول والمزامير، تتداخل تلاوين أصواتها مع رنين المثلثات المعدنية وصخب الناس وضحكاتهم. ولم يعرف الصغار الأربعة أين ذهبت البهجة التي كانت تتقافز في قلوبهم، بل الحق أنهم لم ينتبهوا إلى ذهابها وحلول مسحة حزن على الموكب وعيونهم. كانوا يراقبون في صمت الأيدي المقيدة خلف الظهور، والخطى الوئيدة والرءوس المطرقة والنظرة المفاجئة التي تطالعك حين يرفع الواحد منهم عينيه إليك فيحدق فيك كما تحدق فيه.

قالت سليمة:

ـ لم لا نرجع إلى البيت؟

ـ نرجع.. أين ذهب نعيم؟

وقفوا ينتظرون عودته وطال انتظارهم وراحوا يضربون أخماسا بأسداس. وأراد سعد أن يذهب للبحث عنه وقيّده وعده لأبي جعفر بأنه لن يترك حسن وسليمة وحدهما «ولا لطرفة عين!» وانتظروا أكثر ثم حسم سعد أمره:

ـ نعود إلى البيازين، وقد يكون نعيم سبقنا إلى هناك.

لم يقل إنه ينوي إعادتهما ثم الرجوع إلى المكان للبحث عن صاحبه.

Books-sea.com

في رحلة العودة كان حسن وسليمة يؤكدان أن نعيما عاد إلى المدينة فيقول لهما سعد إن ذلك بالضبط هو ما حدث؛ ولكنه لم يكن يصدق ما يقوله لهما، يثقل قلبه القلق.

ساروا بصمت في طرق جبلية غربت شمسها فغامت الألوان على التلال لتخبو وتسلم نفسها لليل الوشيك. وكان سعد يحدق في موكب الأسرى الذي ذهب. ترى هل حاصروهم من البر والبحر كما حاصروا مالقة؟ هل جوعوهم حتى أكل من جرؤ منهم لحم حصانه؟ هل قصفوا بيوتهم واقتحموها عليهم واقتادوهم أسرى؟

مطلع الصيف: الجو أكثر دفئا بعد أمطار غزيرة حمّلت المكان برائحة العشب المبلل. يقول الكبار سقطت بلّش مالقة والقشتاليون قادمون.

يقول الكبار: وصلوا وأقاموا معسكرهم خارج أسوار المدينة، وحفروا الخنادق، وأنشئوا أبراجا وجسورا خشبية، ونصبوا المدافع اللمباردية. وصل الملك فرديناند. . . وصلت الملكة من قرطبة. يقول أبوه إن حامدا الثغري الذي قاد دفاعا مستميتا عن رونده قد طُلب منه بعد سقوطها أن يقود الحامية الموجودة في قلعة جبل الفارو المشرفة على مالقة. يقول أبوه: نزل الثغري من القلعة مع قواته ونحى حاكم مالقة الذي كان يريد تسليمها ونظم الدفاع عن المدينة. الكبار لا يتحدثون إلا عن ذلك، يسمعون كلامهم فيفهمون بعضه ولا يفهمون بعضه الآخر. في الحالتين يعيدون ما يسمعونه لعبا وتشخيصا.

متعة الركض في الحارات وبحث الواحد منهم عن رفاقه المختفين خلف الأشجار وسرقة الحُصرم من كروم لا يملكونها، كلها توارت أمام المتعة الجديدة. يوزعون الأدوار ويختلفون ويتعاركون. كلهم يريد أن يكون الثغري أو على الأقل مقاتلا من مقاتليه، ثم يقبل في نهاية الأمر أن يقوم بدور فرديناند أو دور رجل من رجال حاشيته وفرسانه. لا شيء ينقصهم، وفي البيوت والطرقات وفرة: إناء فخاريّ يحضره أحدهم سرا من داره هو تاج فرديناند

Books-sea.com

يقلبه على رأسه ويشد قامته فيصير الملك، وفروع الأشجار سيوف جاهزة، والحصى الصغير دنانير الذهب، والحصى الأكبر الجواهر النادرة، وجلباب قديم يلفه صاحبه على رأسه يصير عمامة مهيبة تجعله تاجرا من كبار التجار.

الملك فرديناند تعلو رأسه الآنية الفخارية المقلوبة ينادي على ثلاثة من فرسانه ويطلب منهم التوجه إلى مالقة: «قولوا لهم أن يسلموا المدينة» ينحني الفرسان ويقبلون يده الصغيرة ثم يستديرون لينقلوا رسالتهم إلى الجانب الآخر «الملك فرديناند يطلب منكم التسليم» تقترب الرءوس المعممة، تتشاور. يقول التجار: نُسلم وإلا هلكنا. يقول الباقون: لا نُسلم. على درويش قائد المدينة أن يحسم الأمر: سنُسلم.

يظهر الثغري ممتطيا جواده الوهمي، يرفع سيفه في وجه درويش فيسقط على الأرض قتيلا ويهرب الآخرون. ويقول الثغري وغصن الشجرة مشروع في يده: «قل للملك إن سيدي الزغل لم يوكل لنا قيادة القلعة لنسلمها، سندافع عن مدينتنا». يقول مندوب الملك: «ولكن الملك أرسل لك هذه الهدية» يمد يده بالحصى الصغير والكبير «وسيعطيك إن سلمت له المدينة قصرا ومالا أكثر». يعيد الثغري الحصى لمندوب الملك وهو يقول في اعتداد: «لا أريد منكم شيئا».

ثم تشتعل الحرب، ويشاركون جميعا في النزال بسيوفهم الخشبية، وتتسع الساحة لتشمل كرم العنب كله فيتفرقون في أنحائه كل اثنين يتبارزان حتى يهدهم التعب.

لعبتهم اليومية في الأسابيع الأولى للحصار قبل أن يشح الزاد ويتساقط الناس من شدة الجوع وتقعدهم بطونهم الخالية عن كل ركض ولعب. حتى الحُصرم الذي كانوا شغوفين بسرقته يستطيبون لذعته الحادة كرهوه وحموضته تلسع جوفهم وتحرقه حرقًا.

Books-sea.com

يرفض أبوه أن يذبح حصانه، تبكي أمه: سيموت الصغار جوعا . . . ويصيح هو كاذبا: من قال إنني جائع . . . أقسم بالله العظيم أنني لست جائعا . . . ويبكي جوعا وخوفا على الحصان.

أبوه لم يذبح حصانه، أمه تقطف أوراق العنب وتغليها في الماء وتطعمهم. تدق سعف النخيل حتى يصبح دقيقا كالطحين وتعجنه بالماء وتسويه . . فيؤكل.

لم يحجب خفوت ضوء الغسق عن سليمة وجه سعد . . . لم تفهم اختلاجته ولا اجتماع الصفاء والكدر على صفحته المرتعشة بحزن عميق أحسته وإن لم تحط به. ولما رأت تلك الدمعة التي انحدرت من طرف العين خلسة مدت يدها إلى يده وأمسكت بها.

أوصل سعد حسن وسليمة إلى بيت أبي جعفر ثم اتجه إلى الحانوت. سأنتظره بعض الوقت، فإن لم يظهر أرجع إلى مكان العرض لأبحث عنه. لمح ضوء القنديل يتسرب من تحت باب الحانوت فعرف أن نعيما قد عاد.

ـ ماذا حدث، أين كنت؟

تلعثم نعيم وبدا مضطربا ثم قال على استحياء:

ـ مشيت مع الموكب.

ـ ولماذا تمشي مع الموكب . . . ولماذا تذهب دون أن تخبرنا؟!

قالها سعد بصوت عال محتد. وكان يعرف أنه سوف ينفجر في نعيم موبخا إن لم يجد لديه تفسيرا مقبولا لسلوكه.

ـ ماذا حدث؟!

ـ اهدأ يا سعد . . . اهدأ . . . لن أستطيع أن أجيبك إلا لو هدأت، فأنا أيضا مضطرب وحزين ولا أدري ماذا أفعل.

Books-sea.com

- ماذا حدث؟

قام نعيم وأعد لقمة للعشاء. أكلا في صمت وعندما انتهيا قال:

- لقد وقعت في حب الصبية.

- أية صبية؟

- الصبية التي كانت في الموكب، ذات الرداء الأبيض.

- ثم؟!

- أخذت قلبي يا سعد... وارتعت فأنا لا أعرف حتى اسمها. ركضت خلف الموكب، وحاولت الوصول إليها فأخذت أحدث أصواتا لكي تنتبه. تطلعت إليّ وخلت شيئا كأنه القبول على وجهها ولكن الحراس دفعوني بعيدا... سقطت على الأرض. وكانت تتطلع فابتسمت ثم نقلها الحراس إلى الجانب الآخر من الموكب حتى لا أراها. مشيت بمحاذاة الموكب لعلّي أراها مرة أخرى ولكني لم أرها... ماذا أفعل الآن يا سعد؟

- اطفئ القنديل ونم!

* * *

جاءت سليمة إلى الحانوت تسأل عن أبي جعفر ولم يكن موجودا، «عندما يأتي جدي قل له إن جدتي...» لم يسمع سعد باقي كلامها. لحظة خاطفة أسرع من ومض البرق في السماء. غض الطرف لأنه لم يقدر على مواصلة التطلع إلى الوجه الذي رآه ألف مرة ولم يره أبدا إلا عندما سقطت الغشاوة عن عينيه فرأى، ولما رأى تزعرعت أحشاؤه وغض الطرف.

لم ينم سعد الليل بطوله، بقي مؤرقا يتقلب في فراشه كالمحموم، وفي الأيام التالية انقطع عن الذهاب إلى بيت أبي جعفر، يطلب من نعيم الذهاب، لو اقتضت الضرورة، متعللا بعذر أو سواه. وكلما أراد أن يُسرَّ لنعيم بحبه تلجّم لسانه، وكلما حاول أن يغالب ما في قلبه ازداد ما في قلبه اتقادا.

Books-sea.com

بعد شهرين حكى لنعيم. تراقص نعيم طربا لكلمة «أحب» التي نطق سعد بها، لكن باقي العبارة «سليمة حفيدة أبي جعفر» وأدت الرقصة في بدنه وتركته واجما. غلبه الصمت لحظات... ثم قال «حبها بعض الوقت ثم حب سواها!»، كان ما يدور في رأس نعيم مطابقا لما يشغل سعد. ما الذي يقوله أبو جعفر لو علم؟ هل يقول ائتمنت سعدا على أهل بيتي فخان الأمانة. وهل لو طلب سعد الزواج من حفيدته يقبل؟ ألا يقول إنه فقير وبلا أهل ويريد الزواج من حفيدته طمعا في مالها ومكانته؟ عاد نعيم يقول:

ـ حبها أسبوعا أسبوعين ثم تحول إلى غيرها. قلقت عليك يا أخي، وقلت أغلق سعد قلبه في وجه النساء... الحمد لله انحلت عقدتك!

توقف نعيم لحظات ثم سأل:

ـ كيف تحبها يا سعد؟

ـ لا أفهم؟

ـ أخي أريد أن أطمئن عليك... أريد أن أقارن بين طريقة حبك للنساء وطريقة حبي... قل لي بتفصيل التفصيل كيف تحبها!

كان حسن وسليمة يلقيان المعتاد من التدليل في بيت الأجداد، ويلقيان المزيد منه لأنهما ولدا الغالي الذي اختطفه الموت قبل الأوان. ولم يكن أبو جعفر يأتي للصغيرين بكل ما يطلبانه فقط، بل كان أيضا يعلق عليهما الآمال العريضة. جاء لسليمة بمن يعلمها القراءة والكتابة في الدار، وعندما أتم حسن السابعة من عمره اصطحبه لفقيه ذي مكانة ليلحقه بحلقة درسه. وكان يقول لحسن: «سقطت غرناطة يا حسن ولكن من يدري قد تعود على يديك بسيفك، أو قد تكتب حكايتها وتسجل أعلامها. لا أريد ورّاقا مثلي يا ولد، بل كاتبا عظيما كابن الخطيب يسجلون اسمك مع غرناطة في كل كتاب».

كانت سليمة في التاسعة من عمرها في اليوم الذي تطلع فيها سعد وغض

Books-sea.com

الطرف. لا حظت وانتبهت وأربكها مالاحظته، لأن وجود سعد كان أليفا ومعتادا كوجود حسن ونعيم وجدّها والمعلم الذي يدرسها. أما نظرته وإحساسها فكانا غريبين جديدين لم تعرف كيف تتعامل معهما. شغلها الأمر يوما ويومين وثلاثة، ثم تشاغلت عنه وتناسته حتى نسيته. ولم تكن سليمة منتبهة لأنوثتها كالعديدات من قريناتها اللائي يعدهن أهلهن في تلك السن للزواج. وكان أبو جعفر، رغم أنه لم يشر لأحد بذلك قط، يتمنى في قرارة نفسه أن تكون سليمة كعائشة بنت أحمد، زينة نساء قرطبة ورجالها أيضا، فاقتهم في فهمها وعلمها وأدبها... لم ينشغل بأمر زواجها ولا شغلها به. كذلك أمها فعلت الشيء نفسه لأسباب أخرى تخصها، كان تعلقها الشديد بابنتها يجعلها تجفل لمجرد التفكير في انفصالها عنها للإقامة بعيدا مع رجل غريب في بيت غريب.

كان بعض معارف أبي جعفر وأصدقائه ينبهونه إلى أن ما يتكلفه من نفقات تعليم حفيديه تبديد لا طائل من ورائه. «لم يعد هذا زمان العلماء والفقهاء يا أبا جعفر ولا حتى زمان النسّاخين. اللغة القشتالية قادمة لا محالة والعربية لم تعد بضاعة رابحة». كان أبو جعفر يسمع ما يقولونه ولا يعلق؛ ولكنه لم يفكر ولا للحظة واحدة في التخلي عن تعليم الصغيرين ليس فقط لأنه كان عنيدا في تحقيق رغباته، ولكن أيضا لقناعته بأن التراجع عن تعليم حفيديه تسليم بهزيمة قد يقدر الله ألا تقع في نهاية المطاف. لم تكن أحلامه قد تخلت عنه فكيف يتخلى هو عنها؟! وكان يحلو له أن يتخيل أن كل ما هو كائن ليس سوى كابوس عابر، لأن الله لا يمكن أن يترك عباده وينساهم كأنهم لم يعبدوه ويعمروا بيته وقلوبهم بحبه وذكره... ويرى أياما قادمة ينسحب فيها القشتاليون إلى الشمال ويتركون غرناطة تعيش بسلام في ظل الحرف العربيّ وصوت المؤذن. كان يعرف أن العمر لن يمتد لتشهد عيناه ذلك... يقول لنفسه إن روحه سوف تشهدها وهي تحلق في سماء المدينة، يمامة بيضاء تنساب مرفرفة من أبراج الحمراء إلى مئذنة المسجد الجامع، تحط في باحته لتلتقط فتات

Books-sea.com

خبز يلقيه لها الدارسون الصغار، تطير وتحلق وتسلك وتحط في نهاية اليوم على نافذة بيت في البيازين كان بيته وأصبح بيت حسن الغرناطيّ الكاتب ساهرا يغمس ريشته في دواته ويكتب.

وكان الصغيران يغذيان الحلم بتفوقهما، فسليمة تحفظ من الأشعار مالا يحفظه رجال طالت لحاهم، وحسن يرسم الخط رسما وتستقيم سطوره كأنما هي إفريز بديع من أفاريز المساجد، والصفحة تخرج من بين يديه متعة للناظرين، ومعلمو الصغيرين يستبشرون بذكائهما خيرا، فيغدق أبو جعفر في مكافأتهم حتى وإن اقتطع من ثمن ملف أو مركوب يتوجب شراؤه عوضا عن المرقوع البالي.

Books-sea.com

٥

وصل الرجل إلى غرناطة في يوليو ١٤٩٩. حرب أو لا حرب، احتلال أو فرح، التلال في الصيف تقيم أعراسها، تنتشر على الملأ أخضرها العميم تدغدغه زهور البرّ بعطورها وألوانها؛ وبينها شقائق النعمان تفوقها بهاءً وفُجرا بأحمرها الكيّاد. صيف غرناطة عروق زيتون تحمل، ومشمس مغْناج يلوح ويخفى بين خضرة الأوراق، ورمان كتوم يجمّع حلاوته على مَهل قبل أن ينفرط بين أيدي آكليه، وتعريشات دوال، وأشجار جوز ولوز وكستناء تظلل الطرقات، وماء دافق ينحدر من قمم الجبال مقبلا على الوديان ضاحكا ومكركرا.

ولكن الرجل نزل المدينة في الصيف. رأسه حليق إلا من طوق من الشعر يحيط بالقبة الجلدية اللامعة. وجهه صارم يضرب إلى صفرة ممتقعة، جبهته عريضة وعيناه صغيرتان تتطلعان في نفاذ محقِّق. له أنف أقنى وشفتان دقيقتان مزمومتان زادت العليا على السفلى امتلاء. جسده نحيل مشدود ويبدو حين ينشر ذراعيه في ثوبه الأسود الفضفاض، كوطواط بشريّ هائل.

من هو الرجل ومن أين أتى؟ لم يتقن الناس نطق اسمه إلا بعد حين: فرانسيسكو خيمنيث دى سيسنيرو. كان أسقف طليلطة وإن أتى إليهم، هكذا قيل، من مدينة القلعة حيث كان يؤسس جامعة. إذن فهو عالم فقيه، فقيه قشتالي جاء للقاء فقهاء العرب، اتصل بهم وتودد إليهم وأغدق عليهم عطاياه.

نادي المنادي في الناس أنه سيفرج عن حامد الثغري، فمن أراد من الأهالي

Books-sea.com

رؤية الرجل رأي العين والتأكد ليتوجه في اليوم التالي إلى كنيسة سان سلفادور، لأن الدخول مشاع والفرجة للجميع.

قال أبو منصور مستنكرا:

- وهل ندخل إلى باحة مسجد حولوه إلى كنيسة؟!

قال سعد:

- المكان لنا حتى وإن غيروا اسمه. ثم إننا لا نذهب من أجلهم بل من أجل رجل يخصنا. نحن جاهته وعزوته فهل يصح أن يخرج الثغري من أسره الطويل وحيدا عاريا من أهله؟! سنخرج به من ساحة المسجد محمولا على الأعناق كما يليق به وبنا.

بقي أبو جعفر صامتا.

في اليوم التالي اتجه ثلاثتهم إلى مسجد البيازين الذي أصبح اسمه كنيسة سان سلفادور. وكان حشد كبير من أولاد العرب قد توافد على المكان. بعضهم من أهل مالقة الذين قدر لهم الوصول إلى غرناطة، رجال ونساء عرفوا الثغري وتعلقت روحهم بالكلمة التي يقولها والقرار الذي يتخذه، وبعضهم الآخر من أهل غرناطة والقرى المجاورة الذين تابعوا بطولات حامد الثغري وابتنوا له في قلوبهم بيتا صغيرا دافئا؛ يجاور ذلك البيت الآخر الكبير الذي سكنه علي وعمّره ببطولاته وعدله.

توافد الناس على باحة المسجد وتربعوا في صفوف متراصة يتطلعون وينتظرون. ثم ظهر الكاردينال خيمينيث في ثوبه الأسود الضافي، واتجه بخطوات مشدودة وئيدة إلى الرواق الشرقي حيث وُضع مقعد كبير فخم جلس عليه. تطلع إليهم وتطلعوا إليه ثم صفق بيديه فدخل حراس أربعة يحيطون برجل شديد النحول يرتدي ملابس رثة. كان مقيد اليدين والقدمين مطأطئ الرأس متعثر الخطى.

Books-sea.com

تهامس الناس:

ـ هل هذا حامد الثغري... هل يعقل أن يكون حامد الثغري... ليس حامداً!!

ـ إنه هو!

قالها رجل من مالقة حارب معه. وتناقل الناس العبارة بين الصفوف «أبو علي المالقي تعرّف عليه»، «هل تعرّف عليه؟»، «من تعرّف عليه؟» «أبو علي المالقي».

أشار الكاردينال بيديه الكبيرتين وأصابعه الدقيقة إلى الحراس ففكوا قيود الرجل. قال الكاردينال:

ـ الآن يا حامد قل للناس ما رأيت...

نظر حامد إلى الحشد، ثم أطرق، ثم عاد ينظر نظرة زائغة مضطربة.

كتم الناس أنفاسهم. قال حامد:

ـ بالأمس...

قال أحد الحراس:

ـ ارفع صوتك.

تنحنح حامد وشد قامته بعض الشيء ورفع صوته:

ـ بالأمس، وكنت في سجني، رحت في النوم و....

تلعثم، سعل، ثم واصل:

ـ وأنا نائم بالأمس جاءني هاتف قال لي يا حامد يريد لك الله..

توقف ومرت لحظات من الوجوم بدا فيها أن الرجل لم يعد لديه ما يقوله. أغمض عينيه. قال:

Books-sea.com

- يريد لك أن تتنصَّر، وهذه إرادة الله ومشيئته.

ساد صمت مطبق حتى بدا المكان المكتظ بمئات البشر مهجورا. اقتاد الحراس الثغري بعيدا. وجفل الناس حين صدحت موسيقى الأرغن في لحن كنائسي تردد في أرجاء باحة المسجد.

قال سعد:

- بنا يا أبا جعفر، بنا يا أبا منصور، لنعد إلى البيت.

التفت إلى أبى جعفر فراعته دموع تنسال غزيرة من عينيه كأنه ولد صغير. كرر سعد وهو يحيط كتف أبي جعفر بذراعيه:

- قم بنا يا جدي.

ولكن أبا جعفر أومأ برأسه إيماءة خفيفة وأشار بيده لسعد الذي فهم أنه يريد البقاء.

دخل الحراس مرة أخرى ومعهم حامد الثغري وقد فكوا قيوده. كانوا قد غسلوا وجهه وصففوا له شعره وألبسوه ثوبا من الحرير. مشى الثغري باتجاه مقعد الكاردينال بخطى ثقيلة غير متزنة وكأنه مازال مقيدا. ركع عند قدمي خيمنيث الذي تناول كأس التعميد من يد أحد معاونيه. غمس أطراف أصابعه في الكأس ونثر شيئا من مائه على رأس حامد وهو يتمتم بكلماته المقدسة. اختار حامد الثغري لنفسه اسم جونزاليز فرنانديز زِغْرى.

لم يكن الناس قد أفاقوا من وقع المشهد ولا جرؤ أحد منهم بعد على استحضار تفاصيله والخوض في أوجاعها؛ عندما سرى الخبر همسا أن القشتاليين يداهمون المساجد والمدارس ويجمعون ما فيها من كتب ويأخذونها إلى مكان غير معلوم.

طوال أسبوع شهدت حارة الوراقين نشاطا لم تعهده أبدا. تغلق الحوانيت

Books-sea.com

في النهار أو تظل مفتوحة ذراً للرماد في العيون، وبعد صلاة العشاء بساعتين أو ثلاث تصحو الحارة للعمل. يحرس أبو منصور وثلاثة من صبيانه الحارة من جهة الحمام، ونعيم وشابان آخران يحرسونها من الجهة الأخرى.

خلف الأبواب المواربة تضاء الشموع، في كل حانوت شمعة تتحرك في ضوئها المرتجف الشحيح الأشباح. خزانات الكتب مفتوحة على مصراعيها والأيدي تمتد بحذر، منها وإليها. تنتفخ الأكياس وتمتلئ السلال والصناديق. والأشباح تُحمِّل واحدا كيسا فيمضي، وغيره سلة فيذهب، ويتعاون اثنان في حمل صندوق ويغادران. وتمور الطريق المعتمة بخيالات صامتة محنية الظهر حدباء، أو كالأعواد مستقيمة يكلل هامة كل عود منها تاج هائل وغريب، أو أشكال غريبة كأسرَّة عالية قوائمها تسير. تزدحم الحارة بالأشباح الصامتة تَلتقي أجسادها وأحمالها، أو تومئ بأطرافها فتبدو مخلوقات خرافية هائلة يختلقها في الليل الخيال، ومع صياح الديك تتبدد.

كان أبو جعفر قد اتفق مع زملائه في حارة الورّاقين على نقل الكتب تحت جنح الليل إلى بيوتهم، ثم نقلها بعد ذلك في وضح النهار إلى المخابئ الدائمة في عربات، أو على ظهور البغال مموهة ببعض المنقولات وكأنهم يقصدون الموانئ راحلين، أو ينتقلون من بيت إلى بيت. وقرروا أن يتم ذلك تدريجيا وبتنسيق وهدوء وحنكة لا تلفت أنظار السلطات. واستقر الرأي على توزيع الكتب على العديد من الأماكن: الكهوف في الجبال، أطلال المنازل المهجورة، وسراديب البيوت.

بعد أيام اكترى أبو جعفر عربتين وحمّلهما كتبه وبعض كتب أصحابه، وأركب زوجته وسليمة بغلة، وحسن وأمه بغلة، وركب ثالثة واتجهوا إلى عين الدمع. وقصد أبو جعفر أن يعلن في طريقه بداع وبلا داع، إنه كره الحياة في البيازين، وما عاد يطيق أسراب المبشِّرين التي اجتاحت الحيّ كالجراد.

نزلوا في بيت عين الدمع وأنزلوا منقولاتهم وصرفوا المكاريين والعربتين

Books-sea.com

ونقلوا الكتب إلى السرداب. وأشرعت أم جعفر النوافذ وانهمكت مع أم حسن تعاونهما سليمة في تنظيف الدار كأنما ينوون الإقامة فيها.

شاركت سليمة جدتها وأمها العمل بعض ساعة، ثم تعللت بأنها سمعت جدها يناديها وتركتهما ونزلت إلى السرداب. وكانت جدتها تبتسم لأنها تعرف أن حفيدتها لا تطيق الأعمال المنزلية، أما أمها فكانت تفكر في الشيء نفسه؛ ولكنها لم تبتسم إذ كانت خائفة.

ما إن مر أسبوعان حتى اكترى أبو جعفر ثلاثة بغال وعربة وعادوا إلى البيازين. وكان هذه المرة أيضا يكرر على كل من يقابله في الطريق: «قلت أذهب إلى عين الدمع أقضي فيها آخر أيامي فلم أقدر... لا غنى لي عن البيازين. ولدت فيها والله أعلم أنني سوف أموت فيها أيضا».

* * *

ما إن فتحت أم حسن الباب حتى اندفع نعيم إلى داخل البيت لاهثا.

- أين أبو جعفر؟

- ما الذي أصابك يا ولد، قل صباح الخير!

ولكن الولد كمن فقد عقله راح ينادي على أبي جعفر بأعلى صوته. أتى أبو جعفر مهرولا. قال نعيم:

- إنهم يكدسون ما استولوا عليه من كتب في باب الرملة... إنهم سيحرقون الكتب!

لبس أبو جعفر مركوبه وخرج مهرولا وراء نعيم. وجاءت سليمة تستفسر عن سبب الجلبة فكررت عليها أمها ما سمعته فركضت إلى صندوق ملابسها، وفي دقائق كانت قد تهيأت للخروج.

- إلى أين؟

Books-sea.com

ـ سأذهب مع جدي .

ولم تنتظر لتسمع ما تقوله أمها إذ انطلقت كالسهم إلى باب الدار فلم تملك أمها إلا أن تنادي على حسن لكي يلحق بأخته .

التقوا جميعا عند رصيف حدرّه . كان النهر يتدفق بين شاطئيه وأعداد غفيرة ممن يعرفون ولا يعرفون تهرول بمحاذاته صامتة وصاخبة . عندما وصلوا إلى قنطرة الدبّاغين انحنى النهر في طريقه إلى شانيل وواصلوا طريقهم إلى باب الرملة .

في ساحة باب الرملة رأوا توافد العربات تجرها الثيران والبغال والحمير . تقترب العربة من مركز الساحة ، ثم يشد الحوذي اللجام فتتباطأ الدابة وتصرّ العجلات وتتوقف . يقوم ثلاثة من الحراس الجالسين فوق الكتب المكدسة في العربة يشدون قاماتهم ، ويحركون أطرافهم لحظة كأنهم يتخلصون من خدر أصابهم من القعود طوال الطريق ، ثم يشرعون في العمل : تنحني جذوعهم وتختفي رءوسهم ثم تظهر الرءوس وتنتصب الجذوع وتلقي الأيدي بحمولتها ، وتعود القامات تنحني والأيدي تقبض وتطوّح ، وتتوالى الحركة في اتصال وسرعة فتسقط على الأرض الكتب وترتطم بعضها ببعض مغلقة أو مفتوحة أو أشلاءً ومِزقا تتطاير كأوراق الخريف في الفضاء لحظة قبل أن تحط في هدوء وتسكن .

تابعوا تساقط المصاحف الكبيرة والمصاحف الصغيرة تنفصل عنها أغلفتها الجلدية المزينة بالزخارف والخطوط ، تابعوا المخطوطات المفروطة ، قديمها وجديدها ، والأوراق المفردة تحمل الكلام نفسه منثورا ومتتابعا سطرا بعد سطر أو منظوما في كل سطر شطرتان .

كان الحراس يواصلون العمل ، وكانت سبع عربات أخرى قد وصلت للتو ، وكانت عربات سواها تقترب من الساحة اختلط صرير عجلاتها

Books-sea.com

بأصوات ارتطام الكتب بتعليقات الأهالي المحتشدين بتهديدات المسلحين التي تأمرهم بعدم الاقتراب من الكتب.

كان أبو جعفر يحدق في المشهد، ثم يغض الطرف، ثم يعود يحدّق ويتمتم بكلام غير مفهوم، لا يعي قبضة سليمة المشدودة على يده ولا أظافرها المغروسة فيها ولا صوتها وهو يعلو ملحا مكررا السؤال، «لن يحرقوا الكتب يا جدي، أليس كذلك؟ لا يمكن أن يحرقوا الكتب؟!» وسعد وحسن واجمان، ونعيم يبكي ويمسح مخاطه بكمّه.

يقترب المزيد من العربات من الشمال والشرق والغرب، من جهة البيازين والمارستان، ومن جهة الحمراء وغرناطة اليهود، ومن جهة المدرسة والجامع الأعظم.

لم تطق سليمة المشهد، قالت لجدها إنها لا تريد أن ترى شيئا وانسحبت راكضة. ولكن أبا جعفر كان يتشبث بقشة الغريق: فهل يُعقل أن يتخلى الله عن عباده! وإن تخلى فهل يمكن أن يترك كتابه يحترق؟! كان أبو جعفر يتطلع إلى السماء ويحدق وينتظر حين سمع شهقة الأهالي المحتشدين ورأى تصاعد الدخان.

كان بعض العسكر قد تفرقوا بين الكتب وراحوا يوقدون النار فيها ثم ينسحبون ركضا لتلافي اللهب الذي أخذ يمتد أفقيا ويعلو ويتصاعد. تلتهم النار الكتب، تفحم أطرافها، تجفف أوراقها، تلتف الورقة حول نفسها كأنما تدرأ النار عنها ولا جدوى، فالنار تصيب وتأكل وتلتهم وتأتي عليها سطراً سطراً وورقة ورقة وكتابا بعد كتاب. نار موقدة تؤجج في الساحة، تستعر وتضطرم، تلهب العيون وتخنق بدخانها الصدور، وأبو جعفر يحدق فيها مستريعا ويصرخ دون صوت: لم تكن غابة أضرمت النار فيها فطاشت في أخضرها تلتهم الغصون والجذوع؛ لم تكن غابة حملت الريح بذورها وسقتها أمطار السماء فنمت برية وشيطانية؛ ولم تكن كفحص غرناطة حقلا تَعهَّده

Books-sea.com

الفلاحون عاما بعد عام حنطةً وتينا وزيتونا وليمونا وبرتقالا ليحترق أمام عيونهم فيقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله ويشمّروا عن سواعدهم ويحرثوا الأرض ويتعهدوها فتكرمهم بحصاد جديد. لم تكن، ولكنها بدت لأبي جعفر كحقل أو غابة يحاصرها الموت تحوِّم عقبانه على رءوس الأشهاد، وتتخاطف من الصدور القلوب.

قفل أبو جعفر عائدا إلى البيازين يبصر الأهالي السائرين حوله؛ ولا يرى سوى النار المستعرة. يسعل ويحك جفنيه ويمشي ولا يعي سوى أن بابا مشرعا للرحمن عاش عمره موقنا بوجوده وقربه كان موصدا كجدار مصمت. توقف وقد انتابته نوبة سعال متصل كادت تخنقه.

عندما أعطى ظهره لحدرُّه ليصعد التلة بدت له الطريق الجبلية الصاعدة صعبة لا يقدر عليها. كانت ساقاه واهنتين بالكاد تحملانه وكأنه يحمل جذع شجرة ثقيلة لا طاقة لإنسان على حملها. يصعد ثم يتوقف ثم يعود يصعد. تعثرت قدماه وسقط على وجهه، تفصد من أنفه خيط دم رفيع وانجرحت ركبته. لم يلحظ ذلك. قام وواصل الصعود حتى وصل إلى ساحة مسجد البيازين الذي صار كنيسة سان سلفادور، وقعد على مصطبة حجرية وظل جالسا بلا حراك حتى غروب الشمس.

قبل أن يأوي أبو جعفر إلى فراشه، في تلك الليلة، قال لزوجته «سأموت عاريا ووحيدا لأن الله ليس له وجود!» ومات.

غسّل الرجال الجسد المديد العاري، وقرءوا عليه الشهادة وكفنوه، وحملوا على أكتافهم نعشه وصلوا عليه، ثم أوصلوه إلى مثواه الأخير.

هبط أبو منصور وسعد ونعيم إلى الحفرة الغائرة واستقبلوا جثمانه بأيديهم المرفوعة، وببطء ورفق وسّدوه الأرض وصعدوا، ثم أهالوا التراب.

واكتظت دار أبي جعفر بالمعزيات من النساء اللائي جئن يشاركن أهل الدار

Books-sea.com

حزنهم بالبكاء والحديث عن جميل صفات الفقيد وضرورة الصبر على قضاء الله الذي لايُحمد على مكروه سواه. وحدها سليمة لم تبك ولم تبادل أيا من الجالسات الكلام. يقلن «لكلِ إنسان أجل»، فهل كان هذا أجله حقا، أم أن حرق الكتب هو الذي قتله؟

تذهب المعزيات، ويتوغل الليل، وينام أهل الدار، وتبقى سليمة في فرشتها تحدق في الظلام وتتساءل. هي أيضا لم تطق حرق الكتب، وكان نعيم يبكى بحرقة، وسعد وحسن مفزوعين امتقع وجهاهما... ولكن جدها وحده هو الذي مات هكذا فجأة دون مرض ينذر أو يمهد. لم تكن قد بلغت الرابعة من عمرها حين مات أبوها. قبلها كان مريضا ويتعذب. تسأل:

- لماذا يئن؟

- لأنه مريض

- ومتى يطيب؟

- عندما يأذن الله

أذن الله ولكن بشيء آخر... حملوه إلى قبره.

- أين ذهب؟

- مات

- ماذا يعني «مات»؟

- اختاره الله ليكون بجواره في الجنة.

تخيلته وقد اختصه الله بمقعد عال إلى جواره في جنة أجمل من جنّات عين الدمع، يكركر الماء فيها جاريا بين الأشجار السامقة والزهور على كل لون. هل تطلب من الله أن يختارها هي أيضا فتذهب إليه لتعيش معه في ذلك المكان

Books-sea.com

الجميل، أم تبقى مع جدها وجدتها وأمها وأخيها؟ أم تدعوه أن يأخذهم جميعا معا؟ وماذا عن رفيقاتها اللائي يشاركنها اللعب؟ لعله من الأفضل أن تبقى.

بعد سنة أو أكثر قليلا وجدت سحلية صغيرة في فناء البيت. اقتربت منها فلم تهرب. مدّت يدها وأمسكتها من ذيلها. كانت باردة ميتة، حملتها إلى جدتها:

ـ هذه السحلية ميتة أليس كذلك؟

شهقت جدتها قرفا ووبختها وطالبتها بأن تلقيها وتغسل يديها ولكنها ظلت في مكانها.

ـ عندما تموت السحلية يا جدتي هل تصعد إلى السماء؟

تلجلجت جدتها ولم تحر جوابا.

ظل السؤال معلقا ثم نبتت في رأسها أسئلة أخرى: ما نفع السحالي والخفافيش والعقارب، لماذا خلقها الله أصلا ولماذا يميتها بعد ذلك؟

بعد شهور سألت جدها

ـ عندما تموت العقارب والسحالي هل تذهب كالبشر إلى السماء؟

جذبتها أمها بعيدا وقالت لها إنها تزعج جدها بأسئلة سخيفة وطلبت منها أن تخرج للعب مع رفيقاتها في الحارة.

وقفت عند باب الدار وهي تفكر أنه من غير المعقول أن تذهب العقارب الميتة والسحالي والأفاعي إلى الجنة فتخيف الناس وتزعجهم. عادت ركضا إلى جدها.

ـ جدي هل تذهب السحالي بعد الموت إلى الجنة أم إلى النار؟

ـ إلى النار.

ـ وما الذي فعلته لكي تذهب إلى النار؟

Books-sea.com

ـ إنها تسبب الأذى للبشر ولذلك تدخل النار .

تركت جدها وخرجت إلى الحارة غير مقتنعة بما سمعته . غريب أن تذهب العقارب إلى الجنة وأغرب منها أن تذهب إلى النار . ألم يخلقها الله عقارب قارصة مؤذية . . . لم تختر ذلك فلماذا يعاقبها الله على مالم تختره؟!

عادت تفكر في جدها، وفي النار المشتعلة في أكوام الكتب في ميدان باب الرملة. تغفو ثم تصحو فزعة، ثم تشعر باللهب يحاصرها فتفتح عينيها فتنتبه إلى أن جسدها يرتجف بردا وأن أسنانها تصطك . دثروها بأغطية كثيرة وبدا لها وهي محمومة أنها تلحق بجدها .

يوم شفيت سليمة من الحمى التي أصابتها بكت أم حسن بحرقة لأنها أيقنت أن المرض ذهب بعقل ابنتها وسلامة إدراكها، إذ فوجئت بالبنت تقوم من فرشتها وتغسل وجهها وتغير ملابسها وتقول إنها ذاهبة إلى عين الدمع .

ـ نعم سأذهب إلى عين الدمع، إن أردتم أن تأتوا معي تعالوا، وإن لم ترغبوا في ذلك أذهب وحدي!

حاولوا جميعا إقناعها بالعدول ولم يفلحوا فسايروها لعل إرضاءها يهدئ من اضطراب عقلها فيعود لاتزانه. اكتروا عربة ورافقوها إلى بيت عين الدمع . وما إن وصلوا إليه حتى نزلت سليمة إلى القبو ونظفته، وأعادت ترتيب الكتب التي فيه، وأتت بورق وريشة ومحبرة وسجلت أسماء الكتب. تكتب اسم المؤلف وعنوان الكتاب، ثم تنتقل إلى السطر التالي حتى سوّدت قائمة من عشر صفحات تحمل كل منها عناوين سبعة كتب ما عدا الورقة الأخيرة التي سجلت فيها ستة عناوين. وعندما انتهت أجلست حسن أمامها وأعطته الريشة والمحبرة وورقا أبيض وراحت تملي عليه القائمة مرة أخرى .

ـ لماذا يا سليمة؟

ـ أريد نسختين من القائمة!

Books-sea.com

٦

في ساحة البنود التي تتفرع الطرقات منها إلى البيازين والقصبة الجديدة والقصبة القديمة فتاة تحمل سلتها وتمشي كباقي خلق الله. خرجت من بيتها لتشتري غرضا أو تزور دار عمة لها أو خالة. ذاهبة أو عائدة، الله أعلم، ولكنها كانت تمشي في حالها لا يخفي غطاء رأسها جديلتها الطويلة، ولا ثوبها الفضفاض قدها الممشوق.

لمحت رجلين قشتاليين يقتربان فغضت الطرف وواصلت السير لتتجاوزهما أو يتجاوزاها. رفعت عينيها فبدا لها أنهما يحدقان فيها. تجاهلت نظراتهما وأسرعت الخطو. رفعت عينيها فبدا أنهما يقصدانها. ازدردت ريقها وتحيرت للحظة، ثم اندفعت تركض في الاتجاه المعاكس. ركضا خلفها حتى لحقا بها.

- ما الذي تريدانه؟

- ما اسمك؟

لم تملك الركض ثانية. كان أحدهما قد طوقها بذراعه وأمسك الآخر بجديلتها ولفها كالحبل حول قبضته.

صاحت البنت طلبا للنجدة فانهالا عليها بالضرب. علا صياحها وتواصل حتى بلغ أسماع أربعة من الشباب اقتربوا راكضين. رآهم القشتاليون فتوالت صفعاتهم وأوسعا الفتاة ركلا بالأقدام حتى سقطت مغشيا عليها.

- هذا بلا سكو دى بارينويفو مفوض الشرطة.

Books-sea.com

ـ ومن ذلك الآخر؟

ـ أنه سالثيو خادم الكاردينال.

تعرف الشباب على الرجلين زادهم غضبا على غضب، فاشتبكوا بهما في مشاجرة استخدمت فيها القبضات والرءوس والأقدام. وفي حين حمل شابان الفتاة إلى أقرب بيت وهما لا يعلمان إن كانت على قيد الحياة أم فارقتها، كان الاثنان الآخران مشتبكين مع القشتاليين «الكلب سالثيو أفلت!» صاح أحد الشابين ملتفتا فركض الآخر وراءه واختفيا. تلقى الشاب، الذي التفت وصاح، لكمة من بلاسكو أدارت رأسه ومكنت غريمه من الإفلات. قام الشاب وانطلق راكضا وراءه وكاد يمسك به في مدخل الحارة، ولكن قبل أن يفعل ألقى شخص حجرا من نافذة أحد البيوت على رأس بلاسكو فسقط على الأرض وفارقته الحياة.

في ساعات معدودة كان الخبر قد انتشر في البيازين كلها ومعه انفلت الغضب المكتوم في الصدور. «والعمل؟» «نُغلق الأبواب!».

تفرق الرجال شرقا وغربا، شمالا وجنوبا وأوصدوا الأبواب بمزاليجها الحديدية الضخمة؛ ومن خلفها أقاموا المتاريس بالأخشاب والحدائد وأجسادهم. أغلقوا الأبواب كلها إلا بابًا واحدًا خرج منه الشباب المتجهون إلى قصر الكاردينال بالقرب من الحمراء. خرج الحشد الكبير من باب البنود إلى القصبة القديمة وعبروا نهر حدرّه مندفعين متوقدين، والحزن، الحزن الثقيل الذي ركب على أكتافهم وناءت تحت وطأته الرءوس وانقبضت القلوب، اعتلوه، وعلى صهوته انتصبت الجذوع، وعلت الهامات، وتألقت العيون، ودفعت الأقدام بمهاميزها فراح يركض منفلتا كأنما قُدّ من لهب.

وفي البيازين سهر الناس في أمان الله الذي أضاء لهم طريقهم بنوره الرباني بدرًا تماما في السماء. في البيوت أشعلت النساء كوانين النار والتنانير وأدرن

Books-sea.com

الرحى، وطحنّ الدقيق وخلطنه بالماء وذرّات الملح وبسسنه وكورنه وفردنه وخبزنه وصففنه في سلال حملها الصبية والصبايا على رءوسهم؛ وساروا بها في حذر متقد تسبقهم رائحته الشهية إلى الرجال الساهرين خلف المتاريس.

وكالنساء أشعل الحدادون نارهم وانهمكوا في العمل، ينفخون ويطرقون ويطوّعون ويشكلون، يصلحون ما أتلفه الدهر وأراد الرجال استعادته في تلك الليلة. كان الرجال قد أخرجوا سيوف أجدادهم وخناجرهم والسكاكين ومسحوا الغبار عنها يصقلون الصالح منها ويرسلون الباقي إلى الحدادين ليصححوا مقبضا مكسورا أو نصلا مائلا.

لم تنم في الليل البيازين كأنها ليلة الرؤية تمور الأزقة فيها بصوت الصغار وركضهم وحديث الكبار وفعلهم وتتقد البيوت بالشموع والقناديل وألق العيون فيسكن في الليل النهار.

وقبل طلوع الفجر دار المنادي في الناس معلنا أن مسجد البيازين هو مسجد البيازين، فمن يريد صلاة الفجر فيه فأهلا به وسهلا. ومن يريد المشاركة في تدبير الأمر فليحرص على صلاة الفجر فيه.

لم ينتظر الناس صوت المؤذن بل قصدوا المكان، فقهاء ومدرسين وتجاراً وحرفيّين ومحاربين قدامى وصبية لم تخط شواربهم بعد. التقوا عند الساحة المتاخمة للمسجد وراحوا يتحدثون واقفين أو سائرين أو جالسين مفترشين الأرض، ثم انطلق صوت المؤذن رنانا ومجلجلا فدخلوا المسجد وضمّوا الصفوف وكبّروا خلف الإمام.

لم يكن إمامُهم شيخَ المسجد، ولا كان من كبار الفقهاء الذين حملوا أمتعتهم وهاجروا بعد إعلان الاتفاقية بأيام قليلة، بل أمّهم نجار مسن يعرفه بعضهم ولا يعرفه بعضهم الآخر.

عندما انتهت الصلاة قال الإمام:

Books-sea.com

ـ طلب مني أن أؤمّ صلاتكم هنا في مسجد البيازين بعد أن أعاده الله لنا .

اختنق صوت الشيخ بالدموع ، تنحنح ثم واصل :

ـ هذا شرف لي وليتني له كفؤ . . يا أهل غرناطة والبيازين هذه مدينتنا نطعم حلوها ومرها ، وها هو أمرنا اليوم بين أيدينا نفلح في تدبيره بحسن التفكير والمشورة أو لا نفلح فنجرع كأسا مرة ونعيش بحسرتنا حتى نموت ، فما قولكم يا أهل البيازين؟

سادت لحظات من الصمت ، ثم قام الناس وعدلوا من جلستهم مستبدلين بصفوف الصلاة المتراصة دائرة تمكن الواحد من رؤية الآخرين وتمكن الآخرين من رؤيته .

امتد الحديث بالرجال من صلاة الفجر حتى صلاة الظهر . وكانت أم حسن في الدار تدور كحيوان حبيس تحاول أم جعفر تهدئتها بلا طائل : «ذهب لصلاة الفجر وتأخر ، يعود بعدها بساعة ، بساعتين ، لم يعد ، أين ذهب؟ !» .

كانت الظنون تتوالي في رأسها فترجِّح ظنا وتعود ترجِّح آخر . هل ذهب ليعسكر مع الشباب خلف المتاريس . . . وإن كان قد ذهب فكيف تأتي به؟ هل تبحث عنه عند باب فحص اللوز في الشمال ، أم باب قشطر في الجنوب أم تشرِّق إلى باب وادي العليا ، أم تتجه إلى باب إلبيره في الغرب؟ هل ركب الولد رأسه وخرج من باب البنود مع الشباب ليحاصروا بيت الكاردينال؟

كانت تبكي ولا تتوقف عن الترديد : إن قلبها يحدثها أن مكروها أصاب الولد «وقلب الأم لا يكذب!» .

وكانت أم حسن تواصل البكاء ، وأم جعفر وسليمة كفتا عن الكلام بعد أن اكتشفتا أنه لا يجدي شيئا عندما دخل عليهن حسن ؛ وكان متورد الوجنتين باسم الوجه ينعكس انشراح صدره على طلعته ومشيته .

Books-sea.com

استقبلته أمه وكأنه عائد من السفر. لم ينتبه لأثر الدموع على وجهها ولا لاحتفائها الملهوف بعودته وأعلن بصوت مجلجل:

- اليوم في مسجد البيازين تشكلت لنا حكومة مستقلة عن قشتالة، اخترنا أربعين رجلا ليتولوا أمرنا وأمر إدارة البيازين.

لم يبد أن أم حسن أدركت ما يقال لانشغالها بحزنها السابق على غياب ابنها وفرحها اللاحق بعودته، أما أم جعفر فبدا وجهها شاحبا متوجسا ولم تقل إلا «ليوفقكم الله يا ولدي ولينصركم وهو على كل شيء قدير».

كانت سليمة هي التي تتقافز توقدا للخبر، وتطالب أخاها بالجلوس ليحكي لها ما حدث في المسجد ولتستنطقه فيقص عليها التفاصيل فلا تفلت منها شاردة ولا واردة، كأنما كانت تشارك الرجال جلستهم.

ولم يكن حسن أتم حديثه عندما جاءه نعيم وأخبره أن الرجال الذين يحاصرون بيت الكاردينال قد عادوا، فخرجا ركضا غير مباليين بالإجابة عن سؤال سليمة: «لماذا عادوا؟» ولا بصياح أم حسن التي كانت تلح في عدم خروج ابنها ولا تملك أن تمنعه.

عند باب البنود تحلّق الأهالي حول الشباب العائدين ليسمعوا ويسألوا:

- رجمنا بيته بالحجارة ولم نوفر مسبّة.

- ولِمَ لَمْ تقتحموا عليه البيت؟

- حاولنا ولكن الأبواب منيعة والبيت قلعة.

- والنوافذ؟

- لم نُبق واحدة منها على حالها. تحطم زجاجها وتساقطت الشظايا أمام عيوننا.

- لم يظهر الكلب؟!

Books-sea.com

ـ لم يظهر، بقي لابِداً كالخفاش في وكره فقررنا محاصرة البيت حتى يخرج إلينا جوعا وعطشا.

ـ لماذا عدتم إذن وما الذي حدث؟!

كانت القوات القشتالية قد أحاطت بهم.

ـ قوات كثيرة تفوقنا عددا وكانوا مسلحين ولم نكن. . . رحنا نتشاور: هل نقاتلهم ونحتسب أنفسنا عند الله شهداء أم هناك بديل آخر. عندها ظهر الكونت تانديا معتليا حصانه الأشهب المطهم. ترجل وقال بصوت عال «من يمثلكم فأتحدث معه؟» وجمنا فقد خرجنا معا ولم يكن بيننا قائد ومقود، فلما أعاد السؤال تقدم أربعة من الشباب، اقتربوا منه واستمعوا إليه ثم عادوا إلينا وأخبرونا أنه يطلب رفع الحصار عن بيت الكاردينال فورا وقال: «غدا أذهب بنفسي إلى البيازين وأتحدث مع زملائكم وأنهي المشكلة»، قلنا إننا سنبقى حتى يذهب فإن أجاب زعماءنا واستجاب لمطالبهم نفك الحصار. ذهب الشباب إليه ثم عادوا إلينا ينقلون ما قاله «فكوا الحصار أولا وإلا قمنا بذلك بالقوة. ولستم سوى حشد صغير عار من أي سلاح. وهاهم جنودنا كما ترون، راكبين وراجلين، مسلحون كامل التسليح» تشاورنا ثم قررنا فك الحصار. . . هل أخطأنا؟

كان سعد الذي رافق الشباب إلى بيت الكاردنال هو الذي طرح السؤال «هل أخطأنا؟» لم يجب عن سؤاله أحد وإن كانت العيون قد جاوبت شكه بنظرتها الحائرة.

ساعتها تعالت صيحات الأولاد الذين اعتلوا الأسوار والأبراج يعلمون الناس بأن حملة من الفرسان القشتاليين تقترب من الأبواب. ساد التوتر وانهمك كل فيما يراه ضروريا من عمل. بعض يقوِّي المتاريس، وبعض يعد سلاحه، وبعض كنعيم، يصعد الأسوار محملا بالحجارة والشتائم لكي يلقيها

Books-sea.com

جميعا على رءوس أولاد الحرام الذين يريدون اقتحام الحيّ. وانهمرت الحجارة والسباب من كل مكان، والفرسان الذين نجحوا في اتقائها ووصلوا إلى الأبواب وجدوها مغلقة محكمة الإغلاق فاستداروا بأحصنتهم وانسحبوا وسط صخب هائل اختلطت فيه صيحات الغضب وصيحات الابتهاج والسباب والبصقات بآيات الحمد لله.

ليلة أخرى مستثارة قضتها البيازين موزعة بين السهر والنوم، والعمل والسكون المنهك.

والأربعون الذين اختيروا لإدارة أمر البيازين لم تتح لهم فرصة للنوم أو التفكير فيه. كان عليهم التشاور فيما يقولونه للكونت تانديا إن جاءهم للتفاوض كما وعد، وفيما يفعلونه لو حاول الجنود اقتحام الحي، وكان عليهم تنظيم الأمور المعيشية لمائة ألف نسمة، هم سكان البيازين، لو دام الحصار، أسابيع أو شهورا . . . هل يكفي الطحين؟ والطريق إلى حدرّه مقطوعة فهل تفي بالماء الآبار؟ وهل يتوجب تقنين ما يستهلكه الأهالي؟ وهل يتوجب تسريب رسائل أخرى إلى الأهل في الجبال؟ وكيف يرسلون طلبات النجدة إلى المغرب ومصر والسلطان بايزيد سلطان بني عثمان؟ وفي حالة اقتحام الجنود للحي واشتعال القتال هل يفتحون الأبواب الشمالية الغربية لتخرج النساء والأطفال والشيوخ ويحتمون بعيدا، أم تقتضي الحكمة بقاءهم في حماية الرجال المتمترسين خلف الأبواب؟

في اليوم التالي جاء الكونت تانديا والتقى مع حكومة الأربعين. قال:

- ثورتكم على مَلِكيْ البلاد تمرد لا تحمد عقباه.

قالوا:

- بنود المعاهدة التي وقعها الملكان والتزما بها خُرقت: تنصروننا قسرا وتحرقون كتبنا وتتعرضون لنسائنا.

Books-sea.com

قال :

ـ اهدءوا وارجعوا إلى أعمالكم فنبحث في مظالمكم .

قالوا :

ـ ليغادر خيمنث غرناطة فهو الذي أمر بحرق الكتب، وهو الذي أملى على الثغري التنصر بعد تعذيبه لشهور طوال . إنه أس البلاء، شرطنا أن يرحل!

قال :

ـ إن لم تفتحوا الأبواب سنقتحم البيازين عنوة .

قالوا :

ـ اطردوا خيمنث والتزموا ببنود المعاهدة تفتح الأبواب .

اعتلى تانديا حصانه ومضى يتبعه حراسه من الفرسان وعم الناس ارتياح يمازجه شيء من زهو، فقد بقيت أبوابهم مغلقة ومتاريسهم قائمة، وكانوا قادرين على الاستمرار راغبين فيه .

استمرت المفاوضات عدة أيام جاء فيها الكونت وذهب ثم جاء وذهب ثم عاد في صحبة الأسقف تالاڤيرا . مر الأسقف من باب البنود وهو يبتسم ابتسامته الأليفة ثم تبعه تانديا ورفع قلنسوته من على رأسه وطوحها في الهواء فسرى الهمس بين الناس : «إنه يريد السلام . . » ركض صبيّ التقط قلنسوة الكونت الحمراء ورفعها إليه، فابتسم الكونت وابتسم الصبي . تحدث حاكم غرناطة وكبير أساقفتها مع حكومة الأربعين ومع آخرين أيضا من التجار والفقهاء .

قال الكونت :

ـ لنعش معا في سلام . . . ولتكن هذه أزمة عابرة، ما قمتم به ليس تمردا على ملكيْ قشتالة . . . أردتم تنفيذ بنود المعاهدة وهذا ما نضمنه مستقبلا .

Books-sea.com

قالوا :

ـ ومن يضمن؟

قال كبير الأساقفة :

ـ أنا أضمن .

قالوا :

ـ كيف؟!

قال تانديا :

ـ لابد من توافر الثقة . . .

سكت ثم واصل :

ـ سأجعل زوجتي وأولادي يسكنون هنا بينكم في البيازين . . . ألا يكفي هذا الضمان؟! إذن اتفقنا، اليوم تنتقل أسرتي للإقامة بينكم، واليوم تفتحون الأبواب وتلقون بالأسلحة وتعودون لأعمالكم .

ذهب الكونت وحراسه وكبير الأساقفة وخُدَّامه، وبقي الناس في أماكنهم واجمين . وانتشر الخبر في لحظات معدودة، حتى النساء اللاتي لم يخرجن من بيوتهن عرفن به وهن منحنيات على صغار يطعمنهم أو ملابس يغسلنها . هل يصدقون الكونت أم قلوبهم؟ ولماذا لم تقل حكومة الأربعين شيئا؟ وهل يمكن أن يضحي تانديا بزوجته وأولاده؟ لابد أن الرجل صادق وقلوبهم تتطير بلاداع . . . كذَّبوها .

ورغم الاتفاق الذي أبرم، والقصر المتروك المجاور لمسجد البيازين الذي أشرعت أبوابه للشمس والهواء وشهدت قاعاته حركة محمومة استعدادا لاستقبال أسرة الكونت انسحب الألق من العيون وبدت الوجوه شاحبة

Books-sea.com

مشدودة كوتر، لا تطلق حزنها ولا تُنحّيه، وراح الشباب يرفعون المتاريس من خلف الأبواب ويشدون المزاليج الكبيرة، فيحدث صريرها العالي قشعريرة في الروح، يدفعون بمناكبهم الأبواب لتنفتح فيزيدهم أزيزها توترا.

بدت الساعات ثقيلة والأيام كئيبة، فلماذا والأزمة حُلَّت، ورئيس الأساقفة الذي يقدرونه ضمن لهم حسن المعاملة والاحترام؟ ومن أين أتت تلك الغربان التي تنعق فتصبغ الفضاء من حولهم بقتامة لونها؟

كانت القلوب عنيدة في تطيرها، ولكن أهل البيازين كذّبوا قلوبهم واتهموها زورا ثم عادوا فعدلوا بعد أن أنصفتها الأيام. طالب القشتاليون بدم بارينويفو فأطاعهم القاضي بتسليم قاتله. ولكنهم عادوا فألقوا القبض على ثلاثة غيره. وعُلِّقت المشانق وتدلَّت على الملأ أجساد أربعة من الشباب. عرف الناس أن الضربة التالية ستوجه إلى حكومة الأربعين. ثم انتشر خبر هربهم إلى جبال البشرات. أدان البعض هروبهم ودافع البعض الآخر عنهم «هل كانوا ينتظرون أن تعقد حبال المشانق حول أعناقهم؟!» نفر قليل لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة استبشروا خيرا وراحوا يحصون الأيام.

Books-sea.com

٧

بعد موت أبي جعفر انتقل سعد للعمل في حمام أبي منصور، أما نعيم فقد وجد عملا في محل إسكافيّ علمه الحرفة فتعلمها وصنع مركوبا لسعد. ولما سأله سعد لماذا لم يصنع زوجا لنفسه راوغ نعيم في الإجابة ثم أقر بالحقيقة «لم يكن بإمكاني عمل زوج آخر دون أن يلاحظ معلمي نقصا في الجلد والمسامير!».

كان الصديقان على عهدهما يلتقيان كل يوم، يجلسان بباب الحمام بعد إغلاقه أو باب الإسكافيّ، أو يسيران معا في الطرقات يثرثران.

كان سعد يسرف في الحديث عن حبه لسليمة ورغبته في طلبها للزواج وخوفه من رفض طلبه. وكان نعيم يستمع إليه دون أن يتحدث عن قلقه الذي كان يتزايد يوما بعد يوم. في بداية الأمر كان يسخر من سعد وكان سعد يسخر منه. جعل الله له قلبا أخضر يتمايل كالغصن مع النسمة العابرة، ثم رأى تلك الأسيرة فأخذت قلبه وذهبت إلى أين؟ الله وحده يعلم. ذهبت وتركت طيفها يسكن أيّامه ولياليه. يسبها ويسب اليوم الذي رآها فيه؛ ويقسم أنه سيقع في حب أول صبية تلمحها عيناه فلا يرى من الصبايا إلا طيفها الذي يأتيه كما في الصحو في المنام. وسعد تأخر في الحب ثم وقع وقعة لا يحسد عليها. تسمّر أمام سليمة وكأنه بغل حرون لا يرجع عنها ولا يتزحزح، وها هو في التاسعة عشرة وسعد في العشرين، ولو بقيا على هذه الحال سنوات أخرى لاكتهلا وما قبلت بهما صبية لها سن ضحوك.

Books-sea.com

ـ توكل على الله يا سعد وقل لأبي منصور يخطبها لك.

قال أبو منصور لسعد عندما فاتحه في الأمر:

ـ وهل هذا وقت للنكاح والبذار. أقسم برب الكعبة إنني أقول لنفسي كل ليلة ليتك ما تزوجت. . . لو لم تكن لك زوجة تعيلها لتحررت من قهرك بدب خنجر في صدر قشتالي، أو دب نفسك في النهر فتريح وتستريح.

ولكنه بعد أسبوع وكان سعد منهمكا في تنظيف الحمام قال:

ـ ذهبت إلى بيت أبي جعفر وتحدثت مع حسن. سيجيبني بعد يومين.

ظل سعد واقفا لايتحرك والمكنسة في يده ثم كأنما سمع الكلام فجأة، سقطت المكنسة من يده واندفع يقبل رأس أبي منصور وكتفيه، ثم ركض كالممسوس إلى حانوت الإسكافيّ.

كان نعيم منحنيا على السندان يثبت وجه سُبَّاط جلدي في نعله والمطرقة في يده يدق بها. لم ينتبه لمقدم سعد وجفل حين سمع صوته فسقطت المطرقة على إبهامه.

صاح

ـ متى أتيت وماذا حدث؟

ـ طلب لي أبو منصور يد سليمة!

قفز نعيم واقفا فسقطت المطرقة على قدمه. تأوه متألما ثم راح يضحك ويتراقص.

ـ سأرقص في عرسك رقصا يذكره أهل الحي حتى عندما يشيخون ويفقدون ذاكرتهم!

«لو كان جدي أبو جعفر على قيد الحياة هل كان يقبل تزويج سليمة من

Books-sea.com

سعد؟» كان السؤال هو أول ما فكر فيه حسن بعد ذهاب أبي منصور. ستقول أمه «فقير معدم ولايملك سوى قرش يومه». ونحن ألم نعد أقرب إلى الفقراء لا نملك إلا قرش يومنا؟ سعد شاب أصيل يصون سليمة فلم يرد طلبه... وسليمة؟ توقف حسن كأنما واجهته معضلة. قد تفرح وترحب وقد تقول لا قاطعة مانعة لا يملك معها أحد سوى الانصياع لها. لم يقدر أبدا على فهمها، وهي أخته التي لم يعرف صبية سواها، كثيرا ما تساءل أهكذا طبعها لأنها سليمة أم أن طباع الصبايا هكذا تستغلق علي الفهم.

أسرّ حسن لجدته أول ما أسرّ. قالت:

لو وافقت سليمة فعلى بركة الله. هذا زمان صعب وسعد أصيل لن نصبح يوما لنجده قد غير جلده وصار خادما للقشتاليين.

- هل كان جدي يوافق؟

- الله أعلم يا ولدي!

في المساء جلس حسن وجدته مع أخته وأمه. قال:

- اليوم جاءني أبو منصور وطلب يد سليمة لسعد.

- سعد؟!

بدا صوت أمه مستغربا لا يخلو من استنكار.

- ما قولك يا أمي؟

- ولماذا يطلب سليمة؟ إنه من مالقة، فليبحث عن ابنة مهاجر من مدينته ويطلب يدها.

- أي كلام هذا يا أمي... ما الذي يعيب سعد؟

- يعيبه فقره ويعيبه إنه بلا أهل نعرفهم ونطمئن إليهم، ويعيبه... قاطعها حسن:

Books-sea.com

ـ لا يعيبه شيء من ذلك!

ـ ويعيبه أنه لا يملك حتى دارا يُسكن فيها عروسه.

ضحكت أم جعفر:

ـ هذا العيب الأخير لصالحك يا زينب... لن تخرج ابنتك من الدار، بل تبقى معك هي وزوجها.

قالت أم حسن:

ـ لم يكن جدك ليقبل به.

ـ جدي كان يحبه كأنه أنا، ولقد قال لي: يا حسن لو طلب سعد يد سليمة زوّجها له.

ـ هل قال لك ذلك؟!

ـ نعم قال!

قالت أم حسن:

ـ ولكن سليمة لن تقبل.

أجابت سليمة بسرعة وحسم:

ـ من قال لك ذلك... لن أجد زوجا كسعد!

قضت سليمة وأمها وجدتها الليلة بلا نوم. كن يرقدن في القاعة نفسها على ثلاث فرشات متجاورة، ورغم ذلك فإن أيا منهنّ لم تتحدث مع سواها، بل أبقت حديثها مفردا وداخليا.

كانت أم جعفر تعرف أن زوجها لم يقل لحسن إنه يريد سعدا لسليمة، فلم يكن يشغله زواج البنت ولا كان يتعجله؛ بل كأنه كان يتمنى في ضميره أن يظل

Books-sea.com

يعلمها بلاحد أو نهاية، وكأنها ليست صبية مآلها الزوج وخلف الأطفال. حسن يحب سعدا ويألفه ويريد أن يرتبط به بتزويجه أخته، لم يفاجئها لا ترحيب حسن ولا تحفُّظ أمه، فلو جاء ابنتها أمير من عُدوة المغرب يعتلي حصانا مُجنَّحا لقالت: يعيبه أنه أمير ويعيبه أن قصره وراء البحر، فهي لا تقدر على بعد ولديها، ولا تهدأ ولا ترتاح إلا وهي تراهما أمام عينيها. تأوهت أم جعفر وهي تتقلب في فرشتها: الصغار يكبرون ومن رحل رحل «ألف رحمة ونور عليك يا أبا جعفر» تشبثت بصورة زوجها لكي لا تداهمها صورة ذلك الآخر الأغلى الذي لم تتعود بعد كل تلك السنوات على مواجهة فقده. . . ابنها أبي الولدين، الذي لم تقدر أبدا بعد ذهابه على النطق باسمه فما بالك باستحضار هيئته ورسمه.

وكانت سليمة كجدتها تتقلب في فرشتها مؤرقة تسأل نفسها لماذا أجابتهم بهذا الحسم. لم تفكر قبل ذلك في موضوع زواجها من سعد ولا من غيره. واستغربت طلبه الذي بدا لها غير مفهوم ولا متوقع. وعليها الآن أن تفكر في كيفية التعامل مع هذا الطلب، ليس رفضه أو قبوله بل تأمله قبل رفضه أو قبوله: أن تصبح امرأة لرجل تطيعه وتخدمه وتحمل له أولاده. . . لماذا؟ حين بدأت أمها تعدد عيوب سعد فوجئت بنفسها تماما كما فوجئت بالطلب، تقول «لن أجد زوجا كسعد!» هل تبحث عن زوج أصلا لكي تجيب هذه الإجابة. يتعين عليها الآن التفكير في هدوء. ولن تسقط السماء على الأرض إن أعلنت في الصباح أنها لا تريد الزواج من سعد أو سواه. ولولا حديث أمها الذي استفزها لما قالته.

وكانت أمها في فرشتها مثلها مضطربة قلقة. تبدو نائمة ثم تنتبه إلى أنه صحو وليس مناما. تمر على مخيّلتها أجزاء من مشاهد غير مكتملة وبعض صور وأطراف لحظات وكأن خطا انتظم العمر نتفا وشذرات: وجه زوجها المُلتحي، الصوت الأجش، عيناه الزرقاوان ونظرته الثاقبة، لفتة الرأس، رمشة

Books-sea.com

جفنيه وهي تناوله سليمة بين ذراعيه يوم ولادتها. ملمس يده على بطنها وهي حبلى بحسن، صوتها ينتحب وظهر أبي جعفر يوم ولد حسن بعد رحيل أبيه، وسعد رثا وهزيلا يوم رأته للمرة الأولى، وكلام أبي جعفر «ولد مسكين من مالقة فقد كل أهله».

وافق حسن على تزويج أخته لسعد، ولكن سعدا حين نقل له أبو منصور الخبر اضطرب وسرت في بدنه رجفة يصاحبها شعور كأنه الخوف أو الحزن أو شيء آخر. واصل عمله بصمت ثم سار في الطرقات ليختلي بنفسه ويفهم ما ألمّ بها. ألا يريد سليمة؟ يريدها ويطلبها ويلح في الطلب ويرى في النعم واللاحياة الروح أو موتها. وها هي النعم جاءته تحملُ فرحا تاقت إليه نفسه سنوات متتالية. ولكنه كان بائسا يفتقد أباه ويفتقد أمه ويفتقد الصغيرة والبحر وحقل العنب ويفتقد الحكمة في حكم السماء بأن يطرق باب عروسه عاريا ووحيدا.

جلس سعد تحت شجرة كستناء بريّة وأغلق عينيه، فرأى الصبي الذي كانه يركض في الوعر وقد خلّف وراءه بيتا كان عامرا بأمه وأبيه وجده وأخته، بيتا عاد قفرا في مدينة هدّها الحصار والجوع وقذائف المدافع اللُّمباردية. كان يركض من ذلك كله إلى أين؟ لا يدري. في النهار يشغله النهار ورغم الوحشة يقدر، ولكن حين يأتي المساء تتحول جبال مالقة الصخرية الجرداء بقممها وخوانقها ووديانها إلى مخلوقات مفزعة يكاد قلبه يتوقف هلعا من حضورها الطاغي. لا يجرؤ على الالتفات يمينا حتى لا يرى تلك الحيوانات الهائلة يمتزج في شكلها طول الأفاعي وظهور الجمال ورءوس البوم عملاقة تقترب منه تكاد تلمسه وتقبض. والقمر المعلق فوق رأسه نحاسيّ أحمر وكبير يزيده فزعا على فزع، والفضاء من حوله عدو يطلب روحه، وهو يركض مذعورا يصرخ فيسمع صدى الصوت فيبتلع الصرخة التالية. يحدث نفسه همسا «قال أبوك كن رجلا يا سعد، لا تخف، لأن الرجال لا تخاف» يقول «تشجع يا سعد هذه

Books-sea.com

جبال من حجر رأيتها في وضح النهار، جبال جرداء لا تملك لك أذى» ولكن أسنانه تصطك وبدنه يرتجف ويتفصد عرقا. يجلس منكمشا يسند رأسه إلى ركبتيه المضمومتين يلف جذعه بذارعيه ثم يهده التعب فينام جالسا حتى توقظه شمس الصباح وتبدد بضوئها شيئا من مخاوف الليل.

قام سعد ومشى منهكًا ببطء عائدا إلى الحمام. وجد نعيما مقرفصا بالباب ينتظره.

ـ أين كنت؟

لم يجب

ـ هل قالوا لا؟

ـ قالوا نعم.

واحتار نعيم وهو يحدق في وجه صاحبه، وجهه يقول شيئا ولسانه يقول سواه فما الخبر؟

ـ وافقوا أم لم يوافقوا؟!

ـ وافقوا.

ـ وما الذي دهاك؟

ـ لا أدري!

ـ هل أحببت سواها؟

ـ نعيم . . . أنا لا أمزح.

ـ وهل أمزح أنا!

سارا معا، كان سعد صامتا فلم يجد نعيم بدا من الصمت . . . لم يفهم

Books-sea.com

صاحبه ولكنه كان قد وطّد نفسه في سنوات صحبتهما الطويلة على قبول مثل تلك الحالات التى لا يفهمها والتي يبدو فيها وكأن سعدا قد أغلق أبوابه بالمفتاح والقفل والمزلاج وقبع بالداخل زاهدا في الخروج لا يفتح لطارق حتى لو كان نعيما، أو يفاجئه بالرغبة في الخروج إلى الطريق وحده «المكان خانق، يطبق على الأنفاس، أريد هواء نقيا» أي هواء يا سعد، الثلج يغطي الطرقات والبرد يجمّد الأطراف؟ ولكنه يذهب كأنه لم يسمع. تَعوّد نعيم أن يترك صاحبه لحاله يوما أو بعض يوم وينتظر حتى يعود سعد إليه يشرع أبوابه ويمتد جسر المودة والتواصل كأن شيئا لم يكن.

* * *

ما الهدية التي تليق بسليمة؟ سار سعد في باحة المسجد الأعظم المزدحمة دوما بالباعة والشارين. تطلع إلى قوالب الصابون وقوارير العطور والحصر والسلال والقناديل والمشكاوات والصناديق الخشبية. تأمل صندوقا مطعما بالصدف والعاج في أسفله صفان من الأدراج الصغيرة، وآخر أصغر منه حجما تزينه المسامير وتشكل رءوسها الحديدية المدورة خطوطا متوازية ومتقاطعة. حياه البائع ودعاه للشراء فرد سعد التحية وشكره ومضى. مرّ على أطقم الخيول والألجمة والرُكب، وتطلع وهو عابر إلى القدور والأواني الفخارية والمقصدرة والمزجّجة مختلفة الأشكال والأحجام والألوان، ثم توقف أمام حانوت صفّ صاحبه أوانيه وقدوره وقواريره على بساط صوفيّ تداخلت ألوانه بألوانها فأضفت على المكان صخبا بهيجا يشد العين ويستأثر. رفع البائع آنية لازوردية نقشت عليها بمداد أسود لامع عبارات بالخط الكوفي قال:

- إنها متعة للناظرين، وهدية ثمينة ما رأيك؟

شكره سعد وانحرف إلى درب الصيّاغ، حيث شاهد المشغولات الذهبية والفضية الثقيلة والخفيفة والدقيقة. تأمل الأحجار الكريمة وطالت وقفته أمام

Books-sea.com

قلادة من حلقات ذهبية متشابكة وواسطة العقد فيها حجر كريم أزرق كقاع البحر عميق. تمتم «تليق بسليمة ذات العينين الزرقاوين» تطلع إليه البائع فانتبه سعد إلى أن وقفته طالت فابتعد درءاً للحرج ما دام لا يستطيع شراء حليّ.

اتجه إلى شارع السقاطين ومنه دخل سوق القيصرية. مرّ ببائعي الحرير وقد بسطوا الحرير الخام والمضفور والمنسوج. تطلع إليه أحد الباعة. قال:

- حرير البشرّات، يأتون لشرائه من جنوا ويطلبونه في القاهرة وحتى في دمشق!

- هل عندك حرير من مالقة؟

ابتسم الرجل ابتسامة مشفقة.

- وهل هذا سؤال يا ولدي... ومن أين لنا بحرير مالقة، وهل عاد فيها أحد منا؟!

سار سعد مبتعدا دون أن يقول شيئا، فما الذي يقال سوى الاعتذار عن القلب الذي يطلب فجأة ما لا يُنال.. قطعة حرير من نسج أبيه يحملها بين يديه فتهبّ عليه منها رائحة البحر وأمه... غريب هذا القلب، غريب!

واصل السير في أزقة القيصرية يدخل إلى زقاق يقوده إلى زقاق ينتهي به في زقاق، يتطلع إلى مقاطع الرجال وأثواب النساء والمناديل والقلانس والنعال والسبابيط. غادر القيصرية وعاد إلى باحة المسجد الأعظم وظل يمشي حتى وصل إلى باعة المأكولات والحلوى والتين المجفف والجوز واللوز مكدسة في سلال كبيرة معروضة على الشارين، تجاوزها.

ما الهدية التي تليق بسليمة؟ كان يفكر وهو يمضي إلى الأرض الخلاء المتاخمة للسوق، في جانب منها كانت سوق الدواب معقودة. مشى إليه وراح يشاهد الخيول والبغال والحمير والخراف والماعز. كاد يدير ظهره ليعود أدراجه حين رآها.

Books-sea.com

هل استوقفه خدر العينين أم رجفة الجفنين؟ أم أنها النظرة الموزَّعة بين الخوف والدعة؟ كان جلدها رقيقا يضرب بياضه إلى صفرة محمرة. جسمها صغير تحمله قوائم دقيقة.

ـ هل يمكن أن أحملها؟

حملها وشعر بجفلتها بين ذراعيه. «سآخذها» دفع للبائع الثمن الذي طلبه وذهب.

الظبية التي اشتراها لسليمة سعد، وحملها بين ذراعيه من السوق إلى بيت أبي جعفر جعلت أم جعفر تضحك عاليا وطويلا حتى ترقرقت عيناها بالدموع. أما أم حسن فقد حدقت في الظبية وقالت مواصلة حديثها السابق «ويعيبه أيضا أنه مجنون!» ولكن سليمة التي فاجأتها الهدية اقتربت من الظبية ومدت يدها لتتحسسها فجفلت الظبية وجفلت سليمة، سحبت يدها. راحت تتطلع إليها، لاحظت العينين السوداوين الواسعتين وحركتهما القلقة. «إنها خائفة» مرة أخرى مدت يدها ببطء حريص. لم تجفل الظبية وإن أحست سليمة برعشة في الجسد وهي تتحسسه برفق. أتت لها بآنية صغيرة بها حليب وتربعت بجوارها وهي تشربه.

قضت سليمة بقية اليوم منشغلة بالظبية لا تتركها إلا لتأتي لها بطعام أو شراب، وفي الليل دب خلاف بين سليمة وأمها لأن أمها أرادت أن تربط الظبية في الباحة الخارجية للدار وأصرت سليمة أن تبقيها معها في الحجرة التي تنام فيها. قالت أم حسن:

ـ وهل هذا عقل... هل تنام البهيمة بجوار فراشنا؟!

ـ أولاً: ليست بهيمة. ثانيا: لو تركناها في الباحة الخارجية قد تصاب بالبرد وقد ينقض عليها طير جارح.

أصرت أم حسن على رأيها وكذلك سليمة، ولم ينه الخلاف إلا تدخل أم جعفر التي اقترحت أن تترك الظبية في الرواق.

Books-sea.com

ـ بشرط أن تنظفي المكان في الصباح .

قبلت سليمة وقبلت أمها وآوت كل إلى فراشها . وعندما تأكد لسليمة أن أمها استغرقت في النوم حملت فرشتها وتسللت إلى خارج الحجرة :

ـ إلى أين؟

سألتها جدتها فأجابت :

ـ سأنام في الرواق ، الحر هنا خانق . تصبحين على خير يا جدتي .

ـ تصبحين على خير .

قالتها أم جعفر وهي تغالب الضحك .

* * *

قبل الفرح بأسبوع ، فاح العرس من دار أبي جعفر فسبقت رائحة الفطائر المقلية في زيت الزيتون خطوات نعيم وحسن إلى بيت الجيران والمعارف والأحباب . يحمل كل منهما متردا جلديا صُفّت عليه الفطائر مغمورة بعسل النحل ، ويوصله إلى بيت من بيوت الحارة ثم يعود ليحمل سواه .

وكانت أم جعفر وأم حسن وامرأة ثالثة من القريبات قد انهمكن منذ الفجر في نخل الطحين وعجنه وتخميره وتقريصه ، ثم قليه في ثلاث قلايات نحاسية لم تُرفع عن كانون النار منذ مطلع النهار حتى العصر ، يغلي الزيت فيها حتى تستوي فطائر فترفع منها وتصفّى في حين تستقر في زيتها المقدوح فطائر غيرها .

وقبل العرس بيومين تحركت ثلاث عربات تجرها البغال من بيت أبي جعفر قاصدة «حمام الهنا» ، حاملة سليمة وأمها وجدتها ونسوة الحي وصغارهن وصبايا يقاربن سليمة العمر .

Books-sea.com

وبجوار النسوة صُفَّت السلال، والمناديل المصرورة على المناشف النظيفة والغيارات وأكياس التفريك واللوف والطاسات المكيَّة والصابون، وأوان وقوارير أودعت فيها النساء حاجتهن من الحناء والمسك وزيت اللوز وزيت الزيتون.

وكان الخروف المحشوّ الذي سوته أم جعفر في الليلة السابقة مستقرا في قدر نحاسيّة كبيرة محكمة الإغلاق، تعاون على حملها إلى العربة اثنان من المكاريين الثلاثة.

ولم يفت الجارات إحضار الطبلة والدف ولا إعلان المحبة بصنع فطائر شهية محلاة بالعسل ومحشوة بالجبن واليانسون أو بالجوز المطحون. ولا فاتهن حمل شراب الفاكهة اللائي ركزنه وحلّينه وعبأنه في القناني واحتفظن به شهورا في انتظار المناسبات السعيدة.

دخل الموكب الحمام واختلط صخب صغاره بزغاريد النساء ودعواتهن بالسعد والأفراح. وضعن أحمالهن ورحن يخلعن ملابسهن ويأتزرن كل بمنشفة حول خصرها وأخرى على الكتفين، تستر ولا تستر النهود العارية.

ثم انتقل الموكب إلى المغطس وعلا صوت إحدى الجارات مذكرة أم حسن بما كان منذ أربعة عشر عاما يوم ولدت سليمة.

ـ حملتها بين ذراعيّ وضممتها إلى صدري، وقلت لك يا أم حسن لو أمد الله في عمري أحممها يوم عرسها. . أتذكرين؟!

لم تكن أم حسن تذكر شيئا من ذلك ولكنها قالت:

ـ طبعا أذكر.

أجلست الجارة سليمة أمامها وحلت لها ضفائرها وراحت تغترف بالطاس ماء ساخنا من الجرن وتصبه على رأسها.

Books-sea.com

زغردت النسوة وأمسكت إحداهن بالدف وانطلقت أهازيج الفرح تقطعها دعوات المسنات بطول العمر والخلف الصالح إن شاء الله. وكان الصغار يرقصون مستثارين فتنهرهم الأمهات محذرات من أن يسقط أحدهم فتنكسر ساقه أو ذراعه.

وبعد أن كَيَّست الجارة لسليمة جسدها وصبّنت لها شعرها وجسدها وسكبت عليها الماء الساخن قالت لها قومي لأرى، فقامت. سحبت المرأة الإزار من حول خصرها فوجدت سليمة نفسها تقف بين النساء عارية تماما كما ولدتها أمها فداهمها الحياء وتضرج وجهها بحمرة الخجل، وكادت تنتزع الإزار لتستتر به نفسها. ولكنها تحرجت من أن تبدو صغيرة وبلهاء، فظلت واقفة بلا حراك موزعة بين الحياء والمكابرة.

صاحت امرأة «سبحان الخلاّق... عريسك مُسْعَد يا صبية... أشهد لله أنه مسعد»، وكانت قطرات الماء وحبات العرق تنحدر على عنق سليمة الذي يغطيه شعرها الأسود المجعد الكثيف، ويلتمع بدنها الأسمر متوردا بفعل الليفة والماء الساخن... الثديان ناهضان مستديران صغيران، والخصر نحيل والردفان بهما امتلاء طفيف تحملهما ساقان مصبوبتان «سبحان من صور». علقت امرأة «بنا يا عروسة»، قالت أخرى وهي تسحب سليمة إلى مقصورة إزالة الشعر.

وتَواصَل الغناء مصاحبا لانهماك النسوة في تحميم صغارهن وبعضهن بعضا وذلك الطقس الآخر الأكثر إنهاكا الذي يدور في المقصورة مستورا عن العيون، وكانت أم جعفر وأم حسن قد أجلتا حمامهما إلى ما بعد الغداء فانهمكت أم حسن في إعداد الحنّاء، حنّاء وفير ملأ قصعة كبيرة تكفي الجميع. وانشغلت أم جعفر بترتيب الأطعمة فيّ الوسطاني. وكانت كعادتها قلقة يشغلها توفيقها في صنع الطعام الطيب وما يكفي ويفيض منه فتعلق أم حسن «وهل هي أول مرة تولين فيها يا أم جعفر؟ لا أطعم من أكلك ولا أوفر منه» وعلى ما في الكلام من

Books-sea.com

ثناء فلم يكن يهدأ لها بال إلا بعد أن تأكل النسوة وتتأكد أن الأكل طيب ويكفي ويزيد. تراقبهن وهن يأكلن وتدور عليهن وعلى صغارهن تشدد الدعوة وتثني وتثلث لا تقرب الأكل ولا يشبعها إلا شبع ضيوفها وتثبتها من أن واجب الضيافة قد تم على أكمل وجه.

بعد الانتهاء من الطعام استراحت النساء بعض الوقت ثم عدن إلى المغطس ليواصلن الحمام. وأعلنت أم جعفر بحسم: «سأحمم سليمة» صبّنت لها رأسها ثلاث مرات وليفت جسمها مرة ومرة ومرة وسكبت عليها الماء الوفير، جففتها ثم دهنت لها شعرها بزيت اللوز ودلّكت بدنها بالمسك وزيت الزيتون. وفي حين انهمكت يداها في العمل كان وجهها يُشرق ويغيم، وعيناها تتألقان لحظة وتترقرقان بالدمع لحظة، وهي تنتقل من قطعة اللحم الصغيرة التي حملتها وليدة بين يديها إلى الصبية البهية، الغالية ابنة الغالي.. ترى أبا جعفر فتتشبث بصورته كطفلة خائفة من طيف ذلك الآخر الذي لا تملك أبدا التحديق فيه إلا وخذلتها نفسها، فانسحبت روحها وبدا لها أنها تموت.

ـ لماذا لا تغنين يا أم جعفر؟!

ـ أغني، سأغني.

شاركتهن الغناء بصوت راجف.

ـ هات الحنة يا أم حسن.

صاحت إحدى الجارات:

ـ أنا أحنيها!

واقتربت من القصعة واقتطعت بيدها اليسرى شيئا من العجينة اللينة الرطبة «قفي يا سليمة». وقفت سليمة وتربعت المرأة على الأرض وأخذت قدْرا صغيرا من الحناء على طرف سبابتها اليمنى ورسمت بها بحرص دقيق خطّا

Books-sea.com

يتمايل صاعدا من مفصل القدم، ثم أخذت قدرا آخر وواصلت. أعادت الكرة حتى اكتمل الرسم زخرفا جميلا كالغصون المزهرة تزين حمرته الدكناء الكاحل ووجه القدم «اقعدي يا سليمة» قعدت، فحنت لها المرأة الكعبين وبطن القدمين، ثم انهمكت في تحنية الكفين. وما أن أتمت المرأة مهمتها حتى علت الزغاريد مرة أخرى ثم أخذت النساء الواحدة بعد الأخرى يقتطعن من القصعة شيئا من الحناء ويتحنين، بينما الأكبر سنا يغترفن قدرا أكبر لصباغة شعورهن.

وظلت سليمة جالسة بلا حراك ويداها وقدماها مشرعة حتى يجف ما عليها من الحناء.. كانت تتطلع إلى المكان تتأمله وتتأمل نفسها فتستغرب ولا تفهم تماما وتود لو كانت مع ظبيتها تتحسس رأسها أو تتابعها وهي تتحرك في ألفة الدار بخفة ورشاقة.

* * *

كانت ليلة العرس صاخبة، عم المدعوين فيها الفرح المستثار، ليس فقط لأن سنة الأعراس هكذا، ولكن أيضا لأن الثورة التي اندلعت في البشرّات، ونجاح الثوار في الإيقاع بالقشتاليين والاستيلاء على بعض الحصون الواقعة على البحر فتح أبواب الأمل على مصراعيها: قد يصلون المَريّة، وقد تمتد ثورتهم فيستعيدون غرناطة، وقد يأتي المدد من مصر والمغرب، وقد يلتقي المجاهدون والمنفيون القادمون على متن السفن بإخوانهم المقاتلين على الأرض.

كان الخوض في حديث ثورة البشرّات قد أصبح للأهالي خَمْرتَهم اليومية يقبلون عليها بنهم ويسرفون في تعاطيها فتسري في عروقهم جذلا ونشوة. لا يملون ترديد التفاصيل ولا الاستماع إليها، كأنما هي تقاسيم عود أو غناء موشحة يزيدك ترديدها طربًا:

صعدت خيول القشتاليين الطريق الجبلية الوعرة تحمل فرسانهم منتفخين زهوًا وخيلاء، كأنما النصر في متناول اليد ليس عليهم سوى أن يلكزوا

Books-sea.com

أحصنتهم إليه لكزتين في بطن الحصان فيصهل مندفعا إلى القمة المنشودة. ثم انهمرت عليهم الحجارة من أعلى الجبل. سيل من الأحجار على رءوسهم فتساقطوا مع خيولهم وتدحرجوا إلى الوادي السحيق ويا مغيث ولا مغيث. يضحك الأهالي طربًا ويردد أحدهم والابتسامة لم تفارق شفتيه «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم فى تضليل. وأرسل عليهم طيرا أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول».

وتانديا الأفعى جرّد حملة إلى الجبل وجلس في قصره مغتبطًا ينتظر أخبار اقتحام القرى، في حين كانت الشلالات تغرق فرسانه بماء القنوات التي فتحها الثوار من أعلى الجبل وكأنه الطوفان سلطه الله عليهم بلا نوح ولا سفينة.

كانت ضحكاتهم الحرة العالية تختلط بأهازيج النساء ونقر دفوفهن. وكانت أم جعفر وأم حسن وحسن ونعيم قد أعدوا فناء الدار لجلسة الرجال وفرشوا أرضها بالأبسطة والزرابي، ثم رافق نعيم وحسن سعدًا إلى حمام أبي منصور الذي أصر أن يحمم العريس بنفسه «هذا حمام العمر يا ولد!» يحك له ظهره وقفاه وهو يضحك كأنما أعادت له ثورة البشرّات شخصه القديم لطيفًا ظريفًا ضحوكًا مقبلاً على الدنيا والناس محتفيًا بوجوههم.

وفي العرس رقص أبو منصور على دق العود وصفقات الأيدي منتظمة الإيقاع. كان يحرك كتفيه ويشرع ذراعيه ويشد قامته ويتمايل بجذعه، فيرتج كرشه فيضحك ويضحك الحاضرون. ويواصل الرقص عفيًّا مشرق الوجه جذلا كأنه العريس. والعريس سعد يسحبه أبو منصور ويملي عليه الرقص فيرقص متعثرًا خجلا لا يلاحق أبا منصور فى خفة حركته وليونتها فيزداد تعثرا ويشعر بالدماء تصعد إلى رأسه حياءً وخفرًا كأنه صبية عليها أن ترقص أمام الرجال.

جلس سعد وجلس أبو منصور، وقام عدد من الرجال يرقصون ويغنون وحمل بعضهم العصي، وصار كل اثنين منهم يرقصان معًا. يرفع الواحد

Books-sea.com

منهما عصاه فوق رأسه أفقية ما بين يديه فينزل عليها بالعصا رفيقه. يقفز عاليًا فتقطع عصا الآخر الهواء تحت قدميه. وواصلوا حتى التصقت مقاطعهم بأجسادهم من شدة العرق.

ثم قام نعيم وقال وهو يضحك: «أفسحوا لي مكانا لأني أريد أن أرقص وحدي» وغمز لسعد بعينه مذكرًا بوعده له.

أشرع ذراعيه على امتدادهما وشد قامته وشب على أطراف أصابع قدميه، ثم رفع قدمه اليسرى عن الأرض ودار بجسمه فجأة دورات متصلة سريعة خلعته من قبضة الأرض وأضاعت حدود جسمه الملتف مستطيلاً في دوامتها، ثم فجأة توقف فصفق الحضور وتعالت صيحاتهم إعجابًا بافتتاحيته المدهشة. ثم بدأ نعيم رقصته منمقة مرهفة ووئيدة في آن كالتقاسيم تتابع تعلو وتخفت يصاحبها إيقاع الأيدي المصفقة في انتظام. ترتفع ذراعاه فتستطيل قامته المشدودة، ثم يتمايل جذعه قليلاً قليلاً كأنه لا يتمايل، ثم يدق الأرض بقدميه وينزل ببطء ذراعيه لا يلامسان ردفيه، وينفخ صدره كقوس مشدود، ثم ينطلق وتتسارع دقات الساقين والفخذين. يعلو ويهبط ثم يعلو ويهبط تتابعه العيون محدقة والأنفاس مبهورة كأن في الرقصة بيانا وفي البيان سحرًا.

Books-sea.com

٨

قبل أن يستيقظ سعد وسليمة، كانت أم جعفر وأم حسن قد أعدتا كل شيء: الماء الساخن لاستحمامها، وخبزًا طازجًا بكّرتا في عجنه وخبزه، ودجاجتين مغمورتين في مرقهما هنيئًا مريئًا للعروسين، وأصنافًا من الحلوى صنعت أم جعفر بعضها قبل العرس وأتى ضيوف الليلة السابقة ببعضها الآخر.

وما أن خرجت سليمة من الحجرة حتى رمقتها أم جعفر بنظرة سريعة فاحصة. كان وجهها متوردًا وملامحها مستقرة. اطمأن قلب الجدة فصبّحت على سليمة وقبّلتها وانصرفت لمواصلة أشغالها.

وأكد اليومان التاليان ما لحظته أم جعفر فعلقت وهي ترى العروسين هادئين متألقين: «يبدوان كفرخي حمام!»، وقالت أم حسن لابنتها وهي تبتسم مداعبة: «لو كنت أعرف أن الزواج يجعلك هكذا وديعة لزوّجتك يوم تعلمت الكلام!».

فما الذي حدث بعد ذلك؟ لاحظت أم جعفر وجه سليمة الشاحب وجفنيها المتنفخين كأنما من أثر بكاء «يحدث أحيانًا أن يختلف الزوجان ولكن هل يختلفان في الأيام الأولى لزواجهما؟» أسرت بما يشغلها لأم حسن، وقلبت معها الأمر على وجوهه. . تشاجرا؟ أم يثقل عليها بما لا تطيق؟ أم يعجز عن الإيفاء بما تطلب؟ لو لم تر سعدًا لقالت أساء إليها واستبد كبعض الأزواج الذين يظهرون القسوة لنسائهم منذ البداية ليضمنوا طاعتهن وانصياعهن، ولكن سعدًا بدا مرتبكًا مثل سليمة، شاحب الوجه زائغ العينين فما الذي حدث؟ سألتها أمها:

Books-sea.com

ـ ما بك يا سليمة؟

ـ ليس بي شيء.

ـ هل أساء لك سعد؟

ـ سعد؟!

ـ هل تشاجر معك؟

ـ هل هذا كلام يا أمي؟ طبعًا لم يتشاجر معي!

تداولت أم جعفر وأم حسن فيما يتوجب عليهما فعله. فكرتا في التحدث مع حسن في الأمر ثم عدلتا، وبعد طول تفكير توصلتا إلى حل قررتا أن تتقاسما تنفيذه. حين يدخل العروسان إلى مخدعهما ويغلقان الباب تقف أم جعفر خلف الباب وتصيخ السمع، ولابد أن تسمع شيئًا مما يدور بينهما. وعندما تتعب ويثقل جفنيها النعاس توقظ أم حسن لتواصل المهمة وتأوي هي إلى فراشها. ونفذت أم جعفر وأم حسن خطتهما فتقاسمتا الليل متناوبتين على باب الحجرة، كل منهما بدورها تلصق أذنها لصقًا بالباب وتركز حواسها جميعًا في هذه الأذن.

وفي الصباح عندما أخذت أم جعفر حصتها المقررة من النوم، وقامت لتلتقي بكنتها المرابطة خلف الباب، انسحبت أم حسن من موقعها وخرجت المرأتان بخفة وحرص إلى الباحة لتتبادلا نتائج مهمتهما الليلية.

بدأت أم جعفر الحديث أولا مراعاة للسن ولتسلسل الأحداث. قالت:

ـ وقفت طويلا حتى كلَّت قدماي ولم يحدث شيء!

ـ ما الذي تعنينه بلم يحدث شيء؟!

ـ لم يتشاجرا، ولم أسمع صوت سعد يوبخها أو يعلو بالكلام ولا صوتها المعتاد وهي تجيب بحدة عندما يعاتبها أحد.

ـ كانا صامتين؟!

ـ لا . كانا يتحدثان بصوت منخفض كأنما يسر أحدهما بشيء للآخر ، بدا لي ذلك ولكني لم أفسر شيئا من الكلام ولم أدر هل هو الباب الذي كان يحجب بغلظة خشبه الصوت عني ، أم أنهما أذناي ضعف سمعهما؟

ـ لم تسمعي أي صوت آخر؟

ـ أبدا ، وكأنه لم يقربها كما يقرب الرجل امرأته!

ـ وأنا أيضا لم أسمع صوتا من هذا النوع؟

بدا وجه أم حسن حائراً وهي تقرر أنها لم تعد تفهم شيئا .

ـ قلت لنفسي ، لابد أن ما حدث حدث أول الليل وسمعته أم جعفر ، وهما الآن يتصافيان ويتواصلان بحديث يطيب النفس ، ولكنهما قضيا أول الليل يتحدثان وآخره يتحدثان . . هذا ما لا يمكن السكوت عليه .

وقررت أم حسن أن تنقل الأمر برمته لابنها لكي يتصرف في أمر هذا الشاب الذي زوجه لأخته . حاولت أم جعفر أن تثنيها ولكنها أصرت واتجهت إلى حيث ينام ابنها ، وجلست مستنفرة أمام فراشه تنتظر استيقاظه لكي تحكي له ما تأكدت منه بعد طول سهر ومراقبة . ولكنها حين حكت لحسن وبّخها وقال لها إنما تقوله حديث نساء ناقصات عقلا «لمَ لا تتركين سعداً وسليمة في حالهما يبدآن حياتهما بالشكل الذي يروق لهما؟!» فزادها كلامه غيظًا على غيظ!

لو أن أحدا قال لسليمة قبل يومين اثنين من وصول الظبية إنه سيكون لها ظبية تحبها كما تحب أمها وجدتها وحسن مجتمعين ، لضحكت منه ووصفته بالخبل . ولكن الظبية التي فاجأتها إلى حد الدهشة والانبهار تسللت إلى قلبها واستقرت فيه ، كأنما هو بيتها الذي سكنته دائما . كانت في الليل تقيدها في الرواق الشرقي وما أن يطلع النهار حتى تطلقها وتبدأ يومها مع سعد بإطعامها

Books-sea.com

وملاعبتها وتبادل حملها. وحين يذهب سعد إلى عمله تقوم سليمة بما تلح عليها أمها من الأعمال المنزلية بعجلة ونفاد صبر، وتنتهي بسرعة لكي تفرغ للظبية ولكتاب تقرأه. تحمل الكتاب وتتربع على بساط في باحة الدار تقرأ قليلا، ثم ترفع عينيها تراقب ظبيتها وهي تتقافز أو تقف ساكنة. وأحيانا كانت الظبية تأتي من نفسها وتتمدد عند قدميها فتواصل سليمة القراءة في الكتاب الذي تمسكه بيمناها وبيسراها تملّس على جسد الظبية المستكينة بالقرب منها.

عندما قالت «لن أجد زوجا كسعد» باتت ليلتها مؤرقة بسبب تسرعها غير المفهوم. والآن، تسترجع ما مر برأسها تلك الليلة فتبتسم للعبارة نفسها التي أقلقتها وتبدو لها الآن إلهامًا إلهيّا لأنها حين قبلت سعدًا اقتربت منه أكثر، وعندما اقتربت أحبته.

في الليلة الأولى أقبل عليها سعد باستحياء، فأقبلت لا تدري كيف. والتقيا، ولما التقيا لفتهما سكينة لم تعرف شيئا يماثلها، سكينة أطلقت في داخلها فيضًا من حنو ودعة وعذوبة لم تعهدها في نفسها.

وفي الليلة الثالثة حكى سعد عن البحر والسفن الراسية والتي ترحل وتعود. «ومالقة بين البحر والجبل، وعلى الجبل قصر وقلعة، والقلعة عالية الجدران وبهية، ليست أكثر بهاء من قصبة الحمراء وقصورها ولكنها أكثر مهابة وجلالا، تثير في النفس شعورًا غريبًا كاختلاط الخوف بالأمان. ومالقة مدينة كبيرة كثيرة العمائر والبساتين والمدرجات الخضراء المغروسة بأشجار التين والزيتون والبرتقال وكرمات العنب والنخيل. هل راقبت يا سليمة انهمار المطر على حقل كروم؟ السحب في السماء الغائمة تخفي الشمس إلا قدرًا من الضوء شحيحًا ينفذ إلى أوراق الكروم، ويضرب في أخضرها اليانع صفرة بهية تزيدها حبات المطر تألقا، كريات كالندى. كان الحقل قريبًا من بيتنا، لم يكن لنا، ولكن كان ملاصقا للبيت فتملكه عيوننا أكثر من مالكيه.

«أبي اسمه محمد عبدالعزيز الحريري من أسرة توارثت نسج الحرير، كان

Books-sea.com

طويلا منحوت القسمات. وجهه أسمر وشعره أجعد مثلي. وكانت عيناه شديدتي السواد ثاقبتين تضفيان عليه حضوراً وهيبة. وكان جدي يقيم معنا بالبيت، كان يشبه أبي وإن جعلته الشيخوخة نحيلاً يبدو أقصر من أبي. كان يطيل الصلاة ويحمل بين يديه مسبحته طوال اليوم حتى وهو لا يُسبِّح بها. يصيح فينا حين نسرف في ا لصخب ولكني لم أكن أخافه، لا أدري لماذا لم أكن أخافه».

«أمي اسمها عائشة. كانت بيضاء، في جسمها امتلاء، تميزها ضحكتها، تضحك فيصير وجهها وضاء شديد الجمال. وكان أبي ينسج لها قطعة من الحرير كل عام فتفصلها ثوبًا ترتديه في ليلة النصف من شعبان، وأول رمضان، وليلة القدر والعيدين، وعندما تدعى لعرس من الأعراس. أتذكّرها في ثوبها الحريري الأزرق وفي ثوب آخر كحليّ به نقوش بيضاء».

«وكانت أختي نفيسة تصغرني بأربع سنوات. تقول أمي: فطمتك فحملت بها. أتذكر وأنا أحملها وأهدهدها حتى تنام. وأتذكر خطواتها الأولى وهي تتعثر في المشي، وأتذكر أنني كنت أحملها على ظهري وأركض بها في حقل الكروم وهي تضحك».

كان وجه سعد شاحبًا، وكانت سليمة تغالب البكاء. لم ينتبها لطلوع الفجر ولم ينبههما صوت مؤذن، إذ كان القشتاليون قد منعوا ذلك منذ زمن. غيَّر سعد ملابسه واستعد للذهاب إلى عمله.

لم يكن سعد راغبًا في مواصلة الحكاية، ولكن سليمة ألحّت فحكى على مدى ثلاث ليال تفاصيل كثيرة عن حصار مالقة، ثم سقوطها في نهاية المطاف بعد قصف مروع من البر والبحر. قال سعد: «كان القشتاليون يقصفون المدينة بكرات اللهب وكرات الرخام والمدافع اللمباردية التي يقتلك صوتها قبل أن تصل إليك قذائفها، ثم اقتحمت قواتهم المدينة ووزعوا الأجراس والصلبان على المساجد، وارتفعت بيارقهم على القلعة والأسوار وأبنيتها».

Books-sea.com

«بعد أيام عندما أعلنوا أن الملكين الكاثوليكيين قد أمرا بتوزيع حصص من القمح على الأهالي، كان جدي قد مات جوعا أو قهرا، وكانت نفيسة الصغيرة قد قتلها الجوع أو ربما الخوف. بكت أمي وكررت «ما نفع ذلك الآن؟!» ولكنها ذهبت وعادت بحصتنا من الطحين وعجنته وخبزته وقالت لي: «كل» فأكلت».

«في أول الأمر قالوا إن بإمكان أهل المدينة أن يجمعوا مشتركين فدية لكل أهلها من المال والذهب والمتاع المنقول: ثلاثين دبلة ذهبية عن كل رأس حتى وإن كان طفلاً رضيعًا. قيل إن بالمدينة خمسة عشر ألفا من السكان فكيف لأهلها بجمع مايفتديهم جميعًا؟ أرسلوا المراسيل إلى غرناطة وقيل إنهم طلبوا العون من المغرب».

«جمع القشتاليون ما استطاعوا جمعه من الأهالي، ثم قالوا إن الفدية لم تكتمل، وأعلنوا أن أهل مالقة جميعًا صاروا عبيدًا لملكي قشتالة وأراجون يتصرفان فيهم كيفما يريدان. وقرر الملكان تبادل الثلث مع أسراهم المحتجزين في بلاد المغرب، وفرض على الثلث الشغل المؤبد لسداد ما تكبدته الخزانة القشتالية من تكاليف الحرب، أما الثلث الباقي - وأغلبه من النساء - فقد خصص لإهدائه للبابا ونبلاء أوروبا وأفراد البلاط والمقاتلين، وكانت أمي من هذا الثلث الأخير».

«عندما أخذوا أمي كنت أصيح وأنتحب وألطم خدي. فعطف عليّ جنديّ قشتاليّ وربت على رأسي وجعل يسري عني ويحكي لي عن أولاد له في سني، كنت في الثامنة. قال: «ابق معي ولن يمسك أحد بأذى، سآخذك إليهم وأربيك معهم» أمضيت معه شهرًا في مالقة ثم ونحن في طريقنا، أقصد أنا وذلك الرجل، كان اسمه خوسيه بلانكو، إلى حيث يقيم، هربت منه».

كانت سليمة تستمع إلى حديث سعد وهي جالسة بجواره مقوسة الظهر قليلاً رأسها مائل ويداها معقودتان على بطنها. كانت تشعر برجفة تسري في

Books-sea.com

بدنها وألم في رأسها، وتقلص في أحشائها ثم قفزت من على الفراش خشية أن تفرغ ما في جوفها وهي تهرول: «سأذهب إلى بيت الخلاء» اندفعت إلى الباب وفتحته بسرعة فاصطدمت بأمها، وصرخت كلتاهما في صوت واحد، ثم واصلت سليمة ركضها إلى بيت الخلاء لتفرغ ما في أحشائها.

غلت لها جدتها أوراق النعناع مرتين، ثم عادت وأعدت لها كأسا من منقوع البابونج الساخن، كان النهار قد انتصف. قالت لها أمها وهي تتأملها:

- يبدو لي أنك أفضل الآن، وجهك أقل شحوبًا.. هل تشعرين أنك أفضل؟

أجابتها سليمة وهي تحدق فيها:

- ما الذي كنت تفعلينه خلف الباب يا أمي؟!

Books-sea.com

٩

رآها حسن في الخان. كانت تمسك بصاجتين بأطراف أصابعها، تصاحب عزف ثلاثة رجال. رجل كبير يُنزل من كتفه الأيمن حزامًا جلديا يقطع صدره، وينتهي عند خاصرته بطبلة أسطوانية كبيرة يدق عليها بعصوين خشبيتين صغيرتين، وشابان ينفخ كل منهما في مزمار فتنتفخ وجناتهما ويصطبغ وجهاهما بالأحمر.

كانت الموسيقى بصخبها المحبب وانسيابها وتقاطعها هي أول ما شده فنظر في اتجاههم، ولما نظر تعلقت عيناه بالبنت. قدر أنها في الثانية عشرة من عمرها، أو الثالثة عشرة على الأكثر. صغيرة ونحيفة لم يتكور جسدها بعد تكور الفتاة البالغة. وجهها خمري وشعرها مموج أسود وملامحها مليحة وعادية كبنات كثيرات يراهن في الأسواق، فما الذي استوقفه إذن؟ شيء ما في عينيها أو وجهها أو كلها يفتح لك بابا فتدخل من الظلام إلى النور، أو تخرج من عتمة سجنك إلى الفضاء الرحب، وتتعجب لأنك لم تَع أبدًا وجود ذلك الباب الموصد عليك.. فما الذي حدث؟ هل تكون البنت من بنات الغجر اللاتي يسحرن عقول الرجال فتملأ رءوسهم التهيؤات؟!

تعلقت عيناه بها ولما غض الطرف عرف أن روحه هي التي تعلقت. غادر المكان فبقي طيفها يلازمه. كانت سمراء، كان واثقا من ذلك، سمراء، شعرها أسود وعيناها سوداوان فمن أين أتت الألوان؟! هل كان ثوبها في لون الحناء على كفيها؟ هل هي خضرة الوشم أسفل شفتها أم كان ثوبها أخضر؟ أم هو وقع الصاجات وصخب الموسيقى تثير في الخيال وهجًا كزرقة اللهب؟

Books-sea.com

لازمه الطيف وألح فقال، أذهب إلى الخان وأراها فتتبدد الألوان فأعود لحالي.

ذهب مرة ومرة، ذهب مرات، ينظر ويغض الطرف حتى يراهم يحملون آلاتهم ويغادرون الخان.

ثم ذهب وعزفوا ولما انتهوا توجه إلى الرجل وقال:

- اسمي حسن، تربيت في بيت جدي أبي جعفر الورّاق رحمه الله، أعمل خطاطا وأتدرب على كتابة العقود. لم يتلعثم، واصل:

- إن كانت هذه الفتاة بنتك زوجها لي.

ارتعش جفنا الرجل ثم مد يده مصافحا.

- تفضل مع أهلك إلى دارنا وإن شاء الله يصير خير.

ذهب حسن مع جدته وأمه وأخته وسعد. لم يكن البيت فقيراً كما توقع. كان بيتًا عتيقًا من تلك البيوت الكبيرة المتوارثة لأجيال عديدة تتوسط باحته نافورة ماء، وتحيط به من جهات ثلاث عقود تفضي إلى القاعات.

دخلت النساء إلى حيث النساء ودخل حسن وسعد إلى قاعة مفروشة بالأبسطة والزرابيّ التي لم يطل قدَمُها الواضح جمال نقوشها وإن أفقد ألوانها رونقها الأصليّ. ولم تكن الجدران عارية بل مكسوة بالمعلقات، سيف قديم في غمده، نقش كتابة، خنجران غمداهما من الفضة المشغولة، آية قرآنية مكتوبة بخط كوفي وبيرق قديم.

جلس حسن وسعد في حضرة الرجل ورجلين يقاربانه في السن. قال إن أحدهما أخوه والآخر ابن عمه والشابين نافخي المزمار اللذين عرف حسن أنهما ابنا الرجل.

قدموا البرتقال والتين المجفف والتمر والزبيب. وكان حسن يدعو الله في

Books-sea.com

سره أن يفك عقدة لسانه، وظل لسانه معقوداً. تكلم سعد وتكلموا وتبسطوا وتبسط، ثم توكلوا على الله وقرءوا الفاتحة.

قالت أمه معاتبة بعد عودتهم إلى البيت: «لم تقل لي إن الرجل وأبناءه يعزفون في الخان!» تلعثم حسن ولم يجد ما يقوله. جدته هي التي قالت: لا يعيب الرجل شيء. كان منشداً ينشد في الأعياد والمواسم سيرة الحبيب وكراماته وبطولات ابن عمه. ثم جاءت الشياطين إلى بلادنا ومنعوا الإنشاد، فهل كان يسرق أم ينشد لملوك الروم؟!» ولكن أمه قالت: «لا أدري ما الذي أعجبك فيها. إنها سمراء مخضرّة ونحيفة كالعود. ابنة الجيران أحلى منها ألف مرة، فلم لا أطلبها لك؟!» نظر حسن إلى أمه نظرة عاتبة وقال: «لقد قرأنا الفاتحة يا أمي وما دار بيننا كان حديث رجال! ثم إنني أريد هذه الصبية بالذات»: بدا على أم حسن الامتعاض، وقالت: «يعز عليّ أن تتزوج من ابنة طبّال» اكفهر وجه حسن وتدخلت أم جعفر لكي تنهى الحديث، قالت «ما الذي دهاك يا زينب؟! البنت لطيفة وخفيفة الروح، وهي صغيرة لم يكتمل نموها بعد، عندما تزوجت كنت أنحف منها... مبروك يا حسن، إن شاء الله تكون عروسك قدم السعد عليك وعلى الدار كلها، ألف مبروك».

بعد أسبوع عقد حسن على عروسه. وقام أستاذه الذي يدربه على كتابة العقود بنسخ العقد.

«بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه من المهاجرين والأنصار وأحبابه وأوليائه أجمعين.

أما بعد، فهذا كتاب نكاح سعيد انعقد بيُمْن الله وبركاته وعلى منهاج الشرع الواضح بين حسن بن عليّ بن أبي جعفر الورّاق وبين البكر السعيدة مَريمة بنت أبي إبراهيم على صداق قدره خمس دُبلات من الذهب، والدار المتخلفة للزوج عن أبيه رحمه الله والواقعة بعين الدمع خارج غرناطة المحروسة، وجميع أصول الزيتون وجميع الكرم المغروس في الأرض المحيطة

Books-sea.com

بها، قبليها دار أبي محمد الشاطبي وجوفيها منية أم السعد بنت طه المَسْعود وشرقيها لرضوان أبي خليل وغربيها الجبل.

وعلى ما ذُكر انعقد العقد وتم وكمل منه القصد».

* * *

لَمْريَمَة صندوق ألفته منذ درجت قدماها على الأرض وتعلمت الأسماء وعقلت معناها. كانت أمها تقول: «هذا صندوق مريمة تحمله معها يوم تذهب إلى دار زوجها». كان الصندوق لجدتها ورثته عن أمها عن سلسال من الجدات القديمات.

صندوق خشبي مستطيل عليه رسوم عصافير وزهور وغصون تميل منقوشة بالبرتقالي والليموني والفستقي والأخضر. وحدة منمنمة من نقش عصفورين متشابهين متقابلين بينهما وردة تحيط بها وبهما الغصون. وحيث ينتهي قوس الجناح المضموم وطرف الذيل تبدأ وحدة منمنمة جديدة، ذيل عصفورها يكاد يلامس ذيل عصفور الوحدة الأولى، ثم يصعد مبتعداً مع قوس الظهر، وينتهي برأسه المتطلعة إلى الناحية الأخرى، حيث وردته وإلفه. وفي المثلث مقلوب الرأس الفاصل بين الوحدتين تكثر الفروع والأوراق ومنمنمات الزهور. تتكرر الوحدة كأنها نسج من الألوان المبسوطة على خلفية زيتونية زادها القدم دكنة وعمقا.

كان الصندوق كبيراً يمكن مريمة حتى سنوات قليلة مضت أن تجلس فيه. تلح على أمها فلا تقبل إلا فيما ندر. تقفز مريمة داخله وتجلس متربعة فيه يشاركها قارورة لازوردية، مملوءة بماء زمزم حملها جد من الأجداد إلى امرأته وهو عائد من الحجاز، ومنديل مطرز، وجلالة من المخمل الكحليّ المقصب، وقبقات تتداخل في خشبه البني مربعات ومثلثات دقيقة من الصدف اللامع، ومكحلتان إحداهما صغيرة من الذهب الخالص على شكل طاووس دقيق،

Books-sea.com

والثانية من الفضة لها مرود مستدير من غصون متفرعة، وحُقّ من العاج، وحجر غريب وردي اللون مائل إلى دكنة.

تجلس مريمة وهي في الخامسة من عمرها تلمس الأشياء في رفق كما أوصت أمها، يزيد من سرورها وعيها بأن الجلوس في الصندوق عزيز كالأعياد التي لا تأتي إلا بعد طول انتظار ولا يصح لغيرها من بنات الحارة. تحكي لهن وتسهب وتضيف ما يعن لخيالها فيصدقن لأن أيا منهن لم يتح لها رؤية الصندوق إلا مغلقا بقفله الحديديّ العتيق.

بعد أن طلبها حسن وقرأ الفاتحة مع أبيها أضيف لصندوق مريمة ثلاثة أثواب جديدة، وسباطان جلديان ومنديل مرقوم وخمار وقميصان وأربعة سراويل وزوجان من الجوارب الثقيلة وملف صوفيّ. طوتها أمها ووضعتها بحرص مع الأشياء الأخرى وأضافت مصحفًا صغيرًا تتوسط غلافه الأخضر كلمتا «القرآن الكريم» داخل نجمة ثمانية محاطة بزخرف نباتيّ، وكأنها قلادة ذهبية مستطيلة أودعت إطارًا دقيقًا من خطين ذهبيين تتداخل فيهما خضرة الغلاف بإفريز من متتاليات مسدسة ومزخرفة.

الصندوق وسليمة وأهلها وبعض الجيران حملتهم جميعًا عربة يجرها بغلان قويان قطعت بهم الطريق من غرناطة إلى البيازين، حيث كان حسن ينتظر وصول عروسه ضاويًا ومتألقًا.

وصلت العروس وتهللت الوجوه وعلت عبارات الترحيب والدعوات بالسعد والخيرات، ولكن واحدة من أهل البيت أو الجارات لم تطلق الزغاريد، ولا زغرودة واحدة. وكان هذا رأي أبي منصور الذي قاله لسعد فنقله سعد لحسن. وافقه حسن وأبلغه لأمه وأخته وجدته فأعلمن به الجارات.

قال أبو منصور:

- يا سعد هل تقيمون عرسًا في بيت أبي جعفر وقرى البشرّات تحترق، وأهلها يذبحون بالمئات كل يوم؟!

Books-sea.com

طأطأ سعد رأسه ولم يجد ما يقوله .

ـ هل تنطلق من بيت أبي جعفر الزغاريد والبشرّات في حداد؟!

لم يكن أبو منصور غاضبًا إذ كانت أيام الغضب قد ولّت . كان يجلس أمام باب الحمام ساهمًا ولا يتحدث إلا لمامًا ، يترك العمل في الحمام إلى معاونيه ويقول لسعد : «أنت عاقل ومسئول فتصرف بما تراه لائقًا» . لم يكن يدخل الحمام إلا لحظات ثم يخرج كأنما لم يعد يطيق الوجود في مكان مغلق بسقف فوق الرأس وجدران من كل جانب .

حين نقل حسن إلى أمه وجدّته كلام أبي منصور الذي قاله له سعد ، قالت أمه :

ـ وما الذي يقوله أهل الصبية ، عرس بلا طبل ولا زغاريد؟!

وقالت جدّته :

ـ سيأتي أهلها وجيرانها وأهل حارتنا ، فكيف نحييهم ونحتفي بهم؟

قال حسن :

ـ اذبحي الخراف وأعدي طعامًا مناسبًا ولا داعي للزغاريد والأهازيج .

لا أم جعفر ولا أم حسن بدتا مقتنعتين بهذا الكلام ، وإن نقلتاه لنساء الحي .

قال بعضهن : «أبو منصور على حق . . . » وقال بعضهنّ الآخر : «لو لم نقم الأعراس وندفئ قلوبنا بشيء من الغناء تقتلنا الأحزان!» وقالت أم جعفر : «ولكننا سنفرح ، سنجتمع ونشارك حسن فرحته . . . لن نزغرد ولن نغني ولكننا سنفرح!» قالتها وقامت لكي لا ترى النساء الدموع المترقرقة في عينيها والتي انسالت رغمًا عنها فأدارت ظهرها لهن .

وحده أبو إبراهيم كان يعرف أن عرس ابنته سيكون ليلة فريدة يظل يذكرها

Books-sea.com

كل من شارك فيها من أهل غرناطة والبيازين. حين أخبره حسن برأي أبي منصور علق قائلا: «إنه على حق، ويا ليت ما قاله قلته أنت أو أنا قبل أن يقوله هو»، ولحظتها عقد عزمه وقرر أن يذهب القشتاليون إلى الجحيم بقوانينهم وأوامرهم، سينشد في عرس ابنته، ومع قراره أتاه ذلك اليقين أنه حين ينشد سيأتي سحرًا.

وفي يوم العرس جلس الرجال في فناء الدار، وانهمك سعد ونعيم وإخوة مريمة في نقل الطعام وقنان ملأتها أم جعفر بعصير اللوز. وبعد أن أكل المدعوون ورفع الشباب بقايا الطعام قال أبو إبراهيم: «تعال يا حسن أريدك أن تجلس هنا بجواري»، ثم رفع صوته أكثر وقال موجهًا حديثه للمدعوين: «انتبهوا لحظة فأنا أريد أن أقدم هذه الهدية إلى زوج ابنتي». صمت الرجال وتطلعوا إلى أبي إبراهيم الذي لم يروا بين يديه شيئا. فأين هي الهدية يا ترى؟! ابتسم أبو إبراهيم ابتسامة عريضة. قال: «أول ما نبدأ نصلّي على النبي».

خيم صمت مطبق واشرأبت الأعناق مستطلعة أمر هذه البداية غير المتوقعة لتقديم هدية.

ثم ارتفع الصوت منشدًا:

لله درّ عصابة سارت بهم نُجبُ اللقاء بحضرة الرحمن
قطَعوا زمانَهمُ بذكر حبيبهم وتحققوا بسرائرَ القُرآنَ
ورثوا النبيَّ الهاشميَّ المصطفى من أشرف الأعراب مَن عدنانَ
ركبوا بُراق الحبِّ في حرم المنى وسرَوْا لقَدس النورَ والبرهانَ
قرعوا سماءَ جسومهم فتفتّحت أبوابُها فبدت لها عينان
عينٌ تبسَّمَ ثغرُهَا لمّا رأت أبناءها في جنّة الرضوانَ
وشمالها عينٌ تحدّرَ دمعُها لما رأتهم في لظَى النيرانَ

Books-sea.com

ما الذي حدث؟ ولماذا جفل الناس كأنهم حراثون، فاجأهم انهمار السيل بعد انقطاعه سنين طوالاً . . . ومن أين أتتهم تلك الرعشة التي سرت في أبدانهم فراحوا يغالبونها فتزداد وجوههم امتقاعًا؟

واصل أبو إبراهيم إنشاده عن «النبي الزين» و«نور العيون» و«صفوة الرحمن»، و«المصطفى الغالي» و«طه المُكمّل من بني عدنان»، وهم واجمون لا يدرون إن كانوا قد وقعوا في شرك الحنين، أم أن إبليسًا من أعوان القشتاليين قد جاءهم متنكرا في هيئة ملك من ملائكة السماء . . . ولكن هذا بيت أبي جعفر فمن أين لإبليس أن يطأه!

ثم بدأ أبو إبراهيم ينشد حكاية الملك المهلهل بن الفياض مع خالد بن الوليد. حكى عن الرسول وهو يصلي بالناس ثم يبكي وهو يعلمهم بأن عدوا قادمًا لقتالهم ومعه مائة ألف فارس وخمسون ألف راجل وأربعون ألفا من العبيد. . . «ماذا تقولون؟».

قال أبو إبراهيم: قال الصحابة:

«يا محمد نحن سيفك القاطع ورمحك الطائل وحجارتك الكاسرة وسهامك الجارحة، وأفراسك الجارية، وسنضرب ونضرب حتى نموت بين يديك».

وأرسل النبي ـ صلوات الله عليه ـ في طلب خالد:

ـ يا خالد ما منعك عنا؟ يا أخي خالد، ألم تسمع بلالاً ينادي للصلاة الجامعة مع نبيكم يرحمكم الله؟

فبكى خالد وبكى النبيّ لبكائه ثم قال:

ـ يا رسول الله، منذ ثلاثة أيام لم توقد نار في داري. . . ولديّ ثلاثة أبناء وثلاث بنات ألعب معهم حتى يأخذهم النوم على شدة الجوع.

Books-sea.com

النساء اللائي أطللن برءوسهن من الأبواب على استحياء، لم ينتبهن إلى أقدامهن وهي تتقدم بهن خلسة، خطوة، خطوتين، ثلاثًا، ثم تركز. وقفت النساء في رواق المشرفية المحيطة بالفناء، الجذوع ثابتة، الفروع تميل من حين لحين فيميل معها ظلها المديد، وفي ظلها المديد كان الرجال جالسين متربعين.

«من بين كل صحابته اصطفى الرسول خالد بن الوليد ليحمل رسالته إلى المهلهل. قال النبي صلوات الله عليه:

- يا أخي خالد، إذا طلعت جبلاً فاذكر الله، وإذا مررت بواد فكبر الله، وإذا فطر الحزن قلبك فاتل من القرآن فإن القرآن شفاء للصدور المحزونة. وإذا بلغت هؤلاء القوم فلا يدخل قلبك الفزع ولا الخوف منهم.

ثم خرج خالد من باب المدينة، ولم يكف عن المسير الحثيث ليلاً ولا نهارًا حتى دخل في أرض موحشة داخلها مفقود، والخارج منها مولود. . . لا ماء فيها ولا زرع، فوقع الجواد من شدة العطش والجوع. . . قال خالد:

يا جوادي يا صاحبي أتتركني وحدي وتذهب؟

تطلع إليه الجواد بعينين كسيرتين، فربت خالد على رأسه وقلبه، ثم وضع ثيابه في حزامه، وحمل السرج على عاتقه وودع حصانه ومشى. سار مسافة فرسخين ثم لم تطاوعه نفسه وعاد فوجد الحصان مسبل العينين وطائر الموت على رأسه، فقال:

- يا طائر الموت، ألا تعلم أن معي كتابًا من رسول الله. . . يا طائر الموت دع حصاني واذهب. . . ويا حصاني يا حصاني قم. . .

فلم يتم كلمته حتى حلق طائر الموت مبتعدًا، ونهض الحصان على قوائمه وضرب الأرض بحوافره وتحرك، فتبعه خالد على قدميه وظلا يسيران معًا حتى بلغا جبلاً شاهقًا فصعدا بطيئًا وبرفق حتى وصلا إلى قمته، فشهدا في

Books-sea.com

أسفل الجبل واديًا تظلله الأشجار وتجري من تحته الأنهار، فهبطا إليه رويدًا رويدًا وقال خالد:

ـ يا حصان كل من هذا فإن الله من رزق.

فطعم الحصان وشرب فصح وصهل معافى.

قال خالد:

ـ يا صاحبي يا حصان، احرسني قليلاً حتى أنام.

وخلع درعه وضم سيفه إلى صدره وغشيه النعاس فنام، فوجد حصانه يضرب في الأرض بحذافيره، فشعر به خالد فاستيقظ من نومه مذعوراً فوضع رجليه في الركاب وامتطى صهوة جواده حتى استوى على سرجه . . . فرأى ألف فارس يتقدمون نحوه. . . أطلقوا لخيولهم العنان، وأشرعوا في أيديهم الرماح».

أنشد أبو إبراهيم عن لقاء الفارس بالفرسان، وسيوف بتارة تلتمع، وثياب تخضبت بالأرجوان، وحمحمة الخيول في حومة الوغى.

قال أبو إبراهيم:

«ولكنهم اجتمعوا على خالد وأخذوه وأوثقوه بالحبال.

وقال الملك:

ـ خذوا حصانه واذبحوه واسلخوه وضعوه في جلده وأوثقوه إلى هذه النخلة وأعدوا الحطب. غدا نحرقه فنحرق معه قلب أبي القاسم وركنًا من أركان الحجاز.

وظل خالد على هذه الحال حتى إذا جنّ الليل رفع رأسه إلى السماء ونظر إلى النجوم. ولما نامت العيون ولم يبق في الثقلين سوى الحيّ الذي لا ينام، هبت عليه نسمة من الغرب راح يغني ويقول. . . .».

Books-sea.com

ارتفع صوت أبي إبراهيم بالأغنية الحزينة وهم ينصتون إليه ويتطلعون، لا يعرضون عنه طرفة عين. ما هذا الصوت ومن أين جاء؟! كان الذي أمامهم رجلاً مثلهم يمشي في الأسواق ويسعى لإطعام عياله، فما الذي في صوته لكي تسري روحهم هكذا إليه؟!

العيون المستديرة ارتسمت صورة الصوت فيها، فهل للصوت رسم وهل في الصوت ضوء؟! كانت الوجوه كماء النهر تترجرج، مرايا متقابلة صقيلة تعكس ضوء الشمس وصورتها المعكوسة بعضها على صفحة بعض.

«عليّ هو الذي سمع الصوت وأتى لنجدة خالد. الفتى عليّ حمل سيفه ذا الفقار وركب حصانه السرحان وركض لنجدة خالد. تابع صوته حتى وصل إليه وهز النخلة. فقال خالد:

ـ من ذا يهز مشنقتي؟

قال عليّ:

ـ يا خالد إن الله مع المحزونين.

وانتزع علي النخلة من جذورها، وتلقف خالد بين ذراعيه برفق شديد حتى لا تؤذيه الأرض، وأخرج سكينا كان معه وقطع حباله من أسره، وحمله إلى النهر، ونظفه مما علق به من جلد الحصان ودمه، وتناول عليّ ثوبًا من ثيابه، وأخذ العصابة التي كان يعقدها على رأسه وشطرها نصفين، وأعطى خالد نصفها وألبسه الثوب. وعندما أذن الله للصبح الطيب بأن يطلع صعد عليّ وخالد إلى ذروة الجبل، وتجلى النهار وأشرقت الشمس وتحرك القوم وركب العدو اللعين والشيطان الرجيم في خيله وقواده وجيشه، يتقدمهم ملكهم المهلهل. فأخذ عليّ يضرب الجواد بالمهماز، وقفز عليهم كما يهبط العقاب من السماء، وكشف عن علامته الهاشمية فقال له المهلهل:

Books-sea.com

ـ يا عليّ ليس كل أبيض برد، ولا كل أسود فحم، ولا كل ما يبدو أخضر ريحان، ولا كل حصان يدور في الميدان.

يا علي أنا الملك المهلهل بن الفياض، لم تلد النساء مثلي، فإن أردت أن تنجو من الذعر أعطيك ما تنجو به.

قال عليّ:

ـ ما تريد يا لعين الله؟

قال المهلهل:

ـ ترجل عن حصانك وقبل ركابي وقدم لي التشريف العظيم بين أصحابي.

فقفز علي إلى حصانه وهو يصيح:

ـ يا حصاني يا سرحان! أستحلفك بالله أن تنطلق بخفة.

واستقر عليّ على صهوة الحصان، ونقل السيف من اليمنى إلى اليسرى ومد ذراعيه تحت إبط عدو الله ونزعه من السرج، كما لو كان طائراً في مخالب عقاب، وقذفه على الأرض وضربه بسيفه ذى الفقار فقتله.

ثم عطف علي على خالد وهو يصيح «الله أكبر»، فهجم كلاهما كأسدين ضاريين، عليّ من جانب وخالد من جانب آخر، وتساقط العلوج أكوامًا، ولم تزل الشمس من قبة السماء حتى لم يبق أحد منهم».

انطلقت زغرودة مجلجلة ترددت في أرجاء الدار، تطلعت عيون الرجال ودارت رءوس النساء، كانت أم جعفر بطولها المديد منزرعة في قلب الفناء تزغرد.

Books-sea.com

١٠

يوما بعد يوم كان نعيم يزداد يقينا أن عين حسود أصابته إصابة من ذلك النوع قوي المفعول، الذي يمتد أثره لسنوات طويلة، وإلا فكيف يفسر أن تسرق قلبه صبية لا يعرف لها اسمًا ولا أصلاً ولا دارًا يدق بابها ويقول زوجوني ابنتكم. ويمر عام وعامان وثلاثة وهو لا يرى في وجوه البنات إلا وجهها يقيم معه في صحوه ومنامه ويعذبه بالغياب حتى يملأه الغيظ منها والحنق على نفسه. ويقسم أيمانا مغلظة أن يتزوج ويقع اختياره على أول صبية صبوحة الوجه تمر بالحارة، وفي اليوم نفسه يسأل عنها ويحسم أمره ويذهب مع سعد إلى أبيها فيوافق فيقرءون الفاتحة، ويهنئ نعيم نفسه قبل أن يهنئه الآخرون على العروس وزوال النحس معا، ثم يأتيه أبو البنت ويقول:

- يا نعيم، القشتاليون يضيقون علينا ويحمّلوننا ما لا طاقة لنا به، وأخي في فاس قال لي تعال العمل متوافر والخير كثير.

- لا تحمل هما يا والدي، سأصون ابنتك وأكرمها، سافر بالسلامة وحين يفرجها الله تعود.

- سافر أنت معنا وليتمم الله بخير!

لا يقبل نعيم السفر فيحمل الرجل ابنته ويرحل.. يحكي نعيم همه لأم جعفر فتقول له:

- سأجد لك عروسا أحلى منها.

Books-sea.com

ـ يا أم جعفر لا أريد لا أحلى منها ولا أقبح، أريد بنتا طيبة أتزوجها لأنني صرت كالبضاعة الراكدة، والسنوات تمر، وقد أجد نفسي كهلاً بلا زوجة ولا أولاد.

تضحك أم جعفر لكلامه.

ـ اترك لي الأمر وسأزوجك صبية كالبدر التمام.

تبحث أم جعفر عن العروس المناسبة وتجدها وتحدثه عنها... طولها وعرضها ووجهها وشعرها وخفة روحها فيذهب نعيم برفقة سعد وحسن لمقابلة والد العروس، وقبل كتابة العقد بيوم واحد تأتي أم العروس إلى أم جعفر وتقول لها والدموع تملأ عينيها: إن زوجها قرر أن يتنصر بعد قرار القشتاليين بمنع الاتصال بين مسلمي غرناطة وسكان المدن القشتالية الأخرى:

ـ إنه مكاري ورزقه ورزق عياله يا أم جعفر في تلك الحمولات التي ينقلها حماره من هنا وهناك. وعلينا الآن أن نتنصر جميعًا، أقصد الأسرة كلها، وإن أراد نعيم أن يتزوج ابنتنا فعليه هو أيضا أن يفعل ذلك.

حكت أم جعفر لنعيم:

ـ الحق أنها كانت تبكي ورغم أنني وبختها على قرار زوجها إلا أن قلبي كان مشفقًا عليها، ذهبت المرأة بعد أن قلت لها إن نعيمًا لا يفعل ذلك ولوضعوا السكين على عنقه، أليس كذلك يا نعيم؟!

ـ طبعًا يا أم جعفر.

ساعتها عرف نعيم أن حظه تعس، وأن سوء الطالع قد يرافقه حتى ينحني ظهره وتسقط أسنانه. تهوّن أم جعفر الأمر عليه:

ـ تأخرت صحيح، ولكنك مازلت في العشرين من عمرك!

ـ الثانية والعشرون يا أم جعفر!

Books-sea.com

لا يقول لها إن عينًا أصابته وإنه في الثالثة عشرة كان يحب كل أسبوع صبية جديدة. يتنهد متحسرًا على حاله وهو يفكر: ترى عين من تلك التي أصابتني؟! لو عرفت أطلب من صاحبها أن يوجه مفعولها إلى القشتاليين فمفعولها شديد، شديد جدا!

كان سعد قد تزوج واختزلت لقاءاتهما اليومية إلى لقاء واحد يتم كل أسبوع. سعد منشغل بعروسه وهي الآن حبلى وغدًا تأتيه بالأطفال فينشغل أكثر، وحسن أيضا تزوج وصار له زوجة تشغله، وهو؟ تشغله النعال التي ينحني عليها طول النهار، وفي المساء يدور وحيدا في الطرقات، أو يجلس بباب الحانوت يفكر في العين التي أصابته.

كان نعيم يجلس ضجرًا بباب الحانوت حين رأى سعدًا مقبلا عليه. لم يكن يوم لقائهما الأسبوعيّ. قفز نعيم متهلّلاً وحيّا صاحبه بصخب، ثم ركض إلى داخل الحانوت، وجاء بعنقود من العنب وخمس حبات من التين وحفنة لوز وضعها أمام سعد مبتسمًا.

- اشتريتها اليوم كأن قلبي حدثني أنك ستأتي لزيارتي، تفضل كل يا سعد.

انتبه إلى وجه سعد، كان هناك ما يكدره.

- ما بك يا سعد؟

- سليمة تضع مولودها بعد شهرين.

- أعرف.

- ربما أخطأت في الزواج منها.

فتح نعيم عينيه في استغراب، ثم قال وعلى شفتيه شيء من بسمة:

- هل شربت من خمر أبي منصور؟

- لم أشرب.

Books-sea.com

ـ تشاجرت مع سليمة؟

ـ لم أتشاجر.

ـ ما الذي حدث إذن؟

ـ ما الحكمة في الزواج إن لم يكن المرء قادرا على إعالة أهل بيته؟

ـ هل قالت لك أم حسن ما ساءك؟

ـ لقد جاءوا اليوم إلى حمام أبي منصور وأغلقوه، وأغلقوا كل حمامات البيازين.

كان نعيم فاغرًا فاهُ، لم يفهم كلام سعد.

ـ هل أنت متأكد؟!

ـ قلت لك أغلقوا الحمام. جاءت جنود وأخرجونا منه وأغلقوه وقالوا إن فتح أي حمام بعد اليوم يعرض صاحبه والعاملين فيه لأشد العقوبات!

ـ لماذا؟

علت وجه سعد ابتسامة ساخرة مرة.

ـ يقولون إن الحمامات ضارة بالصحة، وإنها عادة عربية سيئة وبلا معنى.

ـ وأين يستحمّ الناس؟

ـ ولماذا يستحمّون، هل يستحمّ أسيادهم القشتاليون؟!

ـ وما دخل سليمة، هل تشاجرت معك بسبب إغلاق الحمام؟

ـ يا نعيم الله يرضى عليك... لم أتشاجر مع سليمة ولا تشاجرت هي معي. أنا الآن بلا عمل، ألا يكفي أنني أقيم في دار حسن؟ هل أقول له يا حسن أنفق عليّ وعلى زوجتي وعلى طفلنا حين يأتي؟!

Books-sea.com

ـ حسن أخوك ونعيم أخوك وستجد عملاً.

مرت لحظات صمت قطعها نعيم وهو يقول كأنما لنفسه:

ـ أولاد الكلب. . . يغلقون الحمام، أين نستحمّ إذن؟!

عادا للسكوت، بدا كل منشغلا بما في رأسه حتى قال نعيم وهو يلتقط حبة عنب ويضعها في فمه.

ـ غداً تعال عندي، تعالَ ما أن يطلع الفجر، سأعلمك بعض الأشياء التي أقوم بها، ثلاثة أيام أو أربعة وتتقن كل ما أقوم به، ثم نسأل معلمي أن يشغلك معه. سيغضبه خبر إغلاق الحمامات، وقد يرق قلبه ويعطيك عملاً. طبعًا سيسألك «هل عملت إسكافيا من قبل؟» قل له عملت عدة سنوات قبل أن أنتقل للعمل في حمام أبي منصور، سيقول لك أين ومع من؟ قل له في مالقة، سيقول لك أرني كيف تعمل فتريه ما علمته لك، ما رأيك؟

ذهب سعد وراح نعيم يتأمل ذلك الأمر العجيب بإغلاق الحمامات. أن يقاتلك عدوك أمر مفهوم، ولكن ما الحكمة في إغلاق حمام أو إجبار الأهالي على التنصر؟ القشتاليون قوم غريبون مختلو العقول على ما يبدو، ولكن ما السبب في اختلال عقولهم؟ ألم تلدهم أمهاتهم أطفالا أصحاء عاديين مثل باقي الخلق؟ كيف تفسد عقولهم فيأتون بهذه الأفعال الغريبة؟ فكر نعيم في ذلك ولم يجد إجابة شافية. لعله البرد القارس في الشمال يجمد جزءا من رءوسهم فلا يسري الدم فيه فيموت أو يفسد، أو ربما هو لحم الخنزير الذي يسرفون في أكله فيصيبهم بالخبل؟

ورغم قلق نعيم من أمر إغلاق الحمامات وفقد سعد لعمله، إلا أن شيئًا بداخله كان يتعجل الغد، يكاد لولا الحياء، يعلن السرور لإمكانية أن يعمل سعد معه في الحانوت فيعودان كما كانا يلتقيان كل يوم ويتحدثان بلا انقطاع كعهدهما القديم.

Books-sea.com

ما أن استقر نعيم على فراشه حتى استغرق في نوم هادئ، ولم يستيقظ إلا حين سمع دقا على البابَ، وإذ بالفجر طالع وسعد أمامه وقد جاءه حسب اتفاقهما في الليلة السابقة.

ـ معلمي لا يأتي قبل الضحى. أمامنا متسع من الوقت. احكِ لي أخبارك أولا ثم نبدأ في العمل...

ابتسم سعد وهو يتطلع إلى نعيم الذي انتبه أن صاحبه تركه في ساعة متأخرة من الليل، فمن أين الأخبار الجديدة! ولكنه قال مبررًا كلامه:

ـ قصدت أن أسالك هل التقيت أحدًا وأنت عائد من عندي؟ هل لقيتك أم حسن بتعليق سخيف من تعليقاتها؟ هل حلمت بشيء هذه الليلة أم كان نومك عميقًا بلا أحلام؟ طبعًا هناك دائمًا جديد!

ضحك سعد فضحك نعيم ثم قاما للعمل.

* * *

أم حسن لا تكف عن إعلان تبرمها من كنتها، وتقول لأم جعفر:

ـ النساء يزوجن أبناءهن فتأتي الكنِّات ويحملن العبء كله.. وهذه مريمة كقلّتها، بلهاء لا تتقن شيئا!

فتقول لها أم جعفر:

ـ إنها صغيرة يا زينب. علميها فتتعلم!

ـ وكيف لي أن أعلمها وهي لا تأتي لتقف معي وأنا أطبخ، ولا تسرع لأخذ المكنسة من يدي وهي تراني منحنية أقش الدار.

فتضحك أم جعفر وهي تشير إلى أن سليمة لا تفعل ذلك، وأن مريمة، رغم أنها أصغر، تسمع على الأقل الكلام وتجيب إن طلب شيء منها. أما سليمة

Books-sea.com

فتتبرم أو تختلق لنفسها عملاً آخر وتقول: ليس بإمكاني أن أقوم بعملين في وقت واحد!

- إنهما صغيرتان والحمل يثقلهما، ستعلمهما الأيام والأطفال أيضا.

ولكن أم حسن تواصل شكواها من مريمة دون سليمة، فتضحك أم جعفر وتكرر أن الحماة هي الحماة لا تقبل كنتها وإن كانت كعكة بالسكر... «هكذا كل الحماوات إلا أنا!».

تدافع أم حسن عن نفسها وتعزز دفاعها بأنها لم تر أبدًا امرأة يقوم زوجها من نومه، ويذهب إلى عمله وهي بعد نائمة في فراشها، وتقضي النهار بعد ذلك وهي تثرثر، فتكرر أم جعفر في عناد:

- ابنتك مثلها تماما، كأنما ولدتا من نفس البطن، فلماذا تلومين الواحدة دون الأخرى؟!

لم تكن أم حسن تقارن مريمة بسليمة بل بنفسها، فتتيقن أن ابنها خانه الحظ في الزواج من صبية ماهرة نشيطة في تدبير أمور بيته. أم جعفر تدافع عنها، تقول صغيرة ولكن الصغيرَ يتعلم، يتبع الكبير ويقلده ويستفيد من معرفته، وهذه المريمة خرقاء بلداء لا تريد أن تتعلم شيئًا. كانت في سنها حين تزوجت، لكنها كانت حريصة على كسب ثقة حماتها وإعجابها. كانت تتبعها كظلها وتراقبها وتحاكيها وتبذل كل جهدها في قش الدار ومسحها، في غسل الملابس وفي دعك القدور النحاسية المقصدرة حتى تصير لامعة كالمرايا.

وفي المطبخ تقف بالقرب من أم جعفر أو تجلس بجوارها لا تغفل عيناها لحظة عن متابعة الطريقة التي تعد بها حماتها الكسكس والمرقة الحلوة والثريد والفطائر. حتى عندما كانت تعرف طرقًا أخرى لإعداد الطعام تعلمتها من أمها وعماتها كانت تنتبه للطرق الجديدة لكي تتعلمها ولم تمض شهور معدودة حتى صارت أم جعفر تعتمد عليها في إعداد الكثير من الأطعمة. كانت في سن

Books-sea.com

مريمة عندما أصبحت تتقن حفظ اللحم بتقديده، وأمعاء الخراف بحشوها، والسمك بتمليحه، والزيتون والليمون والباذنجان بتخليلها، وتتقن صنع أنواع الفطائر والجبن والمعجون والشراب وغيرها مما لا تخلو منه دار عامرة بالآكلين من أهلها ومن الضيوف.

قبل أيام انتبهت إلى أن الغسول الذي يفركون به أيديهم بعد الأكل كاد ينفد، فنادت مريمة وطلبت منها أن تعد قَدْرًا جديدًا منه. لم تطلب منها أن تحشو خروفًا، ولا أن توقد نارًا ولا أن تعجن وتخبز. طلبت منها أن تعد غسولا لا أكثر ولا أقل. قالت لها مريمة: «صفيه لي فأعده»، فاستعجبت من جهل الصبية، ولكنها تحلت بطول البال وقالت: «تخلطين ثمار النبق بالزعتر الجاف وأوراق الورد وأوراق الليمون الجافة وتضيفين لها بعض مسحوق خشب الصندل وقَدْرا من مسحوق جوزة الطيب، هذا هو كل المطلوب» ذهبت مريمة إلى المطبخ. وجاءت إليها أكثر من عشر مرات، مرة تسأل عن مكان الزعتر الجاف ومرة عن مكان المهراس لكي تطحن ما يجب طحنه، ومرة تسأل عن المقادير. وعندما قامت إلى المطبخ لترى الغسول الذي أعدته بنتها قلبت شفتها امتعاضًا وقرفًا وكادت تلقي به لولا أم جعفر التي رجتها ألا تكسر بخاطر البنت. ماذا لو كانت طلبت منها أن تعد وجبة من الكسكس؟! لو فعلت لجاءتها البنت بعجين مخبوص في لحم نيئ. . . لا تدري ما الذي أعجب حسن في تلك البنت، لا هي جميلة ولا ماهرة ولا تتقن سوى الثرثرة مع سليمة!

كانت العلاقة بين سليمة ومريمة سلسة تتعمق يومًا بعد يوم يعززها أن سليمة التي كانت تكبر زوجة أخيها بثلاث سنوات تقوم بدور الأخت الكبرى. وكانت مريمة عذبة لطيفة تتقبل ذلك ولا ترى فيه غضاضة، وكانت تشعر باحترام بل هيبة أمام قدرة سليمة على أن تفتح كتابا وتحدق فيه وتفك طلاسمه وتتفضل عليها بالحديث عما فيه. وزاد شعور مريمة بالمحبة لسليمة حين اقترحت عليها يومًا أن تعلمها القراءة والكتابة.

Books-sea.com

ـ وهل أصلح؟

ـ ولماذا لا تصلحين؟!

وعلقت أم حسن:

ـ لم يكن ينقصنا إلا هذا!

زاد على حديث البنتين معًا وثرثرتهما التي لا تنتهي تلك الجلسات اليومية التي تمسك فيها مريمة باللوح وتجلس سليمة أمامها وتملي عليها الحروف والكلمات ثم تصححها لها.

وأم جعفر وأم حسن تعدان الطعام وتنظفان الدار وتغسلان ما اتسخ من الثياب، والبنتان جالستان في مكانهما بلا حراك، حتى عندما لا تتحدثان أو تدرسان تجلسان متجاورتين، سليمة تقرأ في كتاب من كتبها ومريمة تطرز أقمطة لوليدها ووليد سليمة القادمين.

* * *

تحدث نعيم مع معلمه، قال:

ـ صديقي إسكافيّ ممتاز. تعلم الصنعة في مالقة ثم جاء إلى غرناطة وعمل مع إسكافيّ كبير، ثم وجد أن معلمه يجاري القشتاليين ويصاحبهم، فأفضى بهمّه إلى أبي منصور وأنت تعرف أبا منصور لا يقبل الحال المائل. قال له تعال اعمل معي في الحمام واترك هذا الوغد.

ـ مسكين أبو منصور أغلقوا حمامه!

ـ أقول يا معلمي، أخشى أن يذهب صديقي للعمل في محل الإسكافيّ الذي في الحارة المجاورة فتنافس بضاعته بضاعتنا.

ظل معلمه صامتًا فلم يجد نعيم بدًا من الحديث مباشرة في الموضوع.

Books-sea.com

ـ أقول يا معلمي، لمَ لا تطلب من سعد أن يعمل معنا؟

ـ ليس بمقدوري أن أدفع أجرًا لعاملين، ثم إن العمل ليس كثيرا إلى هذا الحد.

الثعلب الماكر. كل أهل الحارة يعرفون أنه من شدة تقتيره ادخر ذهبا كثيراً، ويقولون إنه أخفاه في داره في ثلاث جرار. هل يقول له إن العمل كثير، وإنه لم يعد قادراً على القيام به وحده؟

ـ والله يا معلمي إن العمل والحمد لله كثير لو كنا اثنين نتقنه أكثرَ.

ـ ليس في مقدوري دفع أجر لاثنين!

لا فائدة. . . ليطرق بابًا جديدًا:

ـ دعني أقل لك الحقيقة يا معلمي. . . لم اللف والدوران وأنت معلمي الذي أكرمني ولم يضنّ عليّ بشيء؟!

ـ الحقيقة؟

ـ الحقيقة أنني مقدم على الزواج.

ـ هل وجدت عروسًا؟

ـ لم أجدها بعد لكنني مقدم على الزواج، ولقد وجدت عملاً مجزيًا أكثر يسمح لي بتوفير المال اللازم للقيام بأعباء أسرتي. . ولكني قلت لنفسي يا ولد ليس هذا سلوك رجال. . . تترك عملك هكذا فجأة وتقطع بمعلمك. ذهبت إلى صاحبي وسألته إن كان يرغب في العودة إلى حرفته القديمة.

ـ إذن تريد أن تترك العمل معي؟

ـ حاشا لله يا معلمي كل ما في الأمر أنني مضطر لقبول عمل آخر قد لا أحبه ولكني أحتاج إلى أجره.

Books-sea.com

ـ وهل صديقك هذا أمين . . هل يمكنني الاعتماد عليه؟

ـ إنه أفضل مني .

ـ إذن دعني أره .

هبَّ نعيم واقفًا . .

ـ أذهب لإحضاره؟

ـ لا ليس الآن ، أكمل ما بين يديك من عمل ، وعندما تنتهي اذهب إليه .

ما أن انتهى نعيم من عمله حتى انطلق قاصداً بيت أبي جعفر . قطع الشوارع ركضًا حتى إذا وصل إلى الحارة التي يقع فيها بيت أبي جعفر انتبه إلى أنه لم يفكر فيما سيقوله لسعد حين يسأله عن العمل الذي سيترك من أجله حانوت الإسكافيّ ، عليه أن يختلق كلامًا مقنعًا لا يثير في صاحبه أي شك . تراجع نعيم عن طريقه وراح يتمشى ببطء وهو يفكر في حل هذه المعضلة الجديدة .

Books-sea.com

١١

في ستر الليل خرج أبو منصور إلى حمامه حتى إذا بلغه توقف لحظات أمام بابه الخشبي العتيق قبل أن يخرج المفتاح من جيبه ويديره دورتين فيه بحرص. دفع الباب ودخل ثم أغلقه وراءه بالحرص نفسه. ورغم ذلك أحدث الباب صريراً عالياً بدا لأبي منصور أنه لابد تردد في البيازين كلها.

ورغم الظلام الدامس لم يتحسس أبو منصور طريقه بل تقدم خمس خطوات، ثم مال يساراً وصعد ثلاث درجات ومد يده وأنزل السراج من مكانه وأشعله وأعاده، ثم انتقل إلى قنديلين آخرين وأشعلهما. نزل واتجه إلى الجهة المقابلة وفعل الشيء نفسه.

عاد إلى مصطبته وجلس ثم مال برأسه قليلاً إلى الوراء وأغمض عينيه كأنه يسلم نفسه للنعاس. لم يكن بحاجة لأن يفتح عينيه ويضيء القناديل لكي يتملى تفاصيل المكان، ومع ذلك فقد عاد وفتح عينيه الواسعتين وراح يتطلع: الصحن المربع وأرضيته المغطاة بالأبسطة، والأقواس الأربعة العالية تلتقي في قبة دائرية مزينة برسوم توريقات وتعريقات أخضرها عميق وغائر كأخضر الزيتون. وعلى المثلثات التى تفصل بين القوس والقوس رسوم قرطبة، مسجدها الجامع وحدائقها وقصورها.

حدق أبو منصور في الصور، ثم رفع رأسه وعاد يتطلع إلى القبة، ثم انحدرت عيناه إلى الرقبة التي تحملها تحصيان النوافذ التي فيها والتي يعرف أنها اثنتا عشرة، عدها. ثم راحت عيناه تنتقلان بين المقصورتين المتقابلتين تصعدان

Books-sea.com

إليها ثلاث درجات، فتجدان المصاطب الثلاث مغطاة بالسجاجيد والزرابيّ. وفي الحائط من وراء المصاطب الحنايا المتقابلة يحمل بعضها القناديل وبعضها الآخر خُصِّص للمناشف المطوية التي تفوح منها رائحة الخزامى المصرورة في أكياس قماشية صغيرة مدسوسة بين الطيات.

فرد أبو منصور ذراعيه وأسندهما إلى ظهر المصطبة وأغلق عينيه فرأى أباه يصرخ غاضبًا ويصفعه فيخرج راكضًا من البيت وفي نيته ألا يعود أبدًا إلى تلك العائلة التي تسجن أولادها جيلاً بعد جيل في قفص أنتجه جنون جد قديم.

كانت حكاية الجد، وهو في الحقيقة أبو جد الجد، تركة عائلية تتناقلها الجدة والجد والأب والأم والعمة والعم بتفاصيل التفاصيل بلا ملل أو كلل، وكأن الوجود قد اختزل فيها.

الجد الكبير الذي هاجر من قرطبة بعد سقوطها منذ أكثر من مائتي عام تاركًا وراءه بيته وحمامه وصل إلى غرناطة ومعه عياله وشيء من المال ورغبة تلح لا يريد من الدنيا سوى تحقيقها. أحلامه في الليل وأحاديثه في النهار وفعله اليوميّ ما بينهما كلها تركزت في تلك الرغبة: أن يبني حمّامًا أكبر من حمّامه القديم. ترك زوجته وأولاده وارتحل إلى الشام ليتحقق إن كانت حمّامات الشام حقًا أجمل من حمّامات قرطبة كما يقال. سافر وشاهد وضاهى وعاد بعد عامين. أنزلته السفينة في مالقة ومنها عاد في موكب من خمسة بغال ركب أحدها وأركب المهندس الدمشقيّ ثانيها، وحمّل الثلاثة الأخَر ما اشتراه من دمشق والقاهرة والإسكندرية لأجل الحمّام. وعندما دخل على زوجته وأفرغ حمولته بكت، ليس فقط لأنه لم يتذكرها بقطعة حرير دمشقيّ، ولكن أيضا لأنه لم يأت بشيء لابنته العروس، ولا لابنه الذي كان ينتظر عودة أبيه لكي يعقد على عروسه.

شرع عفيف في بناء الحمّام. عامان كاملان قضى كل يوم من أيامها يشرف على البناء. من مطلع النهار حتى مغيب الشمس، في شهور الشتاء يتدثر بملفه

Books-sea.com

الصوفي العتيق، وفي شهور الصيف يتخفف مكتفيا بمقطع تونسي رقيق ويقف، في البرد القارس والقيظ، مع المهندس والبنائين والنجارين. ينتهون من الباب فيصيح مخذولا: «وهل هذا باب. . . إنه قطعة مصمتة من الخشب؟!» ويدهش النجارون وهم يتأملون الباب المحفورة تفاصيله بحرفة وأناة. ولكن عفيف يحلم بأبواب رآها في القاهرة والشام وقرطبة التي راحت «سأوفر الخشب وأدفع ما تطلبونه، والله يعين على صنع باب جديد!».

الباب والبركة والحوض الرخامي وتعريقات النباتات على القبة والصندوق والمصطبة والمشكاة، كلها تسرق نقود عفيف وأيامه. يستدين نقوداً ولكن الأيام. . . من أين؟! بعد أسبوع من انتهاء بناء الحمّام مات عفيف تاركا لزوجته وأولاده السبعة ديناً ثقيلاً للأهل والأصحاب والجيران. عمل أولاده وأحفاده في الحمّام وفتح الله عليهم أبواب الرزق. كانوا نشطاء وكان «حمّام الزين لصاحبه عفيف القرطبي» متعة للعين والبدن. سدّدوا ديون جدهم.

قام أبو منصور من مكانه واتجه إلى الصندوق، صندوق الأمانات الذي يودع الرواد فيه بقجاتهم المصرورة على ملابسهم ونقودهم. صندوق كبير مستطيل تحمله أربع قوائم خشبية ترتفع به عن الأرض شبراً. كان مصنوعًا من خشب الجوز حفرت عليه تعريقات نباتات تتمايل لتتصل وتنفصل، يتداخل بينها مثلثات ومربعات من العاج يلاطف دكنة الخشب العتيق بصفرة أبيضه المضيء.

وضع أبو منصور المفتاح في القفل الحديدي ورفع غطاء الصندوق، لم يكن به سوى مصحف صغير ومنديل معقود على زهر الخزامى المُجفف ينشر رائحته النفاذة في أنفه وصدره.

- لا أريد أن أعمل في الحمّام.

- وما الذي تريده. . . الركض وراء المنشدين والسكر والغناء؟!

Books-sea.com

ـ هذا أفضل من العمل في الحمّام!

لطم أبوه وجهه. في الشباب قسوة، في الشباب غباء، وفي الشباب عيون لا ترى. الآن يفهم ما أصاب أباه من فزع. لم يكن الحمّام حمّامًا بل تاريخًا عائليًا لم يبق من الأحفاد سواه للمحافظة عليه. ترقرقت الدموع في عيني أبي منصور. مات أبوه وهو شارد بين المنشدين يحمل عوده ويدق عليه. علم فعاد إلى أمه فأسلمته المفتاح. فتح الحمّام وعمّره، كان في الثامنة عشرة من عمره.

أربعون عاما وهو يحمل المفتاح الذي حمله أبوه وجده وجد جده، يفتح الباب الذي أعمل النجارون حرفتهم في خشبه المصمت فتحاورت على سطحه المستطيلات والمربعات والمثلثات، أخاديد غائرة تعرفها وتألفها وكأنما هي وجهك في المرآة تراه.

قام أبو منصور ودلف إلى «الوسطاني» كانت تتوسطه بركة من الحجر الورديّ ثمانيّة الأضلاع في قلبها كأس من المرمر على شكل زهرة يتدفق الماء منها. هو الذي أضاف هذه البركة، وجدد بيوت الراحة على الجانبين واشترى القنديل المصنوع من الزجاج المعشق.

مر أبو منصور من «الوسطانيّ» إلى «الجوانيّ». هنا ظل كل شيء كما كان. مصطبة ممر بيت النار تقطع القاعة من جنوبها إلى شمالها، أجران الماء على الجانبين، المغطس الصغير والمغطس الكبير والأحواض الرخامية الخمسة والأرض المبلطة بالرخام الورديّ المُكحَّل بالأسود. هذا خيال الجد القديم وما أنجزه الصناع إرضاء لخياله.

تطلع أبو منصور ودار بعينيه يتفقد المكان. في الحنايا المتقابلة كانت الأسرجة المضاءة تلقي بظلالها الراجفة على الجدران. استلقى على مصطبة ممر بيت النار. كانت باردة فلا الوقّاد أتى ولا النار أشعلت. فرد ذراعيه على امتدادهما وأغلق عينيه. أخذته سنة من النوم فرأى فيما يرى النائم نفسه فتى

Books-sea.com

لا يعلو شفتيه سوى زغب أخضر. كان متربعا على بيت النار مستمتعا بدفئه ويمسك بين يديه عوداً يدق على أوتاره ويترنم بأغنية. دخل عليه شيخ مهيب مديد القامة يفوق البشر طولاً. قال الشيخ:

- قم يا ولد.

فقام، وضع العود جانبا وخلع عن الشيخ ملابسه واغترف بالطاس المكّية ماءً ساخنًا من الجرن وصبه عليه. ثم كيَّس له جسمه وصبّن له شعر رأسه ولحيته وليّفه وسكب الماء عليه وقلّم له أظافر يديه وقدميه وعاد فغسلهما. وكان يفعل وقلبه وجل تسري الرعشة في بدنه. ولما انتهى تطلع إلى الشيخ وسأله متمتمًا:

- هل أنت جدي عفيف؟

تطلع الشيخ إليه فازداد خوفا، كان في العينين ضياء ونظرة ثاقبة قال:

- نعم أنا جدك محيي الدين... كيف لم تتعرف عليّ؟!

فاضطرب وسقطت من يده الطاس النحاسية وتدحرجت على الأرض محدثة قرقعة.

قام الشيخ وانحنى ليلتقط عن الأرض الطاس وملأه من الجرن وأمره أن يجلس قائلا:

- هل غسلت قدميّ؟

- غسلتهما.

- إذن جاء دورك.

انحنى الشيخ على قدمي الولد وراح يغسلهما برفق وهو يبكي حتى ابتلت لحيته واختلط ماء العين بماء الطاس المكّية التي يسكب منها.

Books-sea.com

١٢

كانت الحياة برغم هموم تدبير شأنها اليوميّ في ظل مهانة الاحتلال ميسورة في بيت أبي جعفر المفتوح والعامر بأنفاس ساكنيه وأم جعفر، عماد الدار، ترفع سقفها العالي وتنشر في أرجائها رائحة الخبز الذي تسويه، والخزامي التي تجفف زهرها، والزيت الذي تعتصره من زيتونات عين الدمع، وضحكتها الحرة العالية وهي ترى الأولاد، رغم كل شيء، هانئين: يعشق حسن مريمة التي تكور بطنها على الصغير القادم، وتنمو سليمة البريّة الشاردة في ظل سعد الذي يحنو رغم حزن في عينيه يتمكن منه أحيانا فيأخذه بعيدًا حيث لا يطوله إنسان. «الحمد لله» تكررها أم جعفر من قلب قلبها وتتمنى أن يُتم الله نعمته فيأتي الأحفاد ويعمرون الدار، بالصخب والحياة.

كانت سليمة في شهرها السابع في ذلك اليوم الذي أتت جدتها راكضة تلهث فوبختها على سلوكها الأخرق قبل أن تسمع ما لديها. لكن سليمة لم تعر التوبيخ بالاً. كانت مضطربة إلى حد الفزع، وهي تكرر «لا أدري ما الذي أصابها إنها ترقد على الأرض بلا حراك!» تبعت أم جعفر سليمة إلى فناء الدار حيث كانت الظبية راقدة على جنبها، جسدها متيبس وعيناها كالزجاج.

ـ إنها ميتة! منذ الأمس على الأرجح!

حدقت سليمة في جدتها وصاحت:

ـ ليس صحيحًا!

Books-sea.com

ولكن الظبية كانت ميتة ولم يكن هناك شيء يعمل إلا التخلص منها بإلقائها بعيداً للجوارح ووحوش البر.

كيف ماتت ولماذا؟ شغلت الأسئلة سليمة حتى عن حزنها أم أنه الحزن تخفى واستتر وراء أسئلة ضمنتها الاحتجاج والرفض؟ هل من أماتها الله؟ وما الذي يريده الله العلي القدير من ظبية كنسمة الهواء تداعب القلب وتطيب الروح؟ ليس الله ظالمًا فهل يكون الشيطان؟ وما الشيطان ومن خلق الشيطان وأطلقه في العباد؟ تقول جدتها إن الموت حق وهو مصير كل حي. وجدها أبو جعفر مات ولكنه كان شيخًا، والعمر حين يطول يقصر والجسد حين يكبر يشيخ، والثمرة تستوي ناضجة ثم تفسد، وحين يقدم النسيج يهترئ. ولكن هذه الظبية لم يطل عمرها لينقصف، ظبية جميلة تضيء عيناها بألق الحياة فتتقافز.. فمن سرق منها الحياة؟ عقربة؟ أم شيء ما كالعقربة في البدن ينفث سمه الأصفر فينشر الموت في النسيج المتألق الجديد؟

ـ كيف مات أبي يا جدتي؟

باغت السؤال أم جعفر بوجه الولد العفيّ وضحكاته العالية التي ترد الروح، وهو يسكن في المرض فيشحب الوجه، وتغور العينان، وينعقد اللسان، تتحرك الرأس في ضيق تطلب هواء يستعصي، والروح تخرج في صخب متحشرج، تستبقيها نظرة العينين ولا تقدر فيسكنها مع الرجاء عتب كسير.

ـ مرض ومات.

ـ أعرف، لكن بأي مرض مات؟

لم تطق أم جعفر التحديق في وجه الولد فتركت سليمة وقامت.

* * *

Books-sea.com

وضعت مريمة ابنتها أوّلاً فانتشرت في الدار فرحة متوقدة وانهماك بالأم ووليدتها. ثم وضعت سليمة الولد فأصبحت الفرحة فرحتين والانهماك مضاعفًا. ولكن الطفل الذي وضعته سليمة أسلم الروح بعد أسبوعين من ولادته فعرفت أم جعفر أن موت الظبية كان علامة وإشارة، وأن الله في سمائه له حكمة تجل عن الفهم. ما العمل؟ توزع البيت مرتبكًا بين فرحة بوليد وحزن على وليد، واضطرب قلب من فيه مشتّتًا بين إعلان الفرح وحرج من إعلانه والحزن يجاوره، وإعلان الحزن وحرج إظهاره والفرح يقيم في البيت معه.

وحدها سليمة كانت خارج الحزن والفرح تعايش سؤالاً حارقًا كالجرح. هل الله شرير يقصد إيذاءها، أم أنه سعد يمنحها ما لا يدوم فتتحول بهجة الهدية إلى ألم يسري في الروح يعذبها.

كانت ولادتها عسرة كادت تشطر الجسد وتهلكه والجسد كوتر مشدود يحتمل ما لا يحتمل حتى اندفع الوليد وسمعت صراخه الواهن. حملته بين ذراعيها، تأملته وتحسسته وقبلت وجهه فأحست بمذاقه على شفتيها وفاض حليبها فألقمت فمه حلمة ثديها فتحرك حشاها كأنما تشق تربته نبتة طالعة. لم يكن فرحًا ذلك الذي ملأ صدرها لأن الفرح يضيق. كان شيئا يسري في الروح والبدن، يدخله مع الرهبة والفرح والوجل والدهشة وألف شيء آخر كأنما تجمعت الحياة بتلالها وأنهارها وسمائها وشمس النهار ونجوم الليل والبدر في العالي، تجمعت وتركزت هنا في التصاق الفم الصغير بحلمة الثدي والصدر الذي يضم ويحنو ويطعم حليبًا يعلم الله وحده من أين أتى وكيف، وكأنه نبع معجز تدفق من باطن الأرض أو ديمة سكوب في السماء.

أسبوعان وسليمة مع صغيرها لا ترى ولا تسمع إلا وجوده الضافي يغللها ويغنيها فتستغني عن البشر ودنيا البشر، ثم أخذه الله فلماذا؟

وكان سعد الذي سلم متمررا بفقد الصغير يزداد اضطرابًا يومًا بعد يوم وهو يدق باب سليمة بلا طائل فيعود إلى نفسه منفيا وعاريًا خارج الأسوار.

Books-sea.com

لا تتحدث إليه. لاتقترب منه، وتنفر من كل وصل للروح أو الجسد. يواصل الحياة ويحكي لنعيم شيئا من همه ويملأه الخوف من الغد.

تبدو المصائب كبيرة تقبض الروح، ثم يأتي ما هو أعتى وأشد فيصغر ما بدا كبيرًا وينكمش متقلصًا في زاوية من القلب والحشا.

أصدر الملكان الكاثوليكيان أمرهما بالتنصير القسريّ لكافة الأهالي ونُشر المرسوم وأذيع في الناس. كان على أهل غرناطة والبيازين الاختيار بين التنصير أو الترحيل.

قال حسن إنه لم يعد من الرحيل بد، وإنه سيبيع بيت عين الدمع والبيت الذي يسكنونه في البيازين ويرحلون إلى فاس.

ـ أم أن لكم قولا آخر؟

قالت أم جعفر إنها لن ترحل فلم يبق من العمر مثل الذي فات.

ـ لن أترك بيتي ولا أبا جعفر وحيدا ينتظرني بلا طائل. سأبقى لأضع غصونًا خضراء على قبره حتى يأذن الله فألحق به.

ـ وتتنصرين يا جدتي؟

ـ لن أتنصر!

ـ وما العمل إذن؟ ما رأيك يا سعد؟

ظل سعد صامتا. كان يفكر في مالقة التي تبتعد. حين تحمله السفينة إلى عدوة المغرب تصير البيازين بعيدة ومالقة أبعد.

ـ الرحيل صعب ولكن. . .

ـ إذن نرحل.

ـ نرحل.

Books-sea.com

قالت مريمة :

ـ لا نرحل . الله أعلم بما في القلوب ، والقلب لا يسكن إلا جسده . أعرف نفسي مريمة وهذه ابنتي رقية ، فهل يغير من الأمر كثيرا أن يحملني حكام البلد ورقة تشهد أن اسمي ماريّا وأن اسمها أنّا . لن أرحل لأن اللسان لا ينكر لغته ولا الوجه ملامحه .

تطلّعوا إليها في دهشة ، فمن أين أتت مريمة الصغيرة بهذه الحكمة؟ وكأنها طاقة أشرعتها فتدفق الضوء جلاء في الحجرة المظلمة ، قرروا البقاء .

الاختيار صعب ولكن الفعل أصعب . وقفت نساء الحي في جموع غفيرة يتلقين قطرات التعميد الجماعي . يتمتم القس بكلمات لا يفهمنها وهن يحدقن فيه ساكنات صامتات . والوجه بحر صاخب متلاطم وعميق تترجرج على صفحته مراكب صغيرة تغمرها الموجة العالية بالضياع والفزع فتشهق وهي تغرق ولا تغرق ، تنحسر الموجة لتأتي موجة أعتى وشهقة أعلى كأنما تسلم الروح نفسها لعزرائيل الموت وهي تصرخ : «لا أريد» .

لم يكن الأمر كما قالت مريمة اسما على الورق يستبدل باسم ، بل حياة كاملة صارت كل مفرداتها تهمًا ومعاصي : طهور الصِّبْية ، عقد قرانهم على الشرع الواضح ، زفهم على إيقاع الدفوف والأهازيج ، استطلاع هلال رمضان والعيدين ، الإنشاد في ليلة القدر ، الصلاة والصيام ، الاحتفاء بخميس الله وجمعته ، تكفين الميت وتشييع جنازته بآيات الذكر ، خضاب الحناء على أكفّ الصبايا ورءوس النساء ، كلّها تهم وباب السجن مفتوح للخطاة وأكوام الحطب مكومة تنتظر شعلة وتلتهب . وكأنما هي عجلة للشيطان دارت والروح لا تلاحق دوراتها المرهقة .

«يحظر على المتنصرين الجدد ارتداء الملابس العربية . ويمنع أيّ خياط من حياكة الملابس المحظورة وعلى النساء التخلص من غطاء الرأس» .

Books-sea.com

«لا يجوز لمتنصر جديد أن يبيع ممتلكاته لشخص من أصل عربيّ مثله».

«يحظر على كل شخص من أصل عربي بيع ممتلكاته البتة، ومن خالف الأمر صودر ماله وعوقب عقابًا وخيمًا».

«يتوجب على كل عربيّ يمتلك كتبًا أو مخطوطات في غرناطة والقرى التابعة لها أن يسلم كل ما يمتكله وإلاّ عرّض نفسه للمحاكمة والسجن، ومن يثبت بعد التاريخ المحدد أنه يمتلك كتابًا تصادر كل ممتلكاته».

«يحظر امتلاك سلاح أو حمله، ويشمل المرسوم السيوف والخناجر».

«يحظر الإرث على الطريقة الإسلامية، فالتركة لا تقسَم بل تنقل بما هو دارج في أعراف مملكة قشتالة».

«يحظر إيواء وحماية وإجارة المخربين من المسلمين الذين يهاجمون شواطئ المملكة من السفن التي تحملهم من عدوة المغرب، ويحظر الاتصال أو أيّ شكل من أشكال التعامل مع الثوار المعتصمين في رءوس الجبال، ومن يعصِ الأمر عقابه الموت المؤكد».

«من يرحل من غرناطة ويَعُدْ إليها يُحرمْ من ممتلكاته ويقبض عليه ويُبَعْ عبدًا في المزاد العلنيّ».

عجلة ترهق الروح تدور والصغار، رغم ذلك، يكبرون.

رزقت مريمة بعد رقية بخمسة أطفال آخرهم هو الولد، سموه هشاما. أما سليمة فلم يعطها الله، وكيف يعطيها وهي نافرة من سعد مستغرقة في قراءة الكتب وخلط الأعشاب وصنع الأمزجة والمعاجين والسوائل. في أول الأمر كانت الكتب هي كل شاغلها، تسهر على قراءتها، تخطط تحت بعض سطورها، تكتب ملحوظات على هوامشها، ثم انهمكت في سؤال النساء العارفات والاستفسار منهن عن الوصفات القديمة التي يعالجن بها الأوجاع،

Books-sea.com

وراحت تشتري القدور والقناني والأوعية والأحقاق، وتخلط الأعشاب، النضر منها والجاف، تمزج بعضها وتطحنه وتعجنه، وتسخّن وتبرّد وتستقطر فتأتيها نساء الحيّ يطلبن نصحها في علاج مرض أو آخر. لا تحتملها أم حسن فتتشاجر معها شجارًا عاليًا يسمعه الجيران، ولكن صراخ أم حسن المتكرر ومحاولتها إعادة ابنتها إلى حظيرة الراجحات من النساء اللائي يسعدن أزواجهن بالبنات والبنين والعينين المكتحلتين والوجه الصبوح والبدن المعطر بمسحة مسك أو ياسمين لم تجد شيئًا. بعد شهور من خوض حرب ضروس مع ابنتها سلمت أم حسن أمرها لله.

وكان سلوك أم جعفر على غير ذلك، إذ قبلت بما تفعله سليمة منذ البداية، قبلته على مضض وبلا اقتناع، ولكنها قبلته، ربما لأن تقدمها في العمر لم يكن يسمح لها بخوض الحروب. ولم تكن أم جعفر في قرارة نفسها منزعجة مما تقوم به حفيدتها بقدر ما كان يقلقها إهمالها لسعد. كانت تراه منكمشًا وحزينًا فتحنو عليه وتغدق من محبتها، وتصر أن يدعو نعيمًا إلى الدار لأنها تعرف أن نعيمًا يطيّب روح سعد ويخفف من وطأة الأيام عليه.

كان سعد بائسًا لنفور سليمة منه، يشكو همّه لصاحبه فيقول له:

ـ اضربها يا سعد، اضربها ضربًا مبرّحًا حتى تفيق.

ثم يقول:

ـ لاطفها يا سعد، فهي مسكينة فجعت بفقد وليدها، إنها تحتاج عطفًا ومسايرة.

أو يقول:

ـ قم الآن وحطم كل تلك القناني والقوارير والأحقاق والقدور التي تحفظ فيها أمزجتها الغريبة، ومزق الكتب التي تفسد عقلها واطرد النساء اللائي يأتينها طلبا للنصح والعلاج.

Books-sea.com

تتعدد نصائح نعيم وتتناقض، ولكن سعداً لم يكن قادراً على الأخذ بأيّ منها. كان متعلقًا بسليمة يطلب قربها كأنها أمه وأنكرته. تجلس منهمكة في ذلك الشاغل الذي هبط عليها كالبلاء من السماء، ينتظر، يلاطفها بكلمة، يحاول جذب اهتمامها بسؤال أو ملحوظة أو خبر، ولكنها تبقى بعيدة لا يطالها قلب ولا جسد، يغشاه حزن يتيم متروك، تترقرق في عينه دمعة يغالبها حتى يرحمه النوم.

فما الذي حدث في ذلك اليوم حتى لا يتحمل سعد ما احتمله أياما وليالي. سمعت أم جعفر صوته يعلو محتدا وصوت سليمة يجاوبه بحدة مماثلة. ثم زاد الشجار احتدامًا وسمعته أم حسن فجاءت مهرولة من المطبخ تستجلي الأمر، فقالت لها أم جعفر:

ـ اتركيهما سيتشاجران قليلاً ثم يتصافيان.

لم تملك أم حسن الأخذ بنصيحة حماتها إذ تعالى صراخ سليمة وبدا واضحًا أن سعداً يضربها. صاحت أم حسن في حنق: «هذا آخر المطاف، نلمه من الطريق ونأويه في دارنا فيتطاول على ابنتنا ويضربها!» واندفعت إلى حجرة سليمة فتبعتها أم جعفر متعثرة من شدة الاضطراب ولاهثة تقول: «ابنتك محقوقة يا زينب، وليس سعد أول ولا آخر الرجال الذين يؤدبون نساءهم بالضرب. كوني محضر خير يا زينب» ولكن أم حسن اقتحمت الغرفة على سعد وسليمة واختلط صياحها بصياحهما ولم تكن أم جعفر قد استوعبت تفاصيل ما يجري عندما فوجئت بسعد يصر ملابسه ويغادر البيت. وكانت سليمة محتقنة الوجه تعض بأسنانها على شفتها ولكنها لم تكن تبكي.

وما أن عادت مريمة من السوق حتى أخبرتها أم جعفر بما حدث وطلبت منها أن تهدئ سليمة وتخفف عنها. وحين عاد حسن حكت له وطلبت منه أن يذهب للبحث عن سعد لمراضاته. وافقها ولكنه قبل أن يذهب دخل على سليمة وسبّها وضربها فبكت مريمة وأم جعفر وأم حسن وبكى الصغار فتركهم

Books-sea.com

حسن، وهو يلعن النساء الناقصات عقلاً، والصغار الأثقل من الهم على القلب، وكل رجل حمار يفكر فى الزواج أو الخلفة.

وأيقنت أم جعفر أن عينًا أصابتهم وقررت أن توصي مريمة بأن تشتري لها بخورًا من أفضل الأنواع لكي ترد عين الحسد عن الدار وأهلها.

وجد حسن سعدًا عند نعيم كما توقع وحاول إقناعه بالرجوع معه إلى البيت. رفض سعد فأقسم حسن بالطلاق ثلاثًا إنه لن يعود إلا إن عاد معه.

في الأيام الثلاثة التالية لم يتبادل سعد وسليمة أيّ كلام ثم بدأته سليمة الحديث، قالت:

- لقد أخطأت بضربي يا سعد، ضربتني وتسببت في ضرب حسن لي. لم يضربني أحد أبدًا من قبل، لا أبي ولا جدي.

صمتت لحظة ثم واصلت:

- وأنا أيضا أسأت إليك حين قلت لك: «هذا بيتي... تريدني ابق، لا تريدني اذهب» كان كلامًا غليظًا قلته في لحظة غضب.

كانت سليمة تتطلع إليه تلك النظرة الواضحة المباشرة فيرى في عينيها الزرقاوتين ذلك الضوء الذي أسره منذ سنوات، ابتلع لعابه بصعوبة ثم قال:

« لم أقصد إيذاءك، ولكن هذه المعاجين والأمزاج التي تصنعينها ليل نهار يا سليمة تفقدني صوابي. لا أطيق رائحتها إنها تسبب لي كوابيس»، ازدرد ريقه ثانية، «كوابيس فوق الكوابيس».

- إن أردت أنقلها جميعًا إلى مكان آخر، ولكن يا سعد أرجوك لا تطلب مني تركها... أحتاجها وأحتاج تلك الكتب التي تضُج بها... أحتاجها!

لمح سعد دموعًا تترقرق في عينيها ورأى عبر الدموع عنادها فعرف أنه لن يملك أبدًا أن يحول بينها وبين ما تريد، ليس فقط لأنه لن يقدر على كسر عنادها ولكن أيضا لأنه لا يريد.

Books-sea.com

١٣

كانت أم جعفر وهي تتوغل في مساحات الشيخوخة تزداد تعلقًا بنعيم، فتحصي الأيام ما بين زيارة وزيارة وتنتظر. كانت قد عرفته منذ طفولته وتابعته وهو ينمو وتعهدته أحيانا بالتوجيه أو التوبيخ، ولكن الألفة بينهما في السنوات الأخيرة كانت قد اتخذت مسارًا جديدًا، هو يحكي وهي تنصت بتوقد واهتمام. يحمل لها حديثه دفئا وألوانًا تبدد شيئًا من وحشة أشجار تتعرى وغيوم تتكاثف وبرودة تسري في شتاء العمر في الأطراف.

لم ينقطع الحديث بينهما منذ ذلك اليوم الذي أخبرها فيه نعيم أن الملكين فرديناند وإيزابيلا كانا مصابين في ذريتهما.

ـ كيف؟

كان نعيم يعمل في خدمة قس قشتاليّ عالم، يعاونه في تنظيف الدار وترتيب كتبه وتغليفها وتجليدها، فيسمع من القس مباشرة، أو ينصت لما يدور بينه وبين زواره فيعرف الأخبار وينقلها إلى أم جعفر.

ـ سمعت من القس ميجيل أن الملكين قبل وفاتهما قد فقدا أكبر أولادهما، الأمير دون خوان، ثم لحقته الأميرة إيزابيلا شقيقته الأصغر. وكانت الأميرة إيزابيلا قد تزوجت من أمير برتغاليّ مات بعد زواجها بشهور قليلة.

ـ إذن فالله قد عاقبهما، فما قيمة أن يكسب الإنسان حروبا ويوسع مملكته إن فقد فلذة كبده؟

Books-sea.com

كان الكلام الذي نقله لها نعيم يثلج صدرها ليس لأنها تتشفى في هذين الملكين اللذين أذاقا كل أهل غرناطة حنظل المرار، ولكن لأنها كانت قد وجدت أخيراً عدالة من السماء أرقها غيابها وملأها بشك كان يداهمها أحيانا متقمصًا صوت أبي جعفر بعد حرق الكتب، فتدرأها بعيداً عنها وهي تستغفر الله.

الله في علاه حكيم وعادل، وقد عاقب الملكين في حياتهما على ما اقترفاه. ليس خسران الحرب بأقسى من فقد الولد. ظهر الحق فهدأ شيء في داخلها وراحت كلما جاء نعيم تسأله وتستزيد.

- أصابتهما اللعنة يا أم جعفر. لم يمهلهما الله حتى يوم الحساب، بل أنزل عقابه عليهما في الدنيا، والآن وقد رحلا فلابدّ أنه سيزيدهما على العقاب عقابًا.

يجلس نعيم، تقدم له الموجود من الطعام وتجلس بالقرب منه تتعلق عيناها به وتتأهب أذناها لسماع المثير من الأخبار.

- اسمعي يا أم جعفر هذا الخبر الجديد، الذي لا يعرفه أحد من أهل البيازين: خوانا ابنة فرديناند وإيزابيلا مصابة بالجنون!

- لا إله إلا الله!

- سمعت أنها تزوجت أميراً من بلاد أخرى يقال له فيليب الجميل.

- ما شاء الله، وبعدين؟

- اسمه فيليب الجميل لأنه جميل، وكل من وقعت عيناها عليه من النساء اشتعل قلبها بحبه.

- وبعدين؟

- وبعدين يا ستي لا يعجب ذلك الأميرة خوانا وتأكل الغيرة قلبها.

Books-sea.com

ـ الحق معها.

ـ وتعبر لفيليب الجميل عما في نفسها من غيرة فيضربها ضربًا مبرحًا، ولكنها تحبه. يجذبها الحب من ناحية وتجذبها الغيرة والضرب الموجع من ناحية أخرى فتفقد الأميرة عقلها... ثم يموت فيليب الجميل.

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله!

ـ مات... فما الذي فعلته الأميرة خوانا؟

ـ بكته طبعًا حتى وإن كان قد خانها، لأنها تحبه.

ـ ليس هذا المهم.

ـ وما المهم!

ـ صبرًا سأحكي لك كل شيء بالتفصيل. لقد كانت أم الملكة إيزابيلا أيضا معتوهة، ويبدو أنها أورثت الجنون إلى حفيدتها.

ـ سبحان الله، وهل جار علينا الزمن إلى الحد الذي تحكمنا فيه أسرة من المعتوهين؟!

ـ هذا ما سمعته من القساوسة وهم يتحدثون وأنا أحمل إليهم الطعام والشراب فيواصلون الكلام كأنني لم أدخل عليهم، أو كأنني الخزانة الخشبية التي وراءهم. المهم مات دون فيليب الجميل وكان في مقتبل العمر، ففقدت خوانا عقلها كليا: أخرجت جثمان زوجها من القبر ووضعته كأنه مازال على قيد الحياة في حجرة نومها، وكلما اضطرتها شئون الحكم للسفر حملت جثمانه معها. ولما لم تكن تطيق اقتراب أيّ امرأة من جثمان زوجها فقد استبدلت بالخادمات رجالا ينظفون حجرة نومها ويخدمونها في أسفارها.

ـ لابد أن الجثمان تعفن وعكرت عفونته دم خوانا فماتت...

Books-sea.com

ضحك نعيم قبل أن ينطق بالخبر الذي كان يعرف أنه سيفاجئ أم جعفر ويسمرها في مكانها كبرق مفاجئ في السماء.

- لم تمت بل ورثت عرش قشتالة بعد وفاة أمها وعرش أراغون بعد وفاة أبيها، وهي الآن مالكة البلاد وحاكمتها!

وكما توقع نعيم فقد فغرت أم جعفر فمها وحدقت فيه غير مصدقة... ثم قالت:

- تقصد أن الملكة ابنة الملكين التي تحكمنا الآن هي تلك المجنونة؟!

- هي بعينها، لقد قال القس ميجيل بعظمة لسانه «خوانا لا لوكا» وهذا يعني «خوانا المعتوهة»، تحكمنا يا أم جعفر امرأة مختلة العقل!

ضحك نعيم ملء شدقيه، أما أم جعفر فقد اضطرب فكرها وصعب عليها الفهم: يعاقب الله الملوك الظالمين بموت أبنائهم وفساد عقولهم، ولكنهم يحكموننا فنجني ثمار جنونهم؟! يصعب أن يفهم الإنسان حكمة الله، لغزها عميق عسير ولست إلا امرأة عجوز.

ورغم ذلك فقد وجدت أم جعفر، بعد ذهاب نعيم وطول تأمل، تفسير تلك القوانين الجائرة التي يسهل فهمها إن كان من يسنها معتوها فقد عقله. فما الذي يضير إنسانًا لو أن إنسانا سواه امتنع عن أكل الخنزير أو خضب يديه بالحناء، أو عقد قران ابنته خارج الكنيسة وليس داخلها؟! وما الذي يسوء حاكمًا لو أن بعض رعيته اقتنى كتبًا مكتوبة بلغة العرب وليست بلغة الأعاجم؟! وما الذي يغضبه حين تلبس امرأة مثلها ثوبًا مقطوعًا على طريقة العرب، وليس على طريقة القشتاليين، أو تضع غصنًا أخضر على قبر زوجها الراحل؟!

لم تفهم حكمة الله في تولية معتوهة على عباده، ولكنها فهمت أن تلك القوانين العجيبة الجائرة أنتجها عقل مختل. ولولا نعيم، وفقه الله، ما

Books-sea.com

فهمت، ولولا أحاديثه الشيقة لوجدت نفسها تقضي الأيام والليالي وحيدة لا أحد يحدثها ولا تحدث أحدا فسليمة غارقة في قدورها وقواريرها، وأم حسن تطبخ للعيال ومريمة تقوم بشئونهم، والصغار مكتفون بأنفسهم يلعبون ويشرثرون معًا، وحين ينهكهم اللعب والكلام يتحلقون حول أمهم تحكي لهم الحكايات، وعندما تناديهم لتحكي لهم تلمح في عيونهم السخرية المكتومة، لأن الحروف لم تعد هي الحروف، وقد سقطت الأسنان وتعثرت في الفم الكلمات، وحسن يعمل طول النهار وحين يعود مكدودًا يشغله الصغار وزوجته لم يعد لها سوى سعد تحنو عليه، وزيارات نعيم على تباعدها تعيد لها الروح فتتقد بحكاياته المثيرة.

* * *

ماأن رأت أم جعفر نعيمًا حتى عرفت أنه يحمل لها خبرًا مثيرًا، إذ أقبل عليها مشرقًا بابتسامة يجتهد في ضبطها والتحكم بها، فتغالبه وتسري في ضوء عينيه وانفراجة أساريره. قال بصوت مجلجل:

- يا صباح الخيرات يا أم جعفر.

- صباح النور يا نعيم... جئت بحكاية عجيبة غريبة، أليس كذلك؟!

انفلتت الابتسامة وصارت ضحكة صافية. مد لها يده بخيط وإبرة.

- هل يمكن أن تلضمي لي هذه الإبرة؟

أخذَت أم جعفر، فلم يكن من عادة نعيم أن يسخر منها. تطلعت إليه بنظرة تساؤل لا تخلو من عتب. ولكنه واصل.

- حاولي يا أم جعفر... حاولي!

أجابته بضيق:

- ماذا دهاك يا نعيم، تعرف أنني لم أعد قادرة على ذلك؟!

Books-sea.com

أصرّ:

- ولكنك ستلضمين هذه الإبرة!

أعطاها الإبرة في يدها اليسرى والخيط في يدها اليمنى. أضاعت أم جعفر طريق الفهم تمامًا، فأسلمت نفسها لانتظار مضطرب.

أخرج نعيم من جيبه لفافة صغيرة فتحها بحرص، وأخرج منها شيئًا غريبا: دائرتان من زجاج مسطح موصولتان ومؤطرتان بسلك ذهبيّ دقيق وتنتهي إحداهما بحامل دقيق صغير.

- ما هذا؟

أمسك نعيم الحامل ورفع دائرتي الزجاج وقربهما من وجهها حتى صارتا ملتصقتين بعينيها. أغلقت عينيها:

- ما الذي تفعله يا نعيم؟!

- لا تخافي يا أم جعفر، افتحي عينيك والضمي الإبرة.

فتحت أم جعفر عينيها ببطء وهي تتمتم «بسم الله الرحمن الرحيم» ثم كررتها بصوت أحدّ حين نظرت عبر الزجاجتين فرأت ثقب الإبرة، الذي لم تعد تراه منذ سنوات، واضحًا أمام عينيها. حاولت لضم الإبرة مرة ومرتين، ولكنها لم تفلح لأن يديها كانتا ترتعشان.

- اهدئي يا أم جعفر والضمي الإبرة.

- هل صرت تشتغل بالسحر يا نعيم؟!

حاولت حتى مرّ الخيط من الثقب، فناولته الإبرة وهي تسمع دقات قلبها عالية ومتسارعة.

رفع نعيم الزجاج عن عينيها وهو يقول بغبطة وزهو:

Books-sea.com

ـ هذه الآلة يا أم جعفر يستخدمها الإنسان حين يضعف بصره فلا يتمكن من رؤية الأشياء الدقيقة، إنها للقس ميجيل.

ـ وهل يحتاج القس للضم الإبرة؟!

ضحك نعيم

ـ بل يحتاجها ليقرأ تلك الكتب ذات الخطوط الدقيقة.

ـ ومن أين اشتراها؟

ـ أوصى عليها أحد التجار الجنوبيين.

ـ إذن تباع في جنوا؟

ـ لا أدري.

ـ هل هي غالية الثمن؟

ـ لا أعرف.

ـ إن لم تكن غالية الثمن، فاطلب من حسن أن يوصي لي على واحدة. لا أكثر من تجار جنوا الذين يأتون ويذهبون من غرناطة. هات أجربها مرة أخرى يا نعيم.

مدّت أم جعفر يدها وأمسكت بالقضيب الذهبيّ الصغير ورفعت الزجاج إلى مستوى عينيها، وراحت تتطلع عبره إلى أنحاء الحجرة.

ـ غريب!

ـ ما الغريب يا أم جعفر؟

ـ أرى الأشياء البعيدة أفضل دونها!

ـ يبدو أنها لرؤية الأشياء القريبة. أرى القس يستخدمها حين يقرأ فقط.

Books-sea.com

نادت أم جعفر على بنت من بنات حسن، وطلبت منها أن تنادي عمتها سليمة.

ـ لنر كيف تستخدمها سليمة في قراءة الكتاب.

قبل أن تصل البنت إلى حجرة عمتها أخبرت أمها وجدتها وأخواتها بأمر الآلة العجيبة التي رأتها مع نعيم، فأتين جميعًا وتحلقن حول نعيم يتطلعن بشغف ويستفسرن دون أن يسمح لهن نعيم بالاقتراب أو اللمس. قالت إحدى الصغيرات:

ـ هل تسمح هذه الآلة لكفيف أن يرى؟

ـ لا.

سكتت لحظة ثم قالت في ثقة:

ـ لابد أن هناك نوعًا أقوى يسمح للكفيف أن يرى!

قالت أم حسن وهي تهز رأسها في ارتياح.

ـ هذه بشرى سارة أحملها لجارتنا التي كفّ بصرها، بإمكانها أن توصي على آلة كهذه فيعود إلى عينيها ضوء الإبصار!

وقامت في الحال لتخبر جارتها بالأمر دون أن تلتفت لنعيم الذي كان يكرر أن هذه الآلة تكبّر الأشياء الصغيرة فقط ولا تسمح لمن كفّ بصره أن يرى.

ثم دخلت سليمة واستفسرت عن الأمر وأمسكت بالآلة بين يديها ورفعتها إلى عينيها، ثم أنزلتها وهمت بالذهاب إلى حجرتها ومعها الآلة لكي تجربها على كتاب من كتبها، ولكن نعيم لم يسمح لها.

ـ أحضري الكتاب هنا.

استرد منها النظارة فذهبت وأحضرت كتابًا دقيق الخط، واستعادت

Books-sea.com

الزجاجتين من نعيم وتطلعت عبرهما إلى المكتوب فيه. كانت الكلمات صغيرة الحروف التي تنهكها قراءتها فتظل تبحث عن وضع يسهل لها ذلك، فتبعد الكتاب عن عينيها وتضيِّق جفنيها وتحدق تحديقا فيها، واضحة تماما تقرأها بيسر مدهش.

- نعيم من أين أتيت بهذه الآلة؟

- إنها للقس.

- هل تتركها لي الليلة؟

قفز نعيم من مكانه ومدّ يده وأخذ النظارة من سليمة قائلاً:

- مستحيل. سيسألني القس عنها فماذا أقول؟!

- ما دمت أتيت بها فلا بد أن القس مسافر.

- إنه مسافر ولكنه يعود غداً.

- اتركها لي فأعيدها لك صباح الغد.

اجتمعت أم جعفر وأم حسن ومريمة والصغيرات لإقناع نعيم بترك الآلة لليلة مع سليمة «ليلة واحدة فقط!» وبعد أخذ وردّ وطول مناقشة، سلم نعيم أمره لله وأعطى الآلة لسليمة؛ وهو يكرر أن عليها أن تكون حريصة في مسكها واستخدامها لأنها قد تنكسر.

- وغداً، غداً صباحًا، سأعود لأخذها.

ولكن حين أتى نعيم في صباح اليوم التالي لاستعادة النظارة، كانت سليمة قد حسمت أمرها وقررت، قالت له:

- حدث ما كنت تخشاه، انكسرت النظارة.

- انكسرت!

Books-sea.com

أطلق نعيم هذه الصيحة الواحدة، ثم صمت ومرّت لحظات لا يدري ما الذي يقوله أو يفعله. ثم قال:

- كيف انكسرت، دعيني أراها؟!

- سقطت وتحطمت تمامًا فخشيت أن ينجرح الصغار فألقيت بها.

ملأه الشك ثم اليقين.

- سليمة أنت كاذبة، لقد قررت سرقة النظارة!

- احفظ لسانك يا نعيم.

ولكنه كان مشتعلاً بالغضب، فصاح بسليمة فصاحت به، واشتبكا في مشادة كلامية حادة، وفشلت محاولات أم جعفر ومريمة في تهدئتهما، أما أم حسن فقد ساءها أن يتهم نعيم ابنتها بالسرقة، فانحازت إلى ابنتها وصارت تصيح به وهو يصيح بابنتها. ثم غادر نعيم الدار وهو يكرر:

- سأشكوك لزوجك ولأخيك، وإن شاء الله يضربانك حتى يسيل دمك فتفصحي عن مكان النظارة التي سرقتها!

١٤

الهموم تؤلّف القلوب وتقرب، والسنوات التي عاشها سعد وحسن تحت سقف واحد عززت صحبتهما، يتواصلان ويسهبان في الحديث ويتفقان في الغالب في حكمهما على الأمور. كان حسن لطيفا وودودا مع سعد، ليس فقط لأنه صاحبه وزوج أخته، ولكن أيضًا لأنه كان قد نزل عليه ضيفا في بيت جده، فظل يراعيه حتى بعد أن مرت سنوات طويلة لم يعد فيها ضيفًا، ولا عاد أحد يتذكر أنه نزل في الأصل في بيت ليس له. حتى المشكلات مع سليمة كانت سببًا مضافًا لتعزيز ما بين الرجلين من الصداقة، إذ كان حسن، في قرارة نفسه، يدين أخته ويشعر بالامتنان لسعد لأنه لا يسيء معاملتها أو يطلقها أو يتزوج عليها.

فما الذي جرى في ذلك اليوم لكي يتحوّل الحديث الهامس بين الرجلين إلى خلاف موتور، فيعلو صوت حسن ويعلو صوت سعد وتهرول أم جعفر بقدر ما تمكنها سنها لتستفسر عما جرى، فيصيح حسن فيها:

ـ أرجوك يا جدتي ابقي بعيدًا، بيننا حديث رجال، خذي مريمة وأمي والصغار إلى القاعة الداخلية واتركينا وشأننا!

وحتى في القاعة الداخلية البعيدة، كان حديث حسن وسعد غير المسموع تمامًا حديث شجار وغضب. وقالت أم حسن إن عينا أصابتهما «ذات العين التي أصابت سليمة!» وتمتمت أم جفر جزعة «ربنا يستر!».

نام الصغار وأوت أم جعفر وأم حسن ومريمة كل إلى فرشتها، وإن لم

تغمض لأيّ منهن جفن. ترى ما الذي حدث؟ ما الذي يوتر النفس هكذا ويطلق الصوت عاليا؟

في الفجر دخل سعد على أم جعفر وجلس بجوارها. قال:

ـ يا أم جعفر، سأرحل.

هذا ما لم يدر بخلدها أبدًا.

ـ ترحل؟! إلى أين يا سعد ولماذا؟

تلعثم.

ـ ترحل من غرناطة وتتركنا نحمل الهمّ وحدنا؟

ترقرقت عيناه بالدموع ومال على يدها وقبلها.

ـ أرحل إلى الجبل... لي رفاق يحتاجون إليّ... لا أترك غرناطة يا أم جعفر ولا أترككم فليس لي أهل سواكم... نلتقي على خير يا أمي.

قام فتبعته كظله وهو يودع أم حسن ومريمة والصغار ثم يودع سليمة. هي التي قالت:

ـ سعد ينوي الرحيل يا سليمة.

ـ أعرف.

بدا لها أن سليمة مضطربة وأنها لمحت اختلاجة في وجهها، تشجعت:

ـ ابق مع زوجتك يا سعد... ابق معنا وإن كان حسن قد أساء إليك فإنه محقوق وها رأسك ـ قبلت رأسه قبل أن يفلح في الابتعاد.

ـ قولي شيئا يا سليمة.

ـ قلت.

- ماذا قلت؟

- قلت له ابق يا سعد وافعل ما تريده، وهذا البيت بيتي كما هو بيت حسن، هو إذن بيتك. ابق وافعل ما تريد.

إذن فالمشكلة مع حسن. هرولت أم جعفر وأيقظت حسن من نومه ووبخته كأنه طفل صغير.

- ماذا فعلت بزوج أختك . . . ما الذي قلته . . . لماذا أغضبته؟!

قام حسن وأطلق زفرة عميقة وكان شاحب الوجه. قالت:

- سعد ينوي الرحيل.

- أعرف.

- ماذا فعلت؟

- لم أفعل شيئا.

- لماذا يرحل إذن؟

- اتركيه يا جدتي، فقد قرر ذلك ولن يرجع عن قراره.

بكت أم جعفر، وبكت أم حسن، ومريمة أيضًا بكت وبكى الصغار لبكائهن. ووقفت سليمة لا تحرك ساكنا كأن الراحل ليس زوجها، وحسن لم يحرك ساكنا «لا ليس صحيحا أنهما لا يكترثان»، قالت أم جعفر لنفسها وهي تحدق في حسن تكاد تلمس رجفة بدنه من تحت ثوبه الصيفي، وترى وجه سليمة شاحبًا، كأنها، لا قدر الله، مريضة.

لا حسن ولا سليمة اللذان كانا يعرفان سبب المشاجرة وسبب رحيل سعد أعلما أهل الدار بما يعرفان. قال حسن إن سعدًا لن يترك البلاد، وإنه سيعود من حين لآخر لزيارتهم «وربما . . . » لم يكمل عبارته وخرج من البيت.

بعد أسبوعين جاء نعيم وعرف بالأمر فأصابته نوبة من الغضب أخافت الصغار وجعلتهم يركضون ليختبئوا بعيداً.

ـ رحل؟! كيف رحل؟! لماذا رحل؟! وهل يرحل دون أن يقول لي، دون أن يأخذني معه؟! وما الذي أفعله أنا الآن؟! تشاجر مع حسن؟! لا حسن من طبعه الشجار ولا سعد. أنتما تكذبان عليّ... ما الذي حدث لصاحبي... هل مات؟

كان صوته عاليًا وملتاعًا وموزعًا بين السخط والفزع.

ـ أين حسن؟

ـ ليس في الدار.

ـ أين سليمة؟

اندفع إلى حجرتها وكأنه من أهل الدار أو طفل لم تحرم عليه بعد خدور النساء.

وقف في مواجهتها ساخطًا لا يدري ما الذي يقوله ثم صاح بأعلى صوته:

ـ هل استرحت الآن... لقد رحل... هل هذا ما كنت تريدينه؟

رفعت عينيها وحدقت فيه كما يحدق فيها.

ـ لا دخل لي برحيله!

كانت العفاريت تتقافز في عينيه، تراوده رغبة جامحة في تحطيم القوارير والقدور والأحقاق، وإلقاء كل تلك المساحيق والسوائل والعجائن على الأرض، ثم إطعام سليمة ضربًا مبرّحًا يفرج به عن غيظه المتراكم منها منذ شهور... اكتفى بأن يصق على الأرض وخرج.

نادته أم جعفر، ولكنه لم يلق بالاً إلى ندائها، وغادر البيت مشعث المشاعر

والأفكار غاضبًا وخائفًا ولا يفهم. هل أخذ سعد بنصيحته وهجر سليمة عقابًا لها؟ عقاب متأخر ثم ما ذنبه هو ليعاقبه معها؟! وما ذنب أم جعفر وحسن؟! تشاجر مع حسن؟ كيف ولماذا؟ هل أصاب صاحبه مكروه ويخفون الأمر عليه؟

عاد أدراجه راكضًا إلى بيت أبي جعفر، سأل:

ـ هل عاد حسن؟

ـ لم يعد بعد.

خرج مرة أخرى وقرفص أمام الدار ينتظر عودته.

حين لمح حسن يقترب من أعلى الحارة قفز واقفًا وركض في اتجاهه:

ـ ما الذي حدث يا حسن؟

ـ هل بإمكانك أن تقضي الليلة معي؟

ـ بإمكاني.

ـ إذن تعال.

طلع عليهم الفجر دون أن يغمض لهما جفن. حكى حسن وأنصت نعيم، ولم يقاطعه سوى مرة واحدة. قال:

ـ لم يقل لي سعد أي شيء عن ذلك، هل هو الذي قال لك؟

ـ في البداية لم يقل، ولكنني عرفت لأنني أقيم معه في الدار نفسها فأعرف متى يحضر ومتى يغيب ومتى يزوره أغراب لا نعرفهم. ثم استوضحته الأمر فحكى لي... اختلفنا ثم تشاجرنا... هل أخطأت يا نعيم؟

لم يحر نعيم جوابًا وكان عليه أن يعود إلى بيت مخدومه قبل أن ينتبه إلى غيابه. «لو وجدت القس ميجيل مستيقظًا سأقول له إنني بكرت في الصحو وخرجت لأتنسم شيئًا من هواء الصبح النقيّ».

كان يسير بخطى مسرعة وهو يفكر كيف ولماذا أخفى عنه سعد ما أخفى، وكيف ولماذا رحل دون أن يمر عليه ويودعه. أبطأت خطواته ثم توقف ووجد نفسه ينتحي جانبًا من الطريق ويجلس وينخرط في البكاء.

قضى حسن الأسابيع التالية مضطربًا، ولم يكن ذلك ليخفى على أحد من أهل الدار، لا يعيه الصغار وإن جنوا ثماره من حدة أبيهم في التعامل معهم، يزجر ويصرخ ويضرب أحيانا على غير المعتاد ولا المألوف. وأم جعفر وأم حسن ترجعان سلوكه لضيقه من مشاجرة عابرة كان أثرها هكذا وخيمًا. تحصيان الأيام وتنتظران أن يعود سعد فيهدأ قلب حسن. ولكن ما هو موضوع المشاجرة التي تدفع سعدًا إلى ترك داره وتدفع حسن إلى ترك صاحبه وزوج أخته يرحل؟

وحدهما سليمة ومريمة كانتا تعرفان تفاصيل الموضوع، لا تقول سليمة شيئًا لأنها متباعدة منهمكة في أعشابها ولا تكثر الكلام. ولا تملك مريمة أن تحكي لأن حسن حين ألحت عليه بالسؤال جعلها تقسم على المصحف أن يظل الأمر سرا في قلبها لا يذاع.

أما حسن فكان مستغربًا حاله وهو يرى نفسه مؤرقًا يلح عليه السؤال:

هل أصاب في تصرفه أم أخطأ؟ لحظتها بدا واثقا وكأنه قد حسم أمره وانتهى، قال:

- يا سعد لا أملك أن أمنعك عن طريق اخترته لنفسك، ولكني مسئول عن سلامة أهل هذا البيت، أحرص عليهم.

قال سعد:

- ليس حرصًا ما تفعله يا حسن، ولو أغلق كل منا باب داره، وقال سلامة أهلي لهلكنا جميعًا، أقصد بشكل عام، نهائيا وإلى الأبد.

احتدّ صوت حسن.

- هل تتهمني بالتخاذل؟

لم يجبه سعد ولكنه تطلع إليه فزادت نظرته توتراً. كانت النظرة تتهم. علا صوت حسن:

- لن أدافع عن نفسي، ليست خطيئة أن تحمي أهل بيتك ولو بالتحايل، تواصل الحياة لكي تضمن لهم لقمة العيش والستر بين جدران بيت يضمهم. القشتاليون لا يرحمون وأنت تعرف وترى بأم عينيك كل يوم إذ تساورهم الشكوك في شخص، مجرد الشكوك، يأخذونه ويحققون معه ويعذبونه حتى ينتزعوا منه اعترافات قد لا تكون إلا اختلاقا يختلقه عقله للخلاص من العذاب، وقد يحكمون عليه بالموت أو يموت من عذابهم قبل أن يحكموا فيصبح عياله بلا عائل، وتخرج زوجته إلى الشارع لتعيل صغارها، والحرة لا تأكل من حليب ثدييها، ولكنها تأكل حين يجوع الصغار!

- كلام كله صحيح، ولكن ما الذي تقترحه لمواجهة هذا البلاء؟ ولو قال كل واحد منا أخشى على امرأتي وعيالي فما الذي يصير إليه حالنا؟

زفر حسن:

- الله المعين!

- هذا تواكل وتقاعس يا حسن!

علا صوت حسن:

- كفى تجريحًا يا سعد.

كرر سعد في عناد:

- بل تقاعس وتواكل، وأهلنا في عدوة المغرب يركبون البحر والمصاعب

ليهاجموا الشواطئ، ويحملوا القشتاليين ما يقدرون عليه من مخاسر، وأهلنا في رءوس الجبال يقاومون، فهل إن لجئوا إلينا طلبًا للعون أو الحماية نقول لهم نساؤنا وعيالنا . . . اذهبوا وحدكم والله معكم . . وإن شاء الله حين تحرزون النصر الذي نرتجيه نحملكم على أكتافنا ونعلن الشكر والامتنان!

قال حسن بمرارة لا تخلو من سخرية:

- أنا لست مجاهدًا يا سعد.

- وأنا أيضا لا أملك هذا الشرف ولكني أتعاون مع المجاهدين. إن طلب مني أحدهم شيئا، أي شيء أقدمه ما دمت قادراً.

- ولكنك تستقبلهم هنا في بيتي وتذهب للقائهم من هذا البيت فتهدد كل من فيه، أمي وجدتي وأختي وزوجتي وصغاري!

- ما الذي تريده يا حسن؟!

- أريد أن تكف عن التعامل مع المجاهدين.

- وإن لم أوافق؟

- عليك أن توافق لأنك لا تعيش بمفردك.

- إذن سأرحل وأعيش بمفردي . . . هل يريحك هذا يا حسن؟

احتقن وجه حسن وصاح:

- لماذا تحرجني يا سعد، لماذا؟ هل تظن أنني لا أبالي؟ هل تظن أن الأمر لم يشغلني ولم يحيرني، لم يسرق السكينة من نفسي والنوم من عيني؟! لقد فكرت طويلاً واستشرت بدلاً من فقيه عارف ثلاثة، انتظر.

قام حسن وعاد بعد دقائق وهو يحمل ثلاث ورقات نشرها أمام سعد وقال:

ـ انظر. نسخت هذه الرسالة رغم ما في الاحتفاظ بها من خطورة، نسختها لكي تراها بعينيك وتسمع ما فيها بأذنيك فتعرف أنني لا أجبن ولا أتقاعس ولا أخرج عن ديننا الحنيف الذي هو يسر وليس عسراً. اسمع هذه فتوى من أحد كبار فقهاء المغرب يحل لنا التستر والتورية على أنفسنا وصغارنا.

يقول:

«الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا. إخواننا القابضين على دينهم، كالقابضين على الجمر، من أجزل الله ثوابهم، فيما لقوا في ذاته، وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته، الغرباء القرباء إن شاء الله، من مقابلة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته، وارثو سبيل السلف الصالح في تحمل المشاق، وإن بلغت النفوس إلى التراقي، نسأل الله أن يلطف بنا وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقه، بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجًا، ومن كل ضيق مخرجا. بعد السلام عليكم، من كاتبه إليكم، من عبيد الله أصغر عبيده، وأحوجهم إلى عفوه، ومزيده عبيد الله تعالى أحمد بن بوجمعة المغراوي ثم الوهراني كان الله للجميع بلطفه وستره، سائلاً من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء، بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار، والحشر مع الذين أنعم عليهم من الأبرار، مؤكدًا عليكم في ملازمة دين الإسلام آمرين به من بلغ من أولادكم، وإن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإن ذكر الله بين الغافلين كالحي بين الموتى...».

قاطعه سعد:

ـ لا يقول الشيخ في فتواه: أما الذين أخرجوا من ديارهم مجاهدين في سبيل الله وحقوقهم فاقطعوا بهم وأديروا لهم ظهوركم!

ازداد وجه حسن احتقانًا وانفجر في سعد:

ـ اسمع الكلام إلى النهاية ولا تقاطعني!

ـ «. . . الصلاة ولو بالإيماء، والهدية كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم، والغسل من الجنابة ولو عومًا في البحور، وإن منعتم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار، وتسقط في الحكم طهارة الماء، وعليكم بالتيمم ولو مسحًا بالأيدي للحيطان، فإن لم يمكن فالمشهود سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد؛ إلا أن تمكنكم الإشارة بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتيمم به، فاقصدوا الإيماء. . .».

وكان حسن يواصل القراءة بصوت خافت به بعض رجفة، وفي وجهه شحوب حتى إذا وصل إلى «فإن أكرهوكم على كلمة الكفر، فإن أمكنكم التورية والإلغاز فافعلوا، وإلا فكونوا مطمئني القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك، وإن قالوا اشتموا محمداً فإنهم يقولونها ممداً، فاشتموا ممداً ناوين أنه الشيطان». انسالت من عينيه الدموع وارتجف صوته بغصة في الحلق يغالبها بمواصلة القراءة ولا يغلبها حتى وصل إلى خاتمة الرسالة:

ـ «وما يعسر عليكم فابعثوا به إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ما تكتبون به، وإنّي أسأل الله أن يزيل الكره للإسلام حتى تعبدوا الله بحول الله من غير محنة ولا وجلة، بل بصدمة الترك الكرام، ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به. ولابد من جوابكم والسلام عليكم جميعًا. . . ويصل الغرباء إن شاء الله».

تطلع سعد إلى حسن بعينين واهنتين ولكن سعدًا أجاب بحسم:

ـ هذه فتوى في موضوع آخر. . . هذا الفجر أرحل يا سعد!

١٥

ماتت أم جعفر وهي تنتظر عودة سعد. رحلت دون أن تنذر أهل الدار بمرض طويل أو قصير. أوت إلى فراشها، واهنة صحيح، ولكن بلا علة تشكو منها. في الصباح وجدوها على فرشها وقد أسلمت الروح.

ـ ما العمل؟

سألت أم حسن وهي تكفكف دمعها.

أجابها حسن:

ـ تدخلين الآن أنت ومريمة وسليمة وتغسلنها على طريقتنا، ثم تلبسنها ثوبها المطرز، فأذهب لاستدعاء القس ليقرأ عليها ما يريد قراءته ويمضي. ثم أعلم أبا منصور والخلصاء من الجيران ونصلي عليها هنا في البيت، ثم نحملها ونخرج من الدار لنشيعها وندفنها على طريقتهم.

ـ ندفنها على طريقتهم؟!

ـ نعم ندفنها على طريقتهم!

كان وجهه مكتوم اللون يميل إلى زرقة والنظرة في عينيه جامدة، وبدا وهو يكر الكلمات كراً وكأنه حفظها حفظا وأرهقه استظهارها، ثم قذفها بسرعة حتى لا يخطئ فيها أو يتعثر.

حدقت أمه فيه فغض الطرف وقال:

ـ سأتوضأ وآتي بالمصحف.

قامت النساء بما أوصى به حسن، وكن يبكين بصوت واهن ويسكبن الماء الدافئ على الجسد المُسجّى بلا حراك، وعندما أحضرت مريمة الثوب المطرز واقتربت من الجثمان مالت أم حسن على رأس أم جعفر المبلل بالماء وهمست:

ـ لا نضن عليك بالكفن . . . والله لا نضن!

وعلا نشيجها وانتحبت مريمة، ثم صار النشيج عويلاً ولم ينقطع حتى عندما جاء القس وتمتم بصلواته ووضع صليبًا خشبيا صغيراً بين يدي المتوفاة، ولا حين جاء الرجال بعد ذهابه وصلوا صلاة الميت عليها وخرجوا من الدار لتشييعها إلى مثواها الأخير بجوار زوجها.

وفي انتظار عودة الرجال، كانت أم حسن ومريمة ونساء الحي يقمن بإعداد الطعام للمعزين وهن يبكين على أم جعفر، وعلى الزمن الذي راح حاملاً معه حق العباد في الكفن وصلاة الجنازة.

لم تشاركهم سليمة الطهو ولا البكاء بل انسحبت إلى حجرتها. كانت تفكر في الموت الذي يقهر ويذل، وفي الإنسان أمام الموت لا حول له ولا قوة، وفي الله في السماء العالية. هل يشاهد كل شيء في صمت ولا مبالاة؟ أليس هو الذي يقبض الروح؟ فلماذا يقبضها ولماذا يطلقها أصلا لتحط في القلب حينا، ثم يناديها فترحل تاركة عشها الدافئ قفرًا؟ بدا الله لها مبهمًا وغير مفهوم وجبارًا إذ يُحمِّل عباده مالا طاقة لهم به. حدقت في صورة جدتها الساكنة في الموت فسرت في بدنها رجفة، واختنقت بغصة في الحلق واحتبست في عينيها الدموع. ميتة جدتها كالظبية والصغير الذي أرضعته، فكيف ولماذا؟ لم تكن تملك أن تفعل ما فعله في القصة حَيٌّ بالظبية، أمه التي أرضعته، عندما شق صدرها باحثًا عن الشيء المُصرِّف للجسد، بعد أن ناداها بالصوت فلم تجبه، ونظر إلى عينيها وأذنيها وجميع أعضائها، فلم ير علّة ولا آفة، ووجدها رغم ذلك عاطلة من كل حركة.

أتت سليمة بالكتاب وفتحته على صفحة بعينها كادت تهترئ من كثرة ما عاودت قراءتها. قرأت:

«جرد القلب، فرآه مصمتًا من كل جهة، فنظر هل يرى فيه آفة ظاهرة، فلم ير فيه شيئًا. فشد عليه بيده، فتبين له أن فيه تجويفًا. فقال: لعل مطلوبي الأقصى إنما هو في داخل هذا العضو، وأنا حتى الآن لم أصل إليه؟

فشق عليه. فألفى فيه تجويفين اثنين: أحدهما في الجهة اليمنى، والآخر في الجهة اليسرى. والذي في الجهة اليمنى مملوء بعلق منعقد، والذي من الجهة اليسرى خال لاشيء فيه فقال: أما هذا البيت الأيمن فلا أرى فيه غير هذا الدم المنعقد، ولاشك أنه لم ينعقد حتى صار الجسد كله في هذه الحال، إذ كان قد شاهد أن الدماء كلها متى سالت وخرجت انعقدت وجمدت، ولم يكن هذا إلا دماء كسائر الدماء. وأن هذا الدم موجود في سائر الأعضاء. لا يختص به عضو دون آخر. وأنا ليس مطلوبي شيئا بهذه الصفة. إنما مطلوبي الشيء الذي يختص به هذا الوضع الذي أجدني لا أستغني عنه طرفة عين، وإليه كان انبعاثي من الأول.

وأما هذا الدم، فكم مرة جرحتني الوحوش والحجارة، فسال مني كثير منه، فما ضرّني ذلك، ولا أفقدني شيئا من أفعالي، فهذا بيت ليس فيه مطلوبي. وأما هذا البيت الأيسر فأراه خاليًا، لا شيء فيه. وما أرى ذلك لباطل. فإني رأيت كل عضو إنما هو لفعل يختص به، فكيف يكون هذا البيت على ما شاهدت من شرفه باطلاً؟ ما أرى إلا أن مطلوبي كان فيه، فارتحل عنه وأخلاه. وعند ذلك طرأ على ذلك الجسد من العطلة ما طرأ، ففقد الإدراك وعدم الحراك.

فلما رأى أن الساكن في ذلك البيت قد ارتحل قبل انهدامه، وتركه وهو بحاله، تحقق أنه أحرى ألا يعود إليه بعد أن حدث فيه من الخراب والتخريق ما حدث. فصار عنده الجسم كله خسيسا، ولا قدر له بالإضافة إلى ذلك الشيء

الذي اعتقد في نفسه أنه يسكنه مدة ويرحل عنه بعد ذلك. فاقتصر على الفكرة في ذلك الشيء، ما هو؟ وكيف هو؟ وما الذي ربطه بذلك الجسد؟ وإلى أين صار؟ ومن أي الأبواب خرج عند خروجه من الجسد؟ وما السبب الذي أزعجه إن كان خرج كارها؟ وما السبب الذي كره إليه الجسد حتى فارقه، إن كان خرج مختاراً؟

وتشتت فكره في ذلك كله، وسلا عن ذلك الجسد، وطرحه، وعلم أن أمه التي عطفت عليه وأرضعته، إنما كانت ذلك الشيء المرتحل وعنه كانت تصدر تلك الأفعال كلها، لا هذا الجسد العاطل. وأن هذا الجسد بجملته إنما هو كالآلة لذلك، وبمنزلة العصا التي اتخذها هو لقتال الوحوش، فانتقلت علاقته عن الجسد إلى صاحب الجسد ومحركه، ولم يبق منه شوق إلا إليه».

كانت «رسالة حيّ بن يقظان» كتاباً من خمسة كتب أخذتها سليمة من عين الدمع بعد وفاة جدها، ثم أتى لها نعيم خلسة بكتاب مرة، ثم بكتاب ثان مرة غيرها. وكان في كل مرة يؤكد عليها ضرورة الانتهاء منه في أيام معدودةٍ هي التي يتغيبها مخدومه القس في سفرته القصيرة. يعطيها نعيم الكتاب فتظل تنتظر الليل، يأتي فتقرأ وتجتهد في الفهم وتدوِّن، ويرهقها العمل فتغفو، وفي نومها تتراكم في رأسها الأفكار والخوف من أخذ الكتب فتجفل مستيقظة وتواصل القراءة. ثم يأتي نعيم ويعيد الكتاب حيث كان في مكتبة القس.

أيّ طالب هذا الذي حصيلته ودرسه كتب معدودة؟ تكرر سليمة في مرارة وضيق، تهوّن على نفسها بأن بين الكتب كتاباً بمائة كتاب خطه مولانا الأكمل والمتبحر الأفضل رئيس الحكماء الحسين بن عبدالله بن سينا، درست على يديه عبر «القانون» كتابه. تهوِّن على نفسها ولكن الأمر لا يهون، وتختنق في سجن الزمان الوضيع حيث اقتناء الكتب جرم له عقوبة، وحيث الدراسة تستوجب الحرص والكتمان والتخفي، ليس فقط تمويها على عين الغريب الذي يترصد بل أيضا على عين القريب. لا تملك أن تقرأ نهاراً فيراها حسن أو أمها أو

الصغار وهي تضع على عينيها النظارة التي أخذتها من نعيم. تنتظر حتى يهبط الليل ويأوي أهل الدار إلى فراشهم فتسرج القنديل وتقرأ فيتسع السجن، رويدًا رويدًا يتسع، ثم تتبدد قضبانه في ضوء شمس تسطع من الكتاب وعقلها. أيّ طالب هذا الذي حصيلته عشرة كتب؟ تكرر سليمة في مرارة وهي تحدّق في زمن قديم يأخذ بأيدي أبنائه إلى المكتبات الكبيرة ورعاية أمير حكيم وترحال يجاوب شوق القلب إلى علماء مصر والشام.. تقيم أو ترحل، وفي الحالتين تغمرك شمس ألف كتاب هي درسك ومعلمك. فكيف لها من سجنها القشتاليّ الضيق أن تكشف سر ذلك العصفور الذي يرحل بقانون رب مبهم؟! تيأس ثم لا تيأس، تكتفي بقانون ابن سينا ولا تكتفي فتضيف إلى هوامشه أسئلتها وملاحظاتها وخلاصة قادتها إليها التجارب، تراعي الزمن الوضيع وقرارات حسن الصارمة بحماية الأسرة ثم لا تراعيها وتهمس في أذن نعيم، تطلب كتابا وتُسر لامرأة تعرف شخصًا يعرف شخصًا يأتي لها بكتاب بعينه تدفع فيه كل ما كسبته من مال في سنة كاملة.

لو أمها أوجدّتها أو حتى مريمة التي لا تخفي عنها أمر اقتنائها للكتب عرفن كيف حصلت على كتاب ابن البيطار «الجامع» وما دفعته فيه لاتّهمنها بالجنون، وربما سقطت أمها مغشيا عليها من وطأة الخبر. ولكنها يوم حملت الكتاب بأجزائه كاملة ضمته إلى صدرها الذي تسارعت دقات قلبها فيه، وكأنما يضيق بقفص الصدر وهو يرقص منفلتًا بلا حياء. وما الذي تساويه الدنانير أمام تلك الموسوعة التي تُفَصِّلُ مفعول كل عشبة ونبات. الحكيم من اشترى والذي باع أحمق تمامًا كأولئك الذين يبددون الأيام والليالي وجهد العقل الراجح في محاولة تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب، ولو نجحوا فرضًا وحولوها فما الذي أنجزوه والموت يترصد، يرسل مبشريه يخترقون الأسوار بالأمراض التي تفتك، ثم يأتي هو ويُسقط الجسد تحت سنابك خيله المنتصرة؟! ولم ينجحوا فبددوا العمر وبددوا ثمار العقل!

كانت سليمة عنيدة في يقينها الآن بأن العلة في البدن، والشيء المُصَرِّف للجسد فيه. ماذا يكون ومن أين يأتي ولماذا يذهب؟ أسئلة أرقتها وأعجزتها وإن لم تحولها عن يقينها. أغرقت السؤال في تفاصيل بحثها اليوميّ عن الآفات الكثيرة التي تصيب البدن، تترصدها، وتنتج لها الماضي من الأسلحة، تستلهم الكتب وتنهمك في تجاربها. كانت قدورها وقواريرها وأحقاقها وصناديقها عامرة بالأعشاب الخضراء والجافة والأمزجة والعجائن والمُركَّبات، تعالج فتخيب مرة وتصيب مرات، تبتسم راضية ولكنها لا تنسى تمامًا تلك المرارة التي زجت بها في زاوية من القلب، مرارة المعرفة أن انتصاراتها جميعًا جزئية، لأن الموت الذي يطول قادر في كل لحظة أن ينزل سيفه المسلط ويطلق ضحكاته الظافرة.

١٦

اشتهرت مريمة بين الجيران ونساء الحيّ بمفاجآتها المدهشة، يسعفها عقلها بحسن التصرف السريع الذي يحول مرارة حكم القويّ على الضعيف إلى ضحكات عفية ساعة تنقلب الآية فيصبح القويّ ضعيفًا والضعيف قادرًا ومزهوا.

كانت نساء الحيّ يتداولن ما قالته مريمة وما فعلته مريمة بلا ملل ولا كلل، ولِمَ لا وكل حكاية منها تملأهن بهجة وحبورًا وتضيء الساعات الموحشة بالفكاهة والضحك.

وكان آخر ما تناقلته النساء هو واقعة ذهابها إلى معلم المدرسة التبشيرية لتقنعه أن أبناء العرب يولدون «هكذا، وإن لم تصدقني يا سيدي المعلم فاطلب من أيّ واحد من أولئك الصغار أن يخلع سرواله فترى بنفسك. هكذا أولادنا نحن العرب يخلقون بشعر أسود كثيف ولا تؤاخذني محرومين من تلك الزائدة التي يولد بها أطفالكم».

وكانت مريمة قد قامت بتلك الزيارة بعد أن جاءتها إحدى جاراتها تبكي وتطلب النصح والمشورة لأن ابنها البالغ من العمر ست سنوات كان يلعب في فناء المدرسة حين زلت قدمه وسقط فانكشفت عورته. وكان المعلم يقف بالقرب منه فلما رأى ما رأى استشاط غضبًا وأقسم أن يبلغ المسئولين في ديوان التحقيق لكي يؤاخذوا أهل الولد على خرقهم للقوانين. طمأنت مريمة جارتها وقالت لها: «لا تحملي همّا وسأتصرف» وفي اليوم التالي ذهبت مريمة إلى

المدرسة وطلبت مقابلة المعلم وقالت له ما قالت، فابتسم ابتسامة مستخفّة وقال بنظرة لا تخلو من الصرامة:

ـ هل تسخرين مني؟!

أجابته مريمة بقوة وحزم:

ـ ولماذا أسخر منك يا سيدي المعلم؟! إنني أعلمك بحقيقة لا تعرفها لأنك قشتالي ولا تعرف الكثير عن أبناء العرب. . . ولأنك معلم فإنه يعز عليّ كثيراً أن يسخر منك أبناء العرب ويتّهموك بالجهل. ولو تكرمت وتفضلت وزرتنا في بيتنا يطلعك زوجي على عورة ابني تجدها تمامًا كأولئك الصغار، رغم أنه في الثالثة من عمره. وبإمكاني أيضا أن أدلك على جارة لي وضعت ولدًا من يومين اثنين، لو تكشف عليه تجد الشيء نفسه. وبإمكانك الآن فوراً أن تدخل إلى الصف وتطلب من الصغار أن يكشفوا لك عن عوراتهم فتتأكد من صحة كلامي.

وارتبك المعلم لأن السيدة التي كانت تجلس أمامه كانت تتكلم بثقة وقوة وحسم قدر أن مصدرها الصدق. ولكي يقطع الشك باليقين قام ودخل الصف وأمر الصغار أن يرفعوا أثوابهم ويخلعوا سراويلهم. دار بعينيه محدّقًا في طفل بعد طفل، فما وجد إلا شيئًا يتكرر، يختلف في طوله أو امتلائه، ويكاد يتطابق في تجعيداته المحددة واستدارة طرفه، كان الأولاد جميعًا وبلا استثناء متماثلين في غياب ما أسمته السيدة «بتلك الزائدة». طلب المعلم من الصغار التستر وخرج من الصف، وعاد إلى السيدة التي كانت تنتظر نتيجة الفحص، وقبل أن يعلمها به قالت له بوجه مطمئن:

ـ ألم أقل لك ولم تصدقني. . . لم تجد ولدًا واحدًا يختلف عن الآخرين، أليس كذلك؟! عليك أن تصدقني الآن يا سيدي المعلم، كما أن بشرتكم تميل إلى البياض وبشرتنا تميل إلى السمرة، يولد أطفالكم الذكور بتلك الزيادة، أما أولادنا فلا يولدون بها. . . للأسف!

تمتم المعلم على استحياء:

ـ ولكني سمعت أن العرب يختنون صغارهم.

ـ صحيح... كنا من زمان نختن البنات. كان هذا خطأ وتُبنا عنه... أما الأولاد فكيف نختنهم؟!

وقامت مريمة وحياها المعلم وهو يشكرها ويعتذر عن سوء الفهم.

وضحكت البيازين وقهقهت أسبوعين بطولهما. ولكن حسن لم يضحك بل وبخها قائلا إنها تورد نفسها مورد التهلكة، وقد تتسبب في أذى للعائلة كلها. «ولن تسلم الجَرَّة في كل مرة يا مريمة!».

ولكنها كانت تسلم، بشكل أو بآخر. تتمكن مريمة من مواجهة هذا الموقف أو ذاك بسرعة بديهة وذكاء، فيتناقل الجيران مافعلته ويضحكن ضحكا لا يخلو أحيانا من توتر مصدره السؤال: ماذا لو أن التوفيق لم يكن قد حالف مريمة؟ تسري قشعريرة في القلب الذي يواصل، رغم ذلك، الضحك.

كان أهل الحيّ يحبونها لأنها مريمة، ولأنها كانت تمنحهم بأفعالها تلك لحظات من الابتهاج العفيّ. وكان منهم من يدينون لها بمساعدتهم ومساعدة أولادهم في الخروج من مأزق يعلم الله وحده كيف كانوا يخرجون منه دونها. ولم يكن ذلك الشعور بالامتنان محصوراً في المعارف والجيران؛ بل يتعداه إلى غيرهم ممن لا تعرفهم مريمة. تولد الواقعة العرفان وزيارة تعارف تنزرع المودة فيها وتنمو.

لم تكن مريمة تعرف الصبيّ ولا أهله. ولكنها رأته قرب السوق في غرناطة. كان في الثامنة على الأرجح. وكان يمشي متقافزاً مشرق الوجه يردد صلاة العيد التي لابد أنه كان قد سمعها من الكبار، أو شارك أهله فيها في تلك الصلوات الجماعية التي تقام سرا في العيدين. كان الولد يردد طربا: «الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر جنده،

وهزم الأحزاب وحده»، دارت مريمة بعينيها في المكان كصقر مهدد، فلمحت حارسين قشتاليين وبعض المارة. ركضت على الولد ولطمته على وجهه فأخذته المفاجأة وانعقد لسانه واتسعت عيناه ذهولاً. ولكنه لم يبدأ في البكاء إلا عندما أمسكت يده بقوة وراحت تصرخ فيه بالقشتالية:

ـ ألم أقل لك ألف مرة ألا تعاشر أولاد العرب، ها أنت لا تتعلم منهم إلا الموبقات!

وراحت مريمة تصيح وتنعى حظها العاثر وتجمع المارة حولها والحارسان بينهم فوجهت لهم الكلام:

ـ قولوا لي ما الذي نفعله، أليس من سبيل لحماية أولادنا من زمرة السوء تلك... وها هو ابني، ابن بطني، أنا القشتالية الأصيلة صاحبة الدم النقيّ، يغني أغاني عربية ويقول الله أكبر!

عادت تصيح في الولد وتتوعده، وأخذ بعضهم يهدّئها مكرراً إنه صغير ولا يعرف ما الذي يقوله. ولمحت مريمة بين الواقفين رجلاً من البيازين تعرفه، رأت في عينيه ألقًا متواطئًا يشجعها على المضيّ في اللعبة التي كانت قد انطلت تمامًا على القشتاليين، فوبخ أحدهم الولد بشدة، وأخذ أحد الحارسين يربت على رأس الولد، وقال لمريمة:

ـ لا تقسي على ابنك هكذا، إنه صغير ولا يدري من أمره شيئًا.

وكان الصبيّ مذعوراً لا يفهم ما الذي يحدث. أخذته مريمة من يده وابتعدت وفي الطريق سألته:

ـ أين بيتك يا ولد؟

تلعثم ثم أجاب. أعادته إلى أمه وقالت لها:

ـ عليك أن تعلمي الصغار أن يكونوا أكثر حرصًا خارج البيت.

كانت مريمة قد نفذت ما أراده حسن في تربيتها لصغارها. في البيت يتحدثون العربية، ويعيشون يومهم كما عاش آباؤهم وأجدادهم، وفي الشارع والمدرسة يتحدثون القشتالية ويسلكون بما يرضي السلطة الحاكمة وديوان التحقيق. هذا ما أراده حسن، وهذا ما نفذته ولكن بطريقتها.

ـ من يتحدث القشتالية في الدار، أو يفعل ما يفعله القشتاليون يُسخط قردًا في الحال.

ـ وهل سبق أن انسخط طفل قردًا من قبل يا أمي؟

ـ كثيرون.. غدًا آخذكم إلى السوق، وأريكم القرود التي يتكسّب أصحابها من ورائها.. مساكين. لقد كانوا أطفالاً لكل واحد منهم وجه كالقمر، ثم انسخطوا قرودًا!

ـ ومن يتحدث بالعربية خارج الدار؟

ـ من يتحدث العربية خارج الدار، أو ينقل كلمة واحدة مما يدور فيها، يضيع في الطرقات، وعبثا يحاول أن يعود إلى البيت فلا يعرف كيف، يدخل حارة ويخرج من حارة، ولا يجد البيت كأنه فص ملح وذاب.

كانت مريمة تغالب زمانها، فتبدو الأيام على ما فيها من منغّصات محتملة، بل وأحيانا مبهجة لأن القلب يقوى وهو عامر بحب الصغار وحسن الذي تتجنب التفكير في سلوكه، وتميل إلى ما تختلقه له من أعذار وتبريرات. تقول لنفسها إنه يتقنّع بالصرامة تقنّعا، وإن حرصه الزائد الذي قد يرى بعضهم فيه تخاذلا ونقص شجاعة ليس سوى جهد مكلف للحفاظ على الأسرة وتجنيب أفرادها المشكلات. أحيانا تشعر به بعيدًا وشرودًا، وحين يقترب تراه يضيق بالصغار وبها كأنهم صاروا عبئا ينوء به، فتقول إنه لا يريدها ولا يريد صغارها، وتراودها الظنون إن كانت امرأة أخرى قد شغلت قلبه من بعيد أو قريب فعاد يضج بحياته معها. تكاد الشكوك تتملكها ثم تنفضها بعيدًا وهي

تكذبها مستعينة بذاكرة لحظات تختلف ترى فيها بجلاء قرب حسن وحنانه الحييّ يشفُّ عن عذوبة روحه. تلوم نفسها قائلة هل أزيده ظُلمًا على ظلم الزمان؟!

* * *

لم تكن زيارة تحمل خيراً. دق أخواها الباب قبل طلوع الشمس. غيرت ملابسها وتبعتهما ومعها حسن. كان أبوها قد توفي في الليل. كشفت مريمة الغطاء عن وجهه وتطلعت، ثم أعادت الغطاء ثانية وظلت واقفة بلا حراك، وطالت وقفتها كأنما انسحبت روحها فتعطل البدن لحظات، طالت ثم انهمرت الدموع.

قال أخواها: «سنقوم بما يليق به وبنا. وليذهب القشتاليون إلى الجحيم!» نصحهما حسن بعدم الاندفاع في ذلك تجنبًا للمشكلات. أصر الأخوان، أما مريمة ففاضت دموعها ولم تقل شيئًا.

غسلوا أبا إبراهيم وكفنوه وشيعوا جثمانه من بيته مروراً بالأزقة الضيقة التي تقود إلى ذلك البيت العتيق المهجور الذي يفضي رواق من أورقته إلى المسجد السريّ. صلوا عليه ثم خرجوا به إلى المقابر حيث دفنوه. وفي المساء اجتمع المعزون وتناوب أخواها تلاوة القرآن وتردد الصوت في فضاء الحيّ ملحّنا كالحنين.

في مساء اليوم الثالث عادت مريمة إلى بيتها. وقبل أن ينقضي الأسبوع كان القشتاليون قد اقتحموا بيت أبيها وألقوا القبض على أمها وشقيقيها. أين أخذوهم؟ ما الذي يفعلونه بهم؟ وهل يكتفي ديوان التحقيق بالتجريس والتغريم أو بعام أو عامين من الحبس أم لا يكتفي؟ هل تراهم بعد ذلك أم ينقضي العمر، عمرهم وعمرها، دون أن تلتقي العيون بالعيون؟

لم يكن أمام مريمة سوى المواظبة على حضور مواكب «الأتودا في» لعلها تلمح في واحد منها أمها أو واحداً من شقيقيها أو كلهم مجتمعين. تمني نفسها

بأن تراهم، وأن يأتي الحكم بالبراءة أو بالغرامة، أو حتى بلبس عباءة المذنبين والطواف بحمار ولافتة عليها تفاصيل التهمة.

تبكر مريمة في الخروج من دارها في اليوم المعلوم، وتنتظر خارج الكنيسة مع حشد يختلط فيه الأهالي مخلوعو القلب مثلها بجموع قشتالية أتت للفرجة والاستمتاع. ثم يشرئب عنقها وتعلو دقات قلبها وهي تلمح الموكب يقترب، صف من المتهمين يرتدي كل منهم الثوب المقدس، ويمشي حافي القدمين حول عنقه حبل وفي يده شمعة، يدخلون الكنيسة ليؤدوا شعائر التوبة. لعله الزحام حال بينها وبين رؤيتهم. تهرول مريمة إلى الساحة وتحتل موقعًا يمكنها من رؤية كل شيء وتنتظر في شمس الصيف الحارقة أو زمهرير الشتاء، تنتظر حتى تسمع دق الطبول ونفخ الأبواق وترى الأحبار ورجال ديوان التحقيق وكبراء البلد يقتربون ومن ورائهم موكب المذنبين. الكبار يجلسون في أماكن مخصصة لهم والمذنبون يصطفون متجاورين، وهي تبحث بعينيها، تحدق وتتملى، تعي ولا تعي الزحام المتزايد والجلبة والصخب. ثم تصيخ السمع وتستنفر حواسها جميعًا في الأذنين تتابع بهما ما يقرأه المسئول من عريضة التهم والأحكام، ينتقل من اسم لاسم، ومن حكم إلى حكم حتى ينتهي دون أن يرد ذكر أيٍّ من أهلها، فتعود تجر قدميها خائبة إلى الدار. لا تنتظر لتشاهد جلد رجل بالسياط، أو حرق امرأة تنفيذًا للأحكام. تذهب والساحة من ورائها صاخبة بحشود قشتالية جاءت للمشاركة في الاحتفال بالفرجة على تفاصيله المثيرة، وبينهم بعض أفراد لهم من المذنبين حصة: أخ أو ابنة أو جار.

تعود مريمة إلى بيتها شاحبة الوجه زائغة العينين، وتمرض يومًا أو أيامًا تلازم فرشتها مهزومة الجسم واهنة، تقول لنفسها ولحسن: «لن أذهب أبدًا بعد ذلك». ولكنها ما أن تعرف أن السلطات ستعقد احتفالها الرسميّ ذاك حتى تتأهب وتحصي الأيام، وفي اليوم المحدد المعلوم تبكر في الخروج.

صباح الأحد قال حسن لمريمة:

ـ أراك لم تستعدي للذهاب إلى القداس؟

قالت، وكانت قد أمضت نهار اليوم السابق تتابع موكب المذنبين وإعلان التهم والأحكام :

ـ إنني متعبة يا حسن ولا طاقة لي على ذلك .

ولكنه أصرّ :

ـ إنهم يترصدوننا يا مريمة . أخذوا أمك وأخويك وعيونهم عليك . هذا مؤكد . تحاملي على نفسك والله المعين .

طاوعته وذهبوا إلى الكنيسة جميعًا باستثناء سليمة التي كانت قد حسمت الأمر قبل سنوات، حين أعلنت بشكل قاطع ونهائيّ أنها لن تذهب إلا لو قيدوها بالحبال وجرّوها كالدواب . لم يعاود حسن مفاتحتها في الموضوع وإن واظب على أخذ أمه وزوجته وصغاره تمويهًا وذرا للرماد في العيون .

في الكنيسة احتلت الأسرة مقعدًا خشبيا بكامله . جلس حسن في طرفه المشرف على الممر الأوسط، وبجواره جلست أمه فالصغار، وعلى الطرف الأيمن المشرف على الممر الجانبيّ جلست مريمة .

كان الضوء الخافت وقدم المكان وصوت القس الرخيم يضفي على قلب مريمة حزنًا على حزن . جلست مطرقة الرأس ساهمة وقد مال جذعها قليلاً إلى الأمام، وبدا أنها تحدق في كفيها المسندتين مفتوحتين على حجرها . لم تكن ترى كفيها بل وجوه من رأتهم بالأمس في موكب الخطاة، وجوهًا ممتقعة شاحبة، وعيونًا زائغة غائرة يزيدها هزال الوجه والاضطراب والخوف اتساعًا . رغم الثوب المقدس الفضفاض الذي يستر الجسد، كان الهزال باديًا على أبدانهم، وآثار تعذيب وعذاب في الليالي الموحشة في الأقبية المظلمة التي تسكنها الجرذان وأشباح من سكنوها وقتلتهم الوحشة أو نيران المحرقة . كان بين المحكومين صبية في عمر ابنتها رقية كلما حولت عنها عينيها عادت عيناها

إليها تتطلعان. وعندما ذهبت مريمة بقي وجه البنت يلازمها لا يغيب. وعندما راحت في النوم جاءها في المنام.

جفلت مريمة عندما صدح صوت الأرغن فجأة، وسرت في بدنها رجفة ثم فاضت من عينيها الدموع. رفعت رأسها قليلاً وعبر الدموع رأته. كان قريبًا تكاد تلمسه لو أنها مدت يديها.

كان يمينها مباشرة. حدقت فيه وارتفعت عيناها من قدميه الحافيتين إلى ساقيه المتهدلتين إلى الجذع النحيل العاري إلى الكتفين الصغيرتين إلى الرأس المائل وتاج الشوك يكلله. حدقت في الضلوع نافرة من قفص الصدر وفي العيون مسبلة في ألم مستكين، في الذراعين ممدودتين على خشبة الصليب، توقفت عيناها عند الكف ثم الكف والمسمار في كل منهما يثقب ويثبت لحم الإنسان إلى صليب محنته. عادت تتطلع إلى الوجه. كان حزينا وبائسا يرهقه العذاب ولا يفصح إلا برأس يميل قليلاً كأنه لا يميل.

قامت مريمة وخطت إليه خطوتين، وجثت على ركبتيها ومدت يديها تلامس القدمين الحافيتين. بدا لها أنها ستطلب شفاعته، ولكنها عندما اقتربت منه ولمسته فاض قلبها وتمتمت «والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا. ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون». كانت ذراعاه الممدودتان على الصليب جناحين ينشرهما عليها محبة ورحمة. لم تطلب مريمة شيئًا بل فتحت ذراعيها وأحاطت ساقيه ومالت برأسها قليلاً وقبلتهما.

١٧

عرض القس ميجيل على نعيم أن يرافقه في رحلته إلى العالم الجديد. وجاء العرض مفاجئًا لنعيم حتى أنه لم يعرف بمَ يجيب، وطلب من مخدومه أن يمهله عدة أيام للتفكير في الأمر. لو أن سعداً لَم يتركه بهذا الشكل القاسي لما فكر لحظة في الرحيل، ولكنه صار مقطوعًا من شجرة، فلماذا لا يرحل إلى عالم جديد أو قديم أو حتى جهنم حمرا؟! وما الفرق بين مكان وآخر، فلا زوجة ولا أولاد ولا صديق. حتى أم جعفر ذهبت وطوى جسدها التراب. ثم إن القس رجل طيب سهل المعشر لا يهينه أبدًا ولا يسيء إليه، بل على العكس من ذلك يلحظ أحيانا تكدره لسماع أخبار ديوان التحقيق وجورها على العرب وغير العرب. والقس يتحدث عن عالم جديد كأنه الفردوس في جماله وثرائه، لمَ لا يسافر؟ ولو عاد سعد؟ ولِمَ لَمْ يعد حتى الآن وقد مر على سفره ثلاثة أعوام ولا حس ولا خبر؟!

كان نعيم يعيش موزعًا بين جرح أصابه من سفر سعد المفاجئ وقلق متوجس يتجسد أسئلة لا تنتهي: هل رحل سعد إلى المغرب أم إلى رءوس الجبال؟ وهل يعمل مع المجاهدين على السفن المغيرة، أم يجلس في ستر كهف من الكهوف يتهامس مع رفاقه في شأن الغد؟ هل أصابه مكروه أم تزوج بغير سليمة وأكرمه الله بصبيٍّ أو صبية؟ ترى أين أنت يا سعد، وما الذي تفعله في هذه اللحظة، وهل يمر بخاطرك صاحبك نعيم أم أنك نسيته كما نسيته يوم تركت غرناطة دون أن تأتي لتودعه؟

قبل نعيم عرض القس، وقبل يومين من سفره ذهب إلى دار حسن ليودع أهل الدار. بكت أم حسن لسفره ولكن الصغار كانوا متوقدين يمطرونه بالأسئلة عن ذلك العالم الجديد الذي يقصده، فيضحك ويقول لهم إنه لم يره بعد لكي يحكي لهم عنه. «عندما أعود بإذن الله سأحمل لكم معي حكايات كثيرة وذهبًا كثيراً أيضا، لأنهم يقولون إنها بلاد حصاها من الجواهر وتربتها من التبر الخالص»، وكان يضحك لأنه لم يكن يصدق هذا الكلام على شيوعه وكثرة تردده.

وكان حسن يجلس صامتًا يتطلع إلى نعيم، تثقله فكرة رحيله. يستحضر رحيل سعد ويتوجس من وحشة المواصلة وحيداً بلا سند.

- ومتى تعود يا نعيم؟

- بعد عام، أو عامين لأن القس يقول إن الغرض من ذهابه هو أن يكتب كتابًا. إنه يريد أن يرى كل شيء بنفسه ويسجله في كتاب.

مد نعيم يده إلى جيبه وأخرج منه ورقة مطوية، وقال لحسن وهو يعطيها له:

- لو عاد سعد في غيابي أعطه هذه الرسالة. قل له إنني أشتاق له وإن رحيله عذبني. قل له إنني لن أطيل السفر. قل له.. لا تقل له شيئًا لقد كتبت ذلك كله في الرسالة... هل بإمكاني أن أودع سليمة؟

سبقته إحدى الصغيرات إلى حجرة سليمة وأعلمتها بقدومه. دخل ووقف متلعثما ثم قال:

- سأسافر إلى العالم الجديد مع القس ميجيل.

تطلعت سليمة إليه فخال أنه رأى التماعة في عينيها أو ربما اختلاجة في وجهها. لم تقل شيئا بل مدت له يدها تصافحه. وحين استدار قاصداً الذهاب سمعها تقول:

ـ لا تغضب من سعد يا نعيم، إنه يحبك كثيراً.

استدار إليها فرأى دمعة على خدها، فهرول خارجًا حتى لا يراه أهل الدار وهو ينتحب.

هل نادى نعيم سعدًا في تلك الليلة إلى الحد الذي سمعه سعد وهو في القرية النائية؟! وهل يسري صوت الصاحب إلى صاحبه عبر السهول والجبال؟ في تلك الليلة، رأى سعد صاحبه في المنام. كانا معًا ومعهما سليمة وحسن يحيطون بأبي جعفر الذي كان متربعًا بطوله المديد في المكان، وضاء الوجه يبتسم، يوجههم فيما يقومون به من عمل. يرتب حسن أوراق المخطوط، وهو يقص الجلد اللازم لتغليفه، ونعيم ينحني على غلاف يعتني بكتابة العنوان سلاسل حروف تتمايل كالأغصان عفية ومرهفة. «من أين لنعيم هذا الخط الجميل؟!» يتطلع إليه سعد، وسليمة تقف بباب الحانوت مع ظبيتها تقول إن الكتاب لها، فيبتسم أبو جعفر قائلا: «صبراً يا سليمة... ننتهي أولا من الكتاب ثم نعطيه لك، سنعطيه لك».

هل يفتقدهم إلى حد استحضارهم في المنام، أم أن حلمه رؤيا وبشارة بلم الشمل؟ تساءل سعد وهو يستعيد تفاصيل حلمه، لابد أنهم ينادونه وها هو قلبه قد سمع النداء. سينزل غرناطة للقائهم.

كان قد مضى عليه ثلاثة أعوام وهو يعيش بين شباب المجاهدين في قرية جبلية مستورة عن العيون الغريبة. كان يقطع الطرقات الوعرة التي يجهلها القشتاليون حاملاً مع رفاقه المؤن والرسائل إلى فدائيي البحر الذين يهاجمون الشواطئ ويوجعون جند قشتالة وحكومتها بغاراتهم. وكان يساعد في تنظيم وصول أهالي القرى الذين قرروا الهجرة إلى شاطئ الرحيل. تأتيهم رسالة من قرية بعينها فيدخلونها تحت جنح الليل سرا، ويلتقون بشيوخها ويعدون كل شيء بالجملة والتفصيل. وفي اليوم المعلوم يجتمع من انتوى الرحيل من الأهالي فيقودهم سعد ورفاقه في المسالك الجبلية غير المطروقة. أطياف بلا

صوت تسري في جوف الليل يسترها وقلوب السارين التي تفيض تحجز فيضها في الصدور، لا حدو، لاغناء، لا إنشاد. فإذا مالاح لهم الشاطىء توقد الأطفال وتقافزوا مستثارين وتحرك الكبار في همة ينقلون عيالهم وأمتعتهم إلى المراكب. تتعاقب على عيونهم شموس وليال، تضيء العيون برجاء الخلاص وتعتم بحزن الرحيل عن زيتونة الدار وغصن ريحان لن يضعه أحد على قبر الآباء. يصعدون فتتحرك بهم المراكب الصغيرة إلى السفن الكبيرة الراسية في عرض البحر تحملهم وتبتعد.

كانت سليمة كعادتها تنحني على كتاب من كتبها تدرس تفاصيله في ضوء سراج، حين سمعت الصوت فتلفتت ثم عادت إلى الكتاب قائلة لنفسها: «هيِّئ إليّ» ولما سمعت الصوت مرة ثانية تيقنت أنه سعد ينادي. ركضت إلى خارج الدار وفي عتمة الفناء لقيته. فتح ذراعيه واسعتين وضمّها فضمّته، وقبّلها فقبّلته، ثمّ أمسكت بيده فتبعها إلى داخل البيت وكان أهله نيامًا.

في حجرتها جلس سعد أمامها حييًا لا يعرف ما الذي يقوله، وجلست هي أيضا تتطلع مضطربة. طالت غيبته تسعة وثلاثين شهراً بدت كعشر سنين. . . هل لأنها افتقدته أم لذلك الشيب المتكاثف على فوديه وخطوط استجدت على الجبين وتحت العينين في بشرة لوحتها رياح ثلجية أو قيظ شمس حارقة؟

- طال غيابك يا سعد.

أقبل عليها فالتقيا لقاءً صاخبًا محمولاً على شوق الجسد وحرمان الروح تطلب الوصل وتلح فيه. أنالها وأنالته فرفعتهما موجة الوصل عاليًا وهما يشهقان بين موت وحياة وموجة تغمر وأخرى ترفع، وقاع مظلمة عميقة وزرقاء عالية تتوهج بحرارة شمس لاهبة تتقد، يشهقان، يجمح البدن والروح فيه تحتشد، فإذا ما لاح شاطئ الوصول انطلقت نوارس البحر تطرز الفضاء بأبيضها وتهلل.

وعلى شاطئ الوصول سكنا وتحدثا، تحدثا طويلاً وبصوت هامس، وعندما غردت عصافير الصباح راحا في نوم عميق.

أضفى حضور سعد المفاجئ على الدار بهجة كبهجة الأعياد. كان الكل فرحًا مستثارًا. وكان حسن أكثرهم جذلا يضحك كما لم يضحك منذ سنين، يمازح سعدًا ويحدثه ويسأله ويسمع منه حتى احتج الصغار وأم حسن لأنه لا يتيح لهم فرصة الحديث مع سعد.

وكان سعد يكاد لايصدق أن ثلاث سنين فرقت بينهما هكذا، فرُقية وأختها الأصغر منها مباشرة اللتان تركهما طفلتين صارتا صبيتين لن يستغرب لو دق باب حسن من يطلب الزواج منهما. وهشام الذي كان يتعثر في المشي ولا يعرف من كلمات اللغة سوى كلمتين أو ثلاث، أصبح يتحدث بطلاقة ويفهم ما يقال له ويجيب، ويقول إنه بعد عام واحد سيذهب إلى المدرسة ليتعلم القراءة والكتابة.

- تتعلم العربية أم القشتالية يا هشام؟

- في المدرسة أتعلم القشتالية، وفي البيت يعلمني أبي العربية كما علمها لأخواتي.

فيضحك سعد مسرورًا بفطنة الولد ويقول لأم حسن:

- أوقدي البخور وارقيه من عيني.

فيضحك حسن، ولكن أمه لا تضحك بل تتلو «قل أعوذ برب الفلق» تبدأها مسموعة، ثم تكملها في سرها تكشفها حركة شفتيها المتمتمتين.

لم تشاركهم سليمة ولا مريمة الجلسة إذ كانتا قد بكرتا في الخروج إلى السوق لشراء بعض لوازم الطعام. كانت مريمة قد قالت لسليمة:

- ليس يومًا كباقي الأيام، إذن تعالي معي إلى السوق.

طاوعتها سليمة، وما أن ابتعدتا عن الدار حتى قالت مريمة وهي ترمقها بنظرة ماكرة:

ـ كانت ليلة بألف ليلة، أليس كذلك؟

تضرج وجه سليمة بحمرة الخجل، قالت:

ـ ما الذي نشتريه للطعام؟

ـ سأذبح خروفًا!

قبل المغرب كان الخروف مطهوًا ينتظر الآكلين. لم تكن الضحكات العالية التي ميزت الوليمة ترجع فقط لعودة سعد والتئام شمل العائلة ولحم الخروف الشهيّ، ولكن أيضا بسبب حكاية الخروف التي أضيفت إلى سجل مريمة الحافل بالحكايات.

«حين قلت لسليمة إنني أنتوى ذبح خروف احتفاء بسعد، ظنتني أمزح، أليس كذلك يا سليمة؟ ولكني طبعًا لم أكن أمزح. صحيح أن الذبح في البيوت محظور وقد تكون عاقبته السجن، ولكني كنت قد قررت وتوكلت. دخلت على البائع في سوق الدواب عابسة الوجه وكأنني أحمل هم الدنيا والآخرة»، قلت له:

« لي ولد، ولد وحيد، أكرمني الله به بعد خمس بنات. ولقد عاهدت نفسي ألا أرد له طلبًا وأوفيت. ولكن منذ أسبوع جاءني الولد وقال: أريد خروفا. قلت: وما الذي تفعله بالخروف؟ قال: ألعب به، قلت: إن شاء الله. ولكني طبعًا ما كنت أنوي شراء الخروف، فهل هذا زمن يشتري فيه الإنسان خروفًا للصغار يتسلون به؟! ولكن الولد ياحسرة قلبي مرض بالأمس».

قاطعها هشام محتجًا:

ـ ولكني لم أمرض، ولم أطلب خروفًا!

أشـارت عليـه أخـواته بالسكـوت فسكت. كن يتـابعن الحكاية باهتمـام مستثار. قالت مريمة:

«الولد يا حسرة قلبي مرض بالأمس، وصار جبينه كالنار الحارقة، وبات طول الليل يهـذي ويطلب الخروف. . . ألا ترى أن من واجبي أن أشـتـري له خروفا؟».

قال البائع وقد بدا عليه التأثر:

«طبعا تشترينه. ويا أختي إن نقص عليك ثمنه فلا تحملي همّا. ادفعي ما معك الآن وبعد أيام أو شهور تدفعين الباقي».

قالت سليمة:

ـ لو رأيتم مريمة وهي تكاد تبكي وتُبكي البائع لقلتم إن هشامًا مريض فعلاً.

قالت مريمة مستعيدة خيط الحكاية:

المهم شكرت الرجل وقلت له:

ـ أنت رجل طيب وأصيل، هل عندك أولاد؟

قال:

ـ سبعة.

قلت:

ـ باركهم الرب وحفظهم لك. شكرًا يا أخي على عرضك. لقد مررت على الصائغ وبعت له خاتمي الذهبيّ. كم ثمن الخروف؟.

أكملت سليمة وهي تضحك:

ـ قبل أن نترك البائع كان قد بدأ يحكي حكاية «هذه المرأة المسكينة التي باعت

خاتمها لتدخل السرور إلى قلب ابنها المريض» ، وفي الطريق إلى الدار حكت مريمة حكاية الخروف ثلاث مرات ، مرتين بالقشتالية ومرة بالعربية . والله أعلم أن واحداً ممن حكت لهم الحكاية كان من موظفي ديوان التحقيق!

قال حسن :

- وإن سأل أحدهم عن الخروف غداً أو بعد غد؟

قالت مريمة وهي تبتسم :

- سأقول مات الخروف ، أتنهد وأقول سامح الرب البائع ، أعطاني خروفًا به علة ، ولولا أن له سبعة أولاد وأن لي قلبًا طيّبًا لاستنزلت عليه غضب الرب . ولكن من يدري؟ لعلها إرادة الرب الحكيم ورحمته التي أماتت الخروف وأعادت الصحة إلى ابني!

بعد العشاء اختلى حسن بسعد ليسمع منه ، وحكى سعد عن القرية الجبلية التي يقطنها :

- كأنها غرناطة القديمة يا حسن ، تألف صوت المؤذن فيها والأهازيج والأغاني في الأعراس وفي الحقول . نتحدث العربية بلا حرج وفي كل وقت ، ونرتدي ملابسنا المعتادة ، ونستطلع هلال رمضان ، ونحتفل بالعيدين .

- وليس في القرية أيّ قشتاليّ؟

- ولا قشتاليّ واحد!

- عجيب .

- إنها قرية نائية منسية في الجبال ، ربما لا يعرفون أصلا أنها موجودة .

- وهل تنوي البقاء هناك طويلا؟ . . . هذا بيتك يا سعد وبإمكانك العودة متى أردت .

ـ يصعب ذلك الآن يا حسن. عندما كنت مقيمًا هنا كنت أساعدهم بالقدر الذي أستطيعه، الآن أعمل معهم.

ـ وتبقى هناك. . . نهائيا؟

ـ ادع معي أن ينزاح الكابوس فتنتفي ضرورة عملنا. لعل الله يهدي بني عثمان أو المغاربة فيجردون الحملة الكبيرة المنتظرة.

ـ هل تعتقد أن ذلك ممكن، أم أننا نمني أنفسنا بالمستحيل؟

زفر سعد ولم يقل شيئًا.

ـ كيف ماتت أم جعفر يا حسن؟

حكى حسن دون استفاضة، ولكن سعدًا استفسر منه عن التفاصيل فنقلها له. فقال سعد:

ـ في الصباح أذهب لزيارة قبرها، ثم أذهب إلى نعيم لأعلمه بوجودي.

تطلع حسن إليه، وكاد يخبره برحيل صاحبه، ثم أجل الأمر إلى اليوم التالي.

ـ قم يا سعد إلى امرأتك، لقد امتد بنا الحديث وتأخر الوقت.

في الصباح اصطحب حسن سعدًا إلى قبر أم جعفر، وقرأ الفاتحة على روحها. وفي طريق عودتهما حكي حسن عن سفر نعيم، وأعطى سعدًا الرسالة فقرأها واجمًا ولم يقل شيئًا. فقال حسن:

ـ تعال معي سأريك ذلك الخان.

في الطريق إلى رصيف حدرّه، حيث يقع الخان، حكى حسن لزوج أخته:

ـ اشترى هذا الخان اثنان من آل طاهر من بالنسية، وهم عائلة كثيرة العدد ثرية ومتنفذة، حتى يقال إنهم استطاعوا قبل عدة سنوات أن يحصلوا على براءة ثلاثة

من شبابهم اتهمهم ديوان التحقيق بالاتصال بالفرنسيين والإعداد لتمرد بين العرب والأهالي يربك سلطات أراجون في حالة غزو فرنسي. يقال إن والد الشباب وأعمامهم سافروا إلى مدريد وبرشلونة واتصلوا بالبلاط وبالمجلس الأعلى لديوان التحقيق ودفعوا مبالغ طائلة ونجحوا في الإفراج عن أولادهم.

المهم، الرجلان اللذان اشتريا هذا الخان من العائلة نفسها، لا علاقة لهم طبعًا بموضوع الشباب الثلاثة، ولكنهما من العائلة نفسها. ويبدو أن لهما نفوذًا كبيرًا لأنهما تمكّنا من شراء هذا الخان وتسجيله، رغم قرار حظر شراء الأراضي والبيوت على العرب داخل نطاق مملكة غرناطة.

ولقد أرسل لي هذان الأخوان بمن يعرض عليّ إدارة الخان وتولي شئونه. وقال لي المرسال إنه في حالة موافقتي فسيأتي الرجلان للاتفاق معي على التفاصيل. ما رأيك؟

كان سعد ينقل عينيه في أرجاء المكان يتأمله. وكانا قد دلفا من بوابة خشبية عبر ممر إلى فناء مربع مكشوف يتوسطه بناء حجري من طابقين. ويحيط بالفناء من جهات ثلاث مشرفيات تحمل أعمدة عقودها وسقف رواقها شرفة خشبية ممتدة بامتداد أضلاع ثلاثة من الأضلاع الأربعة للطابق الثاني.

إلى يمين الداخل مباشرة حظيرة واسعة للدواب عال سقفها وتقطعها المزاود والمساقي، وإلى يساره درج حجري يقود إلى الشرفة الخشبية التي تفتح عليها أبواب غرف النزلاء.

فتح حسن بابًا. كان يفضي إلى غرفة مستطيلة تتسع لفراش وخزانة خشبية، وتضيئها نافذة كبيرة ترتفع مستطيلة لتنتهي مقوسة. قال حسن:

ـ في هذا الطابق خمس عشرة غرفة: خمس في كل ضلع. وفي الطابق السفليّ عشر غرف ومخزن لبضائع النزلاء والحظيرة من ناحية وقاعة واسعة لطهو الطعام وتناوله وللاستدفاء بالنار في الشتاء، أما في ليالي الصيف فهناك الفناء والرواق المحيط به نفرشهما بالأبسطة والأرائك الخشبية، ما رأيك؟

- إنه جميل وواسع وكثير المنافع. قدرك الله على إدارته فهو يحتاج إلى جهد عدة رجال.

- لو جاءني هذا العرض قبل سفر نعيم لاستبقيته ليعمل معي. لقد طلبت من أبي منصور أن يعاونني.

- وهل يقدر؟

- يقدر ولكنه يسرف في شرب الخمر. طلبت منه أن يعمل معي على أمل أن يجد في هذا الشاغل الجديد ما يصرفه عن الشراب.

خرجا من الخان إلى بيت أبي منصور؛ ولكنهما لم يجداه.

قضى سعد في دار حسن ثلاثة أيام، ثم سرى في ستر الليل عائدًا إلى قريته الجبلية. ودَّعه الصغار والكبار، بكت أم حسن وبدا وجه سليمة شاحبًا، وقال وهو يغادر الدار: «سأعود قبل نهاية الصيف، وإن لم أوفق في ذلك أحضر في الخريف لكي أقضي معكم عيد الفطر».

كان سعد، وهو يودع غرناطة عائدا إلى رفاقه، يسترجع لحظات الوصل مع سليمة فتثقل عليه أكثر أحزان الرحيل. ولم يكن يدري أنه أودع امرأته في لحظات الوصل تلك بذرته، ولا يعلم بعد شهور من ذلك أن النطفة في أحشائها كانت تتخلق وتنمو حتى خرجت طفلة كحلاء العينين مثله، تحتضنها سليمة بلهفة مضاعفة، وهي تنتظر عودة أبيها لتعلمه أن اسمه قد أصبح «أبو عائشة».

ورغم قلق لا يتبدد لغياب سعد الذي لم يعد في نهاية الصيف ولا في نهاية الشتاء الذي تلاه، إلا أن ولادة عائشة أضفت على البيت فرحًا مستجدا وقد عاد يملؤه صراخ وليد وانهماك الأهل في مشاغله الكثيرة. ووجدت القادمة الجديدة بدلاً من صدر أم واحدة صدور أمهات كلهن يدللن ويحنون. ولم تكن سليمة ومريمة وأم حسن وحدهن المنهمكات في رعاية الصغيرة، بل أيضا

بنات حسن، الأكبر وجدن فيها بنتا يمارسن عليها أمومتهن المبكرة، والأصغر أقبلن عليها كأنها لعبة مثيرة ومدهشة.

وحده هشام لم يجد له دوراً في ذلك كله. كان يكبرها بخمس سنوات ولا يرى فيها سوى ضيف ثقيل خلعه عن عرش أهميته. يتحمل الولد همه في صمت ثم تبدر منه إشارة أو فعل يفصح عن ضيقه وكدره. ولم يكن أبوه ليتحمل ذلك منه، بل يوبخه بعنف فيزداد الولد حنقًا على حنق.

وكان حسن موقنًا أن في قدوم هذه البنت وعد خير وحسن طالع. فبعد ولادتها بأيام معدودة توالت على البيازين أخبار نبض قلب الحيّ لسماعها، ورفرفت العيون وتألقت، ففدائيو البحر الآتون منْ الثغور المغربية قاموا بغارة قصمت ظهر الإسبان ومرّغت أنوفهم في الوحل. رست سفنهم في ستر الليل على الشواطئ كالمعتاد، ونجحت في حمل ستمائة مهاجر أخذتهم في أمان الله وأبحرت، ولكن السفن الإسبانية فاجأتها في عرض البحر واشتبكت معها. لم تكتف سفن المجاهدين بالدفاع عن نفسها، بل انقضت مهاجمة وأغرقت بعض سفن العدو وحاصرت بعضها الآخر، وأسرت من عليها ومن بينهم القادة والنبلاء، وعادت بالسلامة إلى الشواطئ المغربية.

استقبلت النساء الخبر بالزغاريد، نساء البيازين زغردن في قلوبهن، أما نساء العرب أنصاراً ومهاجرين؛ فأطلقن الصوت من شاطئ الوصول إلى أهلهم المجاهدين على متن السفن وهي تتهادى وتقترب.

«عائشة ابنة سعد وسليمة قدم خير وبشارة» يكرر حسن ويضم الصغيرة إلى صدره. لا يبدأ يومه إلا بالاصطباح بوجهها، ولا يخلد إلى النوم إلا بعد أن يطبع قبلة على جبينها وإن كانت مستغرقة في النوم أو تبكي بحرقة على طريقة المواليد.

ولما كان على حسن أن يسجل البنت في الأوراق باسم أعجميّ، فقد سماها «إسبيرانزا» يناديها عائشة مرة، وإسبيرانزا مرة، وأمل ألف مرة.

نهود النساء العرايا، قدودهن السمهرية، عيونهن الآسرة يمر بها نعيم دون أن يتطلع، يمر ويغض الطرف كأنما هاتيك النساء من أهله لا يملك أن يقتحم حرمتهن بالتحديق، ويخشى أن تلتقي العينان بالعينين فيقتله الخزي من عريهن وعجزه.

لو أن القس يتوقف عن الكتابة ويبادله الحديث. لو أن بإمكانه أن يتحدث لغة أهل البلاد لكان تعرف على العديد منهم وصادق بعضهم. كان يراهم وهم يعملون في قطع الأشجار أو شق الطرق أو نقل الأحجار، دائما في حراسة الرجال المسلحين. يتطلع إليهم، يخمن طبائعهم وخصالهم. يقول هذا الشخص طيب وذاك أقل طيبة وذلك معتد بنفسه، كريم في قومه. . . يود لو يقترب منهم ويبادلهم الحديث فيعرفهم بنفسه ويسمعهم حكايته ويسمع حكايتهم ولكن كيف وهو يجهل لغتهم، وهم لابد يظنونه من أولئك الذين ألقى بهم البحر عليهم لكي يسوموهم العذاب؟!

أغمض نعيم عينيه واستحضر صورة ذلك الكهل الذي رآه مرارا حتى ألف كل منهما وجه الآخر. كان نعيم حين يمر به يبتسم ويرفع يده بالتحية. في المرة الأولى حدّق الرجل فيه كأنما يتساءل، ثم صار يبتسم هو أيضا ويحييه بالطريقة نفسها فيرفع يده حتى تلامس جبهته. لو كان يفهم لغتي، لو كنت أفهم لغته لقلت له: «لست منهم. . . هل ظننتني منهم؟! أنا من غرناطة. . . » ويحكي له طويلا فيألفه الرجل ويحبه ويدعوه إلى بيته، ومن يدري لعل له ابنة طيبة مثله فيطلب منه يدها «صحيح أنني غريب على مشارف الأربعين ولم أعد وسيما كما كنت، ولكني طيب القلب أصون امرأتي وأمنحها محبة وأطفالا، ما قولك يا عم؟».

بين الصحو والنعاس رأى نعيم الصبية التي سيتزوجها، ابنة الرجل، كانت تشبه تلك التي رآها ذات يوم بعيد بالقرب من غرناطة فأسرته. كانت تشبهها بشكل مدهش. ولم تكن عارية، بل كانت مثلها ترتدي ثوبا أبيض.

ـ يبدو أن النعاس بدأ يثقل جفنيك يا نعيم، قم إلى فراشك يا ولدي.

ولكن نعيم فتح عينيه واسعتين وقال:

ـ أبدا يا سيدي القس لا أشعر بالرغبة في النوم بعد.

فابتسم الأب ميجيل وقال وهو يهز رأسه:

ـ بلى كنت نائما وربما كنت تحلم وأيقظك صوتي.

ـ سيدي القس هل تسمح لي بسؤالك عن شيء؟

ـ اسأل يا ولدي.

ـ ما الذي تكتبه، ما الذي تكتبه بالضبط؟

ـ أكتب، أقصد كتبت فعلا الحكاية من أولها. كتبت عن رحلات كريستوبال كولون الأربع، والصعوبات التي واجهته، والنجاح الذي حققه، والآن، في هذا الشهر الأخير، أكتب عن الجزيرة وأهلها، أصف الأحوال المناخية على مدار العام، وأرصد أنواع النباتات والطيور والحيوانات، وبعد ذلك سوف أكتب عن الأهالي، أصف أشكالهم وطريقة حياتهم وأفكارهم ومعتقداتهم.

ـ ولكن... تلعثم نعيم.

ـ كيف تعرف أفكارهم ومعتقداتهم ولم تتحدث مباشرة إليهم؟

ـ ألاحظ سلوكهم وأجمع ملاحظاتي إلى ملاحظات الآخرين ومنها أستنتج أفكارهم ومعتقداتهم.

ـ وهل تكتب يا سيدي القس عن تلك الأشياء الأخرى أيضا؟

ـ نعم يا ولدي كتبت وسأكتب المزيد عن كل الأشياء الموجعة التي رأيتها وسمعت عنها، وسوف أضيف أنه من العار حقا أن نحول حلم الرجل العظيم

نهود النساء العرايا، قدودهن السمهرية، عيونهن الآسرة يمر بها نعيم دون أن يتطلع، يمر ويغض الطرف كأنما هاتيك النساء من أهله لا يملك أن يقتحم حرمتهن بالتحديق، ويخشى أن تلتقي العينان بالعينين فيقتله الخزي من عريهن وعجزه.

لو أن القس يتوقف عن الكتابة ويبادله الحديث. لو أن بإمكانه أن يتحدث لغة أهل البلاد لكان تعرف على العديد منهم وصادق بعضهم. كان يراهم وهم يعملون في قطع الأشجار أو شق الطرق أو نقل الأحجار، دائما في حراسة الرجال المسلحين. يتطلع إليهم، يخمن طبائعهم وخصالهم. يقول هذا الشخص طيب وذاك أقل طيبة وذلك معتد بنفسه، كريم في قومه... يود لو يقترب منهم ويبادلهم الحديث فيعرفهم بنفسه ويسمعهم حكايته ويسمع حكايتهم ولكن كيف وهو يجهل لغتهم، وهم لابد يظنونه من أولئك الذين ألقى بهم البحر عليهم لكي يسوموهم العذاب؟!

أغمض نعيم عينيه واستحضر صورة ذلك الكهل الذي رآه مرارا حتى ألف كل منهما وجه الآخر. كان نعيم حين يمر به يبتسم ويرفع يده بالتحية. في المرة الأولى حدّق الرجل فيه كأنما يتساءل، ثم صار يبتسم هو أيضا ويحييه بالطريقة نفسها فيرفع يده حتى تلامس جبهته. لو كان يفهم لغتي، لو كنت أفهم لغته لقلت له: «لست منهم... هل ظننتني منهم؟! أنا من غرناطة...» ويحكي له طويلا فيألفه الرجل ويحبه ويدعوه إلى بيته، ومن يدري لعل له ابنة طيبة مثله فيطلب منه يدها «صحيح أنني غريب على مشارف الأربعين ولم أعد وسيما كما كنت، ولكني طيب القلب أصون امرأتي وأمنحها محبة وأطفالا، ما قولك يا عم؟».

بين الصحو والنعاس رأى نعيم الصبية التي سيتزوجها، ابنة الرجل، كانت تشبه تلك التي رآها ذات يوم بعيد بالقرب من غرناطة فأسرته. كانت تشبهها بشكل مدهش. ولم تكن عارية، بل كانت مثلها ترتدي ثوبا أبيض.

ـ يبدو أن النعاس بدأ يثقل جفنيك يا نعيم، قم إلى فراشك يا ولدي.

ولكن نعيم فتح عينيه واسعتين وقال:

ـ أبدا يا سيدي القس لا أشعر بالرغبة في النوم بعد.

فابتسم الأب ميجيل وقال وهو يهز رأسه:

ـ بلى كنت نائما وربما كنت تحلم وأيقظك صوتي.

ـ سيدي القس هل تسمح لي بسؤالك عن شيء؟

ـ اسأل يا ولدي.

ـ ما الذي تكتبه، ما الذي تكتبه بالضبط؟

ـ أكتب، أقصد كتبت فعلا الحكاية من أولها. كتبت عن رحلات كريستوبال كولون الأربع، والصعوبات التي واجهته، والنجاح الذي حققه، والآن، في هذا الشهر الأخير، أكتب عن الجزيرة وأهلها، أصف الأحوال المناخية على مدار العام، وأرصد أنواع النباتات والطيور والحيوانات، وبعد ذلك سوف أكتب عن الأهالي، أصف أشكالهم وطريقة حياتهم وأفكارهم ومعتقداتهم.

ـ ولكن... تلعثم نعيم.

ـ كيف تعرف أفكارهم ومعتقداتهم ولم تتحدث مباشرة إليهم؟

ـ ألاحظ سلوكهم وأجمع ملاحظاتي إلى ملاحظات الآخرين ومنها أستنتج أفكارهم ومعتقداتهم.

ـ وهل تكتب يا سيدي القس عن تلك الأشياء الأخرى أيضا؟

ـ نعم يا ولدي كتبت وسأكتب المزيد عن كل الأشياء الموجعة التي رأيتها وسمعت عنها، وسوف أضيف أنه من العار حقا أن نحول حلم الرجل العظيم

الذي اكتشف هذه الأرض إلى هذه الشراسة غير المفهومة. هل تعلم يا نعيم ما هي الدوافع التي حركت كولون ودفعته للإبحار والمخاطرة؟

- اكتشاف أرض جديدة يا سيدي.

- لم يكن ذلك إلا وسيلة يا ولدي، وسيلة لتحقيق حلم سام نبيل يتلخص في هدفين جليلين لا ثالث لهما: أن ينشر كلمة الرب بين من لم تصل إليهم من قبل فيضمهم إلى أحضان الكنيسة، وأن يحصل على الذهب ليجرد حملة صليبية إلى الأراضي المقدسة تفتح القدس وتستعيد قبر السيد المسيح من أيدي من يكفرون به.

- ولكن المسلمين لا يكفرون بالمسيح يا سيدي القس!

كانت العبارة قد أفلتت منه بلا تفكير، ولم يكن بالإمكان سحبها. حدجه الأب ميجيل بنظرة صارمة وقال بحسم:

- بل يكفرون به!

قام القس ميجيل وكان ذلك إيذانا بانتهائه من الكتابة واستعداده للنوم فقفز نعيم واقفا وقال:

- شكرا يا سيدي على سماحك لي بالجلوس هنا. آمل ألا أكون قد أزعجتك بأسئلتي... طابت ليلتك.

لم يكن هناك بد من أن يعود نعيم إلى حجرته ويستلقي وحيدا على فراشه فيغلبه النوم وتداهمه، كما في كل ليلة، الكوابيس.

١٩

وصل الأخوان عمر وعبدالكريم قادمين من بالنسية للاتفاق على تفاصيل إدارة الخان، واستضافهما حسن في بيته وأكرم وفادتهما لأنهما غريبان قادمان من خارج غرناطة ولأنهما راقا له. أعجبه سلوكهما الواثق وحديثهما العارف وشيء ما التقطه وإن لم يع كنهه تماما، شيء لم تتح له رؤيته في رجال غرناطة من أبناء العرب. هل هو الثراء يضفي على صاحبه ثباتا أم هي القوة والنفوذ يمنحان الإنسان ذلك الذي رآه فيهما وأعجبه؟

كان الأخوان يقاربان حسن في العمر. وكان عمر وهو الأصغر أكثر انطلاقا، يتحدث بقوة وسلاسة ووضوح يدعو إلى الدهشة ما دام الحديث في تفاصيل سياسية يفترض أن الحرص في الخوض فيها متوقع ومطلوب. ولكنه يتحدث بشجاعة كأن الهموم مقدور عليها، أو كأن الهموم ليست هموما. كان له وجه مستدير ممتلئ تميزه عينان واسعتان تنظران مباشرة إلى من يواجهه أو يتحدث معه، وشارب ولحية صغيرة معتنى بهما. كان طويلا به امتلاء وإن لم يكن بدينا. يضفي عليه ثوبه الأنيق مهابة. أما أخوه فكان رغم تشابه ملامح الوجه يعطي انطباعا مغايرا. إذ كان هدوءه وحديثه المحكوم وجمله القصيرة الواضحة تكمل ما توحي به هيئته ونظرة عينيه وملامحه من اعتداد وأهمية وتباعد. وكان برغم ذلك مهذبا ودودا.

أنصت الأخوان باهتمام إلى حسن وهو يحكي عن الأحوال في غرناطة ثم قال عمر:

ـ في بالنسية الأحوال أفضل فالنبلاء معنا والبلاط يمكن أن يكون معنا لو تصرفنا بحكمة. نبلاء أراغون هم الذين يقاومون التنصير والتهجير، وكان الملك فرديناند قد وعدهم مرارا أنه لا تنصير إجباريا للعرب ولا ترحيل لهم ولا قيود على تعاملاتهم مع نصارى المملكة، واضطر الإمبراطور كارلوس الخامس حين تولى عرش أراجون بعد وفاة جده فرديناند إلى تجديد هذا العهد. والصراع قائم بين النبلاء من ناحية وديوان التحقيق من ناحية أخرى والبلاط يميل إلى النبلاء ولكنه يخشى سطوة ديوان التحقيق.

قال حسن وقد صعب عليه فهم ذلك الاختلاف بين النبلاء والكنيسة:

ـ لا أفهم كيف يدافع النبلاء عن مصالح العرب وقد مولوا الحروب ضدهم وقدموا لفرديناند وإيزابيلا أنفسهم ورجالهم لغزو غرناطة؟!

ـ إنهم لا يدافعون عن العرب يا أبا هشام بل عن مصالحهم ومصالح مملكة أراغون. أثرياء العرب قوة مالية تحتاجها المملكة. والأهم من ذلك أن غالبية أهلنا في أراغون يعملون في فلاحة إقطاعيات النبلاء وتفرض علينا جميعا أغنياء وفقراء ضرائب أكثر مما يفرض على باقي أهل المملكة. في هجرة العرب خراب الإقطاعيات، وفي تنصيرهم تقليص لما يحصل عليه النبلاء والدولة من مال.

قال عبدالكريم:

ـ المثل عندنا في بالنسية يقول: «مينتراس ماس موروس ماس غاننسيا»: «كلما كثر العرب كثر المكسب»!

قال حسن:

ـ ولكنهم لا يريدون لنا أن نبقى عربا ولا مسلمين!

أجابه عبدالكريم بحسم:

ـ هذا صحيح . . المصلحة تحكم كل شيء!

ـ ولكن السيد عمر قد أشار بالأمس إلى جماعة «الإخوان»، وثورة المدن والعصابات التي تحمل الصليب وصيحة «الموت للعرب» وتخلف، أينما مرت بيارقها، الجثث والبيوت المحروقة والأهالي المذعورين الذين يطلبون التعميد طلبا للحياة .

قال عبدالكريم :

ـ هؤلاء رعاع وسيقضى على حركتهم!

قال عمر :

ـ حتى أولئك الرعاع، الذين أتفق مع أخي أن حركتهم لن تطول، لا يقصدوننا بالذات بل يقصدون النبلاء، يضربون العرب لكي يوجعوا النبلاء الذين يحمون العرب ويعتمدون عليهم في زراعة إقطاعياتهم . ليس ذلك هو المهم على أيّ حال، المهم هو كيف نستميل البلاط ونقنع رجالاته والإمبراطور على رأسه أنه من صالح الدولة مراعاة العرب والإبقاء عليهم .

سأل حسن وقد بدا له الأمر أقرب إلى التمني :

ـ وهل هذا ممكن؟!

ـ ممكن جدا والمشكلة الوحيدة في أولئك الذين يسمون أنفسهم بالمجاهدين .

ـ المجاهدين؟

قال عبدالكريم :

ـ إنهم يفسدون كل شيء!

ـ كيف؟!

ـ بسلوكهم الأخرق الذي لا نفع له سوى زيادة الأمر تعقيدا!

أوضح عمر كلام أخيه :

ـ الهجوم على السواحل الإسبانية وتهريب المهاجرين من ناحية ، وتعاون البعض مع فرنسا بحجة إضعاف سلطة الإمبراطور ، تقوي الاتجاه القائل بأن عرب البلاد لا ولاء لهم للملكة ، وأنه لا حل سوى تنصيرهم أو ترحيلهم . وهذا يجعل مهمتنا أصعب .

وكان هذا أغرب ما سمعه حسن من كلام . كان أهل غرناطة يخشون من إعلان تعاطفهم مع المجاهدين أو يعاونونهم سرا ويَموّهون موقفهم بإعلان الولاء ، ولكنه لم يسمع أبدا أن ما يقوم به المجاهدون ضار بمصالح العرب . . . أربكه رأي الأخوين وأطال التفكير فيه حين اختلى بنفسه في الليل ، ثم قدر بعد تقليبه وتأمله أن صديقيه قد يكونان على حق لأنهما متنفذان تتيح لهما مكانتهما الاتصال بالنبلاء ورجالات البلاط أو من على صلة بهم .

قبل رحيلهما بيوم واحد قال عمر لحسن :

ـ اسمع يا أبا هشام لقد جئنا إليك من بالنسية لنتفق بشأن إدارة الخان ولكن على ما يبدو أن علاّم الغيوب كان قد قدّر غير ذلك . عرفناك وألفناك ورأينا أهل بيتك فقلنا لا أفضل من مصاهرة هذا الرجل الكريم ، ما رأيك؟

بوغت حسن إلى حد السكوت فواصل عمر :

ـ بناتك يا أبا هشام تبارك الخلاق ، ولي ولد ولأخي عبدالكريم ولدان . . . ماذا تقول؟

ـ أقول على بركة الله!

امتدت الأيدي وقرءوا الفاتحة . وكان حسن بعد لحظة المباغتة الأولى قد ملأه شعور بالرضى العظيم والحبور ، فمن أين له بنسب كهذا كريم . . . خلق وثراء وعلم ونفوذ؟!

سارع بالخبر السعيد إلى مريمة ولكنها فاجأته إذ لم تفرح، بل على العكس من ذلك صرخت باحتجاج غاضب:

- ما الذي جرى لك يا رجل حتى تُغَرِّب ثلاثا من بناتك في بلاد غير البلاد!

- اخفضي صوتك، فالضيفان معنا في البيت ولا يصح أن يسمعا هذا الكلام!

- كيف أعطي بناتي لعائلة لا نعرف عنها شيئا؟!

- إنها عائلة كبيرة، أصل وثروة ونفوذ، ما الذي تريدينه أكثر من ذلك؟!

- أريد أن أطمئن على بناتي، وأريد أن يزرنني من حين لآخر، وأريد أن أذهب إليهن إذا اقتضت الحاجة. حرام عليك يا رجل، والله حرام!

- اهدئي يا مريمة قليلا واسمعيني، هذه الزيجة ستحمي بناتك من شر الحاجة، ثم إن أهل بالنسية لم يفرض عليهم التنصير. لن تضطر بناتك إلى تسمية أبنائهن بغير أسمائهم والعيش موزعات بين دين في العلن وآخر في السر.

أجابته بابتسامة ساخرة:

- لماذا لاتزوجهن من المغرب أو مصر أو الحجاز؟!

- لو جاءني مغربي كريم يطلب ابنتي لأعطيته بلا تردد!

- وأموت كمدا من بعد بناتي عني!

- ليست بالنسية بعيدة إلى هذا الحد، والبلدان يحكمهما إمبراطور واحد. والقانون الذي يحظر على عرب غرناطة السفر إلى غيرها من الممالك قد يتغير بعد عام أو عامين.

- يكفي أن تعطيهم واحدة... لِمَ تعطيهم ثلاثا؟!

- لقد قرأت الفاتحة وانتهى الأمر!

أدار لها ظهره وأغمض عينيه وراح في النوم فزادها ذلك غضبا على غضب فقامت إلى سليمة تشكو إليها همها:

ـ سليمة . . .

ـ ما بك يا مريمة؟

ـ أخوك فقد عقله . . . أقسم بالله العظيم أنه فقد عقله واختل ميزانه .

ـ اهدئي وقولي لي ماذا حدث؟

ـ هذان الرجلان اللذان نزلا علينا كالقضاء .

ـ تقصدين الضيفين؟

ـ هما بعينهما . ليتهما لم ينزلا بدارنا ولا رأيناهما .

ـ هل أساءا إلى حسن؟

ـ طلبا ثلاثا من البنات لتزويجهن لأبنائهم .

ـ ويذهبن إلى بالنسية؟

ـ نعم ويذهبن إلى بالنسية؟

ـ ولماذا وافق حسن؟ قد يكون استملح الرجلين، ولكن من أدراه أن أولادهم مليحون كأهلهم!

ـ فعلا من أدرانا، سأذهب إلى حسن وأقول له ذلك!

هرولت مريمة إلى حسن، كان يغط في نوم عميق، أيقظته:

ـ ما الذي أدراك أن الأولاد على خلق كأبويهما؟ ألا يمكن أن يكونوا سيئين، بينهم السكير أو المعتوه أو شرس الطبع؟ كيف أعطي ثلاثا من بناتي لأغراب لا أعرف عنهم شيئا يأخذونهن إلى بلاد بعيدة يشقين فيها؟!

وكان حسن يفرك عينيه وهو يسمع كلام مريمة، ولا يحسن استيعابه وهو بعد بين اليقظة والنوم، ولما كررت مريمة كلامها للمرة الثالثة فهم فقال بنبرة حازمة:

ـ اهدئي يا امرأة واتركيني أنام!

ورغم غضب مريمة واضطرابها فقد أثار الخبر في البنات الثلاث فرحا متوقدا: سيتزوجن ويسافرن إلى بالنسية ويقام لهن عرس هناك كتلك الأعراس البهيجة التي لم تكن أم جعفر تمل من وصفها لهن: الحمام والحناء والزغاريد والأهازيج ودق الدفوف. وبدا ذلك كله مدهشا مثيرا كالأحلام التي تتحقق قبل أن يحلم بها الإنسان. وزاد فرح البنات من حزن مريمة الذي امتزج بالسخط والإشفاق على حالها. كانت تبكي عندما قبلتها رقية كبرى بناتها وقالت:

ـ لماذا تبكين يا أمي... سنكون معا، ثلاثتنا، نرعى بعضنا بعضًا. ونأتنس بالحياة في بيت واحد، هذا أفضل من أن تتزوج كل واحدة منا زوجا غريبا عن زوج الأخرى، وتسكن بعيدا عنها، ولا ترى أختها إلا في الأعياد والمواسم؟

تطلعت إليها مريمة بعينين دامعتين ولم تقل شيئا. ولكن الفكرة دارت في رأسها فهدأت بعض الشيء.

بعد شهر عاد عبدالكريم وعمر بصحبة أمهما وزوجتيهما والشباب الثلاثة. وقال حسن حين اختلى بزوجته في الليل:

ـ هل هدأ بالك الآن يا أم هشام؟

وكان يشير إلى ما تركه الشباب من انطباع طيب لدى أفراد العائلة. الشكل الوسيم والسلوك الرزين، لا يتحدث الواحد منهم إلا إذا دعي وحين يفعل ينم حديثه على علمه وتهذيبه.

ولم يكن حسن يعرف أن البنات الثلاث قد وقعن في حب الشباب بمجرد رؤيتهم، وقد راقت لهن قدودهم المشوقة ووجوههم السمراء المنحوتة وعيونهم الكحلاء واعتناؤهم الكبير بحسن مظهرهم، ولكنه كان يعرف أن أمه وأخته وحتى مريمة لم يجدن في الشباب ما يعيب. وكانت مريمة قد بدأت تتراجع عن حدة رفضها وإن لم تتبدد مخاوفها.

وكانت نساء دار طاهر قد أتين محملات بالهدايا ومشاعر المحبة والود والتدليل لكنائنهن المقبلات. وبدا كل ذلك مدهشا حتى أن مريمة سمعت إحدى بنتيها الصغريين اللتين لايزيد عمر أكبرهما على العاشرة، تقول للأخرى:

- ليت للعرسان أخوين أصغر منهما يطلبانا للزواج!

فأمسكت مريمة بيد مكنسة وضربت البنتين من كانت تقول ومن كانت تستمع، وقبل أن يعلو صوتهما بالبكاء رفعت مريمة العصا مرة أخرى مهددة بصوت خافت وصارم:

- ولا صوت. . . في البيت ضيوف!

وفي هدوء وكتمان احتفل أهل البيت بتحنية العرائس وعقد قرانهن. ودعي الخلصاء من الجيران والأصحاب إلى عرس ميزه طعام وفير وأهازيج خافتة لا تتجاوز أصداؤها مدخل الحارة.

وكانت أم عبدالكريم، جدة الشباب، غير قادرة على فهم أو تقبل ذلك العرس العجيب الذي لا تذهب فيه النساء إلى الحمام يصاحبهن نقر الدفوف والأغاني المجلجلة، ولا يعلو فيه التكبير ساعة ذبح الخراف وتزيين واجهة الدار بطبع الأكُف المغموسة في دمِّ الذبائح.

ورغم اضطراب مريمة وامتعاض أم عبدالكريم كانت دار حسن تتوهج بالفرح وألفة الضيوف وتوقد الصغار إلى أن بدأ التفكير والإعداد للسفر إلى بالنسية.

قبل السفر بيومين اثنين مرضت أم عبدالكريم. أصبحت بوجه ممتقع وعينين ذابلتين تلازمها القشعريرة والحمى. وكانت المسكينة لا تعود إلى فرشتها من بيت الخلاء حتى ترجع إليه ثانية تستفرغ ما في جوفها بالقيء والإسهال معا.

همست أم حسن في أذن مريمة:

ـ أخشى أن تموت المرأة في دارنا فيقولون: بنات حسن لم يحملن إلينا خيرا... هل كان ينقصنا ذلك؟! منذ رأيت هذه المرأة ووجهها العابس وقلبي متطير... وجهها نحس!

كشفت سليمة على أم عبدالكريم، وفحصت صدرها وبطنها وعينيها وحلقها ونبضها ولون أظافرها، ثم قالت إن الأمر بسيط، قالت ذلك بحسم وثقة. وكان وجه أم عبدالكريم قد زاد شحوبا وكأنها على حافة قبرها. وكان الدم يكاد يتجمد في عروقها من شدة الفزع كلما لمست سليمة جزءا من بدنها. والحقيقة أنها منذ رأت سليمة توجست من هيئتها الغريبة وشعرها المشعث ونظرتها الشاردة وتأكدت مخاوفها بعد يومين من وصولها عندما مرت بحجرة سليمة وكان بابها مفتوحا فرأت القدور والقوارير والقفف والكتب وشمت روائح غريبة فابتعدت عن المكان على عجل وهي تتمتم بآيات قرآنية تحفظها من كل سوء. يقول المثل: «البنت لعمتها» ولم نبتلى ببنت واحدة، بل بثلاث فما الداعي لهذا النسب؟ هذا ما لم يستطع عقلها الإحاطة به. وهل خلت بالنسية من البنات، وألف واحدة وواحدة فيها تفوقهن جمالا وحسبا وجاها؟!

لم يكن باليد حيلة. سلمت أم عبدالكريم أمرها لله وراحت تنتظر قضاءه. حتى مقاومتها لما تعطيه لها سليمة من دواء لم تقدر على مواصلتها لأن عمر وعبدالكريم وزوجتيهما اجتمعوا عليها ولاموها على سلوكها: «هل يصح يا أم عبدالكريم بعد هذا العمر أن تتصرفي كالأطفال؟!» أسلمت أمرها لله وأخذت الدواء. في الأول أعطتها سليمة مغلي قشر الرمان المخلوط بحصى البان.

وكانت تعرف تلك الوصفة فأخذتها وتوقف القيء والإسهال، ولكن شكوكها لم تتوقف. وعندما أتت سليمة بمزيج جديد سألتها:

ـ ما هذا؟

ـ دواء.

ـ أعرف أنه دواء ولكني أسأل ممّ صنعته؟

لم تنتبه سليمة لشكوكها وظنت السؤال اهتماما، فجلست بجوارها وراحت تشرح لها:

ـ هذا مزيج يشفي أوجاع المعدة، وهو غاية في الجودة صنعته بنفسي. أخذت من خبث الحديد النقي مقدارا وغمرته بالخل الجيد، ثم بدّلت السائل سبع مرات، ثم سحقته وأخذت منه قدرا أضفت إليه مسحوق القرنفل والزنجبيل المعجون بالعسل، ثم نقعته في المسك والعنبر، وإن شاء الله بالشفاء.

ولم يلتقط عقل أم عبدالكريم سوى عبارة «خبث الحديد» التي استقرت في رأسها فرفضت أخذ الدواء رغم إلحاح سليمة ومريمة وكنّتيها، إلى أن جاء عبدالكريم وأرغمها إرغاما على شربه، ففعلت كأنما تجرع كأسا من السم.

ورغم أنها قامت معافاة بعد خمسة أيام وبدت لكل أهل الدار أحسن حالا مما كانت عندما وصلت إلى البيازين، فقد كانت موقنة أنها شفيت لأن الله نصرها على تلك المرأة التي يسكنها عفريت أو جان، واستمع إلى دعائها المتصل ليل نهار بألا يتركها وحدها في محنتها.

وبشفاء أم عبدالكريم أمكن لدار طاهر أن يأخذوا البنات ويسافروا إلى بالنسية مصحوبين بدعوات الأهل ودموع مريمة.

٢٠

ترى ما الذي كان يشعر به سعد لو أن هاتفا أبلغه أن سليمة حملت من صلبه نطفة نمت في أحشائها ، وخرجت إلى النور طفلة تحمل اسم عائشة؟ أكان يرقص جذلا للخبر أم يزيد الخبر من وطأة السجن عليه ويطبق من حوله الحصار أكثر؟

حين قال لأهل دار حسن إنه ينوي العودة في آخر الصيف أو مطلع الخريف ، بدا له ذلك ممكنا بل ميسورا . ولكن الأيام تخفي للمرء ما تخفي ، فإذا بالممكن مستحيل .

كان سعد موكلا باستلام حمولة من البارود من بقعة مهجورة على شاطىء البحر ، استلمها في ستر الليل وحملها على بغلته ، وسار بها في الطرق المهجورة ما أمكن ، وعبر القرى حين لم يكن من ذلك بد . وكلما دخل قرية ادّعى أنه يحمل حمولة قمح إلى أهل بلدته وليس سوى مكاريّ مهمته التوصيل ، ثم دخل القرية المنحوسة التي كان مقدّرا له فيها أن يلقى ما لاقاه . قال بعض أهل القرية : «نشتري القمح» . قال : «ليت بإمكاني البيع . . . لا أملك الحمولة بل أوصلها من باعة إلى شارين دفعوا ثمنه» . لم يرتح سعد للنظرة في عيون من سألوه فأسرع الخطو راغبا في مغادرة القرية على عجل ، وازداد توجسا وقد عرف أن الزاد في القرية شحيح ، وأن أهلها ينقصهم الطحين ، وكان عليه أن يكرر كلامه لآخرين عديدين يسألونه الشراء فيرد طلبهم ، وكان يجر البلغة متعجلا يكاد يهرول حين انقض عليه عدد من الرجال

طرحوه أرضا يقصدون أخذ ما يظنونه قمحا. انتفض سعد واقفا وحاول إبعادهم ولكن الأيدي كانت قد فتحت الأجولة، وحين سمع صوتا يصيح «ولكنه ليس قمحا. . إنه بارودا!» أطلق سعد ساقيه للريح.

كان يركض في طرق مكشوفة يعي عريها فيزداد وعيا بعريه فيها، فقد تنشق الأرض في أية لحظة عن كلاب قشتالية تعدو لاهثة وتنبح في إثره فيندفع مروعا ويضطرم ركضه يطلب نجاة في أرض تستر، ولكنه عندما وصل إلى ستر الأشجار والسكك الغابية ظل يواصل عدوه كالممسوس حتى لم يعد يقوى على الاستمرار، فتكوم على الأرض مقطوع الأنفاس يصيخ السمع، تشوِّس دقات قلبه وشهيقه وزفيره الصمت الذي يترجاه، ولما طالت جلسته واطمأن بعض الشيء راح يفكر في حمولة البارود التي ضاعت وضاع معها المال المدفوع فيها والأمل المعقود عليها، فصار يدق رأسه بجذع الشجرة التي جلس تحتها، ويكرر بلا انقطاع: «ما العمل الآن؟» فلا يجاوب سؤاله سوى اضطرام شعوره بالقهر والخيبة.

جلس بلا حراك فترة طالت أو قصرت لا يدري، ولكنه أيقن بعد حين أنه لم يعد أمامه سوى البحث عن طريق للرجوع إلى زملائه.

ظل يمشي حتى وصل إلى مشارف قرية لا يعرفها فاستبشر خيرا وقدر أن بإمكانه سؤال أهلها عن طريقه، وربما أيضا إيجاد مأوى يمضي فيه ليلته وشربة ماء وشيئا من الطعام، ولكنه إذ دخل القرية فاجأته جلبة غير معتادة وحركة مضطربة فزعة «ما الخبر؟» سأل سعد، فعرف أن رجال «الإخوان» الجرمانيا المتمردين يقتربون من القرية، وقد انتصر قائدهم في بلدة مجاورة. كان عليه أن يغادر المكان في الحال ولكن إلى أين؟ . . . وفي أي اتجاه يمشي؟ وقف حائرا يخشى أن تحمله قدماه إلى القرية التي اكتشفوا فيها البارود معه، أو إلى مكان يسيطر عليه رجال الجرمانيا الأكثر شراسة مع العرب من جنود السلطة.

سأل سعد شيخا منهمكا في تنظيم الناس الذين كانوا يتحركون في اتجاه

القلعة ليحتموا بها، فبين له الشيخ الشرق من الغرب والطريق الآمنة، وتلك التي يسيطر عليها رجال «الإخوان».

مشى سعد في سكة تنحدر به إلى الوادي، وتأخذه إلى خارج القرية، وكان يرفع عينيه بين حين وآخر ويتطلع إلى طريق حلزونية صاعدة اندفع أهالي القرية إليها بعيالهم وبشيء من الزاد قاصدين القلعة. كانت الطريق تلتف مكتظة بحشد بشريّ يموج ويصعد بحذاء سور حجريّ قديم.

في شهور لاحقة كان سعد يستحضر تلك اللحظات كثيرا، لا يستحضر الركض المحموم ولا خطواته الحائرة في طرق جبلية يجهلها ويتوغل فيها خائفا وجائعا، ولا القبض عليه بعد ذلك بأربعة أيام، بل كان يستحضر ذلك النهر البشريّ المتدفق بحذاء سور القلعة الحجري يصعد ثم يهبط. بعينيه رآه يصعد ولم يره وهو يهبط مسلّما، بل سمع الجنود القشتاليين، الذين قبضوا عليه واقتادوه للمحقق، يتحدثون عن ذلك، فرأى بعيني خياله الأهالي ينحدرون من الطريق ذاتها يحملون المزق البيضاء مستسلمين مستريعين يقصدون الكنيسة سعيا إلى قطرات التعميد والحياة.

هل يعيد الماضي نفسه؟ يتساءل سعد كلما تأمل المشهد، يستحضره فلا يأتيه إلا مصحوبا بمشهد آخر فيه الثغري ورجاله، ومن بينهم أبوه، وقد تمترسوا في قلعة مالقة يقاومون ويصمدون ثم يغلبهم عدوهم فيُغلبون. كان الثغري ورجاله مسلحين وقاوموا، وكان أهل القرية بلا حول ولا قوة سلاح. قرويون فلاحون لم تألف أيديهم سوى محاريثهم ومناجل الحصاد، فاستجاروا بأحجار قلعة عتيقة أجارتهم ثم أرهقها القصف وأرهقهم فرفعوا المزق البيضاء وغادروا، فهل يعيد الماضي نفسه أو لا يعيد؟!

ولكن التأمل لا يدوم في حومة تعذيب وروع يُحيل الصور والأفكار إلى مزق وشذرات، بينما البدن مُجرّح والروح كالطائر الذبيح تنتفض.

يحاصرك المحققون المتسربلون بالأسود، تنفذ نظراتهم إلى روح روحك ويطلقون عليك أسئلتهم وآلات التعذيب، يشدون وثاقك إلى ذلك السلم الخشبيّ، ويضخون الماء في جوفك، الماء الذي يروي، ماء الله الزلال، الذي تطلبه نفسك حلالا، يدخلك نارا موقدة. تمتلئ، تنتفخ، تختنق، تستعصي الصرخة ولكنها تلح فتطلع حشرجة كأنما هي الروح تخرج في عناء. يحدقون بك. العيون مصمتة، والوجوه مصمتة، وقلوبهم مدرّعة بالثياب السوداء. الأسياخ المحمّاة تحرق باطن قدميك، والحجارة الساخنة تلهب ظهرك وبطنك وعجزك، والآلة الخشبية تختزل جهنم في دولابها الضاغط الذي يسحق عظامك، فتخور كثور ذبيح. والقلب في بيت القلب يعتصر كأنما تقبضه يد الموت ويموت. يحدقون فيك ولا يرف لهم جفن. يلقون بك في قبو وحدك لا تقدر حتى على البكاء، وعندما تقدر تذرف الدمع الغزير، ليس لأن البدن يوجع، ولكنك تبكي على تلك المزق الآدمية التي تعرف أنها أنت، تبكي على حالك وعلى هجر حبيب في الزرقاء العالية تركك وحدك تصطلي بنار لم يعد الله بها قومه الصالحين. وحدك في سجنك المظلم تحاصرك الوحشة ولا ضوء سوى ذؤابة شمعة ذابلة يرتعش معها على الجدار طيف المحقق الذي يلازمك وإن غاب، خيال يعظم خطه الصاعد مائلاً على الجدار، يحدد ظل وطواط هائل ينشر سواده الملتصق بحجر الجدار. وحدك في سجنك لا يشاركك فيه سوى جرذان تألفها لأنها حياة تذكرك بالحياة، وبعد شهور ينقلونك إلى حيث يتبدد شيء من وحشة روحك. يصير لك رفاق يسكنون معك في قبو أيامك ولياليك. تأتلف القلوب المحزونة، طاقة ضوء في عتمة الجدار.

كانوا ثلاثة من الرجال، قس فرانسيسكانيّ احتفظ، رغم كبر سنه، بعينين متوقدتين يعزز عمق زرقتهما حيوية كموج البحر تموج. كان يطيل الحديث عن الفتى يسوع فقيرا وجميلا ومعذبا. يحكي عنه في المهد صبيا. يحكي عن أمه مخلوعة القلب عليه تحمله إلى مصر البعيدة، يحكي عن يفاعته جليليا يحمل رسالته في أرض تحتضنه وتُنكره، ويحكي عن صليب موته وخلوده. يحكي

ويفيض ويتناوب على زرقة عينيه اضطرام البحر وصفاؤه، وينفتح القبو المعتم كأنما على شاطئ، مدى مفتوح تسرح فيه النوارس وطيور البحر ونسمة الرب تطيب الروح وتدفئ القلب.

لم يكن حديثه وحده هو الذي شدهم إليه، بل شيء ما يفيض في روحه يملأ حديثه وقلوبهم، يمنحهم مساحة من طمأنينة يسكنون فيها ويهدءون.

حتى أنطونيو سولينا س، الشاب اللوثريّ حاد الطباع الذي زاده التعذيب عنفا وتوترا والذي كان يتعارك بسبب وبلا سبب، كان يجلس في هدوء وسكينة وهو يستمع لأحاديث الأب خوان مارتين. كان أنطونيو سوليناس نحيلا كأنما قدّ من عود قصب، شاحب الوجه نادرا ما يبتسم، يتعارك كل يوم تقريبا مع محمد بوصديق الصبيّ الذي لم يخط شاربه بعد، والذي اتهمه المحققون بممارسة السحر الأسود وإتقان تعاويذ تسببت في هلاك ماشية سيده الإقطاعي. كان للفتى عينان تتألقان بذكاء ماكر، يزداد تألقهما وهو يكايد سولنياس ويسخر منه فيراه يشتعل بالغضب اشتعالا وهو يضحك، لأن ذلك بالضبط هو ما أراده، ويعلو الشجار فيمسك كل منهما بتلابيب الآخر، ثمّ يحول بينهما الأب مارتين وسعد... كان سعد يحب محمدا، وتمتعه تعليقاته الساخرة وحسه الفكه، وتدهشه قوة روحه التي لم يحطمها التعذيب رغم صغر سنه. كان يوبخه في العلن على مكايدته لسوليناس، ثم يهمس له في السر: «لا تغضب يا محمد من لومي لك... ولكني أردت أن أنهي المشاجرة!»، فيضحك محمد بمكر «أعرف أنك لم تقصد الإساءة لي... ولكني أسعد بمشاكسة هذا الحمار... إنه يظن أن دمه أزرق وقد يكون دمه أزرق فعلا كتم الغباء عليه فحوله من الأحمر إلى الأزرق... هل رأيت في حياتك حمارا عنجهيا!» فيضحك سعد، ويحمد الله، أن سوليناس يجهل العربية وإلا لدبت مشاجرة جديدة أشد من السابقة.

ورغم المناوشات اليومية بين أنطونيو سوليناس ومحمد بوصديق، فقد

تآلف أربعتهم، وحكى كل منهم حكايته، فشاركه الآخرون في التفاصيل التي تحزن القلب والتفاصيل التي تفرحه. كانوا يحكون أحيانا ويضحكون أحيانا، وأحيانا تنهزم أرواحهم فينكمش الواحد منهم في قبو داخل القبو.

يشاركهم سعد في كل ذلك، ويحتمل أيامه ولياليه لأنهم معه، ولأن ذلك الصندوق العجيب في الرأس قادر في ظلمة الحبس على منحه جواهر تتألق تألقا وتضيء. تأتيه وجوه أحبته حاضرة نابضة بالحياة كأنما هي الوجوه في تلك الصور المدهشة الملونة، التي يعلم الله كيف بالضوء والظلال والألوان الزاهية تستحضر وجوها آدمية تبدو كأنها ستخرج من الإطار المثبت في الحائط خلف ذلك المحقق أو ذاك، وتبادلك الكلام بالكلام، وتبدد وحشة التحقيق ووطأة نظرة المحقق الصارمة.

يأتيه وجه سليمة بسمرته ونحوله، وعيناها الزرقاوان، تحتار إن كانتا تشعان جرأة عنيدة أم رهافة تستحي فتدعى العناد، وشفتان فيهما امتلاء يُشتهى، ورأس يكلله شعر كثيف أجعد. في السجن رأى سعد سليمة أوضح مما رآها في أي وقت سابق. رأى وجهها وقدها وميلا بسيطا في قامتها حين تمشي كأنما تريد أن تسبق بجذعها خطواتها. في السجن سمع صوتها وهي تتحدث وهي تضحك وهي تحتد وهي صامتة لا تقول شيئا. رآها طفلة في حياة أبي جعفر، وصبية تشغل قلبه ولياليه، وامرأة تقبل عليه وتمنح ثم تعرض وتنفر بلا سبب مفهوم.

ورأى أبا جعفر كأنما لم يأخذه الموت منذ زمن، رآه واضحا وكاملا بقامته المديدة وثوبه الضافي وابتسامة رقيقة تكاد ترتسم على شفتيه ولكنها لا ترتسم وتترك شيئا من روحها في نظرة عينيه الحائرة بين رفق يفيض به الفؤاد وعتب مر يلجم فيض القلب وعذوبته.

ويأتيه وجه صاحبه نعيم مضيئا متألقا كأن أشعة الشمس تسقط عمودية عليه، فتمنحه شيئا من وهجها يراه في عينيه العسليتين وشقرة شعره وركضه في الحركة والكلام وضحكاته الصاخبة.

في وحشة سجنك ترى أحبابك أكثر، لأن في الوقت متّسعًا، ولأنهم يأتونك حدبا عليك في محنتك، ويتركون لك أن تتملى وجوههم ما شئت وإن طال تأملك.

كان سعد، رغم ما تعرض له من تعذيب، قد صان قلبه فصانه لسانه، وكان حريصا حتى وهو يحكي مع زملاء سجنه، لا يشير من قريب أو بعيد لما قد يؤخذ عليه، وجاء الحكم مخففا إذ لم يثبت عليه سوى أنه غادر غرناطة واختلط على غير المسموح به مع أهل قرى بالنسية. برأته المحكمة من تهمة الهرطقة والمروق والارتداد عن الكنيسة التي كان المحققون قد وجهوها إليه.

٢١

تمنى حسن، وهو عائد من الخان إلى بيته، أن تطول به الطريق. كان يومه ثقيلا ومقبضا يسد عليه منافذ الفضاء. استنشق الهواء البارد وتابع ندف الثلج وهو يتطاير بخفة ليستقر على رصيف حدرّه وأغصان الشجر. في سكون الليل الساكن في الأبيض سكنت نفسه شيئا فشيئا.

لم يكن يوما ذلك الذي ضاق به صدره فاختنق، بل يومًا ويومًا ويومًا، قل ألف يوم. كل يوم يقول تفرج فتزداد تأزمًا وتعقيداً عن اليوم السابق. دربّته الأيام على التعلق بقشة الأمل وطاقة الضوء وإن كانت بحجم ثقب إبرة. يتشبث بها متطلعا، يبيع الأوهام لنفسه قبل أن يبيعها لصحبه ولأهل بيته، يقول: «صبرا جميلا، والغد قادم ويختلف» وما يأتي سوى العتمة والقاع المظلم للغريق. حين صدر القرار بتنصير أهل بالنسية أو رحيلهم بعد مصادرة أملاكهم، بكت مريمة وأنّبته بالكلام وعينيها. قالت: «بعت بناتي يا حسن. قلت: أزوجهن في بالنسية، البعيدة فيعشن معززات بدينهن وأرضهن ومال أزواجهن الوفير، فما بقي لهن دين ولا أرض ولا مال وفير!» أجابها موبخا أنها لا تفهم شيئا، وأن النبلاء يناصرون عرب بالنسية وأنّ الأثرياء المتنفذين من العرب أنفسهم، سيصلون حتمًا إلى البلاط ويعلقون القرار. وعندما اجتاحت القلاقل بالنسية، واشتعلت فيها نيران الغضب والفتنة تكتم على الخبر وأخفاه عن مريمة، وصار يتقصى المزيد من الأخبار من تجار جنوا ومن المكاريين المسافرين دوما من هنا ومن هناك. أرسل لبناته خمس رسائل مكتوبة، فلم يصل إليه سوى رسالة شفهية تقول: «ليست الأحوال على ما يرام، ولكننا

جميعا مازلنا بخير. صار لك ستة أحفاد في أفضل صحة وعافية». نقل إلى مريمة وأمه وسليمة خبر الأحفاد دون سواه. سألت مريمة: «ما أسماؤهم؟» فقال: «لا أعرف» سألته أمه: «هل أنجبت كل بنت اثنين أم أنجبت اثنتان منهما ولم تنجب الثالثة بعد؟» قال: «لا أعرف»، «ذكور أم إناث؟» لم يكن يعرف. لم تعلق مريمة ولكنها أمضت ذلك اليوم والأيام التالية تبكي.

ما الخطأ في أن يتعلق الغريق بلوح خشب أو عود أو قشة؟ ما الجرم في أن يصنع لنفسه قنديلا مزججا وملونا لكي يتحمل عتمة أيامه؟ ما الخطيئة في أن يتطلع إلى يوم جديد آملا ومستبشرا؟ استبشر خيرا يوم تزينت غرناطة وتحلت وأضاءت قصور حمرائها لاستقبال الإمبراطور، وراح ينتظر كغيره نتائج مقابلته لوفد من أشرف وجهائها العرب. رفعوا إليه مظالمهم وطالبوه بالتحقيق فيها. حتى أمس كان ينتظر مؤتنسا بقنديله متشبثا بقشته، ثم جاء اليوم وعلقوا المرسوم، ودار المنادون يذيعون على الملأ بنوده التي تجدد المحظورات القديمة وتزيد عليها:

منع استخدام اللغة العربية والألقاب العربية والملابس العربية والحليّ العربية وما بقي من حمامات عربية، وكافة الكتب تسلّم لتفحص ويعاد منها ما لا خطورة فيه، والولادة لا يشرف عليها قابلات من نساء العرب، وحمل السلاح ممنوع، وعلى الأهالي ترك أبواب الدور مفتوحة أيام الجمع والآحاد والمواسم والأعياد للتأكد من مراعاتهم لشعائر دون شعائر. وعلى الكبار الالتزام بكل طقوس دينهم الجديد، أما الصغار فيُعالج جهلهم بإنشاء مدارس إرسالية تربيهم على غير دين آبائهم.

لم يكن حسن راغبا ولا قادرا على العودة إلى بيته، فظل يمشي حتى شعر بأطرافه وأنفه تتجمد من شدة البرد. عرج على خان في طريقه ودخل.

كان رواد الخان متجمعين في قاعة مغلقة حول مدفأة تتقد النار في أخشابها وتضفي على المكان وهجا ودفئا. كانوا يأكلون ويشربون ويثرثرون ويضحكون

بصخب، وكان في القاعة ثلاث نساء تمسك كل منهن بدف تدق عليه وتغني وحدها حينا ومع زميلتيها حينا وحينا مع الرواد.

جلس حسن مع رجال لا يعرفهم وشاركهم الشراب. تعلقت عيناه بواحدة من النساء الثلاث. كانت طويلة لا تخلو من امتلاء، يكشف ثوبها عن نحرها وذراعيها وينسدل شعرها مموّجا وكثيفا على كتفيها شبه العاريين. عندما اقتربت المرأة منه لاطفها بالكلام فتطلعت إليه بعينين واسعتين مكحولتين، فقال لها إن عينيها آسرتان، فضحكت ضحكة مجلجلة مال لها طربا. حين انتهت من غنائها أفسح لها مكانا بجواره فجلست وتبادلا الشراب والطعام، ثم دعته إلى كهفها فتبعها مخلفا وراءه همومه وتوجسه المعتاد ممن لا يعرفهم.

في الكهف أتت له المرأة بمزيد من الشراب فشرب وضحك حتى سالت دموعه. داعبته فداعبها بجرأة لم يعهدها في نفسه. خلعت ملابسها ووقفت أمامه عارية. كان جسدها فائرا وخصيبا. شهق مأخوذا ثم مد كفيه ومرّ عليه ببطء من أعلى الكتفين حتى أسفل الساقين، ثم ألصق وجهه به ومرّ بشفتيه مقبلا ومُدَغدغا. راحت المرأة تموء كقطة بريّة فزاده مواؤها شبقًا على شبق فأمالها على الفرشة وغمرها بجسده وطاشت فيه نار الفعل حارقة تعلو وتلتهب.

ولما خبَت ناره ونارها لفهما السكون كأنهما خليقة أولى في مبتدئ الزمان، حيث لا صوت بعد ولا صدى، لا قديم ولا جديد، لا ذكرى ولا ذاكرة. لا شيء سوى امتزاج البرتقاليّ بالأخضر، والفضة السائلة ماء أو سماء تتلامس فيها الغيوم. سكبت واحدة ماءها وسواها ممتلئ ينذر بالمزيد.

في الصباح لم يتذكر كم مرة واقعها... استيقظ فلم يجد سوى رائحتها وبعض من ملابسها المتناثرة في المكان. ارتدى ملابسه على عجل وخرج إلى الطريق.

تسلل إلى البيت تسللا، وحين لمحته أمه هرولت إليه تسأله عن سبب غيابه. كانت شاحبة الوجه ملتهبة العينين. قالت:

ـ قلنا ألمّ به سوء. . . وخرجت مريمة منذ مطلع الشمس تسأل عنك في بيوت أصحابك.

صاح بها ووبخها فأتت سليمة وقالت بصرامة:

ـ لم يُصبك مكروه، الحمد لله. عندما تنوي قضاء ليلتك خارج البيت أعلمنا حتى لَانقضي ليلتنا مؤرقين خائفين. . ثم تصبّحنا بالصياح والتأنيب!

استحى من كلامها فلم يعلق، ووضع رأسه تحت مضخة الماء البارد، ثم طلب من أمه أن تسخن له ماء ليستحمّ.

ماأن اطمأنت مريمة وسليمة على حسن حتى عادتا للانهماك في ذلك الأمر الآخر الذي بدا لهما أكثر إلحاحًا وأهمية. أما أم حسن فقد انشغلت لأيام وليال تالية بأسباب غياب ابنها. كانت قد استفسرت منه عن أسباب تأخره فلم يقدم لها إجابة شافية، فهل يكون قد تزوج على امرأته؟! وإن كان قد فعل ذلك فلماذا أخفى عنها وهي أمه التي سوف تفهم وتقدر أنه ضاق ذرعا بهذه المريمة الكئيبة التي تنغص عليه بحزنها الدائم على أمها وإخوتها الغائبين ولومها المستمر له على تزويج بناته لغرباء أخذوهن إلى حيث لا يمكنها رؤيتهن!

عندما كانت تشكو من مريمة وتظهر امتعاضها من نواقصها، كانت أم جعفر رحمها الله تقول: «اصبري يا زينب، ما زالت البنت خضراء صغيرة، ستكبر وتتعلم» فليتها لم تكبر ولم تتعلم لتتدخل في كل صغيرة وكبيرة وتعدِّل عليها وتقول: الصغار يفضلون هذا الصنف من الطعام وليس ذاك، ويحبونه مطهوّاً بهذه الطريقة وليس بتلك، حتى أقسمت أم حسن وقد فاض بها الكيل أن ترفع يدها تماما ولا تقرب المطبخ، وقالت لنفسها: «لنر ما الذي تفعله بنت الطبّال!» ولكنها اكتشفت بعد أسابيع أن ذلك بالضبط هو ما تريده مريمة، تريد إبعادها

عن المطبخ والانفراد بالتحكم فيه كأنها ورثته عن أبيها، وأيقنت أم حسن أن زوجة ابنها من ذلك النوع من النساء اللائي يوصفن بأن كيدهن عظيم. تراجعت بسرعة في قرارها وعادت إلى المطبخ، لكي لا تتمكن منها ابنة الطبّال. ينصف حسن لو تزوج غيرها لأنه لم يوفّق أصلا في الزواج منها، ثم تنتبه أم حسن أنهم جميعا في الأوراق متنصرون، وأن حسن لا يملك الزواج من اثنتين، وأن عليه أن يطلق واحدة ليتزوج سواها، وليس الطلاق سهلا وقد لا يكون ممكنا. مسكين حسن فلا امرأته تسعده ولا هو يجد طريقة لإسعاد نفسه.

قطعت مريمة على أم حسن خيط أفكارها إذ دخلت عليها تحمل قفة وقالت:

- انظري يا أم حسن هذا السمك... اشتريته هذا الصباح من السوق. إنه طازج جدا، وقد أقسم لي البائع أنه حمله من الشاطئ إلى السوق مباشرة.

تطلعت أم حسن في القفة فرأت السمك فضيا مورّدا يلتمع التماعا. أمسكت بسمكة منها وفحصت عينيها وخياشيمها وأومأت برأسها:

- لم يكذب البائع، إنه طازج.

قالت مريمة وهي تبتسم:

- الصغار وسليمة وحسن يقولون إنه لا أشهى من طريقتك في صنع السمك. ما رأيك، هل تسوّينه لنا اليوم؟

- ولِمَ لا تسوّينه أنت؟

- لأنهم يفضلونه على طريقتك!

تنهدت أم حسن وقامت متثاقلة لكي تعد السمك. تبعتها مريمة بالقفة إلى المطبخ، ثم أخبرتها أنها سوف تذهب مع سليمة إلى السوق.

- قد نتأخر قليلا فقد لا نجد ما تريده سليمة لدى عطار واحد فنضطر إلى البحث لدى عطارين عديدين.

خرجت مريمة وسليمة من الدار وسارتا إلى الساحة المتاخمة لكنيسة سان سلفادور، حيث كانت العربة والمكاريّ في انتظارهما كما هو متفق. قالتا للمكاريّ صباح الخير، فقال صباح النور، ثم ركبتا وتحركت العربة.

كان ما ينص عليه المرسوم من ضرورة تسليم كافة الكتب العربية لفحصها قد أفزع سليمة، إذ كانت تعرف أن «فحص الكتب» يعني مصادرتها، وأن حسن سينصاع للقرارات الجديدة، ولن تجدي محاولاتها في إقناعه بغير ذلك.

- ما العمل يا مريمة؟

- نخفي الكتب

- كيف؟

- دعيني أفكر.

فكرت مريمة يوما وليلة، ثم وجدت حلا طرحته على سليمة: نذهب إلى عين الدمع، وننقل الكتب من مكانها، وحين يصرّ حسن على تسليمها تقولين له إنك بعتها. لن يصدقك. سيذهب إلى بيت عين الدمع فلا يجد شيئا، وسيستشيط غضبا ثم يهدأ.

- ولكن إلى أين ننقل الكتب؟

- إلى هذه الدار؟

- هنا، كيف؟!

كان لدى مريمة تصور متكامل عرضته على سليمة بدءا من شراء السمك وإلهاء أم حسن في إعداده، وانتهاء بإدخال الكتب إلى الدار دون إثارة الشكوك.

وصلتا إلى عين الدمع، وحملتا الكتب في خمسة أجولة، وربطتا كل جوال

منها ربطة محكمة، ثم عاونهما المكاريّ على نقلها إلى العربة. ركبتا وعادتا إلى بيت البيازين.

دخلت مريمة الدار أولا ومرّت بالمطبخ، فوجدت أم حسن تقف أمام كانون النار وقد وضعت عليه مقلاة كبيرة يقدح الزيت فيها. كانت تستعد لقلي السمك. حيّتها وتركتها مطمئنة، ثم جمعت الصغار وأجلستهم في غرفة أم حسن وطلبت من البنت الكبرى أن تحكي لهم حكاية، وقالت: «أحضرت لكم حلوى، إن جلستم بهدوء واستمعتم للحكاية أطعمتكم منها»، ثم هرولت إلى مدخل الدار وتعاونت مع المكاريّ وسليمة في حمل الأجولة. ذهب المكاريّ بعد أن أعطته أجره، ونقلت هي وسليمة الأجولة إلى غرفتها جوالا بعد جوال.

كانت مريمة قد أفرغت صندوقها من كل ما فيه. فتحته وفتحت الأجولة، ثم تعاونت مع سليمة في صف الكتب بعناية داخل الصندوق، وعندما انتهتا أنزلت مريمة غطاءه وأقفلته بالمفتاح، وقالت وهي تضحك:

- لو شك حسن في أننا نقلنا الكتب فلن يرد على خاطره أبدا أنها مخبأة في هذا الصندوق الذي يراه صباح مساء في غرفة نومه... هل ارتحت الآن يا سليمة؟

احتضنتها سليمة بقوة ولم تقل شيئا، وكانت عيناها مغرورقتين بالدموع.

٢٢

قال نعيم للقس ميجيل :

ـ سيدي القس، ما رأيك في لغتي القشتالية؟

ـ ممتازة .

ـ هل يبدو حين أتحدث بها أنني نشأت على لغة سواها؟

ـ إطلاقا، لماذا تسأل؟

ـ إنني سريع في تعلم لغة الآخرين، ولقد أردت أن أعد لك مفاجأة تسرك. . . لقد صرت أعرف كلمات كثيرة من لغة أهل البلاد، صار بإمكاني مثلا أن أقول لشخص منهم جملة مفيدة، وأن أفهم ما يقوله لي إجابة عن كلامي .

ـ هذه فعلا مفاجأة .

ـ أتعرف يا سيدي لماذا أريد أن أتعلم هذه اللغة؛ أريد أن أساعدك!

ـ تساعدني؟!

ـ نعم أساعدك، فلو توافر لك ترجمان ينقل لك أفكار بعض أهل البلاد، فإن مهمتك في الكتابة عنهم ستصبح أسهل، أليس كذلك؟!

تطلع الأب ميجيل إلى نعيم الذي أربكته النظرة وكأنها ستنفذ إلى داخله وتكشف سره .

ـ ولكن تعلمك اللغة يحتاج إلى فترة طويلة قد نعود قبل انتهائها إلى قشتالة، وقد انتهيت من كتابي.

ـ أبدا يا سيدي لقد تعلمت في أسابيع معدودة الكثير من لغة أهل البلاد، وبإمكاني في شهرين أو ثلاثة إتقان اللغة، ولكنني فقط أحتاج . . .

كان قد حان وقت السؤال الواضح . . ماذا لو رفض القس؟

ـ ما الذي تحتاجه؟ معلم؟!

قالها الأب ميجيل وهو يضحك، فجاوبه نعيم بالضحك لأن ذلك كان يبدد شيئا من توتره.

ـ كل ما أحتاجه يا سيدي هو أن أتحدث أكثر مع أهل البلد.

ـ وما الذي يمنعك من ذلك؟

ـ لا شيء يمنعني، ولكنني أتحدث بشكل عابر وأنا أمر بهذه المجموعة أو تلك من العبيد وهم منهمكون في العمل. لكن لو أتيح لي أن أجالسهم أحيانا، أن أذهب إليهم في أكواخهم وأجلس معهم ساعة أو ساعتين كل يوم، أقسم لك يا سيدي القس أن باستطاعتي أن أتعلم اللغة في فترة قصيرة للغاية، فأنقل لك ما تحتاجه عن أفكارهم وحكاياتهم ومعنى الأغاني التي يغنونها.

صمت الأب ميجيل لحظات كأنه يتأمل الأمر.

ـ تريد أن تتغيب عن البيت ساعة أو ساعتين كل يوم؟

ـ لا تقلق يا سيدي، حين أتغيب تكون كل حاجاتك جاهزة فلا تفتقد غيابي، ولكن . . .

ـ ماذا؟

ـ لو عَرَّفت حاكم المنطقة أنني أذهب لتعلم اللغة لأن هذا يفيدك في كتابك فلن يظن أحد من جنوده أنني أتردد على الأكواخ بلا سبب مفهوم.

ـ فعلا من الأحكم أن نفعل ذلك ، حين ألتقي بالحاكم غدا أخبره بذلك .

ـ تأكد يا سيدي القس أنني سأعمل بجد حتى أتقن اللغة في أسرع وقت .

ما أن خرج نعيم من حجرة القس حتى أخذ يتراقص طربا ، فقد حصل على ما أراده بالضبط ، وسوف يراها كل يوم ، وسوف يذهب إليها في كوخها ، وقد تأخذه إلى أهلها في الداخل ، ومن يدري لعل الله يقدر أن . . .

كان نعيم قد التقى بها قبل أسبوعين . كان يستحمّ في جدول خلف الدار ، فإذا بها تمر بالقرب منه . استحى من عريه وغمر نفسه في الماء . ثم عاد وأطل برأسه ، وجدها واقفة تتطلع إليه . كانت لها قسمات منحوتة واضحة ، وجه أسمر يميل إلى استدارة وجبين واسع ، وعينان سوداوان تميزهما سحبة في الجانبين ملحوظة ، وأنف كبير ، وشفتان ممتلئتان ، وشعر أملس طويل يلتمع سواده التماعا في ضوء الشمس . ظل نعيم في الماء حتى رآها تمضي فقفز منه على عجل وارتدى ثيابه ، فإذا بها تظهر مرة ثانية . لم تكن صبية بل امرأة ، ربما في الثلاثين من عمرها ، خصيبة البدن ، في ثدييها امتلاء ، عريضة الأكتاف والأرداف . غض نعيم الطرف وتشاغل بالتحديق في السماء ولكنه كان يعي أنها تنظر إليه فيشتعل وجهه حياء . نظر وداری حياءه بالابتسام فابتسمت . أشار إلى صدره وقال : «نعيم» كررها عدة مرات ، ثم أشار إليها ، بسبابته مستفهما عن اسمها . قالت : «مايا» فراح نعيم يكرر اسمها وهو يشير إليها ، واسمه وهو يشير لنفسه ، ثم ضحك فضحكت وأشرق وجهها بعذوبة ترد الروح . من أين أتت المرأة بكل هذه العذوبة؟ فكر نعيم أن يعطيها هدية ما . فتش في جيبه ، لم يجد شيئا . أشار لها أن تبقى مكانها ، ثم حرك كفه ليفهمها أنه سيذهب ويعود . ركض إلى البيت وأتى بإحدى كعكتين خبزهما في الصباح وعاد راكضا . وجدها حيث تركها . كانت قد جلست على حافة الجدول . جلس بجوارها ووضع الكعكة أمامها ودعاها للأكل . لم تفهم كلامه فأخذ من الكعكة قطعة وأعطاها لها في يدها ، وأخذ قطعة لنفسه وقضم منها

ففعلت مثله. أكلا معا ولم يتبادلا سوى اسميهما والابتسام. وعندما قامت لتذهب أراد نعيم أن يضمها إليه ولكنه لم يجرؤ. مد يده على استحياء وربت على رأسها، ومضت وظل يتطلع إليها وهي تسير متهادية يرتج جسدها الخصيب الممتلئ ارتجاجا يسيرا.

في اليوم التالي التقيا عند الجدول في المكان نفسه والساعة نفسها، وكان نعيم قد وفر وجبته لكي يأكلا معا. جلسا وأكلا. قالت: «نعيم» قال: «مايا»، أشار إلى الشجرة وقال «شجرة» فكررتها وراءه ثم علمته اسمها بلغتها. رجع إلى البيت جذلا بحصيلة عشر كلمات من لغتها ورنة صوتها في أذنيه ووقع ضحكتها في نفسه وقبلة سريعة حيية طبعها على خدها الأسيل، وكان يشتعل بدنه كلما استعادها في مخيلته.

في اليوم الثالث لم تأت مايا. انتظرها وهو يُمني نفسه بظهورها. تأخرت ولكنها ستأتي... لابد أن تأتي... لا يعقل ألا تأتي، ولما طال انتظاره ولم تظهر عاد إلى البيت خائبا وحزينا لا يجد من سبيل لتهدئة نفسه والتخفيف عنها سوى انتظار الغد، «لعل وعسى»، ومرت الساعات ثقيلة وبطيئة من مساء إلى ليل ومن ليل إلى نهار ومن الصبح حتى الظهيرة. ركض إلى الجدول وأخذ يروح ويجيء ويقف ويتطلع، حتى إذا رآها قادمة من بعيد ركض نحوها وهو يصيح باسمها، وعندما اقترب منها أفصح لها عن قلقه: «أين كنت؟؟ كدت أموت كمدا لمجرد التفكير في أنني قد لا أراك ثانية. أفزعني اختفاؤك يا مايا. لماذا...» انتبه نعيم إلى أنه كان يتحدث بالعربية، وأنها كانت تتطلع إليه وتبتسم متساءلة عما يقوله، ففتح ذراعيه على اتساعهما وضمها إليه، ضمها بقوة واضطرام، وأخذ يقبل رأسها وعنقها وكتفيها ثم التقت الشفاه.

وبين الأشجار وارفة الأغصان على حافة الجدول أعطته المرأة نفسها، منحته ما تاقت له نفسه منذ الصبا المبكر ولم يطله. ما الذي فعلته به المرأة؟ كان نعيم يصهل كمهر جموح زلزلت الأرض من تحته زلزالها، فراح يركض، يدك

الأرض وهي تهتز به وتميد، فيضطرم عدوه وتشهق روحه، وقد اجتمع عليها نصل السكين والرجفة الحيية، تنهل من كوثر الجنة وهي تشتعل مُحرّقة بالنار.

حين انسل نعيم من داخلها بقي متشبثا بقربها ملتصقا بها ولم يتنبه أن الدموع كانت تفيض من عينيه، إلا عندما أحس بها تمسحها بكفها وتقول له كلمات لم يفهم معناها.

مالت الشمس إلى غروب وذهبت، ثم أضاء قمر الله خيمته العالية، ونعيم ساكن يمسك بيديها. سيقول القس: «أين كنت يا نعيم؟» «يلعن أبا القس! ويلعن أباك يا سعد فلم تقل لي أبدا إنني لم أعرف الدنيا ولم أدخل حياة» «يلعن أباك يا سعد!» سمع نفسه يقولها فضحك من نفسه. ضحكت مايا. تطلع إليها نعيم وقفز وقال:

- الآن سأقدم لك هدية.

لم تفهم، لا يهم. الآن ستفهم.

وفي ضوء القمر على حافة جدول يعكس بعض نوره، وفي حضرة مايا الجميلة بين النساء، رفع نعيم ذراعيه وحرك كتفيه ومال. مال يمنة ومال يسرة. شد قامته وصفق بيديه ودق كعبيه كعبا وراء كعب، وقفز عاليا كأنما يفلت من قانون الأرض، ثم نزل مقرفصا وحرك فخذيه مرات متتالية، ثم قفز واقفا وراح يصفق ويميل ويلف ويدور ويعلو ويهبط، ثم مال على مايا المحدقة به ولف ذراعيه حول خصرها. دار بها. دار حتى دارت بهما الدنيا فسقطا على الأرض، وضحكا وظلا يضحكان حتى مالت عليه مايا وقبلته قبلة طويلة على فمه.

لم يكن بإمكان نعيم أن يختلق للقس كل يوم حكاية تفسر تغيبه في ساعة معينة. لم يُسعفه خياله بحكايات كلها مقنعة لاتثير ذرة من الشك، ثم إنه لم يعد يكتفي بساعة واحدة يلتقيان فيها، فما الذي تكفيه ساعة؟ أيبادلها الحب أم

يتعلم منها لغتها أم يعلمها لغته أم يحكي لها أقل القليل بالكثير من الإشارات ومفردات معدودة هي كل حصيلته من لغتها؟ لو يكرمه الله فينام في الليل ويصحو في الصباح، وقد أصبح يتحدث لغتها بطلاقة! كان يريد أن يحكي لها ألف شيء ويسمع منها ألف شيء. إنها امرأته فكيف لاتعرف أصله وفصله؟! هل يسر للأب ميجيل بحكايته ويطلب منه الإذن بالزواج منها؟ الأب ميجيل طيب، ولكنه قشتاليّ والقشتاليون لهم أطوارهم الغريبة التي تستعصي على الفهم. من الأفضل ألا يعلمه بشيء. سيتعلم لغتها ويذهب إلى أبيها ويقول له بلسانه: «ياعمي» كما يليق، ويحكي له حكايته ويفهمه أنه ليس من أولئك القشتاليين الذين يقتلون أهل بلاده وينتهكون أعراض النساء بلا رحمة. سيحبه أبوها ويضمه إلى أسرته، وقد يتعلم منه العربية لأنهم سيصيرون أهلا، ومن يدري لعل الله يقدر أن تعود معه مايا إلى غرناطة. رحمك الله يا أم جعفر، لو أن الله أطال عمرك لجئتك بكنّة لم تحلمي بمثلها قط. كنت ستقولين: لها شكل غريب ولسان أغرب، فأقول لك: ولكنها مليحة يا أم جعفر، طيبة وحلوة.

قال الأب ميجيل:

- ما الذي دهاك يا نعيم؟

- ما الذي بدر مني يا سيدي؟

- أراك ساهما وأحيانا تكلم نفسك وتواصل ذلك فلا تنتبه لدخولي عليك.

- هل أكلم نفسي يا سيدي القس؟

- نعم سمعتك أكثر من مرة تفعل ذلك، وأخشى أن يكون ذلك بسبب زياراتك المتكررة لأكواخ العبيد، فهؤلاء الناس يمارسون السحر وقد يؤذونك بسحرهم.

- أقسم لك يا سيدي القس أنهم أناس طيبون جدا ويحبونني. نعم إنني أتذكر الآن. هل سمعتني أكلم نفسي باللغة العربية؟ الحقيقة يا سيدي القس

أنني أشتاق لغرناطة ولأصحابي الذين تركتهم فيها. أحيانا أجد نفسي أتحدث معهم. تعرف يا سيدي أنه لايوجد في كل هذه المنطقة سوى شخص واحد من أصل عربيّ، هو ذلك النجار الذي يعمل في الطرف الآخر من المستعمرة، ولا ألتقي به سوى مرة كل عدة شهور. لا أجد من أتحدث معه بالعربية فأتحدث بها بصوت عال، وأتوهم أني أكلم أحد أصحابي في غرناطة.

قال له القس بصرامة:

- لابد أن تكف عن ذلك وإلا أصبت بالجنون، وأيضا لأن الشيطان قد يتسلل إليك في تلك اللحظة، ويحول حديثك إليه ما دام الحديث ليس موجها إلى شخص حاضر أمامك، وإن تاقت نفسك لاستخدام العربية فاقرأ في كتاب الصلوات المترجم إلى اللغة العربية الذي أتيت لك به... ألم تحضره معك؟

تلعثم نعيم ثم أجاب:

- للأسف يا سيدي لم أحضره معي من غرناطة.

حدجه القس بنظرة لوم:

- هذا إهمال يا نعيم!

- آسف يا سيدي... أعدك ألا أكلم نفسي بعد اليوم!

ولم يكن نعيم في أحاديثه اليومية يكلم إلا مايا، فقد كانت رغبته في أن يحكي لها لا تحتمل التأجيل إلى أن يتقن أحدهما لغة الآخر. كان يحكي لها في الليل وهو في فراشه، وفي النهار وهو يرتب الدار أو يعد الطعام أو يغسل ملابس القس. كان يحدثها بلا توقف عن كل شيء في حياته منذ اللحظة التي مد له أبو جعفر يده فيها وهو يسأله «ما اسمك يا ولد؟» إلى اللحظة التي مرت به فيها وهو يستحمّ في الجدول فاستحى وغمر نفسه في الماء.

أفهم نعيم مايا أنه يريد أن يتزوجها، ويريد أن يلتقي بأهلها ويطلب منهم

ذلك، فقالت له إن أهلها يسكنون بعيدا، ولم يتيقن من أنه فهم ما تقوله، فسألها أكثر من مرة، ولكن إجابتها لم تخالف ما فهمه. بعد عناء يومين كاملين من الحديث المتقطع اتضح له الأمر. كانت قد أتت إلى تلك المنطقة برفقة زوجها الذي مات بعد ذلك فبقيت وحدها، وكان الذهاب إلى أهلها يقتضي الحصول على حصان أو المشي لأسابيع متصلة قد يتعرضان فيها لمشكلات مع القشتاليين. لو طلب من الأب ميجيل أن يعطيه حصانه فلابد أن يحكي له الموضوع كله، وقد يوافق وقد لا يوافق. . . الأرجح أنه لن يوافق. لم يعد إذن من الأمر بد.

نظف نعيم الدار تنظيفا كاملا، وغسل ملابس القس، وانتظر حتى جفت وطواها بعناية، وأعد طعاما يكفي القس ثلاثة أيام أو أربعة، ثم خرج من الدار وجمع بعض الزهور البرية كوّن منها باقة ووضعها في إناء ملأه بالماء وزين به مكتب القس، ثم حمل نعيم القليل الذي يملكه ومصحفا صغيرا وشيئا من زاد للطريق وقبعة من القش الملون كان قد صنعها سرا لكي يقدمها إلى الأب ميجيل هدية في أعياد الميلاد. سوف يعطيها لوالد عروسه، إذ لا يصح أن يدخل عليه دون هدية.

قبل طلوع الفجر، غادر نعيم البيت بحذر. فك حصان سيده واقتاده إلى الجدول، حيث كانت مايا في انتظاره. حملها معه على حصان سيده، وانطلقا إلى أعماق الجزيرة.

٢٣

بدا لحسن وهو مستدفئ في فرشته أنه أفضل حالا، وقد مرت تلك الزوبعة التي أثارتها مريمة وعادت الأمور بينهما إلى مجاريها. كان أهلها قد خرجوا من السجن وقد ثبتت براءة أمها، وحكم على أخويها بغرامة كبيرة لم يكن بإمكانهم دفعها، فصادر القشتاليون دار أبي إبراهيم، واقترحت مريمة ساعتها أن تأتي أمها وأخويها للإقامة معهم، فقال لها حسن:

ـ لتأت أم إبراهيم لتقيم معنا على الرحب والسعة، أما أخواك فلابد أن يجدا لهما مكانا آخر يقيمان فيه، ففي البيت أمي وأختي وهما ليسا محارم لهما.

حدجته مريمة بنظرة فاحصة، وقالت:

ـ قل ما عندك يا حسن ولا داعي لاختلاق الأسباب. لقد استضفت عمر وعبدالكريم أسابيع متصلة وهما رجلان غريبان من بالنسية دون أن تربطنا بهما علاقة قرابة ولا نسب.

فتطلع إليها حسن في ضيق ولم يقل شيئا. ولكنها ظلت تتطلع إليه، فقال:

ـ تعرفين السبب الآخر، فما الداعي لقوله؟ تريدين أن تسمعيه، إذن اسمعي. أخواك خرجا من السجن والعين عليهما، ولا أريد أن يكون لي أو لأهل بيتي دخل في أي مشكلات من هذا النوع.

لم تقل مريمة شيئا، ولم تعاود الحديث في الموضوع ولا الإشارة إليه، ولكنها، على مدى ثلاثة شهور، كانت حادة محتقنة تصيح في الصغار بداع

وبلا داع. تضرب هشاما وتبكي مما لا يدعو إلى بكاء. تلبي له احتياجاته في المأكل والملبس، ولكنها لا تسهب معه في الحديث ولا تقبل اقترابه منها في الفراش.

تحلى بالصبر، ومرت الأسابيع والشهور حتى هدأت. فكر حسن وهو في فراشه أن الله راض عليه، وأن أحواله وأحوال أسرته مستقرة في زمان يعز فيه الاستقرار. حتى سليمة وعنادها وما اختارته لنفسها من حياة غريبة تسبب له القلق، صارت تضفي على داره في البيازين تقديرا ومهابة، ففي يدها الشفاء وفي علاجها ما يطيب البدن والروح. هكذا يقول الناس، ولأن سليمة ورثت عن أبي جعفر نبله وكرمه، ما كانت لتردّ سائلا حتى وإن لم يملك إعطاءها مقابل تطبيبها له. ربما لذلك - فكر حسن - فتح الله عليها، فأغدق عليها الناس من مالهم حين يتوافر المال، ومن محبتهم وإعزازهم إن لم يتوافر أو توافر. وهب الله سليمة الحكمة والمعرفة وحب الناس وتلك الصغيرة أمل التي تملأ داره بهجة بضحكاتها الرقراقة وحضورها الفطن. «ما الذي تعطينه لي اليوم يا أمل؟» فتفتح الصغيرة ذراعيها وتحتضنه بقوة وهي تقول: «أحبك أكثر من الشمس والقمر وأمي» فيضحك حسن حتى تترقرق عيناه بالدموع. فقط لو يعود سعد بالسلامة ليكتمل هدوء البال، فيزوج البنتين الباقيتين ويكبر هشام ويزوّجه من أمل ويرى أحفاده منهما ثم يمضي في أمان الله.

كان حسن يقضي عدة ساعات كل يوم يتأمل حاله وحال أسرته، أو هذا الأمر أو ذاك، لأنه ولو قصد أن يأوي إلى فراشه متأخرا كان يستيقظ مبكرا قبل طلوع الفجر بساعتين أو ثلاث ومريمة مستغرقة في النوم إلى جواره وكل أهل الدار نائمون باستثناء سليمة، فلا يجد ما يفعله سوى البقاء مع أفكاره منتظراً طلوع النهار واستيقاظ من في الدار.

أحيانا يثقل عليه الصحو في الظلام، فيشعل شمعة ويروح يتابع شعلتها الراجفة والظلام على السقف والجدران، وأحيانا يقوم إلى سليمة يدق بابها

ويدخل. يجلس بهدوء مستأنسا بوجودها وبوجه إسبرنزا الوديع المستغرق في النوم.

سألته سليمة:

- ما الذي يؤرقك يا حسن؟

- لا شيء يا سليمة. يبدو أنني أكتفي بساعات قليلة من النوم.

- هل أنت متأكد؟

استغرب سؤالها ولم يحر جوابا فسكت. رفعت سليمة رأسها عن الكتاب وقالت:

- هل تذكر يا حسن يوم ذهبنا أنا وأنت وسعد ونعيم لمشاهدة موكب كريستوبال كولون.

- يوم تغيب نعيم فجأة ولم ندر أين ذهب؟

راح حسن يستعيد شيئا من تفاصيل ذلك اليوم، وظهرت على وجهه ابتسامة لم تكتمل تماما، فبدت ملامحه موزعة بين حزن وابتسام.

- كنا صغارا يا سليمة لم يدر بخاطرنا ما تخبئه لنا الأيام.

- أحيانا أتساءل يا حسن، كيف يعيش أحفادنا بعد مائة عام مثلا؟

لم يكن حسن قد تأمل ذلك أبدا.

- الله أعلم. لا أذهب أبعد من يوم في المستقبل يعيد لنا سعدا ونعيما، وأزوج فيه الصغار وأرى أولادهم.

سكت لحظات ثم قرر أن يقول لسليمة ما أراد قوله منذ شهور:

- هل تقبلين هشاما زوجا لأمل؟

ضحكت سليمة بصوت عال جعل الصغيرة تتقلب في فراشها كأنها ستصحو، لكنها عاودت الاستغراق في النوم. أربكته ضحكتها، فقال لها بنبرة لا تخلو من الضيق:

- لماذا تضحكين؟

- لأن ابنتي عائشة في الثالثة من عمرها، وهشام لم يبلغ التاسعة!

- في طرفة عين تجدينها صبية في العاشرة وهشام فتى طولا وعرضا.

- هذا حديث سابق لأوانه يا حسن، وعندما يأتي أوانه نواجه مشكلة قرار القشتاليين بخطر زواج الأقارب.

- ليذهبوا إلى جهنم الحمراء، لن أعطي أملا لرجل غريب يأخذها من بيتي!

ابتسمت سليمة وهي تساير حسن وتشعر أنها تشاركه في لعبة طريفة عناصرها من غيب ومستقبل بعيد.

- والأوراق الرسمية كيف نستخرجها؟! وحين يأتيهم صغار ألا يصبحون بحكم قانون قشتالة أطفالا غير شرعيين؟!

قال حسن بانزعاج كأنه يواجه مشكلة عليه حلها دون تأجيل:

- سأجد مخرجا. سعد من مالقة وأمل تحمل اسمه. سوف أنكر في الأوراق أنني خالها وأنك أمها!

ضحكت سليمة بصوت خافت هذه المرة مراعاة للبنت النائمة، وقالت بشيء من السخرية الهازلة:

- لمَ لا تقوم الآن وتعقد العقد، فلا يبقى أمامنا سوى الانتظار بضع سنين يبلغ فيها الولد وتبلغ البنت فنعلن الفرح؟!

لم يتقبل حسن مزاح أخته، وقال متكدرا:

ـ ماذا دهاك يا سليمة ؟! أقسم برب الكعبة أنني أحب ابنتك أكثر مما أحب هشاما، وأكثر مما أحب بناتي حتى اللاتي تزوجن في بالنسية ويثقلني شوقي إليهن. تصبحين على خير!

ترك حسن سليمة كي تأوي إلى فراشها كعادتها في الفجر، وخرج ليوقظ مريمة لكي تعد له إفطاره قبل ذهابه إلى الخان.

كان حسن يحب الذهاب إلى الخان والعمل فيه، ولا يعكر صفوه إلا أبو منصور بحدته وسرعة غضبه وانفلات زمامه. لم يكن حسن في حاجة إلى جهده حين طلب منه العمل معه في الخان، ولكنه وجد الرجل بلا شغل ولا مشغلة يقعد في الدار ليناقر زوجته ويحتسي الخمر، ويظل يعب كأسا بعد كأس حتى تثقل أنفاسه ويشتعل وجهه فتتحول المناقرة إلى شجار يسمعه الجار وجار الجار.

قال له حسن، وهو يريه الحجرة الصغيرة التي في مدخل الخان:

ـ ما أريك يا أبا منصور أن تجلس هنا بعيدا عن الصخب. تسجل أسماء النزلاء، وتستلم منهم ما يريدون إيداعه من الأمانات، وتضعها بنفسك في الصندوق، وقبل أن يغادروا تعيد لهم أمانتهم وتأخذ منهم المستحق عن فترة إقامتهم؟

في الأسابيع الأولى بدا أن العمل مناسب تماما لأبي منصور. انهمك في عمله الجديد وكان مقبلا عليه وسعيدا به، ولم يكن يسرف في الشرب، ولكنه بعد ذلك عاد يشرب حتى تلعب الخمر برأسه فيخرج إلى فناء الخان يتصيد من يتشاجر معه، ويتأهب حسن لمنع المشاجرة أو احتوائها، وإن اضطرته الظروف للتغيب من الخان يوصي العاملين فيه بإبقاء عيونهم مفتوحة على أبي منصور تحسبا من وقوع مشكلة.

وكان العمل في الخان مزدهرا خاصة في شهور الصيف، حيث تشغل كل

الحجرات ويزيد على النزلاء من يأتون للقائهم للبيع أو الشراء أو الائتناس بالحديث.

كان من النزلاء العربيّ والأعجميّ، من جاء من القرى القريبة من غرناطة لقضاء حاجة تقتضي بقاءه في المدينة بضعة أيام، ومن قطع المسافات البعيدة قادما من أراجون وبالنسية، أو من مدن السواحل الإيطالية، تجار في الغالب يقصدون البيع والشراء. في النهار ينجزون مصالحهم، وفي المساء يجلسون للتسامر والطعام والشراب، وفي الصيف يمتد السهر حتى أن العاملين في الخان لا يتمكنون من النوم إلا في ساعة متأخرة من الليل.

كان حسن منهمكا في محاسبة الطباخ حين سمع صياح أبي منصور، فقفز مهرولا إلى الفناء، حيث وجده رماديّ الوجه تتقد عيناه الحمراوان بالغضب. أحاط حسن كتفيه بذراعه، وقال وهو يحاول أن يحمله على السير باتجاه حجرته:

ـ خير يا أبا منصور، ما الذي حدث؟

ولكن أبا منصور لم يتحرك من مكانه، فقال حسن بحدة محكومة:

ـ تعالَ معي ندخل إلى حجرتك ونتحدث بهدوء فيما أغضبك.

لم يعر أبو منصور حسن أي اهتمام، وقال وهو يرفع سبابته مشيرا إلى أحد الرواد:

ـ تتنصل من أهلك يا كلب!

كان الشاب، الذي يشير إليه أبو منصور، وسيما مسرفا في العناية بمظهره. حدج أبا منصور بنظرة ازدراء ثم أدار رأسه متأففا.

قال حسن وهو يدفع أبا منصور دفعا ليبتعد به عن المكان:

ـ الله يرضى عليك تعال معي!

ـ هذا الولد ابن ياسين الوقاد. أبوه رحمة الله عليه كان يعمل وقادا في حمامي، وأنا سمعته الآن بأذني يتفاخر بأنه قشتاليّ أبا عن جد، وأن دماءه نقية. من أين تأتيك الدماء النقية وكل ما فيك ينضح بأنك لوطيّ يُفعل فيه!

هب الشاب واقفا وقال لحسن بغضب:

ـ هل تترك هذا الرجل الخرف يهين الناس؟! مادمت صاحب الخان فعليك أن تضمن احترام نزلائك.

وقبل أن يفتح حسن فمه ليعتذر عما حدث، كان أبو منصور قد مد يديه ليمسك بتلابيب الشاب. قفز حسن بينهما وصاح بأبي منصور بصوت هادر غاضب:

ـ يا أبا منصور، تصرف كالرجال وكفاك ما تفعله بنفسك وبالناس!

ولكن أبا منصور كان كالثور الهائج يتفلت ليصل إلى الشاب وهو يكرر:

ـ نقاء الدم، هه يا ابن الحرام!

فما كان من حسن إلا أن جذبه بقوة ولكمه لكمة قوية في بطنه وأسكته. ران الصمت للحظات، ثم قال أبو منصور وهو يحدق في حسن:

ـ حسن الذي حملته بين يديّ وهو رضيع، يضربني. لا تقلق يا ابن ياسين الوقاد، لست وحدك ابن الحرام!

كان الصوت، الذي بدأ عاليا يرن في فضاء الباحة، قد انتهى خافتا وراجفا، ثم استدار أبو منصور وسار بخطواته الوئيدة المترنحة قليلا وغادر الخان.

ورغم أن حسن اعتذر للنزيل وقبّل كتفه، وقال له إن أبا منصور رجل طاعن في السن يسرف في الشراب، تصعب مؤاخذته على سلوكه، إلا أنه حين آوى إلى فراشه في الليل كاد يختنق ضيقا. لم يجرؤ أبدا على زجره أو الإساءة إليه، فكيف يصيح به ويضربه أمام نزلاء الخان؟!

في الصباح ذهب حسن إلى بيت أبي منصور، وحاول أن يعتذر له لكن أبا منصور أشاح بوجهه عنه. كان ممتقع الوجه ولم يتفوه سوى بجملة واحدة كررها مرتين. قال:

ـ اذهب يا حسن لا تثقل عليّ... يكفيني هم الزمان!

ذهب حسن ثم عاد لزيارته في العيد الصغير والعيد الكبير، وفي المرتين كان أبو منصور يطلب من امرأته أن تضيّفه بالموجود من طعام أو شراب، ولكنه كان يجلس صامتا كمن نسي الكلام.

لم يعد حسن لزيارته. قال: حين يرجع سعد يصلح ما بيننا، ولكن أبا منصور لم ينتظر عودة سعد.

وحين سار حسن مع المشيعين لتوديع أبي منصور إلى مثواه الأخير، بكى بحرقة جعلت من معه من الرجال يقولون له:

ـ تماسك يا أبا هشام، لا يصح أن تنتحب هكذا كالنساء!

٢٤

كان سعد يعرف أن معاودته العمل مع زملائه المجاهدين قد أصبحت من المستحيلات، فأيّ نفع أو فائدة ترجى من رجل يتحرك ببطء ووجل مستندا على عكازتين؟ وكيف له أن يصعد إلى تلك القرية أو يهبط منها وهي معلقة في أعالي الجبال، والطرق إليها متعرجة ووعرة؟ وإن وجدوا له موقعا آخر يقيم فيه لإنجاز مهام مختلفة، فكيف يصح له ذلك وحكم المحكمة يقضي بأن العقوبة لا تنتهي بالإفراج عنه بعد ثلاث سنوات قضاها في السجن، بل تمتد إلى تحديد إقامته في غرناطة، لا يغادر بيته إلا لحضور القداس أيام الآحاد وفي أعياد الميلاد والفصح، ولا يكون خروجه بين الناس إلا مرتديا «السانبنيتو»، العباءة الصفراء ذات الشريط الأحمر التي تميز الخطاة.

لو ترك لسعد أن يختار ما يفعله بعد خروجه من السجن لما اختار أن يذهب إلى غرناطة مباشرة، فهل يعود إلى حسن وسليمة ويقول لهما: أنفقا على طعامي وشرابي لأنني أصبحت بلا عمل، ولا تسمح لي المحكمة بالخروج للعمل؟ ثم إنه كان يرتجف خوفا من نظرة إشفاق في العينين أو شهقة ارتياع تكتم ويفضحها اختلاج الشفتين ساعة يفتح الباب فيرى في صفحة الوجه صورته وعجزه وعكازتيه.

حين دق سعد الباب فتحت له أم حسن وهتفت باسمه، ثم قالت: «سليمة!» وانتحبت. ليس هذا ما توقعه من اضطراب. هل أصاب سليمة مكروه؟

ملأه الروع فانعقد لسانه وتجمدت أطرافه، ثم سأل هامسا كأن الصوت مع الفزع راح، ولكن مريمة جاءت تركض وهي تقول:

ـ يا ألف أهلا بسـعـد. . . سليـمـة بخـيـر. خلّفت لك بنتا لا أحلى ولا أبهى. . . تعالي يا عائشة لتسلمي على سعد أبيك.

حدق سعد في طفلة في الثالثة من عمرها وضاءة الوجه كأمه لها ملامحها وعيناها الدعجاوان. كان يتطلع مبهوتا كأنه يرى معجزة تستعصي على الفهم أو التصديق. كانت في سن أخته نفيسة، وتحمل اسم أمه عائشة، وملامحها تبعثهما أمام عينيه. كأن السنوات لم تنقَضِ أو كأنّها سارت معاكسة للزمان إلى الوراء.

ـ اسمها عائشة؟!

ـ اسمها عائشة، وفي الأوراق إسبيرانزا، وخالها لا يناديها إلا «أمل».

ـ أمل؟!

انحنى سعد بقدر ما تسمح له وقفته المستندة إلى العكازتين.

ـ تعالي يا عائشة. . . تعالي يا حلوة. . . تعالي.

ولكن الصغيرة خافت منه وانفجرت في البكاء.

لم يغمض لسعد جفن طوال الليل، بل ولم يتمكن من الرقاد في فرشته. ظل جالسا يحدق في الصغيرة حينا وفيما تبقى من أشياء سليمة حينا آخر. كان النهار قد انقضى والصغيرة نافرة منه. لم تعاود البكاء وإن ظلت واقفة تتطلع إليه، واحتفظت بمسافة تراها مناسبة للركض هربا لو حاول الاقتراب منها، ومع ذلك فقد بدت منشغلة بأمره لأنها كانت تتبعه عن بعد وتتطلع إليه. في المساء أخذتها مريمة وحكت لها حكاية حتى أغفت بجوارها، ثم حملتها إلى فراش أمها وقالت لسعد وهي تبتسم:

ـ لكي تنام بقربها يا سعد .

كانت الصغيرة مستغرقة تماما في النوم لا يبدو منها سوى وجهها المدور الوضاء تحيط به حلقات شعرها الأسود مبللة بعرق يغطي جبينها . كان يتطلع إليها فيسمع دقات قلبه الذي أنهكته كل تلك المستجدات . صار لك ابنة يا سعد ، ليست نطفة في بطن أمها تنمو يوما بعد يوم ، وليست وليدة تتابع كيف ترضع وكيف تبكي وكيف تبتسم وكيف تدرج بخطواتها الأولى على الأرض ، وكيف تنطق أول كلمة مفردة وأول جملة . إنسان صغير كامل يعرف اسمه ويقول نعم ويقول لا ، هو ابنتك تلقاها أمام عينيك جاهزة مكتملة . . . وكيف ؟ ! ولكنهم يقولون لك هذه عائشة ابنتك ، ثم يقولون ولكن زوجتك ليست هنا لأن رجال ديوان التحقيق جاءوا قبل أيام وأخذوها . لماذا ، وما الذي فعلته ؟

قالت مريمة : «فتشوا البيت ، كل ركن وزاوية فيه . فحصوه ونقبوا فيه كأن ابن حرام اصطنع من خياله فرية عن سلاح مخبوء أو كنز . قلبوا الدار يا سعد . ولم يخطر ببالي أنهم يقصدون سليمة ، فما شأن ديوان التحيق بامرأة مثلها؟ ولكنهم كانوا يقصدونها . فتشوا حجرتها أكثر مما فتشوا الدار كلها ، وكان أحدهم يمسك قلما ودفترا ويسجل ما وجدوه من أعشاب وقوارير وكتب ، ثم جمعوا الأشياء ووضعوها في جوالين كبيرين وقيدوا سليمة وحملوها في قفة . هل تصدق يا سعد أنهم حملوها في قفة؟ ! كان هذا أغرب ما حدث ، ومازلت لا أفهم لماذا حملوها في قفة . للحظات شككت أنهم مصابون في عقولهم وقد جاءوا إليها هربا من البيمارستان ، ولكن حسن تأكد بعد ذلك أنهم من رجال ديوان التحقيق» .

كان سعد ، وهو ينصت إلى مريمة ، يزداد توجسا وارتياعا ، فقد كان يتمنى أن تكون هناك تهمة ما توجهها المحكمة إلى سليمة ، أي تهمة إلا تهمة ممارسة السحر . ولكن حملها في قفة يعني أنهم يخشون لمسها ، ويؤكد مخاوفه أنهم

قبضوا عليها لتوجيه تلك التهمة إليها، تهمة التهم. راح بدنه يرتجف، رجفة مفاجئة قصيرة ثم يتماسك ويضغط بأسنانه على شفته السفلى لكي لا تؤخذ مريمة بكلمة (لا) التي تتفلت من فمه.

أيفرح بالصغيرة أم يترك قلبه في قبضة الحزن يعتصره، وكيف يقدر على ذلك كله وقد غمرته كل هذه الأشياء في يوم واحد؟ الآن يفهم ما نطق به وجه أم حسن حين دق الباب وفتحت. كانت تغرق في موجة الخوف العالية حين رأته فاستغاثت. اكتهل كثيرا أو قليلا، بعكازتين أو دونهما. كانت قد رأته وهو سعد زوج سليمة فاستنجدت به، وها هو يجلس بلا حول ولا قوة لا يملك حتى أن يفرح بالصغيرة دون أسى، أو أن يرتاع على سليمة دون وعي بوجود تلك الصغيرة التي تدغدغ قلبه، وكأن الوجود به فرح أو حنان.

ولم يكن سعد وهو جالس يتطلع إلى طفلته النائمة ويفكر في زوجته الغائبة، يسمع شيئا مما يدور بين حسن ومريمة في الحجرة المجاورة. كان الحوار على ما فيه من حدة وغضب محكوما إلى حد الهمس.

قال حسن مهموما:

- لا أدري ما الذي أفعله الآن؟

- بشأن سليمة؟

- لا، بشأن سعد.

قالت مريمة وقد بدا على وجهها شيء من توجس:

- ما الذي تقصده؟

- لم يأتنا سعد خارجا من السجن بعد حكم من الديوان فقط، بل أتانا محددة إقامته عليه لبس السانبنيتو.

- وما الذي يعنيه هذا؟!

- يعني أنه مراقب وعيون السلطات عليه، وهذا يضع الدار ومن فيها . . .

- يضع الدار ومن فيها في وضع مشرِّف. كل أهل البيازين يحترمون من يُعاقبهم الديوان، والعباءة الصفراء تعلي الرأس وتنيف.

كانت مريمة محتشدة مستفزة تطل من عينيها بوادر العاصفة.

- أعرف هذا يا مريمة، ولم أقل إنني لا أحترم سعدا، ولكنني حرصت سنوات طويلة على المحافظة على أمان الدار.

قاطعته مريمة وقالت بنبرة لا تخلو من التهكم:

- أعرف أنك كنت شديد الحرص حتى أنك لم توافق على إقامة أمي وإخوتي معنا عندما صادرت المحكمة دارهم!

لم يعلق حسن على ما قالته. سكت لحظات ثم قال:

- أفكر أن أنقل له بصراحة رأيي في الموضوع. سعد مرهف وسيفهم وحده أن إقامته بعيدا أسلم. لن ينتظر حتى أقول له صراحة إنني أفضل ألا يقيم معنا.

حدقت فيه مريمة لحظات دون أن تقول شيئا، ثم قامت بهدوء وأحضرت المصحف ووضعته تحت عيني حسن، ووضعت يدها عليه وقالت:

- اسمع جيدا يا حسن، وانظر جيدا. ها هو كتاب الله، وها أنا أقسم عليه. أقسم بالله تعالى أنك يا حسن لو تحدثت في هذا الموضوع مع سعد أو صرحت أو ألمحت فسأترك أنا البيت قبله ولن أدخله أبدا ما حييت!

حملت المصحف وأعادته إلى مكانه، ثم رفعت الغطاء عن فراشها وحملته وخرجت من الحجرة.

أحست أم حسن بمريمة وهي تستلقي بجوارها على فرشتها، فسألتها مستغربة:

ـ هل تنامين هنا؟

ـ لا أدري ما الذي أكله حسن الليلة. إنه لا يكف عن الشخير بصوت عال. . . نعم سأنام هنا!

* * *

حين تطلب عائشة أمها تبكي أم حسن، أما مريمة فتنهمك في مشاغلة البنت، تحكي لها حكاية، أو تصطنع لها لعبة غريبة، أو تنادي على هشام وتطلب منه أن يمشي على أربع ويصهل كالحصان، وتقول لعائشة:

ـ هل تركبين هذا الحصان الصغير أم أركبه أنا؟!

تقول البنت:

ـ إنه حمار وليس حصانا!

وتضحك فتضحك مريمة، فيغتاظ هشام ويقفز قائما على قدميه وهو يصيح محتدا:

ـ لست حمارا!

تنهره أمه وتأمره أن يعاود الانحناء لتركب ابنة عمته فيفعل على مضض، ثم يثأر لنفسه قائلا:

ـ أبي يقول إن عائشة قدم السعد، ولكنها منحوسة جاءت إلى البيت فمرض أبوها وصار يمشي على عكازتين وأخذ ديوان التحقيق عمتي سليمة.

تزجره أمه مهددة بأنها «ستقطع خبره» إن سمعته يقول هذا الكلام ثانية، ولكن الولد لا يزدجر، فتطعمه أمه ضربا مبرحا، ثم تعود لمصالحته وتفهمه بهدوء أن عليه أن يكون لطيفا مع ابنة عمته لأنها ابنة عمته ولأن أمها بعيدة عنها.

كان غياب سليمة يثير الاضطراب والحزن في أهل البيت. تقول أم حسن دامعة العينين وهي تضرب كفا بكف: «ما باليد حيلة!» تقولها وتكررها ويزيد الأسى وجهها المتهدل تهدلا، ويقولها سعد وحسن دون صوت، بنظرات العيون الضائعة، كأنما غرقت في بئر بلا قرار.

«لابد من حيلة... لابد... ولكن كيف؟» كان السؤال يشغل مريمة وإن لم تفصح عنه لأحد. بإمكانها على الأقل أن تعرف أخبار سليمة، تهمتها، مدة سجنها. لفت مريمة ودارت وطقّست واستعلمت حتى استدلت على امرأة قشتالية يعمل زوجها كاتبا في الديوان. تعرفت عليها في السوق كأنما بالمصادفة، وحدثتها بشكل عابر ومضت. بعد يومين أطالت الحديث قليلا ثم ذهبت، ولما صارت المرأة تألفها وتألف كلامها الظريف صارت تطيل الوقوف معها في السوق، تسألها كيف تطبخ تلك الطبخة أو تفصل لها طريقتها هي في صنع الفطائر. وبعد أسابيع من تعارفهم قالت لها مريمة:

- زوجي أطال الله عمره وأبقاه بألف صحة وعافية كريم معي، لا يضن عليّ بأيّ شيء، لولا أخته التي لا تحبني ولا تحب أولادي ولا تتمنى لنا أيّ خير. ولكن شكرا للرب الذي عاقبها على قلبها الحقود وكافأني على قلبي الطيب. قبض عليها رجال ديوان التحقيق، ولا أدري بأيّ شر تسببت.

- ما دامت سيئة فلابد أنها أتت أفعالا يعاقب عليها القانون.

- هذا هو ما يشغلني ليتني أعرف ما الذي فعلته بالضبط فأنقله لزوجي حتى يعرف أخته على حقيقتها، ويتأكد أنني في كل شجار دب بيننا كنت المظلومة وكانت هي الظالمة. طبعا ستخرج بعد التحقيق وتدعي أنهم أخطئوا في القبض عليها ظنا أنها امرأة أخرى، وتدعي الطهر والبراءة.

لم يبد على المرأة أنها اهتمت بهذا الجزء من الكلام. سألت مريمة إن كانت ستشتري باذنجانا.

قالت مريمة وقد انفلتت منها زفرة:

- أشتري . . . ولكن أخت زوجي تشغلني. هل تعرفين من الأقرباء أو الجيران من يعمل في الديوان؟

- زوجي يعمل في الديوان!

وقفت مريمة وبدت مشدوهة وهي تقصد الابتسام بحبور:

- إنني محظوظة. مؤكَّد أنني محظوظة! إذن، بإمكان زوجك أن يعرف لماذا قبضوا على سليمة، وحين أعرف أنقل الكلام لزوجي فلا يعود يصدق أخته أبدا بل يصدقني أنا!

- سأسأله، ولكن ما رأيك في هذا الزيتون . . . هل تشترين منه؟

- لا تشتري، سآتيك بأحسن منه فلزوجي عروق زيتون لا أشهى من ثمارها. حين تأتينني بالأخبار آتيك بحملين من الزيتون.

في لقائهما التالي توجست مريمة وانقبض قلبها حين رأت وجه زوجة الكاتب يتهلل مستثارا عند السؤال عن سليمة.

قالت المرأة:

- أتيت لك بأخبار قد تكافئينني عليها بحمل شجرة كاملة من الزيتون. قولي لزوجك إن أخته ساحرة تمارس شرها على حياة الخلق الطيبين. لقد أعلمني زوجي أنهم يعذبونها عذابا شديدا لكي تعترف، ولكنها لا تفعل، وهذا يؤكد أن الشيطان يتلبسها ويعاونها.

امتقع وجه مريمة وزاغت عيناها ودار رأسها حتى بدا لها أنها ستسقط مغشيا عليها.

- ماذا جرى هل أسفت عليها؟!

تلعثمت مريمة ثم قالت وهي تطلق من صدرها زفرة مسموعة:

- أبدا أصابني الهلع. كان بإمكانها إذن أن تدس السم لي ولأولادي! ولكن...

- ولكن ماذا؟

- لا أظن أنها ساحرة. أنا متأكدة أنها ليست ساحرة لقد عشت معها سنوات ولم أرها أبدا تخرج من البيت في الليل. قولي لزوجك إنهم مخطئون... قولي لزوجك إن على الديوان أن يعرف تهمتها الحقيقية... ربما سرقت شيئا ليس لها، أو كذبت على بعض الناس... إنها كذابة ولا تحب إلا نفسها، ولكنها ليست ساحرة!

قالت المرأة القشتالية وهي تعلق ذراعها في ذراع مريمة:

- لا تكوني مسرفة في طيبتك. قلت لي إنها سيئة معك وها هو الرب يعاقبها فتلقى صنوف العذاب... لا تشغلي نفسك بأمرها. تعالي نشتري ما نحتاجه.

اعتذرت مريمة عن المشي في السوق متعللة بأنها نسيت نقودها في الدار.

- سأعود إلى البيت.

- والزيتون؟

- أيّ زيتون؟

- الزيتون الذي وعدتني به.

- سأحضره لك الأسبوع القادم.

٢٥

كان على سليمة أن تدخل القاعة بظهرها وأن تمشي بضع خطوات، على عكس البشر، إلى الوراء، ولم يكن ذلك وحده ما لاقته من عجائب منذ حملوها قبل يومين إلى المكان.

استدارت فرأتهم. كان أربعتهم يحدقون فيها بعيون فاحصة. ثلاثة منهم يجلسون متجاورين وراء المنضدة الصقيلة السوداء، في مواجهتها مباشرة، وعند الزاوية بعيدا عنهم بعض الشيء رابعهم، دواته أمامه والأوراق، والريشة مشرعة في يده.

تنحنح الجالس في الوسط وكان شيخا متغضن الوجه. مال برأسه إلى الخلف قليلا وضم يديه فرأت سليمة الكلف البنيّ المتكاثر على ظهر يديه العاجيتين. تنحنح مرة ثانية فغمس الكاتب ريشته في الدواة، ثم بدأ يكتب ما يمليه الشيخ:

«باسم الرب، آمين.

إنه في عام سبعة وعشرين وخمسمائة وألف من ميلاد السيد المسيح، في يوم الخامس عشر من شهر مايو، وبحضورنا نحن أنطونيو أجابيدا القاضي بديوان التحقيق وكل من آلونسو ماديرا وميجيل أجيلار المحققين في الديوان، بدأ التحقيق فيما شاع ونمي إلى علمنا من أن جلوريا ألفاريز، واسمها القديم سليمة بنت جعفر، تمارس السحر الأسود وتقتني في بيتها ما يدعو إلى الشبهة من بذور ونباتات وتراكيب تستخدمها في إيذاء الناس وأنها..».

كانت سليمة تنصت بتركيز شديد لكي لا يفوتها فهم أي من الكلمات القشتالية، وتسمع رغم ذلك صرير ريشة الكاتب وهي ترسم ما يملى عليه من كلمات على الأوراق.

«ولقد اقترفت بممارساتها تلك ما يهدد الكنيسة الكاثوليكية وأمن الدولة».

أشار لها القاضي بسبابته أن تقترب، وضيق عينيه فكادتا تختفيان تحت جفنيه المنتفخين. اقتربت فطلب منها أن تلمس الكتاب المقدس الموضوع أمامه، وتقسم على أن تقول الحقيقة كاملة فيما يخصها ويخص الآخرين ففعلت.

واصل الإملاء، وواصل الكاتب التدوين: «وبعد أن أقسمت المتهمة على الأناجيل الأربعة وجهنا إليها الأسئلة التالية:

- اسمك؟

- جلوريا ألفاريز بعد التعميد وسليمة بنت جعفر قبله.

- محل الإقامة؟

- البيازين.

- اسم والديك وهل هما على قيد الحياة؟

- والدي جعفر بن أبي جعفر الوراق. توفي قبل دخول القشتاليين غرناطة، ووالدتي أم حسن قبل التعميد وماريّا بلانكا بعده، وهي على قيد الحياة.

- هل سبق أن حوكم أي من أقاربك لممارسته السحر؟

- لا.

- متزوجة؟

- نعم.

- اسم زوجك؟

- كارلوس مانويل بعد التعميد وسعد المالقيّ قبله.

- وأين زوجك؟

- لا أدري.

- ما الذي تعنينه؟

- اختلفنا فغضب مني وترك البيت لا أدري إلى أين.

تبادل المحققون الثلاثة نظرات لم تفهم سليمة دلالتها وإن كانت تيقنت أنها لم توفق في الإجابة. ازدردت لعابها وأخذت نفسا عميقا انحبس برهة في صدرها ثم خرج ببطء:

- متى ترك زوجك البيت؟

- منذ سنوات.

- كم سنة بالضبط؟

- منذ حوالي ست سنوات.

- هل لك أولاد؟

- نعم.

- كم؟

- طفلة واحدة.

- ما اسمها وعمرها؟

- اسمها إسبيرانزا وهي في الثالثة من عمرها.

ـ ألم تقولي الآن إن زوجك هجرك منذ سنوات ست؟

ـ عاد مرة وتصافينا ثم سافر مرة أخرى.

عاد المحققون لتبادل النظرة ذاتها وإن زاد عليها بريق متألق في عيني المحقق الشاب الجالس إلى يمين القاضي، وابتسامة ارتسمت على وجه الكاتب كشفت عن أسنانه الأمامية.

ـ هل تمارسين السحر؟

ـ لا أمارسه.

ـ ما تفسيرك للمضبوطات التي كانت في بيتك؟

ـ إنها بذور وأعشاب ومحاليل أصنع منها دواء لعلاج المرضى.

ـ ومن علمك ذلك؟

ـ تعلمته وحدي.

ـ وحدك أم من الكتب؟

سكتت سليمة لحظة ثم قالت:

ـ من أين لي بالكتب... أنا لا أقرأ القشتالية، والكتب العربية ممنوعة بنص القانون.

ـ والكتب التي وجدناها في حوزتك؟

ـ ليست لي ولا لأحد من أهل الدار، لا نملك كتبا ولا نقتني كتبا.

ـ إذن فأنت تعترفين بممارسة السحر، وأن الشيطان هو الذي علمك صنع ذلك الذي تسمينه دواء؟

ـ لم أقل ذلك.

ـ ألا تعتقدين بأن هناك سحرا وساحرات بإمكانهن إثارة الزوابع، أو قتل الماشية، أو إيذاء البشر بزرع الأمراض في أجسادهم وإهلاكهم.

ـ أعتقد أن كل هذه الأشياء، أقصد الزوابع وموت الماشية أو البشر لها أسباب طبيعية قد نجهلها، لأن المعرفة تنقصنا شخصيا أو عموما كبشر . . . لا يا سيدي لا أعتقد بوجود ساحرات.

ـ لماذا يكرهك الناس إذن؟

ـ يكرهني الناس؟!

ـ لماذا يكرهونك ويخافونك ويتحاشون أن تحدقي فيهم. قلت لشخص مرة: «لاتتحدث معي هكذا» وحدجته بنظرة جعلته يتلوى ألما طوال الليل. ووضعت يدك على بطن امرأة حبلى فماتت بعدها بيومين، واستدعتك امرأة لعلاج ابنها المريض فجعلت دمه يتدفق حتى غمر أرض الحجرة ثم مات.

ـ الواقعة الأولى لا أذكرها. يمكن أن يسيء إليك شخص أو يكلمك بغلظة فتقول له: «لا تتحدث معي هكذا»، ولكني لا أذكر متى قلت ذلك ولمن، ومرضه في تلك الليلة تحديدا مجرد مصادفة. الواقعة الثانية صحيحة لأن المرأة التي التقيت بها في الطريق وهي نصرانية جديدة، أي عربية مثلي، قالت لي: لا أدري لماذا لا يتحرك الصغير في بطني، فوضعت يدي على بطنها فقدرت أن الوليد في بيت الولد ميت، فلم تكن هناك أية بوادر حركة رغم أن بطنها كان منتفخا يؤكد أنها في الأسابيع الأخيرة من حملها، وكان تقديري سليما، إذ ماتت المرأة لأن الطفل الميت داخلها سمم جسمها فماتت.

أما الواقعة الثالثة فهي أيضا صحيحة. جاءتني امرأة قشتالية وهي تبكي، وطلبت مني أن أذهب معها لأن ابنها الصغير مريض جدا، ورغم اعتراض أخي على ذهابي إلى بيت أغراب لا نعرفهم، رافقتها إلى دارها. وحين وصلت وجدت الولد نازفا ممتقع الوجه وأظافره زرقاء. كان يحتضر، وقدرت أن النزيف في أمعائه، وأنه لم يعد بإمكاني عمل أيّ شيء لإنقاذه.

- إذن تعترفين بممارسة السحر؟

- قلت إنني لا أؤمن بالسحر.

- ولا تؤمنين بالشيطان؟

سكتت سليمة ولم تحر جوابا فكرر القاضي سؤاله:

- لا تؤمنين بوجود الشيطان؟

- لا أدري.

- هل تؤمنين بوجود الشيطان؟ أجيبي بنعم أو لا.

كان المحققون يحدقون فيها، القاضي من وراء جفنيه الثقيلين، والمحقق النحيل عن يساره بعينين لامعتين متوقدتين لا تفهم لماذا، والمحقق الشمعي الوجه عن يمينه مصمت الملامح متحجر النظرات، وكان الكاتب أيضا قد رفع عينيه عن الأوراق وراح يراقبها باستمتاع.

قالت سليمة بصوت خافت:

- لا أعتقد أن للشيطان وجودًا!

قالت ذلك، ثم عدلت كلامها بسرعة، وقد لاحظت بريق تشفٍ منتصر يتخلق في عيون المحققين. قالت:

- نعم، أعتقد أن الشيطان موجود.

- وتعبدينه؟

هذا ما لم يخطر لها ببال.

- كيف أعبده؟!

- تعبدينه بديلا عن الرب!

ـ بالطبع لا.

ـ إذن ما تفسيرك لهذا؟

أشرع القاضي في وجهها ورقة بحجم الكف لم تتبين تفاصيلها. كان قد رفعها بزهو كأنها الدليل النهائي الدامغ على جرمها. وكان معاونه يهزان رأسيهما ويبتسمان استحسانا.

ـ ما هذا؟

ـ اقتربي قليلا وحدقي في هذه الورقة. حدقي فيها جيدا.

حدقت. كانت تحمل رسما لنعجة أو غزال. تأملته ثم تذكرت:

ـ هذا رسم متواضع، لأنني لا أتقن الرسم.

ـ إذن تعترفين أن هذا الرسم لك.

ـ كان عندي ظبية وكنت أحبها كثيرا، وحاولت أن أرسمها.

ضحك القاضي، ضحك بصوت عال، ثم انتقلت عدوى الضحك إلى زميليه ثم إلى الكاتب من بعدهما.

ـ هذا تيس وليس ظبية!

ـ قلت يا سيدي القاضي إنني لست ماهرة في الرسم.

ـ إنه التيس الذي تعاشرينه وتسرين في الليل إليه.

ـ التيس الذي أعاشره؟!!

ـ نعم، التيس الذي صرفك عن زوجك وجعله يهجرك. . . إنه الشيطان الذي تعملين في خدمته!

قالها القاضي وقد علا صوته واحتقن وجهه واندفعت سبابته تشير إليها بالاتهام، ومعه اندفع عنقه إلى الأمام حاملا رأسه المضطرم بالغضب.

هل هو كابوس زجها في لعبة عابثة يديرها معتوهون غريبو الأطوار؟ يتهمها القاضي بمعاشرة تيس ويؤاخذها على قصاصة ورق لا معنى لها ولا أهمية. ومن جاءوا للقبض عليها تصرفوا بما هو أعجب. حاول أحدهم العبث بكتبها فمدت يدها لتمنعه، فإذا به يقفز مرتاعا ويصيح بأعلى صوته: «لا تلمسيني!» كأنها حية أو عقربة في لمستها هلاكه، ثم يقيدونها كأنها ثور هائج ويضعونها في قفة! ليس الثور الهائج ما يحمل في قفة، بل السخل الصغير أو الدجاجة أو الأرنب، وهي سليمة بنت جعفر، حملوها من بيتها مقيدة في قفة! تستحضر المشهد فتضحك ضحكا كالبكاء ثم لا تضحك.

وقبل أن يدخلوها إلى أولئك المحققين الثلاثة جاءوا بامرأة كالعملاق، عظيمة الجرم صارمة الوجه قصت لها شعرها وأمرتها بخلع ملابسها، كل ملابسها، حتى صارت عارية كما ولدتها أمها، ثم راحت المرأة تجوس بيديها تحت إبطيها وبين فخذيها، وفي فتحات الأنف والفم والأذنين، والفرج والشرج، باحثة عن ماذا؟! هل هو عبث أو جنون؟! ثم يدفع القاضي بسبابته كأنه يقصد فقء عينيها ويصرخ: «التيس الذي تعاشرينه!».

كانت سليمة وهي وحدها في زنزانتها مرتاعة لأنها لم تعد تفهم شيئا، أيّ شيء. في البداية بدا لها أنهم يقصدون سعدا، ولكنها الآن وبعد التحقيق عرفت أنهم يقصدونها، فلماذا؟! قالت: سيتّهمونني بالإحجام عن الذهاب إلى القداس أيام الآحاد والأعياد، ولكن القاضي لم يشر لشيء من ذلك. تحتاج لقدر من صفاء الذهن لكي تفهم، تحتاج لقدر من هدوء ولكن كيف يأتي الهدوء ومن أين والمهانة تلاحقها، والمرأة تلقي لها بخرقة من صوف عينتها لها ثوبا، ثم تقودها إلى قاعة وتملي عليها الدخول فيها، على خلاف سنة مخلوقات الله، بظهرها، ثم تقول: «استديري» فتستدير لترى المحققين الثلاثة بوجوههم الشمعية وقصبات أنوفهم المرتفعه وعيونهم المتفحصة تريد النفاذ إلى روح روحها. ما الذي يريدونه مني؟! تضطرب سليمة وتتوزع بين الارتياع والمرارة.

تثور في غضب لا يخمده سوى أن تنقض على المحققين والكاتب والمرأة الغريبة وتحطم رءوسهم وتسحقهم سحقا، ولكن المهانة، ما الذي يُذهبها؟ لا شيء وقد وقعت وكان ما كان . . . «التيس الذي تعاشرينه!» تضحك أم تبكي أم تدق رأسها في الجدار فتحطمه بدلا من تحطيم رءوسهم التي لا تطولها، «التيس الذي تعاشرينه!».

لم يدر بخاطر سليمة وهي في التحقيق، غاضبة مزعزعة الأحشاء، أن قاضيها كان رجلا فاضلا ذا علم يقابل الحجة بالحجة فيلجم ميلا لدى معاونيه لاستشراس ومغالاة لا يرى لهما داعيا أو ضرورة.

جلسوا يتداولون كما يليق بعلماء تبحروا في كتب الأقدمين وترسخت معارفهم بدقائق اللاهوت وتفاصيله.

وكان المحقق آلونسو ماديرا، أصغر المحققين سنا، يضطرم بالغيرة على مقدسات العقيدة والرغبة في صونها من كل سوء، وكان يتحدث كعادته بصوت متقد بالحماس جهوري، فتضيء عيناه وتتبدد صرامة وجهه النحيل التي يؤكدها أنفه الأقنى وشفتاه الدقيقتان.

ـ علينا أن نقبض على الطفلة، فهي تحمل نطفة الشيطان وروحه، وكلام المتهمة واضح لا لبس فيه. لقد رحل زوجها منذ سنوات ست ووضعت هي الطفلة منذ ثلاث سنين. إذن فالطفلة ثمرة الجماع بين المتهمة والشيطان الذي جاءها على هيئة تيس.

ابتسم القاضي أجابيدا الذي كان صبورا وحانيا مع معاونيه، فلم يكن يفوته أبدا أن حماسهم، الذي يدفعهم إلى التطرف أحيانا، مرده إلى إيمان راسخ ورغبة متقدة في خدمة العقيدة.

ـ يا عزيزي آلونسو. الشيطان روح وليس جسدا، وهو غير قادر على إنتاج بذرة واحدة من بذور الحياة.

ـ ولكن يا سيدي القاضي، الشيطان، كما هو معروف ومثبت، يجول الأرض ويقطعها من أقصاها إلى أقصاها لجمع البذور، ومن بينها مني الإنسان لكي ينتج ما يريده من ثمار، ولقد أكد القديس أوغسطين ذلك في الجزء الثالث من كتابه عن الثالوث، حيث قال إن الشياطين تجمع مني الإنسان وتحفظه في أجساد البشر، وفي شرحه للإصحاح السابع من سفر الخروج كتب العلامة ولا فريد سابو أن الشياطين تجوس الأرض وتجمع كل أنواع البذور وتستطيع بإعمال قوتها أن تنتج مخلوقات متنوعة. كذلك يا سيدي فإن الشرح الخاص بالإصحاح نفسه والذي ترد الإشارة فيه إلى أبناء الرب الذين راودوا بنات الإنسان، يقول إن العمالقة جاءوا نتاجا لشياطين بعينها تشتهي النساء وتجامعهنّ بلا خجل ولا حياء.

هنا تدخل ميجيل أجيلار الذي كان مُحققا مخضرما يضفي عليه علمه الواسع وخبرته الطويلة ثقة تنعكس على حديثه المتزن الهادئ.

ـ الشيطان، كما قال الأب أنطونيو، روح، وولادة طفل من خصائص الجسم الماديّ الحيّ. ولا تملك الشياطين رغم ما تحظى به من قوى خارقة أن تضفي الحياة على الأجساد التي تتلبسها، ولا أن تمنحها القدرة على إنتاج الحياة. تستطيع الشياطين أن تملأ الأرض بالأوبئة وتثير الزوابع وتصيب الرجال باللعنة وتحمل الجحيم معها أينما حلت وتدخل أجسام من لا يقاوم إغراءها، وتدمر وتخرِّب في حياة البشر، تستطيع ذلك كله ولكنها تعجز عن إنتاج نطفة واحدة تتخلق وتنمو لتصبح إنسانا من لحم ودم.

قال آلونسو ببؤس:

ـ هذه الطفلة إذن، ألا تنتسب للشيطان؟

قال الأب أبيجادا بحسم:

ـ لا بل تنتسب إلى رجل آخر حمل الشيطان منيّه منه مباشرة أو من شيطان

آخر، لأن الشياطين درجات فهناك الأكثر نبلا الذين يربئون بأنفسهم عن مضاجعة النساء، فيجمعون المنيّ ضمن ما يجمعونه من بذور ويعطونه للشياطين الأقل، التي تجامع النساء فتضع البذرة في المكان المناسب من المرأة.

إن الشيطان في هذه الحالة يقوم بالفعل المطلوب لإحداث الحَمْل، ولكن الحَمْل نفسه لا يرجع لقوة الشيطان ولا للجسد الذي تقمصه، بل لقوة الحياة المستمدة من رجل ما في مكان ما. هذه الطفلة إذن ليست ابنة الشيطان، بل ابنة لرجل بعينه لا نعرفه ولا تعرفه المتهمة.

ـ إذن لن تحرق؟!

قالها آلونسو بشيء من خيبة الأمل.

ـ لن تحرق!

قالها أجابيدا بحسم ونهائية. ساد صمت قصير واصل بعده أجابيدا كلامه:

ـ لم يكن هذا السؤال هو ما يشغلني لأن في كتابات العلماء، قديمهم وحديثهم، الإجابات الواضحة. ولكن السؤال الذي يستحق المناقشة هو: هل نعذب المرأة لاحتمال وجود المزيد ممّا تخفيه، أم نكتفي بجلسة تحقيق أخرى لنعزز اعترافاتها؟

أجابه ميجيل أجيلار:

ـ في كلامها اليوم ثلاثة اعترافات: أولها صريح، إذ أقرت بأن رسم التيس لها، وثانيها قدمته ثم تراجعت عنه عندما قالت إن زوجها متغيب منذ ست سنوات، وإن ابنتها في الثالثة من عمرها، والثالث يؤكد الكفر والمروق، وقد قالت إنها لا تدري إن كان هناك شيطان أم لا.

قال آلونسو ماديرا:

ـ هذا الإنكار وحده كاف لإدانتها بالكفر، فقولها إنها لا تدري إن كان هناك

شيطان أم لا هو إنكار لواحد من أسس ا العقيدة الكاثوليكية. ولكنني أعتقد أن تعذيبها واجب لأنه من المؤكد أن لديها الكثير غير ذلك.

استدار إلى الأب أجابيدا وقال:

- ألم تقل لي يا سيدي القاضي، قبل أن تصطحبني للمرة الأولى لمباشرة تحقيق، إن الساحرات الراسخات في تعاملهن مع الشيطان يتحدثن بهدوء ولا يبكين ولا ينتحبن، لأنهن يستندن إلى قوة الشيطان الذي يدعمهن ويصور لهن أن بإمكانه تخليصهن من عذاب التحقيق دون أي أذى يلحق بهن؟

- هذا صحيح، ولقد لاحظت ذلك اليوم. لم تبك المتهمة ولم تتوسل ولم تفقد هدوءها، وهذا يؤكد أنها من عتاة المتعاملين مع الشيطان. . . هل تقترحون أن نعذبها أم نجري معها تحقيقا آخر؟

تنحنح ميجيل آجيلار وقال:

- في تقديري أنه من الأنسب إجراء تحقيق آخر نعيد فيه طرح بعض ممَّا سبق أن سألناه من أسئلة، لنرى إن كانت تجيب بالإجابات نفسها أم لا، ونسألها أيضا أسئلة جديدة، ونحدد في ضوء كل ذلك إن كانت هناك ضرورة للتعذيب.

بدا ذلك مرضيا لثلاثتهم، فقاموا لكي يتناولوا عشاءهم ويريحوا أذهانهم وأبدانهم من إرهاق يوم عمل طويل.

٢٦

وحدها في زنزانتها تحاول سليمة أن تهوّن على نفسها. لا تنام لأن بإمكانها، وهي مفتوحة العينين يقظة، أن تدفع الجرذان بعيدا عنها وأن تتحاشى ذلك الكابوس الذي لاتملك أن تتحاشاه وهي نائمة فتصرخ مستريعة. لا تنام. ما الذي يهوّن الأمر حتى يهون؟! قالت المرأة العملاقة التي تأتي بالطعام إنها ساحرة، وقد ثبت ذلك وتأكد، وإن حكم الديوان كمئات من الأحكام السابقة سيكون الموت حرقا. تتخيل ذلك: يقيدونها ويدفعون بها إلى ساحة مكتظة بالوجوه المتطلعة التي تنتظر إضرام النار في الأخشاب وفيها.. كحرق الكتب.. كيف تحمّل جدها أبو جعفر أن يرى لهب الحريق وهو ينتشر من كتاب لكتاب، وأن يرى الأوراق وهي تلتف على نفسها كأنما تدرأ النار عنها بينما النار تظل تسري، تأكل، وتجفف، وتقدد، وتفحّم، ثم لا شيء، لا شيء سوى الرماد الهش؟ والمكتوب فيها... أين يذهب المكتوب فيها؟ والإنسان، أليس الإنسان كالورقة مكتوبا؟ أليس سلسلة من الكلمات كل منها دال على مدلول؟ ومجملها أيضا ألا يشي به المخطوط من الكلام؟ وهي سليمة بنت جعفر، في لحظة هوجاء أرادت أن تهزم الموت، ثم تراجعت وقبلت بمهمة أقل استحالة. قرأت في الكتب وطبّبت مريضا وأسقطت عامدة جور القشتاليين، وحين كانت تمشي في الأسواق لا تشغلها، كباقي النساء، الأسواق، بل يشغلها وجه امرأة أعطتها دواء لم يشفها، فتستنطق الوجه والأعراض، وتقلب في رأسها، تتساءل: ما الدواء؟

«سليمة بنت جعفر» سأل المحققون: «لماذا يكرهك الناس؟» كذبوا فلم

يسألوا أهل البيازين. هل يقدرون على التطلع إليها وهم يضرمون النار فيها؟ هل يطيقون ما أطاقه أبو جعفر ولم تطقه هي يوم أحرقوا الكتب؟ وعائشة؟ تطرد صورتها وفكرتها وتركض مبتعدة مما يهزم البدن والروح والعقل أيضا، إذ يحيله إلى الجنون. تركض إلى صورة جدها أبي جعفر الكبير الذي خط الكلمة الأولى في الكتاب. لم يكن أباها ولا أمها، بل أبا جعفر هو أول من فعل، حين أعلن أنه سيعلمها كما سيعلم حسن، وهمس لزوجته أن سليمة ستكون كنساء قرطبة العالمات. ضحكت جدتها وكررت الكلام فسمعته سليمة وصار أول المخطوط في الكتاب. لم تقس إلا على سعد، فلماذا وقد أحبته وتحبه مازالت. عذبتك يا سعد فهل تغفر لي؟! تكررها وهي لا تعرف إن كان على قيد الحياة أم سبقها إلى هناك. وهذه «الهناك» وهم أم حقيقة؟ وهل تلتقي جدها وسعدا والصغير الذي راح وأباها هناك، لو أن هذه «الهناك» هناك؟ وكيف تتعرف على أبيها ويتعرف هو عليها؟ هو لن يتعرف لأن الوليدة التي خلفها صارت امرأة مكتهلة على مشارف الأربعين. قد تتعرف هي عليه حين تجده يشبه حسن. مسكين حسن! أراد أن يحمي أهل بيته فجاءته المصيبة من حيث لا يدري ولا يتوقع. ولكنه ليس وحده فمريمة معه تعمر داره وترعى عياله وترعى عائشة أيضا. اختنقت سليمة بالبكاء، واهتز بدنها وهي تحاول جاهدة أن تكتم النشيج.

* * *

حين قبضت سليمة بيديها على قضيب الحديد المحمي بالنار وسارت به الخطوات المقررة لم يخلص المحققون، كما هو متوقع بعد اجتياز اختبار من هذا النوع، إلى أن المتهمة صادقة فيما تقول، بل زاد يقينهم بأنها تستند استنادا قويا إلى شيطان فائق الجبروت مكنها من تحمل الألم.

وكانوا في اليوم السابق قد أعادوا التحقيق معها فلم تقر بغير ما أقرت به في المرة السابقة، وإن تكن قد أثارت المزيد من الشبهة حين سألها القاضي إن كانت

تسري في الليل عبر المسافات على ظهر دابة تطير، وأجابت بأنها لم تسمع أن بشرا تمكن من ذلك سوى محمد نبيّ المسلمين. ولما سألها القاضي أن تفصّل كلامها وتوضحه، حكت عن دابة مجنحة حملت محمدا من مسجد فى مكة إلى مسجد سواه فى القدس، وعندما أراد القاضى أن يعرف منها إن كانت تؤمن أن ذلك حدث فعلا، راوغت وقالت: «لقد تعمدت وصرت نصرانية».

ونبهت تلك التفاصيل الجديدة المحققين إلى عنصر جديد في القضية غاب عن أذهانهم، وهو أن تهمة المروق والارتداد قد لا تقتصر على تعامل المتهمة مع الشيطان، بل قد تمتد إلى صدق عقيدتها، إذ يبدو أنها رغم التعميد لم تتخل عن دينها المحمديّ، وفي هذه الحالة يكون تعاملها مع الشيطان مقصودا للإضرار بالكنيسة الكاثوليكية.

حاول المحققون حملها على الاعتراف بذلك، وعندما فشلوا عرض عليها القاضي الاختيار وحذرها قائلا: «لا تستهيني به، فعليك أن تتحملي قضيبا من الحديد المحمي» ولكنها قالت إنها مستعدة، ورآها المحققون وهي تحمل القضيب بكلتي يديها وتمشي به، فكيف؟! أثار السؤال الرعدة فيهم وفي الكاتب الذي وضعوا له منضدته في جانب من الفناء لكي يشهد كل شيء بنفسه ويسجله.

بعد انسحاب المحققين، هنأ القاضي نفسه وزميليه لأنهم لم يستهينوا بتلك المرأة واتخذوا المنصوح به من الاحتياطات لمواجهة قوة سحرها الشرير. كان كل منهم قد تحصن بتعويذة من الملح المقدس، وورقة دوّن فيها الكلمات السبع التي قالها السيد المسيح من على صليبه، وعلق كل منهم التعويذة حول رقبته تلامس صدره، يخفيها ثوبه الرهباني الأسود.

قال الأب أجابيدا وهو يهز رأسه بأسًى:

- ليس هناك بد من التعذيب!

فوافقه مساعداه بهز رأسيهما، وبدا ألونسو ماديرا مغتبطا بما ستلقاه امرأة ضالعة في الكفر. أما ميجيل أجيلار فقد بدا وجهه هادئا مسلما بأن هذه هي الإجراءات المعتادة لاستخلاص الحقيقة من خطاة يتصفون دائما بالكبر والعناد اللذين حولا إبليس من ملاك نبيل من ملائكة الرب إلى شيطان رجيم.

* * *

في يوم النطق بالحكم ساقوا سليمة مقيدة إلى ساحة باب الرملة. وشق لها الحراس الطريق وسط الجموع المحتشدة لمتابعة المحاكمة ثم التنفيذ.

وكانت سليمة تجتهد في تحمل مشقة السير على قدمين متورمتين ملتهبتين من جراء التعذيب، وتحاول أن تتحاشى احتكاك يديها المقيدتين من الرسغ خلف الظهر، بعضهما ببعض أو بثوبها. كانت يداها مازالتا تؤلمان من أثر القبض على قضيب الحديد المحمي. لم تكن تتطلع إلى من حولها، بل شغلتها أفكارها. سيحكمون عليها بالموت، فلماذا لا تتزعزع أحشاؤها خوفا ولا تصيح فزعا أو ثورة، هل لأنها تمنت الموت وتضرعت إلى الله تطلبه حتى بدا الموت خلاصا من عذاب لا تطيقه النفس ولا البدن؟ أم لأنها سلمت أمرها لله ككبار المؤمنين الذين تضيء السكينة والقبول قلوبهم حتى وإن لم يكن قضاء الله مفهوما ولا مقبولا؟ أم أن الأمر بعيد عن ذلك، وأنها قررت بلا تفكير ولا تدبير أنها لن تهين نفسها بالصراخ والتضرع،.أو حتى بالارتياع كالفئران في المصيدة؟ لن تضيف على المهانة مهانة، والعقل في الإنسان زينة والكبر في النفس جلال. بإمكانها أن تمشي الآن كإنسان يملك روحه وإن كان يمشي لنار المحرقة. بإمكانها أن تقول نعم أنا سليمة بنت جعفر، أنشأني رجل جليل يصنع الكتب واحترق قلبه يوم شاهد حرق الكتب فمضى في صمت نبيل، وأنا يا جدي صرخت ساعة التعذيب، صحيح، واختل مني العقل والبدن، لحظات يا جدي لحظات، ولكني لم أقل شيئا تخجل منه. قرأت في الكتب كما علمتني وطيبت أوجاع الناس ما استطعت وحلمت يا جدي أن أهديك يوما

كتابا أخطّه بيدي وأودعه خلاصة ما قرأت وما لمست في الأبدان يداي. أردت، لولا سجن زمان يا جدي.

تطلعت سليمة من حولها. كان الحشد قد سكن سكونا غريبا، وكان المحققون الثلاثة يجلسون على منصة قريبة عالية، والقاضي يقرأ بصوت جهوريّ يتردد في المكان:

«. . . ولقد أردنا التأكد من التهم الموجهة إليك والتحقق من صحتها أو بطلانها، وإذا ما كنت تمشين في النور أو الظلام فاستدعيناك للتحقيق، وجعلناك تقسمين أمامنا وسألنا الشهود والتزمنا بكافة القواعد التي تمليها علينا قوانين الكنيسة. ورغبة منا في تحقيق القدرْ الأمثل من العدالة، فقد اجتمع مجلس موقر من علماء اللاهوت والمتبحرين فيه، وبعد أن قمنا بفحص ومناقشة كافة أركان القضية وكل ما أدليت به في التحقيقات، توصلنا إلى أنك أنت المدعوة جلوريا ألفاريز، التي كان اسمك قبل التعميد سليمة بنت جعفر، متهمة بالكفر لأنك كنت أداة للشيطان وخادمة له تحتفظين بالبذور التي يجمعها وتعدين المركّبات الشيطانية التي تؤذي البشر والدواب.

ورغم إنكارك فقد ثبت بشهادة الشهود أنك تسببت في موت طفل في بطن أمه، وآخر كان مريضا فأهلكته.

كذلك ثبت ارتدادك عن الكنيسة التي احتضنتك وأرادت الخلاص لروحك، واتضح أنك رغم التعميد مازلت مبقية على دينك المحمديّ وولائك لنبي المسلمين.

ورغم ذلك فقد أردنا ومازلنا نريد لك الرجوع إلى الحق والتوبة عن الكفر والولاء للشيطان الذي هو الكفر بعينه، والعودة إلى أحضان الكنيسة المقدسة وإلى العقيدة الكاثوليكية، وذلك لتجنبي نفسك الهلاك في الدنيا وفي الآخرة. . . ولقد حاولنا جاهدين أن نحملك على ذلك، وأجلنا النطق بالحكم فترة طويلة على أمل أن تفصحي عن ندمك، ولكن كبرك وعنادك وغيك في

الخطيئة جعلك تواصلين الإنكار، وإننا نعلن بكل الحزن والأسى عدم نجاحنا في حملك على التوبة.

ولكي يعتبر كل ذي عقل ونفس سوية وينأى العباد عن طريق الكفر، ولكي يعرف الكافة أن المروق لا يمكن أن يمر بلا عقاب، فإنّني أعلن أنا القاضي أنطونيو أجابيدا، نيابة عن الكنيسة، وأنا جالس هنا وأمامي الأناجيل الأربعة، أعلن حكمي وليس نصب عيني سوى الرب وشرف العقيدة ومجدها:

حكمنا عليك وأنت واقفة أمامنا هنا في ميدان باب الرملة أنك كافرة لا توبة لها، عقابها الموت حرقا».

صخب الأصوات وجلبة الجموع المحتشدة تدق في رأس سليمة كمطارق عالية تختلط بدقات قلبها ونبض معدتها. لا تريد أن تتطلع حولها. لاتريد، تخشى العيون، عيون قشتالية تبتسم مزهوة تتهيأ للفرجة، وعيون عربية يفيض القلب أمام نظرتها الحانية أو المرتاعة. لا تتطلع ولكنها تسمع صوتا كأنه صوت سعد، لا تتطلع. يفكون بعض قيودها ويدفعون بها في اتجاه الأخشاب.

ورغم أن مريمة كانت مثقلة القلب ومضطربة لتأخير سعد وحسن، إلا أنها لم تملك أن ترفض طلب عائشة بأن تقص عليها حكاية فبدأت تحكي:

«في السماء يا عائشة شجرة كبيرة تحمل أوراقا خضراء بعدد أهل الأرض، كل أهل الأرض، الصغار والكبار، البنات والبنين، من يتكلمون العربية مثلنا ومن لا يتكلمونها. شجرة كبيرة يا عائشة تتساقط منها أوراق وتنبت أوراق بلا توقف. وفي ليلة القدر من كل سنة تزهر الشجرة زهرة غريبة عجيبة. وفي تلك السنة التي حدثت الحكاية فيها أزهرت الشجرة...».

توقفت مريمة وقد تاه منها الكلام. كان عقلها مشتتا تفكر في سبب تأخر حسن وسعد... هل يكون الحكم على سليمة اليوم؟

- وبعدين يا خالة مريمة... وبعدين؟

نظرت مريمة إلى وجه الصغيرة، واستنشقت نفسا عميقا، وزفرت وواصلت الحكاية.

٢
مَــريَمــة

١

قالت مريمة: «رأيته بعد الغسق بقليل. ظننته القمر إذ كان كبيرا ومضيئا، ثم رأيت القمر في الجهة الأخرى فاستغربت. بعدها نمت فرأيته مرة أخرى، ولكنه كان في الحلم أكبر. كان نحاسيا ومتوهجا ومشرفا على جبل، وعلى الجبل وعلٌ عظيم تعلو رأسه قرون شجرية ملتفة. وكان الوعل ساكنا كأنما قدَّ من صخور الجبل الذي يقف على قمته، ثم استيقظت».

رفعت مريمة طرف ثوبها ومسحت العرق المتفصد على جبينها. أما المرأة المتربعة بجوارها على البساط فأخرجت من جيبها حُقا حديديا صغيرا وفتحته. غمست فيه طرفي إبهامها وسبابتها، وأخذت منه قدرا من مسحوق أحمر داكن، قربته من فتحتي أنفها واستنشقت بقوة. مرت لحظة صمت أعقبها عطس متكرر.

عطست أم يوسف عطسة أخيرة. هزت رأسها، مسحت أطراف أصابعها بخرقة وضعتها بالقرب منها، ثم أمسكت بقلم وورقة، وخططت أرقاما وحروفا.

لم تغلق مريمة باب الرجاء، وظلت تتطلع إلى المرأة العارفة التي بدا وجهها مستغرقا ومقطبا. انفرجت أساريرها قليلا، ثم انفرجت أكثر فانفلت من مريمة السؤال:

ـ خير؟!

تنحنحت أم يوسف ثم قالت :

ـ ما رأيته يا أم هشام هو النجم المذنَّب ، وهو لا يظهر إلا منذراً باشتعال الفتن وتبدُّل حال بحال إذ ينبئ بزوال مُلك الظالمين وهلاكهم الوشيك . والسؤال هو متى يتحقق ذلك؟

كررت مريمة العبارة وهي تلتقط أنفاسها التقاطا :

ـ متى يتحقق ذلك؟ !

ـ بعد سبع سنين ، إذ يكون الأول من شهر المحرم يوم سبت فتتوافق هجرة رسولنا الكريم مع ذكرى اليوم الذي خلق الله فيه آدم ، وحين يحدث ذلك ، يقول العارفون من أجدادنا ، تهل علينا سنة يكثر الضباب فيها ويشحّ المطر ، ولكن الشجر يحمل الثمر الوفير ، والأرض تغدق علينا من خيرها ، والنحل ، حتى النحل ، يمنحنا الشهد بلا حساب .

كانت مريمة تتصبب عرقا . ابتل صدرها وظهرها ومنابت شعرها . تسمع دقات قلبها فترهف السمع خشية أن تفوتها كلمة واحدة من الكلام .

ـ هل أنت متأكدة من هذا التفسير يا أم يوسف؟

سألت ثم لامت نفسها ، فالمرأة عارفة بالله وعلوم النجوم والطالع والأحلام . وقد يبدو استفسارها تطاولا أو تشككا .

ـ أنت رأيت يا أم هشام ، ولم أفعل سوى تفسير ما رأيته ، فهل أنت صادقة في نقل ما حدث؟

ـ أقسم بكتاب الله أنني في الصحو رأيت نجما بحجم القمر في السماء ، وفي المنام رأيت وعلا على رأس الجبل .

ـ إذن فلقد اختارك الله لتبشّري خلقه بكشف الغمة وزوال الكرب .

اختنقت مريمة بالدموع ولكنها لم تبك. مالت على يد أم يوسف وقبلتها، ثم استأذنت في الانصراف. خرجت وقطعت جزءا من الطريق، ثم تذكرت الحرز وجرة الزيت، فعادت أدراجها. قالت:

-أحضرت لك جرة زيت من زيتوناتنا في عين الدمع، وضعتها بالباحة ولم أخبرك، وأيضا نسيت أن آخذ الحرز.

قالت أم يوسف وهي تناولها الحرز:

-لن يؤتي مفعوله إلا إذا لبسه الصبي ملاصقًا لبدنه. وشكرا على الزيت يا أم هشام.

قصدت مريمة دارها. تعثرت قدماها في الطريق مرتين. جلست على حجر تستجمع شتات نفسها. هل يصدق كلام أم يوسف؟ لم يسبق أن خاب تفسيرها لحلم أو رؤيا أو إشارة من النجوم. ونساء الحيّ تشهد، فلماذا تخيب هذه المرة؟ هل يكتب الله لها أن ترى بعينيها كشف الغمة؟ هل يكرمها بسبع سنين تعيشها فوق ما عاشته؟ حاولت أن تحدد عمرها فأرهقها الحساب. قامت وواصلت طريقها.

حكت لحسن الرؤيا والتفسير. قال: «أم يوسف تدجِّل على الخلق. قراءة الطالع والتنجيم في الإسلام حرام» ولكن جاراتها، حين حكت، أنصتن باهتمام وتناقلن ما سمعنه، فما انقضت ثلاثة أيام حتى صار الخبر مشاعا في البيازين. كانت نساء الحيّ المجتمعات عند الفرن وعند مضخات المياه في المغسلة وعلى باب الطاحونة والمعصرة، يُعدن رؤيا مريمة ويزدن عليها.

قالت إحداهن إن زوجها أخبرها أن فقيها ذا كرامات رأى في المنام الفاطميّ يعتلي حصانه الأخضر، ويشهر سيفه، ويذيع في الناس أنه لم يمت بل كان حبيسا وراء صخرة تحت الجبل، وأنه بعد الإفلات من محبسه الطويل قادم لإنقاذ أهله.

وقالت امرأة أخرى إن ابنة عم لها سمعت من مكاريّ يتنقل بالحمولات بين البلاد أنه سمع في بالنسية عن امرأة وضعت طفلا بستّ أصابع، وفسر العارفون الأمر بأنه إشارة مؤكدة لخير على الطريق. وقال المكاريّ نفسه إنه سمع من الأهالي، في رحلة حملته إلى البشرّات، أنهم رأوا طيورا غريبة سابحة في السماء، وأكد بعض رجال القرية أن ما رأوه لم يكن طيورا بل رجالا مسلحين يعتلون جيادهم ويحلقون بها في السماء.

وقالت صبية لا يشي صغر سنها بما كشف عنه كلامها من فطنة:

- سمعت من جدي أن العرب سيستعيدون وهران وسبتة من الإسبان، ثم يصلون إلى مضيق جبل طارق فيمتد أمامهم جسر من العنبر، يعبرون عليه ويسترجعون الأندلس كلها حتى غاليقيا.

- وأين تقع غاليقيا هذه؟

- في أقصى البلاد، بعدها الجبال ثم أرض الفرنجة.

ملأ قلب مريمة اليقين بأن الأيام لن تحمل لها سوى الخير، فأطلقت لخيالها العنان يجمح ويقفز متجاوزا حواجز زمانها، يأتي لها ببناتها الخمس وابنها هشام. يرجعون، يُعمِّرون الدار بصخب الحياة، وضجيج بنائين يُعملون أزاميلهم في الحجارة ومناشيرهم في الخشب. يصعدون ويهبطون، يروحون ويجيئون، يوسّعون الدار ويعلّونها. وهي تصنع للجميع طعاما وفيرا، وتمدّ بطول باحة الدار حبالا تنشر عليها غسيل الأولاد، وأولاد الأولاد، وأقمطة مواليد وضعتهم أمهاتهم في البيازين.

هل يمد الله في عمرها لتشهد كل هذا النعيم؟! تقطع مريمة أحلامها بالدعاء، تكشف رأسها وتتطلع إلى السماء: «بشفاعة محمد، نبيك وحبيبك ومصطفاك أطل في أجلي، وأعطني الصحة والعافية لأكرم القادمين. أسابيع معدودة أراهم، ثم آتيك بعدها طائرة كالحمام..».

ما الذي حدث لمريمة؟ ألـم الركبتين، الذي لازمها سنوات وأثقل عليها في القيام والقعود، اختفى كأنه كان وهما. صارت نشيطة، رائقة البال، لا تضيق بمطالب حسن. يسمع الجيران ضحكاتها في المساء وهي تكركر كالماء العذب المندفع من الجبل بعد ذوبان الثلج. اشترت لنفسها ثلاثة أثواب جديدة. صارت تتحمم كل يوم، وتكحل عينيها، وتدهن شعرها بزيت اللوز. والمستطيل، الذي كانت قد اقتطعته من الباحة وزرعته زهورا أهملتها فماتت، عادت إليه ترعاه كل يوم. بذرته، وسقته، وتعهدته فأخرج نبته ريحانا وخزامى ووردا وحصى البان، وعلى حافة النافذة المطلة على الحارة ثبتت حوضا غرست فيه أعواد ورد بلدي، أزهرت مع الربيع وأينعت وتكاثفت أوراقها وردية وقرمزية وبيضاء وصفراء، تُشاغل الجيران ببهائها، وتشبك عابر السبيل فيرفع عينيه، يتطلع فيرى مريمة جالسةَ وراء الشباك. هي أيضا تتطلع، ليس إليه بل إلى مدخل الحارة. تعرف أن الوقت لم يحن ولكنّها ترى بعين الخيال عودة الغائبين، وتنتظر.

٢

«سليمة؟!»

هبت مريمة من نومها. فتحت عينيها، واعتدلت جالسة. لم يبادرها شك رغم نبرة السؤال الذي نطقت به الاسم أنها سليمة، فهل هو طيفها أم جاءتها كالأحياء، جسما من لحم ودم؟

ظلت متربعة على فرشتها، تحبس أنفاسها، ترهف السمع وتحدق في الظلام، ثم عادت تنادي بصوت هامس: «سليمة؟» لم يأتها جواب.

قامت وتحسست طريقها إلى القنديل وأسرجته. تطلعت حولها: كان الصغير مستغرقا في النوم، وليس في الغرفة سوى موجوداتها: الصندوق والبساط والنسجية المعلقة على الحائط.

حملت القنديل. خرجت إلى الرواق ثم إلى الباحة. دارت حول البئر، خلف شجرة التين. عبرت الباحة إلى شجرتي المشمش واللوز. عادت إلى الرواق. دخلت غرف البيت، صعدت إلى السطح، نزلت. لم تجدها.

وضعت القنديل جانبا، وتربعت على مصطبة خشبية في الرواق. لم تأتها سليمة بهذا الشكل أبدا. جاءتها في المنام مرات ومرات. كانت تستحضرها بالذاكرة والخيال فتحضر، ترى وجهها، تسمع رنة صوتها، تبادلها حديثا هامسا أو دون كلام. ولكن ما حدث الليلة يختلف لأن سليمة كانت معها في الحجرة. لم يكن ذلك حلما بل علما ويقينا، فلماذا أتت، ولماذا، هكذا في غمضة عين، ذهبت؟!

لكل شيء في هذه الدنيا علامة، فهل تكون عودة سليمة علامة على عودة الغائبين؟ هل جاءتها لتؤكد تفسير أم يوسف، أم جاءت لغير ذلك؟

فزّت مريمة واقفة وهرولت إلى غرفتها. رفعت القنديل فوق رأس الصغير. وضعت كفها على جبينه ثم على صدره. كان مستغرقا في النوم، يتنفس بهدوء وانتظام. عادت إلى الرواق وجلست. لا، لم تأت سليمة لتأخذ الصغير. كسرت قلبي مرة ولن تكسره مرتين.

يومها جاءتها سليمة في الحلم. كانت تقف على الدرج الحجري المؤدّي إلى السطح، تلتف بملف أبيض، ويحدد زرقة عينيها كحل أسود، وكانت تحمل عائشة بين ذراعيها، كأن السنوات لم تمض وعائشة بعد وليدة في الأقمطة. قالت مريمة:

ـ ليست عائشة التي تحملينها ياسليمة بل عليّ ابنها.

فالتفتت سليمة إليها، ورمتها بنظرة عاتبة. قالت:

ـ هذه ابنتي عائشة، كيف لا أتعرف عليها؟!

استدارت وأخذت تصعد الدرج. حاولت مريمة اللحاق بها، ولكنها تعثرت وسقطت فانجرحت ركبتها. ولما حاولت القيام وقامت كانت سليمة قد ذهبت.

ولما استيقظت مريمة من نومها تفحصت ركبتها فلم تجد بها جرحا فعرفت أنه كان حلما. استعاذت بالله من الشيطان، وانتظرت حتى طلع النهار ثم ذهبت إلى أم يوسف لتفسر لها ما رأته في المنام، فقالت لها: «قضاء الله نافذ يا أم هشام. ستذهب عائشة، ويبقى لك ابنها» كذّب قلبها الكلام فالله وحده علاّم الغيوب، وكذب المنجمون ولو صدقوا، وليست هذه المرأة سوى بشر تخطئ وتصيب. ولكن المرأة أصابت ونفذ سهم الله، فرحلت عائشة وتركت لها ابنها لترعاه وتكبّره كما رعت أمه من قبله.

«لن تكسر سليمة قلبي مرتين. لم تأت لتأخذ الصغير بل لتؤكد البشارة». أطفأت مريمة القنديل، وقامت إلى البئر وملأت الدلو وغسلت وجهها، ثم دخلت المطبخ لتعد الكعك.

غربلت الطحين وعجنت وخبزت. ولما استوى الكعك صفّته في السلة وحملته إلى السوق كعادتها كل صباح.

تربعت في ركنها المعتاد ونادت على بضاعتها فأتى الشارون وابتاعوا وذهبوا، ثم حملت سلتها وعادت إلى البيت.

كان عليّ يلعب في الحارة مع أولاد الجيران. رأته قبل أن يراها، ولما رآها ركض إليها فأخرجت من جيبها قطعة الحلوى التي اشترتها له. تناولها دون الانتباه المعتاد. قال:

- جاءنا ضيف اسمه نعيم. يقول جدي إنه صاحبه، وكان مسافرا في بلاد بعيدة جدا.

هرولت مريمة باتجاه الدار فتبعها الصغير:

- إنه رجل مُسنٌّ يا جدتي، يبلغ من العمر مائتي عام وربما أكثر. شكله غريب، وشعره أبيض كالثلج وطويل، وملابسه أيضا غريبة. الأولاد في الحارة خافوا منه، ولكني لم أخف، وعندما وجدته يقصد دارنا سألته إن كان يريد جدي حسن، فسألني: «من أنت؟» فقلت له، ثم صحبته إلى حيث يجلس جدي. هل تعرفينه يا جدتي هذا الشخص الذي يُدعى نعيم؟

لم تجبه مريمة، بل اندفعت إلى داخل الدار فرأت حسن جالسا مع شيخ نحيل رث الثياب، يحمل في يده مزمارا غريب الشكل. صافحته ورحبت به، ولكنها لم تتعرف عليه فأخذت تسترق النظر إلى وجهه، وتجتهد لترى في ملامحه شيئا من نعيم.

لا الوجه هو الوجه، ولا الهيئة هي الهيئة، ولا طريقة الكلام نفسها، فأين نعيم؟! ألفته شابا عفيا وصاخبا تتألق عيناه، نشيط ومضطرم ومقبل وثرثار، يمشي بخفة، ويتحدث بسرعة فتتراكض على لسانه الكلمات. يضحك فينفلت الصوت حرا مجلجلا يضيء وجهه وعينيه بضوء يشاغل الجالسين. وهذا الشيخ الجالس أمامها مهدم عتيق ورث، يبدو وكأنه يكبرها بجيل أو جيلين. سقطت أسنانه سوى القليل فتعثرت على لسانه الكلمات واختلطت بمفردات أعجمية، وجدت على حديثه لكنة غريبة. وتغضّن وجهه فتكاثرت فيه الشقوق والتجاعيد، وجسمه صار ناحلا كالعود، وأصبح شعره فضيا تماما، وتركه مهملا مسترسلا حتى الكتفين كأنه لم يقصه ولم يُمشِّطه منذ سنين.

كان يجلس بجوار حسن وبيده آلة غريبة لها ذراع خشبية طويلة مفرغة كالمزمار، يُقرِّب طرفها الأعلى من فمه، وتنتهي من الأسفل برأس خشبيّ مجوّف محشوّ بأوراق داكنة اللون. كان يسحب النفس من ذلك المزمار العجيب بدلا من أن ينفخ فيه، فتتوهج الأوراق في الرأس الخشبية وتتقد كقطعة جمر، ثم يبعد الأنبوب عن فمه ويخرج من فتحتي أنفه سحابة من دخان تنشر في الدار رائحة نفّاذة.

- ما هذا يا سيد نعيم؟

- إنه غليون محشو بأوراق الدخان.

لم تفهم مريمة معنى كلمة غليون، وتشككت في سلامة عقل الرجل، فهل للدخان أوراق، وكيف يحشو المرء شيئا بالدخان؟! غيّرت الموضوع:

- وهل تزوجت يا سيد نعيم؟

باغتها بالتفاتة مفاجئة وحدق في وجهها، فاضطربت ولم تفهم ماذا جرى.

- نعم تزوجت!

ـ وأكرمك الله بالخلف؟

ـ ثلاثة: بدر، وهلال، وقمر.

ـ ولماذا لم تأت بهم؟

تحركت شفتاه والغضون المحيطة بفمه وحدجها بنظرة أخرى، وقال بصوت غاضب:

ـ تركتهم هناك. تركتهم جميعا، زوجتي والصغار!

قامت مريمة لتعد طعاما مناسبا للضيف. ذبحت دجاجتين وجلست تنتف ريشهما وتتساءل إن كان الرجل هو حقا نعيم أم عفريته، أم أنه عفريت غريب يدّعي أنه نعيم، وظل السؤال يشغلها ويربكها حتى انتهت من إعداد الطعام. ولما جلسوا لتناوله رأته يمضغ الأكل، ويبتلعه، فرجّحت أنه ليس عفريتا لأن العفاريت، على قدر علمها، لا تأكل كبني آدم، ثم سمعته يسأل عن سعد وسليمة فقالت لابد أنه نعيم. كانت تريد البقاء لتسمع منه وتتأكد أكثر، ولكنها خشيت أن يحكي حسن أمام الصغير كيف مات سعد كمدا بعد أن شاهد بعينيه حرق امرأته المقيدة في كومة الأخشاب. قالت:

ـ ألا تريد أن أحكى لك حكاية يا علي؟

ـ ماذا ستحكين؟

ـ ما تختاره أحكيه.

ـ حكاية كعبة الحجاز.

أخذته من يده إلى الغرفة، ووضعته في الفراش، وتمددت بجواره، ثم بدأت تحكي عن كعبة الحجاز: بهية في ثوب مخملي أسود تزينه خيوط الذهب والفضة. يسعى الناس إليها من كل مكان ليمتّعوا عيونهم برؤيتها، ويفرحوا بلمسها وباللقاء.

«وفي يوم من الأيام نزل على الكعبة عدد من الملائكة، فقابلتهم الكعبة بالود والترحاب، وأكرمتهم، ثم لاحظت أنهم يحملون معهم سلاسل غلاظًا. سألتهم:

ـ ما هذه السلاسل؟

قال الملائكة:

ـ جئنا بهذه السلاسل لنجرك إلى يوم الحشر.

تعجبت الكعبة، قالت:

ـ لن أذهب!

قال الملائكة:

ـ نأخذك إلى الجنة، فكيف لا تذهبين؟!

قالت الكعبة:

ـ لن أذهب إلا ومعي أحبابي.

سألوا:

ـ ومن أحبابك يا كعبة؟

أجابتهم:

ـ كل مظلوم من أهل الأرض. انتظروا فأعلمكم بهم فتذهبون إليهم وتأتون بهم فأذهب في صحبتهم إلى الجنة، ولا حاجة لجرّي بالسلاسل الغلاظ فأصحابي كثر، سيحملونني وأدلهم أنا على الطريق.

راحت الكعبة تسمي أحبابها، ومرّ مائة عام والكعبة تحصي والملائكة ينتظرون؛ ثم مرّ ألف عام والكعبة تحصي وهم ينتظرون. ثم...».

انتبهت مريمة إلى أن الصغير استغرق في النوم. طبعت قبلة على جبينه ثم أغمضت عينيها.

لكل شيء في هذه الدنيا علامة قد لا يفهمها الإنسان أبدا، وقد يفهمها بعد حين. جاءتها سليمة لتخبرها بعودة نعيم، وربما تأتي ثانية لتخبرها بعودة باقي الغائبين، وقد تكون عودة نعيم نفسها هي العلامة. ولكن هذا الشيخ المهدَّم، هل هو حقا نعيم؟!

٣

بدا لنعيم أن العودة تداوي ألمه فعاد، ولكنه لم يجد في غرناطة غرناطة، ولا البيازين في البيازين. وصل إلى المدينة بعد عسر، ومشى حذاء حدرّه. يعرف مجراه وماءه وقناطره، والحمزاء المشرفة عليه، ولا يعرف هذه القصور الجديدة ولا تلك الكنائس المشيدة على ضفته. هل ضيع الطريق؟ سأل. لم يكن ضيّعه بل حفظ ذاكرة مكان تبدَّل. حتى الدار غاب من فيها سوى حسن الذي كان بليدا فصار أكثر بلادة، ومريمة عجوز مجعدة فقدت فطنتها وذكاءها، تسأله كالأغبياء: «وهل تزوجت يا نعيم؟ وهل أكرمك الله بالخلف يا نعيم؟ولماذا تركت أولادك يا نعيم؟» ولا تعي أنها تفتح عليه بأسئلتها بابا للجحيم، ثم تذهب لتنام وتتركه لحسن، يستغرق في النوم في دقائق معدودة، ويعلو شخيره فيكاد يحيله الصوت إلى الجنون. إلى أين يذهب إذن، أين؟!

أطبقت الغرفة على أنفاسه فخرج إلى فناء الدار. خلع ملابسه وأنزل الدلو في البئر ورفعه وسكب ما فيه من ماء على رأسه. ثم جلس على حافة البئر.

كان القمر في العالي بين هلال وبدر. تطلع إليه فرقّ قلبه. حيّاه وهو يبتسم. سأله عن مايا وأحوالها. كان موقنا أنها تسكن فيه، وأنه يرعاها ويحنو عليها. يتطلع إلى القمر فلا يرى سوى قرصه المضيء صغيرا أو كبيرا، مكتملا أو نصف مكتمل، فضيا أو من نحاس، فينتظر ليالي وأحيانا شهورا حتى يبصر وجهها في القرص الربانيّ: جبينها العالي، وعينيها المسحوبتين، والشفتين المكتنزتين. يراها فيحدثها بالمخزون في قلبه. يحكي ما جرى ويستعيد معها

الزمان القديم. يجلسان سويا بباب الكوخ، ينساب بينهما الصمت أو الكلام، جدولاً فضيا يضيئه القمر بنور على نور. يقيس الأيام بباطن كفه على بطنها العارية. يقول: «كبر الولد» تضحك، تقول: «كبرت البنت» يتحسس رأسه وحركته، ويقول:

ـ إن كان صبيا نسميه هلالا.

ـ وإن كانت صبية؟

ـ نسميها بدرا.

لم يبق من حساب الأيام سوى دورة واحدة من دورات القمر، يخرج بعدها الولد إليهما صغيرا ثم يكبر.

كان القمر غائبا، والشمس تتوسط قبة السماء، تملك الأرض وما عليها، تبطش، تقدح نارها بنادق وحرائق ونباح كلاب مسعورة تنتشي بالدم المسفوك. «اركضي يا مايا، اركضي، إنها المجزرة» يركض. تركض. «الطفل ثقيل في بطني، لا أستطيع». «تحاملي واركضي» يركض، يحيط كتفيها بذراعه ويدفعها دفعا للأمام. النار خلفهما، وأصوات الجحيم، والطريق مفتوحة أمامهما للهرب. يركض، تركض، تسقط. يحملها، يركض بها، يسقط. يقومان، يركضان، يصطدمان بالحجارة، بالأشجار، بوهن جسدين حرمهما الله من الأجنحة. «لماذا حرمت عبادك من الأجنحة؟! ألست قادرا على كل شيء، فلماذا بخلت علينا، وما كان الأمر يكلفك سوى أن تنبت لهم جناحين؟!».

مرّ يوم وليلة وهو راكع أمامها يتضرع إلى الله أن يعيد لها الحياة، أو يخرج الصغير المحبوس في بطنها. يبكي، يصيح، يسكت، يتوسل.

حفر الأرض وأودعها فيها، فهل يهيل عليها التراب؟ كيف يهيل عليها التراب؟! نزل وتمدد بجوارها.

فتح عينيه على أصوات ووجوه لرجال متحلقين حوله يحدقون فيه. كانوا قشتاليين. ارتجف فزعا. الله إذن معهم وها هي جنته أسكنهم فيها أم تراه بُعث إلى الجحيم؟! ولكن لماذا يدخله الله الجحيم؟! كان محموما ويرتجف وكانوا يسألونه. بعد أيام عادوا للأسئلة:

ـ لماذا ترتدي ملابسهم؟

ـ سرقوا ملابسي وأنا أستحمّ في الجدول، ثم وجدت قتيلا من الأهالي فسترت عريي بملابسه.

صدقوه وهنأوه بالسلامة، ورقصوا وشربوا. كان القمر غائبا والشمس في وسط السماء. الشمس كلبة مسعورة تتغوّل على الأرض، شرهة لا تشبع. ليست الأرض كالسماء. الأرض تضم وتحنو، تطعمك وتئويك حتى عندما تصبح بلا حول ولا قوة ولا حياة، تداريك في صدرها، تترفق بك. والسماء؟ ضحك نعيم ضحكة عالية مُرة. السماء تترك للكلبة العنان في مراتعها الزرقاء. بصق في الهواء. زرقاء زورا وخداعا. القمر سيد الملاح، وفيّ وطيب، أنيس الجليس وحده. تطلع إلى القمر وعاد يحييه: «مساء الخير يا قمر».

انسحب نعيم إلى شجرة التين، وقرفص تحتها، وظل ساهما في مكانه حتى سمع مريمة تصبِّح عليه، وكان الوقت فجرا.

دخلت مريمة مهرولة إلى المطبخ، ثم سمعت نعيم يسألها بصوت غريب: «ما رأيك في زرقة السماء يا مريمة؟!» فزاد يقينها أن الرجل مجنون. لمحته تحت شجرة التين في ضوء السحر الشحيح، فقالت له صباح الخير، وعندما اقتربت من البئر لتغسل وجهها وجدته عاريا فأشاحت بوجهها وأسرعت إلى المطبخ، والآن يسألها سؤالا عجيبا، فما العمل؟!

انتهت مريمة من إنضاج كعكها ثم حملت سلتها وغادرت المطبخ. ثبتت

عينيها على باب الدار. لم تلتفت يمينا أو يسارا كي لا ترى الرجل عاريا، ولكنها وجدته أمامها وقد ارتدى ملابسه. بدا وديعا وهادئا وهو يسألها:

ـ هل هذا بستانك يا مريمة؟ يدك خضراء والبستان جميل!

رق قلبها. أعطته كعكتين وانتوت أن تشتري له ثيابا جديدة قبل حلول عيد الفطر، ثم ذهبت إلى السوق.

ـ صباح الخير يا جدي نعيم.

التفت نعيم فرأى الصغير قادما نحوه. تطلع فيه. يا الله، كيف لم ينتبه. الولد يشبه سعدا، يشبهه كثيرا: سمرة البشرة، والأنف الكبير والعينان، عمق السواد وكحل الرموش والنظرة، هي النظرة نفسها.

ـ كم عمرك يا علي؟

ـ خمس سنين، وأنت؟

ـ خمّن؟

تطلع إليه الصغير وبدا متحيرا في إيجاد الإجابة الدقيقة، ثم قال:

ـ مائة وثمانين!

ضحك نعيم ضحكة مجلجلة، ثم مد يده إلى الولد، أمسك بيده وغادرا الدار.

هبطا إلى رصيف حدرُه. يسأل نعيم.

ـ ما اسم هذه الكنيسة؟

ـ سان بابلو وبدرو.

ـ وهذا المبنى؟

ـ دير الراهبات .

ـ وذاك؟

ـ السجن .

كان الولد فطنا، يعرف ويجيب، ثم انحرفا مع مجرى النهر وتجاوزا الكاتدرائية إلى شارع السقاطين، فصار نعيم هو الذي يُعرِّف الولد . .

ـ هذا سوق الحرير، ومن هنا تدخل إلى العطّارين، وهذه سكة الصنادقية، وتلك تقودك إلى بائعي السبابيط، تتجاوزها فتجد سوق الفخّارين .

عادت مريمة إلى الدار فلم تجد عليّا . سألت عنه حسن، فقال إنه لا يدري، ولما طالت غيبة الولد وغيبة نعيم ركبتها الوساوس . الرجل مجنون . كيف يؤتمن على ولد صغير؟! دفعت بالوساوس بعيدا، وخرجت تبحث عنه في الحارة، والحارات المجاورة . استعلمت من الجيران . نزلت إلى رصيف حدرّه . صعدت التلة من جديد . تجاوزت كنيسة سان سلفادور . لم تجده . عادت إلى الدار تمني نفسها بأنه قد عاد . لم تجد في الدار سوى حسن فتشاجرت معه لأنه أهمل رعاية الولد . . «ماذا نفعل الآن لو ضاع!» بكت مريمة، ثم تحول بكاؤها إلى نشيج، ثم سمعت صوت عليّ ونعيم يضحكان .

لامهما حسن على سلوكهما ولم تقل شيئا . حملت عليّا وضمته إلى صدرها وهي تتمتم : «الحمد لله» .

ـ سأعد لكما العشاء .

ـ أكلنا كثيرا يا جدتي . .

ـ ماذا أكلتما؟

حكى الولد عن جولتهما وما تناولاه من طعام وشراب، ثم أبرز ما اشتراه له نعيم : ثوب جديد، وحلوى، ولعبة خشبية على شكل حصان .

ـ اشتراها لك نعيم؟!

كررت مريمة السؤال ثم انتحت بالولد جانبا وهمست في أذنه:

ـ السرقة حرام، والكذب أيضا حرام. كيف حصلت على هذه الأشياء؟

ـ اشتراها لي جدي نعيم، أقسم بالله. كلما أعجبني شيء يقول أشتريه لك. يطلبه من البائع، ويخرج النقود من جيبه، ويسأل عن الثمن ويدفعه كاملا.

ـ هل بدر منه سلوك غريب؟

ـ لا أفهم يا جدتي.

ـ هل هو مجنون؟

ـ ليس مجنونا يا جدتي بل عاقل مثلي ومثلك.

ـ هل أنت متأكد؟!

حدّق فيها الولد مستغربا ثم قال:

ـ متأكد، ولكنه ينسى كثيرا، قلت له عشر مرات إن اسمي عليّ وليس هلالا وظلّ يناديني رغم ذلك بهلال.

هل يكذب عليّ. لم تعهده كذّابا. ولكن من أين لنعيم بالنقود وهو لا يملك أن يشتري لنفسه غير هذا الثوب الرث الأسوأ من ثياب المتسولين الواقفين بباب الكاتدرائية؟! لماذا لا يشتري لنفسه ثيابا لائقة مادام يملك أن يشتري للصغير ثوبا ولعبة وحلوى؟ إنه مجنون، لم يعد لديها شك في ذلك.

٤

انتابت الصغير نوبة السعال فمسّدت له مريمة صدره وظهره بزيت الزيتون، وأحكمت حوله الغطاء. ولكنه ظل يسعل حتى تقيأ ما في جوفه.

في الهزيع الأخير من الليل غفا، وبقيت مريمة متيقظة بجواره حتى سمعت صياح الديك. قامت بحرص. أحس بحركتها. قالت: «نم يا عليّ، لم يشقشق الفجر بعد». لم تفلح في إبقائه وحده في الفراش، فلفّته بحرام صوفيّ يحميه من لفحة الهواء، وتبعها إلى المطبخ.

قرفص بالقرب منها. رآها وهي تكيِّل الطحين ثم تنخله فتتراكم ذرّاته في القصعة ناعمة بيضاء. حملت جرة الزيت. مالت بجذعها قليلا فانسكب زيت الزيتون الأخضر سائلا ذا قوام، يشف، يستقر في أبيض الطحين.

غفا ثم أفاق. كانت مريمة متربعة تصف الكعك الذي عجنته وكوّرته على غربالها الكبير. قامت وفتحت باب التنّور، ونقلت كعكها إلى النار الموقدة فيه وأغلقته.

أخذت الولد من يده، وملأت الدلو من ماء البئر وغسلت له وجهه.

ـ ألن أستحمّ يا جدتي؟

ـ لا داعي للحمام اليوم.

لم يلحّ واكتفى بوعدها أن تحممه في اليوم التالي إن لم يعاوده السعال. كان يحب الصيف رغم شدة حرارته، إذ تسمح له جدته باللعب في الحارة كما

يحلو له، وتحممه في الصباح وفي المساء. يخلع ملابسه، تملأ السطل بالماء وتفرغه على رأسه دفعة واحدة. يشهق، ويضحك متقافزا، ويطالب بالمزيد.

عادت جدته إلى تنّورها، فتبعها. كان المكان عابقا بالرائحة الزكية. أخرجت الكعك وناولته واحدة، واحتجزت بعض أقراص لجده حسن ولنعيم. قالت:

- تبقى اليوم مع جدك حتى أعود من السوق.

لم يقبل، زيّنت له البقاء: «أشتري لك حلوى»، «يلاعبك نعيم»، «يحكي لك جدك حكاية». بكى، طاوعته.

لاحق خطواتها في دروب البيازين تتعرج وتحملها هبوطا إلى رصيف حدره. رأسه يكاد لا يصل إلى خصرها، وهي تمشي بخطى وئيدة فيهتز ردفاها ويستقيم جذعها كالقضيب. تقبض بيدها اليسرى على يده، وترتفع يدها اليمنى عاليا فوق رأسها، حيث تستقر سلة الكعك المغطاة بشرشف أبيض كالحليب.

ما أن وصلا إلى الساحة وافترشا جانبا منها حتى بدأ يطالبها بالحكاية. ولكنها كانت منهمكة تنادي على كعكها، فيتوقف الشارون فتعطيهم وتأخذ الدراهم التي يدفعونها.

كان عليّ يحب حكايات جدته التي لا تنفد، فلكل إنسان عندها حكاية، ولكل مكان قصة، وللحصان أصل وفصل، وكذلك الطير السابح في السماء. غرناطة في الحكاية لها صاحب اسمه شانيل، يلفّ ذراعه حول كتفها، يرافق أيامها ولياليها، يؤنسها بأحاديث رحلته، فهو قادم إليها من بعيد، وما يحكيه شانيل ممتع مثير يمتزج فيه الكلام بالأغنيات. ومالقة أميرة لها قصر عال مشرفيته على البحر، ووراء البحر من يطلبها، وهي تريده، تسعى ولا تطول، تنتظر وتقطع الوقت بالغناء. والحمّة صبية بلا أهل مقطوعة في الجبال، تبكي

في صمت وحشتها، وفي الليل تنادي فيتردد صوتها في التلال والوديان. يسمعه رجل طيب فيقول: «من ينادي؟» تقول: «أنا الحمَّة» فيسحب الرجل حماره، يمضي في اتجاه الصوت لكي يلقاها، ولكنه يخطئ الطريق. يعود أدراجه. يحاول من جديد.

نعيم أيضا يحكي له. حكايات جدته تختلط برائحة الخزامى التي تدسّها بين ثيابها المطوية في الخزانة، وحكايات نعيم تختلط برائحة غليونه. يحكي وهو يدخن فتنتشر من حوله سحابات الدخان. يأخذه الكلام فيبقى متربعا. ينسى الركض في الحارة، والجوع والعطش، ولا ينتبه إلا حين يباغته ذلك السائل الدافئ يتدفق بين فخذيه، يبلل مقعدته وثيابه.

قبل يومين بال على نفسه ليس لأنه استغرق في الاستماع إلى نعيم. كان يسعل سعالا شديدا فأصرت مريمة ألا تصطحبه إلى السوق. بكى فقال له جده حسن:

- إن توقفت عن البكاء أحكي لك حديث قصر الذهب وقصة الثعبان. نسي البكاء وهو ينصت للكلام عن القصر العظيم: أعتابه من العنبر والأرجوان، جدرانه من الذهب، وأعمدته من نحاس، وأبراجه رخام، والبساتين من حوله تمتد كالجنان.

«وفي يوم من الأيام ظهر ثعبان هائل الحجم يزحف تارة على بطنه وتارة على ظهره، وأخذ يبتلع الأبقار والأغنام ويهلك الزرع ويقطع الطريق على أهل القصر، وينفث فيهم دخانًا كثيفًا.

استنجد أهل القصر بالنبيّ عليه الصلاة والسلام فأرسل إليهم ابن عمه عليّ ابن أبي طالب. ركب حصانه السرحان، وأشرع سيفه ذا الفقار، فتبعه العديد من الفرسان، ولكنهم حين دخلوا القصر أحاط بهم الدخان من كل جانب، واهتزت الأرض من تحت أقدامهم، وتساقطت على رءوسهم الأحجار

فاختبئوا في جب لم يحمهم من الدخان الكثيف ولا الدويّ المروع المنبعث من الثعبان».

بال عليّ في ثيابه، وظل خائفا حتى بعد أن نجح عليّ بن أبي طالب في ضرب الثعبان بسيفه، وقتل من يعاونونه من الجن، وإعادة القصر إلى أهله.

عادت مريمة من السوق فوجدت الصغير شاحب الوجه مبلل الثياب.

- ماذا جرى؟

- لا شيء، حكيت له حديث قصر الذهب وقصة الثعبان.

- أفزعت الولد، وزدته مرضا على مرض.

تشاجرا. علا صوت مريمة، وعلا صوت حسن، وقام عليّ ليبدّل ثيابه. لم تكن مشاجرة الكبار بالشيء الجديد عليه. كان جده وجدته كثيرا ما يتشاجران، وعندما جاء نعيم صار هو أيضا يتشاجر إما معها أو معه، فيغادر الدار غاضبا وهو يقسم أنه لن يعود أبدا إلى هذه الدار، ولكنه في المساء يعود. دائما كان يعود.

حين يتصايحون يتركهم عليّ ويخرج إلى الباحة. يتسلق شجرة التين، أو يخرج للعب في الحارة، أو يعلمهم «سأذهب إلى وردة». كانت دار إرناندو بن عامر تقع في نهاية الحارة العليا، تسدها ببوابتها الخشبية. لا يطول السقاطة لكي يطرق الباب فينادي بأعلى صوته:

- افتحي يا وردة، أنا عليّ.

تسمعه فتأتي بمن يفتح البوابة. يدخل ويلعب معها، لا يعكر صفوه سوى مشاركة خوسيه في اللعب. يبقى في دار إرناندو بن عامر حتى تأتي جدته لإعادته إلى البيت.

- جدتي هل يمكن أن أذهب إلى وردة بعد أن نترك السوق؟

ـ اذهب بعد الظهر. عندما أنتهي من بيع الكعك آخذك إلى صديقة لي تصف لنا دواء آخر لسعالك.

باعت مريمة آخر كعكة في سلتها، واشترت لعليّ قطعة من الحلوى، وأغراضا للدار، ثم صعدا معا إلى البيازين.

قصدا بيت امرأة نصحت بخلطة من الأعشاب تغلى وتشرب قبل النوم. ذهبا إلى العطار، وابتاعت مريمة المطلوب ثم عادا إلى البيت.

استقبلهما حسن بالصياح. وبّخ مريمة على التأخير. «تتحججين ببيع الكعك وتقضين النهار خارج البيت لتثرثرى مع الرائح والغادي!» غضبت وصاحت فيه كما صاح فيها، فسبّها وسب كل النساء، فقالت له:

ـ قل لي ما الذي جنيته من زواجي منك؟! بعت بناتك الخمس لأغراب حملوهن ورحلوا. بعت البنات بثمن بخس: إدارة خان أفلس في نهاية المطاف، وقسوت على ولدك الوحيد، فترك لك الدار وشرد في الجبال!

تحامل حسن على نفسه وقام رافعا يده ليضرب مريمة فدفعته بعيدا وسحبت عليًا من يده وهي تقول:

ـ تعال يا عليّ، سنترك هذا البيت المخروب ونعيش في مكان آخر.

التقيا بنعيم عند بوابة الدار. سأل عما جرى فحكت له. قال:

ـ حسن خرف يا مريمة، طلّقيه فأتزوجك.

زجرته:

ـ وهل هذا وقت مزاح يا نعيم؟!

قال:

ـ ولكني لا أمزح!

صاحت مريمة، ولطمت خديها وهي تنعي حظها في العيش بين رجلين خرفين. تركها نعيم مهرولا إلى داخل البيت ثم عاد مهرولا ولحق بهما على بعد خطوات من الدار. كان يرفع قبضته عاليا ويعلن بزهو:

- ضربته، قضيت عليه، أعتقد أنه فارق الحياة!

اندفعت مريمة راكضة وعليّ ونعيم في إثرها. دخلت غرفة حسن فوجدته ممددا على الأرض بلا حراك. علا عويلها، وصرخ عليّ فزعا، فإذا بحسن يرفع حاجبيه ويفتح عينيه على اتّساعهما، ويقول:

- ماذا حدث، ماذا دهاك يا امرأة، لماذا تولولين، هل جننت؟!

بعد أن هدءوا بدأ عليّ يبكي، ولم يفلح أي من ثلاثتهم في إسكاته، فاقترحت عليه مريمة أن يذهب للعب مع وردة. قال إنه لا يرغب في ذلك. حايلته ورافقته إلى دار إرناندو بن عامر. أمسكت بالسقاطة، وطرقت الباب، وأدخلته ثم ذهبت.

لم يرق لعليّ اللعب. جلس مع وردة وخوسيه في الباحة ثم انصرف.

دخل الدار فوجدهم جالسين في الرواق. كانوا يستعيدون الواقعة. يهتز صدر جدته وهي تضحك، ويتمايل نعيم مقهقها، ويمسك جده بخاصرته ويكرر وهو يلتقط أنفاسه التقاطا: «سأموت من شدة الضحك».

حدق فيهم مشدوها ثم اندفع راكضا باتجاه الباب.

- إلى أين يا عليّ؟

- سأعود إلى وردة.

ولكنه لم يذهب. جلس في الحارة عند سور الدار، وكان محتقن الوجه، غاضبا، تلح عليه الرغبة في سبّهم.

٥

كان حسن قلقا بشأن نوع التعليم الذي يتلقاه حفيده في المدرسة. لم يرسله إلى أيّ من الفقهاء الذين يتعهدون الصغار سرا في بيوتهم. قرر ألا يزج بالصغير وبنفسه في مشكلات قد تزداد تعقدا بما لا تحمد عقباه. ألحقه بالمدرسة الإرسالية حيث تعلم الولد الأبجدية اللاتينية، وانطلق لسانه في الحديث بالقشتالية، ولم يكن ذلك هو ما يقلق حسن، بل ولع الصغير بالأناشيد الدينية التي صار يحفظها عن ظهر قلب، ويتعجل الذهاب إلى القداس لأنه ـ هكذا يقول ـ يحب صوت الأرغن والجوقة التي تترنم بتلك الأناشيد.

ثم صادق عليّ ولدا في سنه من رفاق المدرسة الإسبان ـ ولدًا أعجف ككوز الذرة له شوشة صفراء ووجه شاحب ـ سمعه حسن بأذنيه يسمي عليّا «نيجرو» فنهره بعنف، فإذا بعليّ يدافع عن صاحبه قائلا: «إننا نمزح يا جدي ونقلّد أستاذ الصف الذي يعلق على تلازمنا الدائم بقوله «بلانكو إى نيجرو»، يقولها الأستاذ ويبتسم، وأحيانا يضحك، فيضحك الأولاد، وأضحك أنا، وأنطونيو أيضا يضحك».

عليّ طفل بريء من كل معرفة بهذه الدنيا، ولا يدري أين وضعه الله فيها. ولو تركه دون توجيه ضاع!

تأمل حسن المشكلة لیال متصلة، وقلّبها على وجوهها، ثم استقر على ضرورة تعليم حفيده اللغة العربية بما يمكنه من قراءة القرآن، والكتب الأخرى أيضا. وتدريجيا يفهم الولد الحكاية، وموقعه منها. إنه في السابعة وعهد

الطفولة الأولى ولّى، وحان وقت التوجيه والتعليم، ولن ينتظر أكثر من ذلك، والفرصة مواتية، والولد مُجاز شهرين في الصيف، ومريمة تخرج إلى السوق كل صباح، ونعيم لا يأوي إلى فراشه إلا قرب الفجر ويصحو متأخرا.

نادى حسن على حفيده، قال:

- هل أنت كبير أم صغير يا عليّ؟

قال عليّ باعتداد:

- كبير يا جدي.

- بإمكاني إذن أن أحملك سرا عليك ألا تفشيه لأيّ إنسان، حتى مريمة ونعيم، فهل تصون السر؟

- أصونه يا جدّي.

- قم، وأحضر اللوح الذي تكتب عليه.

انطلق الولد راكضا، ثم عاد راكضا وفي يده اللوح المصنوع من خشب الجوز. ناوله لجده. قال حسن:

- اجلس هنا بجواري.

فجلس وراح يراقب جده وهو يكتب على اللوح. كتب حسن a وb وc، كتبها عمودية حرفا تحت حرف. وترك بين الحرف الأول والثاني مسافة أصغر من تلك التي تركها بين الحرف الثاني والثالث. بجوار الحرف الأول كتب الألف، وتحتها بجوار الحرف الثاني كتب الباء، وفي المساحة الفارغة بين الحرف الثاني والثالث كتب التاء، ثم أضاف الثاء بجوار الحرف الأخير.

قال حسن مشيرا للعلامة الأولى:

- هذا الحرف هو أول حروف العربية، هكذا يكتب خطا كالعصا له عين في أعلاه كعين المخراز الصغير، والنطق متقارب. نقول: andalucia ونقول

أندلس. والحرف الثاني هو حرف الباء، والنطق متطابق، نقول: barrio ونقول: بلد. أما الحرف الثالث في الأبجدية اللاتينية فيقابل الحرف الرابع في العربية، بينهما شبه، وبينهما اختلاف، نقول: ciudad ونقول: casa. الحرف الذي نبدأ به كلمة «ثيوداد» هو الحرف نفسه الذي نبدأ به كلمة ثور، وكلمة ثريد، ولكن «كاسا» حرفها الأول بالعربية هو الكاف، ونتحدث عنه لاحقا. وبين الباء والثاء في العربية حرف التاء، وهو كما ترى يأتي في أبجديتنا في الأوائل، أما في اللاتينية فيأتي في الأواخر.

في ذلك اليوم علم حسن حفيده أربعة حروف، طلب منه كتابتها على اللوح نقلا والحروف أمام عينيه، ثم إعادة كتابتها من الذاكرة بعد مسح اللوح، وفي اليوم التالي علمه خمسة حروف أخرى، فما انقضى الأسبوع حتى تعلم الولد الأبجدية العربية قراءة وكتابة.

أقبل عليّ على العلم الجديد، وكلما عنّ له أن يثبت مهاراته ركض إلى جده وهمس في أذنه: «عين: عين الدمع، غين: غرناطة، فاء: فستق، قاف: قرطبة»، فيغمز له حسن بطرف عينه لأن مريمة قد تسمع، والسر بينهما لا يعلم به أي مخلوق.

كان هذا السر الأول مثيرا وممتعا، لعبة مشتركة بين الصبيّ وجده. أما السر الثاني الذي أعقبه فكان مُخيِّبًا للآمال، إذ أطلق العنان لخيال عليّ ليحلق لحظة يسقط بعدها مغتاظا ومحبطا.

ألح حسن في الانتقال إلى بيت عين الدمع: «الحرارة في البيازين لا تطاق، هواء عين الدمع منعش يرد الروح». اكترى نعيم عربة يجرها بغل قويّ حملتهم من البيازين إلى عين الدمع، وكما تعاون المكاريّ مع نعيم في إيصال حسن إلى العربة وإركابه، تعاونا، حين وصلا إلى عين الدمع، في إنزاله منها. ولما أرادا إدخاله إلى البيت قال إنه يريد أن يجلس في البستان بين عروق الزيتون. فرشوا له حصيرة بين الأشجار فجلس.

ذهب المكاريّ بالعربة، وانهمكت مريمة في تنظيف الدار، أما عليّ ونعيم فقد أخذا يستعدان لقطف الثمار الناضجة عن الشجر. كانت عروق الزيتون تحتل الجانب الأكبر من البستان، وكانت غصونها مثقلة بحبات الزيتون، التي ما تزال صغيرة وخضراء يابسة بحاجة لشمس الصيف كله حتى تنضج. وكان في البستان أيضا كرمة صغيرة، وشجرتا برتقال، وتينة ورمانة ولوزة. كان موسم اللوز قد انتهى، والرمان لم ينضج بعد، فبدءا بالتين.

حمل عليّ سلّما أسنده إلى جذع الشجرة وصعد عليه، وراح يقطف الثمار ويناولها إلى نعيم فيصفها بعناية في سلة غطى قاعها بورقتي تين.

- يا عليّ تعال.

كان جده الذي ينادي. نعيم هو الذي أجاب:

- اتركه الآن يا حسن. لدينا ما نقوم به.

- أريد أن أرسله لجارنا ليُعلمه بوصولنا.

- ولم العجلة في ذلك؟ ننتهي أولا من قطف التين والعنب ثم يذهب.

- أريده أن يذهب الآن، تعال يا عليّ.

قال نعيم:

- حين يطلب جدك شيئا لا يقدر على الجلوس هادئا كأن في مؤخرته جمرة مشتعلة. اذهب يا عليّ، سأقوم أنا بقطف العنب، وعندما تعود نواصل قطف التين.

- يا عليّ!

- سأذهب حالا يا جدي.

- تعال هنا أولا، أريد أن أقول لك شيئا قبل أن تذهب.

ـ نعم يا جدي.

ـ اجلس هنا بجواري.

جلس عليّ فأخرج حسن من جيبه مفاتيح مشبوكة في حلقة، بينها مفتاح واحد كبير، والباقي مفاتيح صغيرة متشابهة، قال:

ـ هذا مفتاح القبو تفتحه وترى ما فيه. لو لم أكن مقعدا لجئت معك، ولكن إن أعنتني على المشي فكيف لي بنزول الدرج؟! اذهب الآن إلى غرفة الخزين، وأزح الخزانة الخشبية الصغيرة، تجد وراءها بابا يفضي إلى دهليز يفضي إلى باب آخر، هذا مفتاحه. افتحه. خذ معك قنديلا، واهبط الدرج، تجد نفسك في السرداب. أوقد القناديل التي تجدها فيه، وافتح الخزائن ثم عد إليّ وقل لي ماذا وجدت.

لم يكن عليّ يعرف أن للبيت سردابا. كان متوقدا وخائفا أيضا. أخذ المفاتيح من جده وتوجه إلى حجرة الخزين. كانت الخزانة عن يمينه. أزاحها، وفتح الباب الأول الذي لم يكن مغلقا بمفتاح. دلف منه فوجد نفسه في ممر ضيق معتم. تذكر القنديل. عاد وحمل واحدا وأسرجه ورجع إلى الممر. بحث عن الباب ولما وجده وضع القنديل على الأرض وأدخل المفتاح الكبير في القفل، حاول فتحه فلم يدر المفتاح. ركض إلى جده.

ـ لا يفتح المفتاح يا جدي!

ـ تصرَّف يا عليّ، ألم تقل إنك أصبحت كبيرا؟! اغمس المفتاح في قليل من الزيت فيفتح!

ركض عليّ إلى غرفة الخزين، وغمس المفتاح في الزيت، أدار المفتاح في القفل فدار، فتح الباب فأحدث خشبه العتيق صريرا زاده رهبة.

رفع القنديل بيمينه وبدأ ينزل الدرج بحرص. كانت الرائحة الرطبة

والعتمة، والضوء الشحيح وما يلقيه من ظلال، والمجهول أسفل السلم تبعث وهنا في ساقيه، وتوجسا في نفسه، ولكنه واصل الهبوط حتى رأى القاعة الفسيحة. بدأ بإسراج القناديل.

قاعة عتيقة مؤثثة بالأرائك والأبسطة والخزائن، الأبسطة من الصوف الملون المضفور، والأرائك خشبية واطئة، تكسوها الحشايا والمساند، والخزائن ثلاث متماثلة متراصة في حذاء الجدار المواجه للدرج.

جرّب كل المفاتيح في الخزانة الأولى فلم يفلح في فتحها. فكر أن يعود لجده ثم تذكر الزيت. صعد إلى غرفة الخزين، وملأ إناء صغيرا بقدر من الزيت، حمله ونزل.

فتح أول الخزائن، كانت الكتب متراصة على رفوف تمتد من أعلى الخزانة الخشبية إلى أسفلها. انتقل إلى الخزانة التالية، فوجد كتبا أخرى. ولما فتح الخزانة الثالثة عثر على المزيد من الكتب.

جلس على إحدى الأرائك مستغربا سلوك جده وتكتمه على الأمر كأن المحفوظ في السرداب كنز مطموع فيه، أو نفائس مسروقة يخشى افتضاح أمرها. بدا له، وهو يهبط ببطء على الدرج مأخوذا بالرهبة، أن ما ينتظره في السرداب صناديق زمرد وعقيق ولؤلؤ ومرجان، أو شيء آخر يفاجئه ويبهره؛ مصباح علاء الدين أو قمقم يفرك نحاسه الأحمر فينطلق منه مارد يفزعه ويحقق له أمانيه. ما الذي كان يطلبه لو ظهر له المارد؟ ثلاث أمنيات لا غير فماذا تكون؟

لم يتسرع بل فكر قبل الاختيار. يطلب ما لا يكفي جدته مريمة حاجة الخروج كل صباح إلى السوق لبيع كعكها، ويطلب أن يسمح له أهل وردة وأهله بالتردد عليها واللعب معها، وأن لا يقولوا إن ذلك لا يصح لأنهما لم يعودا صغيرين، والأمنية الثالثة؟! توقف إذ بدت له أمنية مستحيلة. ولكن

المارد جنّي يحقق كل شيء. إنه قادر على تحقيق حتى المستحيل من الأمنيات. طلب أن يبعث الله له أمه، ولو لطرفة عين، فيراها كاملة كما كانت، فيتعرف على صورتها فيحفظها وتبقى مطبوعة في رأسه طوال العمر.

زفر مغتاظا: لا كنز، ولا مصباح، ولا قمقم، ولا جنيّ... مجرد كتب عتيقة مقفل عليها كأنها كنوز سليمان!

أطفأ القناديل، وحمل المصباح الذي جاء به، وصعد الدرج. أقفل الباب بالمفتاح، ثم مرق عبر الدهليز إلى غرفة الخزين، أعاد الخزانة حيث كانت، ثم ذهب إلى جده وناوله المفاتيح قائلا:

ـ تصورت أن في الخزائن شيئا غير الكتب!

كان وجه الولد يعكس بوضوح خيبة أمله. هز حسن رأسه وقال:

ـ أفسدتك جدتك بالحكايات، اجلس.

ـ ولكن جدي نعيم ينتظر.

ـ اجلس!

جلس الولد.

ـ هذه الكتب كانت في الأصل لجدي أبي جعفر الورّاق، أخفاها عندما كان القشتاليون يجمعون الكتب لحرقها، وظلت هنا في عين الدمع إلى أن صدر مرسوم جديد يقضي بتسليم الأهالي كل ما في حوزتهم من الكتب، فقامت جدتك مريمة، وجدتك سليمة رحمها الله، بنقلها وإخفائها. ألا تعرف صندوق جدتك مريمة؟

ـ أعرفه طبعا.

ـ أخفيتا الكتب فيه وتكتمتا على الأمر فلم يعرف به سواهما. حتى أنا لم

أعرف، رغم أن الصندوق كان موضوعا في الغرفة التي أنام فيها. وظلت الكتب في البيازين سنوات طويلة، ولما هدأت الأمور وعرفت مصادفة بوجودها في الصندوق، عاودنا نقلها إلى هنا. هذه الكتب ثروة يا ولدي.

أومأ عليّ برأسه وقال:

ـ هل يمكن أن أذهب لمعاونة جدي نعيم؟

سمح له حسن بالقيام. ولم تفلح حكاية الكتب في تبديد خيبة أمل عليّ ولا في التخفيف من غيظه لقطع متعته في جمع الثمار عن الشجر.

٦

لم يدق الباب بل دفعه ودخل. رجل مربوع قوي البنية، في ساقه اليسرى عرج خفيف. على رأسه قلنسوة حمراء، وحول رقبته منديل صغير معقود له اللون نفسه. وجهه مدبوغ بحرارة شمس لاهبة أو برد قارس.

رآه عليّ وهو يدلف إلى باحة الدار دون استئذان، فركض إليه وسأله من هو وماذا يريد. رفعه الرجل بيديه، وضمه إلى صدره، ثم أنزله إلى الأرض بسرعة مفاجئة، ثم تركه ومضى إلى داخل البيت دون أن يلتفت إلى السؤال.

وقف عليّ مشدوها من شكل الزائر وسلوكه الغريب ثم تبعه ركضا. شهقت مريمة لرؤية الرجل، ضمته إلى صدرها. ضمها. قبل رأسها ويديها. بكت. قال:

ـ لماذا تبكين يا أم هشام، ليس في الأمر ما يُبكي. أخبري أبا هشام بوجودي، قولي له لا داعي أن يسيء استقبالي كما في كل مرة. جئت لأرى الصغير، وأراك، وأقبل رأسه وأمضي.

أراد علي أن يتبع الرجل إلى غرفة جده، لكن جدته استبقته. سمع صوت جده محتدا وموبِّخا، ثم رأى الرجل يخرج محتقن الوجه عابسا.

رفعه مرة أخرى وضمه، وأودع كيسا قماشيا صغيرا في يده ثم أنزله. قبل رأس مريمة وغادر دون أن يلتفت لإلحاحها عليه بالبقاء. كان يمشي بخطوة سريعة أبرزت عرج ساقه اليسرى.

انشغل عليّ ببكاء جدته، ومحاولة تهدئتها، ورغبته في أن يعرف لماذا تبكي، ومن الشخص الغريب الذي دخل الدار كأنه ليس غريبا.

لم تجب مريمة عن أسئلته وإن كفت عن البكاء بعد حين، ولما هدأت قالت له:

- لا تقل لجدك إنه أعطاك هذا الكيس.

- وما الذي في الكيس؟

تنهدت فبدا وجهها أكثر حزنا. كرر عليّ السؤال.

- ما الذي في الكيس يا جدتي؟

- افتحه تعرف.

فتحه فوجد فيه عملات ذهبية:

- إنها نقود!

- أعرف.

- ولماذا يعطيني هذا الغريب نقودا؟ لقد ذهب. كيف أعيدها إليه الآن؟!

- احتفظ بها.

- ألم توصيني بألا أقبل نقودا من أغراب؟!

لم تجبه وكررت «لا تخبر جدك». لم يخبره ولكنه سأله عن أمر الرجل فاحتقن وجه حسن وقال:

- إنه ابن صديق لي.

- ولماذا لا تحبه، لماذا وقد جاء يزورك وبختّه وعلا صوتك عليه؟

حدجه حسن بنظرة رادعة فخرج إلى باحة الدار وقد قرر أنه يوم غريب،

جاءهم فيه شخص غريب، له هيئة غريبة، وسلوك غريب، وكان استقبال جده وجدته له غير عاديّ ولا مفهوم! سيسأل نعيما فهو صاحبه ولا يكتم عنه شيئا. انتظر عودته إلى الدار، ولما عاد سأله فقال له: «صفه لي» فوصفه، فقام نعيم وتركه جالسا تحت شجرة التين. تغيب بعض الوقت ثم جاء وقال دون أن يتطلع إليه: «إنه قريب للعائلة، جاء وذهب، فلماذا تنشغل بأمره؟!».

حتى نعيم يكذب عليه. ليس صاحبه إذن فالأصدقاء يتبادلون الأسرار، ولا يكتمون عن بعضهم شيئا. أغاظه تصرف الكبار فقرر أن يحجب عنهم أمر مغامرة الغد. لن يخبرهم لا قبلها ولا بعدها.

كانت الفكرة لأنطونيو، طرحها عليهم وهم يلعبون. لم ترق له ولكن ابن فضة شجع على المضيّ في تنفيذها، وأخذ يتحدث في التفاصيل. أما الولد الرابع الذي كان أصغرهم، فقال إنه سمع أن الكنوز المخبوءة في الدور المهجورة تحرسها أرواح سكانها فتظل تحوّم في المكان، وتسيء لأيّ شخص يقترب منها، فقال له ابن فضة:

ـ إن كنت خائفا فلا تأت معنا!

قال الولد:

ـ أنا أنقل ما سمعته ولست خائفا يا فيديريكو، سآتي معكم!

بعد الإشارة إلى الخوف كانت مهمة عليّ في إقناعهم بالعدول عن المغامرة صعبة. ولكن حين وجد فرصة للمحاولة قال:

ـ الكنوز والنفائس التي تتحدثون عنها كانت مخبأة في القصور والدور الكبيرة، وهذه كلها مسكونة، يعيش فيها النبلاء والكبراء، وبعض منها يسكنه أصحابها العرب. سنفشل ونعود كما ذهبنا لأن البيوت المهجورة في البيازين كانت لأناس عاديين من أمثالنا لا يملكون ذهبا ولا جواهر.

قال أنطونيو:

ـ وما الذي نخسره لو حاولنا، قد لا نجد شيئا وقد نجد!

لو أن أبا أنطونيو لم يتحدث أمامه عن القدور المملوءة بعملات الذهب والجواهر التي دفنها العرب قبل رحيلهم لما فكر أنطونيو في هذه المغامرة، ولما اقترحها، لما تحمس لها ابن فضة. ولكن ما حدث حدث.

لم يذهب عليّ إلى داره مباشرة بل تابع الحواري الملتفة في الحيّ. كان منشغلا بأمر تلك الدور المهجورة، ولم يكن عددها في البيازين قليلا. يمر بها العابر إن ذهب من هنا أو من هناك فيلتقط وحشتها من بابها المتهالك، أو مشرفيتها المتآكلة، أو سورها الحجريّ الذي تساقط طلاؤه دون أن تمتد له يد صاحب بدلو وفرشاة تعيد له أبيضه كباقي البيوت. وقد تمر وتجد الباب مشرعا فترى الخراب فيملؤك الخوف، ليس لأن الناس يقولون إن العفاريت تسكن المكان، فهو يعرف الخوف من العفاريت حين يتعين عليك أن تخرج من الحارة أو تعود إليها في ليلة بلا قمر، فيُسرع خطوك، وتتيبس رقبتك، ولا تملك الالتفات يمينا أو يسارا، وتعلو دقات قلبك لأنك تعرف أن عفريتا ما يتعقبك، أو يكمن لك عند هذه الشجرة، أو خلف هذا السور...

في اليوم التالي التقوا عصرا حسب الاتفاق، وعند السبيل القريب من كنيسة سان سلفادور أبرز كل منهم ما أحضره خلسة من داره، فاطمأنوا على اكتمال العدة: قنديل زيت، وثلاث شمعات، وكيسان من الخيش لنقل ما يجدونه من الخبايا، وحبل، وفأس، وسكين. انطلقوا إلى المغامرة. ساروا بمحاذاة السور القديم، ثم توغلوا في الحومات والحواري حتى وصلوا إلى كنيسة سان كريستوبال، ثم تجاوزوها. عن يمينهم كان السور الآخر للبيازين يمنطق أعلى التلة ويفصل بينها وبين الحقول، وعن يسارهم كان قرص الشمس كبيرا ومشرفًا ومشتعلا قبل الغروب.

عند أطراف الحيّ وجدوا الحارة التي ينشدونها، مقفرة ومهجورة يلفها الصمت، وصوت طائر حاد ورفيع. قال أنطونيو مشيرا إلى دار من الدور:

ـ ندخل هذه!

فقال ابن فضة وهو يشير إلى غيرها:

ـ بل تلك!

اختلفا، ثم قبل أنطونيو باختيار ابن فضة الذي قادهم وتبعوه.

دفعوا البوابة فاستجابت بصوت كالأنين. دلفوا إلى ممر نصف معتم تئز أخشابه المتآكلة لوقع خطواتهم عليها. انتقلوا من الممر إلى غرفة نصف معتمة تضيئها طاقة في أعلى الجدار. راحوا يتطلعون ويحدقون ويفتشون. كانت خالية تاما. انتقلوا إلى سواها. لم يجدوا سوى صندوق محطم، وفراش مهترئ. كانوا يمشون بحذر، يتطلعون إلى مواقع أقدامهم التي أفزعت الفئران فصارت تركض هنا وهناك. أما العناكب فلم تفزع، ولم تفزعهم، كانت مستقرة في بيوتها التي نسجتها في السقف والأركان والزوايا. دخلوا الغرفة الثالثة. كانت خالية، فخرجوا إلى الفناء. وجدوا شجرتين عاريتين تماما من الأوراق بدت فروعهما كأعواد الحطب. صاح عليّ فجأة وهو يشير إلى زيتونة مورقة في أقصى الفناء:

ـ انظروا!

ضحك ابن فضة بغيظ:

ـ شجرة عجفاء ستلحق بالأخريات... ما الذي فيها لكي ننظر!

استحى عليّ من ملحوظته، ولم يفهم لماذا صاح هكذا، ولماذا بدت له الشجرة المكتسية بالأوراق مفاجأة طيبة انتشلته للحظة من ثقل داخله وضيق.

جلسوا على حافة البئر يملؤهم الشعور بالخيبة. كانت الدار خرابا مقبضا ولا شيء سوى ذلك، فأين المغامرة، وأين الكنوز؟!

قال ابن فضة :

ـ فكرتك سخيفة يا أنطونيو!

فظل أنطونيو صامتا

صاح الولد الأصغر :

ـ البئر ، لماذا نسينا البئر؟

قال ابن فضة في غيظ :

ـ مالها البئر؟ . . . إنها جافة ، ولو كان فيها ماء فهو عكر لا يصلح للشرب ، تحمّل عطشك حتى نخرج من هذا المكان .

قال الولد :

ـ أقصد أن الكنز قد يكون مخبأ في البئر .

قال أنطونيو :

ـ لن نجد شيئا . لنغادر المكان . غربت الشمس والطريق طويلة ، وسيوبخنا أهلنا على هذا التأخير .

قال الولد بعناد :

ـ ولكن الخبايا قد تكون في البئر!

قال أنطونيو :

ـ ومن الذي سينزل البئر؟

تلعثم الصغير ثم قال :

ـ فيدريكو لأنه أكبرنا .

أجابه ابن فضة:

ـ لن أنزل!

قال عليّ:

ـ أنا أنزل!

لفوا الحبل حول خاصرته وعقدوه، ثم جلس عليّ على حافة البئر، ثم أنزل ساقيه وأتبعهما بجسمه كله. كان ابن فضة وأنطونيو يمسكان بالحبل، والصغير يحمل القنديل ويميل برأسه وجذعه على فتحة البئر رافعا القنديل بيمناه.

حاول عليّ أن يهبط مستخدما قدميه ويديه فوجد الجدار الداخلي للبئر أملس تماما فتشبث بيديه بالحبل وترك جسده يتدلى كالدلو ويهبط تدريجيا.

أشاح بوجهه فجأة وصرخ، فصرخوا ثم صاحوا عليه يسألونه عما حدث.

ـ هل نسحبك؟

ـ لا إنه خفاش، ليس سوى خفاش!

بدت له البئر معتمة، ثم تعودت عيناه على ضوئها الشحيح المتسرب من شعاع القنديل والسماء، ولكنه حين وصل إلى قاع البئر لم يكن الضوء كافيا للتحقق من أيّ شيء. صاح:

ـ اسحبوا الحبل، واربطوا القنديل فيه، ودلّوه لي.

فك الحبل عن خاصرته فسحبوه، وجلس ينتظر. ماذا يفعل لو ظهر له طيف واحد من أهل الدار؟ يقولون إن أطيافهم تحوّم في المكان، وإنهم مسجونون فيه، يرون خرابه ويتعذبون ولا يملكون أن يفعلوا شيئا. ماذا لو اشتد عذاب واحد منهم فكسر باب سجنه وأفرغ فيه غضبه؟ سرت في بدنه

قشعريرة. إن واجهه الطيف سيتحدث معه ويُفهمه أنه لا يقصد أذى، سيستمع لحكايته كما يستمع لحكايات جده نعيم، وقد لا يكون الطيف مخيفا، ربما كانت هيئته غريبة كنعيم ولكنه طيب القلب وعطوف مثله.

أنزلوا له القنديل فأمسك به ورفعه بيمناه، وراح يتفحص المكان من حوله. رأى الخفاش الذي باغته وأخافه ملتصقا بجدار البئر وقد التف تماما بأحد جناحيه وتسربل به؛ ورأى فئرانا تركض، مشى خطوتين فلمح شيئا يلتمع. مال عليه ليتحقق فإذا بوجه يطالعه. صرخ صرخة عالية تردد صداها ورج الأولاد رجا فنادوا عليه: «عليّ، يا عليّ» فلم يسمعوا سوى رجع النداء.

لم يكن الشيء اللامع سوى شقفة مرآة مصقولة، مد يده ليمسك بها. جرحته حافتها المسنَّنة. مسح الدم في ثيابه ومد يده ثانية، وبحرص حمل المرآة. تطلع فيها فتعرف على نفسه. خلع قميصه الداخلي ولفها به. صاح «اسحبوا القنديل». سحبوه ثم أنزلوا له الحبل، ربط به خاصرته، حمل المرآة الملفوفة بقميصه بين شفتيه ثم أمسك بالحبل فجذبوه. كانوا يحدثونه لا يجيبهم، فيسمعهم يقولون:

ـ ما الذي حدث لعليّ؟ لدغه عقرب؟ فقد وعيه؟

ـ ربما مات.

ـ مات؟!

سمع نشيج الصغير وأنطونيو.

حين أخرجوه من البئر أمسك المرآة بيمينه وكشف لهم عنها وشرح صمته:

ـ كنت أمسكها بفمي.

قال ابن فضة:

ـ قلت مات عليّ فكيف أبلغ جدته بذلك. ننادي عليك ولا مجيب

وأنطونيو والصغير يبكيان. أنا أقول لنفسي قرر أصحاب الدار معاقبتنا بما هو أقسى من طلوع أطيافهم علينا.

ثم استدار إلى أنطونيو وقال بحنق:

ـ فكرتك زفت، وأصل البلاء أبوك الجشع الذي لا هم له سوى التفكير في نهب أولاد العرب حتى بعد خراب بيوتهم!

ـ لا تسب أبي يا فيديريكو!

ـ سأسبه وأسبك فأنت كلب ابن ستين كلب!

ألقى أنطونيو بنفسه على ابن فضة فتشابكا بالأيدي، وحاول عليّ والولد الصغير الفصل بينهما، ولم يتمكنا من ذلك إلا بعد جهد. ساروا صامتين، وبدت طريق العودة موحشة وطويلة، ثم افترقوا في ساحة سان سلفادور وذهب كل إلى داره.

ما أن رأت مريمة عليا حتى صاحت في فزع:

ـ ماذا حدث، ملابسك متربة ووجهك شاحب، هل سقطت عن شجرة؟

كان حسن ونعيم أيضا يتطلعان إليه في تساؤل قلق.

ـ نعم يا جدتي سقطت عن الشجرة ولكني لم أصب بسوء.

كان قد قرر أنه لن يطلعهم على أسراره ما داموا لا يطلعونه على أسرارهم، حتى المرآة التي وجدها في قاع البئر لن يريها لهم!

٧

لم يكن قد سقط بعد ولكن قائمتيه الأماميتين انثنتا فمال هيكله، ومن ثقب أرجوانيّ في صدره سال خيط من الدم.

كان محاصرا بأسنّة الرماح المشرعة في أيدي الصيادين. يلتمع الظفر في عيونهم المتطلعة بزهو شرس. يعتمرون على رءوسهم قلانس يزينها ريش النعام، ويرتدون سترات مخملية مطرزة، وسراويل حريرية مشدودة على سيقانهم المفتولة القوية. كان كل شيء ملونا، قبعاتهم، والريش على قبعاتهم، وثيابهم، والأبواق التي ينفخ فيها مساعدوهم، والكلاب السلوقية التي تتدلى ألسنتها لاهثة بعد طول طراد، والأشجار المثمرة برتقالا وكرزا ورمانا، وزهور البنفسج، وزنبق الوادي، والنرجس، والورود.

حدقت مريمة في حفل الصيد المبسوط أمام عينيها لوحة بحجم الجدار، ثم توقفت عيناها عند الوعل الذي انحنى رأسه كأنما يثقله تاج قرونه الشجرية. بدا ساهما يتطلع في اللاشيء، وفي النظرة، رغم الحزن، عذوبة تضفي على الوجه ملامح الإنسان. طال تحديقها في الوعل ثم تشتت نظراتها بين تفاصيل اللوحة وإطارها الذهبي. ولم تنتبه لدخول الدونيا بلانكا إلا حين سمعت صوتها فارتبكت، وتراجعت خطوتين، وحولت عينيها عن الصورة.

تحدثت إليها صاحبة البيت وهما واقفتان. أفهمتها أنها تقيم حفلا في دارها، وتريد أن تضيف لقائمة طعامها صنوفا من الأكل العربيّ حدَّدَتْها، وطلبت من مريمة إعدادها.

كانت الدونيا بلانكا تشرح المطلوب وتتكلم في التفاصيل فتجيبها مريمة بإيماءات من رأسها دون تفكير. لو لم تر اللوحة لردت طلب السيدة وشكرتها قائلة إنها لا تحسن سوى صنع الكعك، إذ لم يكن من المناسب أن تصارحها بأنها وهي في هذا العمر لن تخدم في دور النبلاء، فالمصادفة وحدها دفعت بالدون بدرو إلى حيث تجلس في السوق، فاشترى منها كعكا استطعمه، وطلب منها أن تخبز له قدرا منه كل أسبوع، في مقابل مبلغ مجز من المال، ولولا تلك المصادفة لما انتبهت الدونيا بلانكا لوجودها، ولا أرسلت في طلبها ذلك اليوم لتدق باب قصر على رصيف حدرّه، مرت به آلاف المرات دون أن تفكر أنها ستدخله وتتحدث مع سيدته. فما الذي يأتي بامرأة موريسكية إلى دور أسياد غرناطة، ما دامت ليست من خدم الدار ولا عبيدها؟

ولكن فضة العبدة السوداء، التي تخدم في قصر الدون بدرو، جاءت إلى مريمة في غير موعدها الأسبوعي الذي تتسلم الكعك فيه. قالت:

ـ الدونيا بلانكا تريد أن تراك يا خالة مريمة.

ـ تراني أنا؟!

ـ نعم.

ـ وما الذي تريده مني؟

ـ لا أدري!

ـ لم يطب لها الكعك؟ صنعته بالطريقة نفسها التي أصنعه بها كل مرة.

تبعت فضة وهي حائرة، قلقة. وعندما دخلت البيت أدهشها اتساعه وفخامة أثاثه، ولكنها لم تنصرف إلى ذلك سوى دقائق معدودة إذ رأت الصورة. كادت تقفز للوراء وقد بدا لها أنها دخلت بلا وعي منها، غابة صيد تزدحم بالصيادين والكلاب. لم تكن قد شاهدت صورة بهذا الحجم أبدا.

يقولون إن في الكاتدرائية صورا كبيرة للسيدة مريم، وللسيد المسيح، ولقديسين آخرين، لكنها لم تدخل الكاتدرائية، والسمع غير الرؤية بالعين.

عادت إلى الدار فوجدت حسن ونعيم في انتظارها:

- ما الذي قالته لك الدونيا بلانكا، ما الذي تريده منك؟

- تقيم وليمة، وتريد أن أعد لها طعاما عربيا!

قال نعيم:

- رفضت؟

قال حسن:

- كيف ترفض، الدون بدرو يعمل في المستشارية، سيعتبر رفضها إساءة.

قالت مريمة:

- رأيت لوحة مصورة بعرض الجدار فيها وعلٌ جريح، وصيادون وكلاب!

- قبلت أو رفضت؟

لم تجب مريمة، تركتهما وانهمكت في لملمة الملابس المتسخة، وسخنت ماءً، وتربّعت أمام طستها النحاسي وراحت تدعك وتشطف، وتعصر. هل تذهب إلى أم يوسف لتحكي لها عما رأته؟ الصورة صورة، ليست نجما له إشاراته المرصودة، ولا رؤيا يفسرها العارفون. ستسخر أم يوسف منها وتقول:

«ليس الوعل الذي رأيته سوى تمثيل لمشهد صيد، كيف تخلطين بينه وبين رؤيا خصك الله بها في المنام؟» هل هو الوسواس يريد أن يتوهها فلا تميز بين الحقيقة والكذب، والصدق والأوهام؟ نشرت مريمة الغسيل وبقي قلبها ثقيلا ومتطيرا.

أعدت طعاما مناسبا لحرارة الطقس: خبزاً وزيتونًا ولبنًا رائبًا وخسا. أكلوا، فرفعت ما تبقى من الطعام. جف الغسيل على الحبال فجمعته في سلة وجلست في الرواق. ليست الصورة مجرد مصادفة، بل لعلها إشارة أن الله في علاه سيجعلهم يتمادون في جبروتهم حتى يظنوا أنهم تمكنوا، ثم تدور عليهم الدوائر ويصبح المغلوب غالبا كما سجل الله في لوحه المحفوظ، ورأيت بعينيّ في المنام.

- يا عليّ، اذهب إلى دار الدون بدور وقل لفضة إن جدتي سقطت في الطريق فانكسرت ذراعها اليمنى، ولن تقدر على صنع الطعام المطلوب، ولا حتى الكعك المعتاد.

- لماذا يا جدتي؟

- افعل ما أطلبه منك.

ذهب عليّ في مهمته وأحست مريمة، وهي جالسة في ظل الرواق ترتق ما يحتاج الرتق من الملابس المغسولة بارتياح، فراحت تترنم بالغناء.

حملت الملابس المطوية، وأودعتها الخزانة والصندوق. ثم خرجت إلى الباحة وملأت الدلو من البئر وسكبت ماءه، ثم عادت وملأته وسكبت، ثم أمسكت بمقشتها وأخذت تنظف الأرض وهي تغني.

لم تكن قد انتهت حين اندفع عليّ عائدا من مهمته:

- جدتي، أصرت الخالة فضة أن تأتي معي للاطمئنان عليك. تركتها عند أول الحارة وجئت ركضا. ما العمل الآن؟ ستقول إنني كذّاب!

هرولت مريمة إلى حجرتها واستقرت على فراشها وعليّ يواصل في اضطراب:

- تقولين إن الكذب عاقبته سيئة، وها نحن في العاقبة، ماذا نفعل؟!

سمعا فضة وهي تصفق بيديها وتقول: «يا أهل الدار».

ـ قل لها تفضلي، هنا في الغرفة.

دخلت فضة فوجدت مريمة متربعة على فرشتها، تسند ذراعها اليمنى على وسادتين وضعتهما واحدة فوق الأخرى.

ـ بعد الشر عنك يا خالة مريمة.

تأوهت مريمة:

ـ أمر الله!

ـ ما الذي حدث؟

ـ غادرتكم مسرورة بشقة الدونيا بلانكا وتكليفها إيايّ بإعداد الطعام لوليمتها، وكنت منهمكة في التفكير فيما يلزمني لصنع الأصناف المطلوبة فزلت قدمي، قلت: آ. . . ه! وسقطت على ذراعي اليمنى. وأيّ ألم يا فضة، كأنها النار صُبَّت في ذراعي صبّا. بقيت مكوَّمة على الأرض حتى استجمعت قوتي، واستعنت بيدي اليسرى، وتحاملت على نفسي وقمت واقفة، وواصلت طريقي.

ـ ولم تذهبي بعد إلى من يجبِّر لك ذراعك؟

ـ سأذهب.

ـ قومي، سأذهب معك.

تنهدت مريمة:

ـ سيأخذني أبو هشام إلى مجبر يثق به ويعرفه منذ زمن، في عين الدمع.

ـ عين الدمع. . . بعيدة!

همست مريمة وهي تبتسم :

ـ أصرّ أبو هشام على ذلك. مازال، بعد كل هذه السنين، يغار علي. لن يقبل برجل غريب يرى ذراعي مكشوفة ويمسك بها.

ضحكت فضة فضحكت مريمة، ثم تذكرت ألم ذراعها فتأوهت، ثم نادت عليّا، وهمست في أذنه فركض الولد إلى المطبخ، وعاد حاملا صحنا فيه كعك، وكوب ماء بارد أضاف إليه، كما أوصت مريمة، نقطتين من ماء الورد.

كانت فضة امرأة سمراء من نسل عبيد متوارثين، وافرة القد، طويلة، لها وجه منحوت القسمات جميل يميزه جبين عال، وبشرة لامعة، ووشم قديم على الشفة السفلى.

قالت مريمة لنفسها إن فضة طيبة القلب وعطوفة، ولو كان الأمر يخصها لما كذبت عليها. اختلاق الوقائع على من يتوجس المرء منهم ويخشى أذاهم حلال وضروري، أما الطيبون من أمثال فضة فلا داعي لكتمان الحقيقة عنهم لأن ذلك لا يضيره ولا يضيرهم. ليست فضة هي المقصودة بل سيدتها.

وكانت مريمة قد تعرفت إلى فضة حين جاءتها لاستلام ما طلبه دون بدرو من الكعك. وبعد زيارتين أو ثلاث نمت الألفة بينهما، فحكت لها فضة حكايتها. قالت :

«نحن في الأصل من بلاد السود. جاء منها جدنا الأكبر، وكان صبيا في العاشرة من عمره حين سرقه تجار العبيد، ونقلوه إلى غرناطة، وباعوه لملك من ملوكها، فعاش كما عاش أولاده من بعده في الحمراء يخدمون في قصورها. ولما خرج آخر ملوك المسلمين من غرناطة، قال : «لا غنى لي عن جمال» وجمال هذا هو جدي، وتقول جدتي إنه سُمّي بهذا الاسم لأنه كان يفوق كل أترابه حسنا. كان بهيّ الوجه، له عود سمهريّ، وصوت عذب، ويغني. أخذه الملك مع من أخذهم من العبيد ساعة الرحيل، أما جدتي وأمي ـ وكانت

ابنة عامين ـ وخالي الذي ولد بعد ذلك بثلاثة شهور فأصبحوا من الغنائم، وصاروا ملكا لعائلة دون بدرو إذ كان جده من الفرسان الذين شاركوا في الحرب.

تزوجت ابن خالي وعشنا في أمان الله، ولم يكن دون بدرو يضن علينا بالطعام أو يضربنا أو يثقل علينا بما لا نطيق من العمل الشاق. ولكن ابن خالي كان معتدا بنفسه، يظل يكرر: «لا أريد حياة العبيد» أهدّئه وأقول: «لا نملك سوى هذه الحياة، قسمها الله لنا فلنعش ولنقبل بالمقدّر لنا من النصيب» لم يقبل، تركني وترك ابنه وهرب. انتظرت شهورا ثم أعواما لعله يعود أو يرسل لي بمن يخبرني عن مكانه، ثم لم أعد أنتظر. والحمد لله على أي حال، عندي فيديريكو، والولد، يا خالة مريمة، نعمة من نعم الله على الإنسان. ودون بدرو أقل شراسة من غيره من الأسياد. تتلبد السماء بالغيوم أحيانا وتظلم، ولكنها أيضا تشرق في أحيان أخرى... أليس كذلك؟!

استعادت مريمة ما قالته فضة في ذلك الحديث الحميم الذي دار بينهما منذ شهور، وتطلعت إلى وجه المرأة الجالسة بجوارها فوجدته عذبا وقويا وخاليا من كل مرارة فتساءلت كيف؟!

٨

مّر بهم نعيم ذات يوم فألقى عليهم التحية. ردوا تحيته ودعوه لمشاركتهم جلستهم. كانوا يقاربونه في العمر. منهم من تجاوز السبعين مثله، ومنهم الأصغر قليلا. يلتقون يوميا حين تنكسر حدة الشمس فتميل إلى الغروب، يقرفصون في زاوية من ساحة سان سلفادور، يأتنسون بالحديث وبمتابعة حركة الرائحين والغادين.

حين تضيق بنعيم الجدران أو يتشاجر مع مريمة أو حسن يذهب إليهم، يقرفص بجوارهم صامتا، ينصت لكلامهم أو لا ينصت، يحشو غليونه بأوراق التبغ، وينفث منه الدخان.

في ذلك المساء، وعلى غير عادته، تحدث نعيم. كانوا يتكلمون عن القرار الجديد الذي يقضي بتسليم أيّ كتب لم يسبق الإبلاغ عنها. قال نعيم:

ـ أنا شاهدت حرق الكتب. كنت صبيا صغيرا أعمل عند أبي جعفر الورّاق. وكان أبو جعفر ـ رحمه الله ـ رجلا بلا مثيل، رباني وعلمني تغليف الكتب. كانوا يأتون له بالأوراق مفروطة تتطاير مع أول هبة ريح فيرتبها، ويخيط كعبها، ويصنع لها غلافا ينتقي خامته بحرص. يخرج الكتاب من بين يديه مغلفا بجلد ملمسه كالحرير، أخضر حشيشيّ، أو قرمزيّ أحمر، أو أزرق كصفحة البحر الكحليّ الصريح، مزينا بنقش العنوان ومنمنمات الزخارف. ثم جمعوا الكتب وأحرقوها في باب الرملة. أحرقوا كتبا كثيرة، ولكن الوراقين عرفوا بالخبر قبلها فأنقذوا الكثير من الكتب أيضا. هرّبنا الكتب في

الصناديق والأجولة والسلال، نقلناها في السر إلى الأقبية، والكهوف والمخابئ.

- قبل بضع سنوات اشترى رجل من القشتاليين بيتا قديما، وشرع في هدمه لكي يبني مكانه. وذات صباح، والعمال يضربون بمعاولهم في جدار، تساقطت مع الأحجار الكتب والأوراق، وجاء موظفو الديوان، وتحرزوا على الكتب، وقبضوا على بائع الدار فأنكر الرجل التهمة، وقال إنه ولد بعد قرار منع الكتب بأكثر من عشرين عاما، وقد يكون جده أو أبوه، وكلاهما رحل منذ سنين، هو المسئول عن إخفاء الكتب.

- ما نفع الكتب الآن؟ لم يعد أحد يعرف العربية!

- أنزل الله القرآن باللغة العربية وسيحفظها لأنها لغة كتابه، وهذه الأيام الصعبة . . .

لم يعد نعيم يتابع الكلام، شرد ذهنه ثم قام. قال:

- تصبحون على خير.

سار في اتجاه البيت، ولكنه ما أن انعطف إلى مدخل الحارة حتى سمع من يناديه، التفت. كان أحد الرجال الجالسين في الساحة قد لحق به.

- هل لي أن أقصدك في خدمة؟

- خدمة؟!

- لديّ مخطوط أخشى عليه من التلف وأريد تجليده.

- أحضره لي فأغلفه لك.

- ولكن . . .

- لا أريد منك أجرا.

ـ ليس هذا ما أقصده. أرجو أن تراعي الكتمان، فامتلاك مخطوط من هذا النوع قد يؤدّي بصاحبه إلى التهلكة.

ـ اطمئن، سأحفظ السر.

بات نعيم متوقدا بمهمته، منشغلا بما ينوي شراءه من مستلزمات: قطعة من الجلد، ومخراز، وخيوط قوية... وماذا أيضا؟

في الصباح حمل له الرجل المخطوط ملفوفا في ثوب قديم، ولما فتحه نعيم وقلّب الأوراق استغرب. لم يكن مخطوطا واحدا بل مخطوطات، بعضها لا يتجاوز ورقات معدودة، وتتفاوت في نوع الورق وحجمه والحبر المستخدم، ومنها المكتوب بخط جميل، ومنها المقروء بالكاد.

قرر نعيم أن يؤجل عمله حتى يستجلي الأمر من صاحب الأوراق. في المساء خرج إلى الساحة وانتحى بالرجل جانبا وسأله، فقال:

ـ هذا كل ما أملكه من أوراق، بعضها ورثته عن أبي، وبعضها اشتريته، ومنها ما نسخته بيدي. أريد أن أضمها جميعا في كتاب واحد حتى يسهل عليّ حفظها وإخفاؤها، أو حملها معي لكي أشارك الآخرين في الاستفادة مما فيها.

عاد نعيم إلى الدار ورتب أوراق المخطوط. جعل الآيات القرآنية في الأول، تليها الأحاديث النبوية ثم الأوراق التي تحمل أسئلة وأجوبة في أمور الدين، وأخيرا الأدعية والابتهالات.

خاط الكعب، وقص الغلاف وثبته في الكتاب بلصقه، ثم أمسك بالريشة ليكتب العنوان. توقف وجلا. أحضر ورقة وجرّب خطه. لو كتبت العنوان بهذا الخط سأفسد الغلاف الجميل الذي صنعته. ما العمل؟ قصد حسن:

ـ هل خرجت مريمة إلى السوق؟

ـ خرجت.

ـ والصغير في المدرسة؟

ـ في المدرسة .

أتى نعيم بالكتاب والريشة والمحبرة .

ـ اكتب لي عنوانا لهذا الكتاب .

ـ كتاب . . . من أين لك به؟

حكى له . قلّب حسن الأوراق ثم قال :

ـ سأكتب لك العنوان ولكن عليك بالحرص الشديد وأنت تعيده لصاحبه ، وإلا وقعت معه في شراك الديوان .

كتب حسن العنوان ، ثم حمل نعيم الكتاب ولفه بالثوب القديم نفسه وأخفاه في ردائه ومشى إلى الساحة . نادى الرجل فقام من بين الرجال الجالسين ثم سارا مبتعدين ، ولما تأكدا من خلو المكان أبرز نعيم الكتاب في زهو فأخذه الرجل وأخفاه ، وقبل رأس نعيم وقال :

ـ لن أنسى هذا المعروف أبدا .

من الذي أفشى السر؟ لم يقل نعيم سوى لحسن ، وحسن مقعد في الدار لايغادرها . هل أخبر مريمة فوشت بالأمر لرجال الديوان؟! وكيف عرفت مريمة اسم الرجل وكيف حددته من بين الآخرين؟

ألقى رجال ديوان التحقيق القبض على صاحب الكتاب ، فهل شاهده أحد وهو يسلم لنعيم المخطوط أو يتسلمه منه؟ فلماذا إذن لم يقبضوا إلا عليه؟ يذهب نعيم كل يوم إلى الساحة ويجلس بين الرجال . يسأل :

ـ هل من جديد؟

ـ لا جديد!

بعد شهرين أفرج الديوان عن الرجل. قال إنه لا يعرف اللغة العربية، وليس الكتاب سوى ذكرى من والديه يجهل المكتوب فيه، وشهد قس الناحية أن الرجل صالح يحضر القداس بانتظام، ولا يبخل بالمال المطلوب لخدمة الرب. اكتفى محققو الديوان بمعاقبته بمائتي جلدة ثم أخلوا سبيله.

وصل الخبر إلى الساحة قبل أن يظهر الرجل ليشارك الرجال جلستهم. ثم رآه نعيم بعدها بيومين يتوسط حلقة الرجال فأقبل عليه منشرحا، ومال عليه ليحتضنه مهنئا بالسلامة، ولكن صاحب الكتاب مدّ يده على امتدادها وصافح نعيم كأنه يقصد ألا يقترب منه أكثر. ما الذي جرى؟! كفّ الرجال عن الضحك وعن الكلام وتحاشوا التقاء العيون؟!

تركهم نعيم وعاد إلى الدار، وما أن دلف من الباب حتى اندفع كالسهم إلى حسن.

-يعتقدون أنني أفشيت السر. خنتني يا كلب فوشت مريمة لرجال الديوان. لعنة الله عليك وعلى مريمة وعلى اليوم الذي أقمت معكما فيه!

كان وجهه محتقنا، وعروقه نافرة، وصوته يهدر بالصياح. وقبل أن يفهم حسن ما الحكاية أو يتغلّب على دهشته من سلوك نعيم فيتمكن من الكلام، كان نعيم قد صرّ أغراضه القليلة في منديل حمله وغادر الدار وهو يكرر بلا توقف: «نعيم لا يخون!».

هل يعود إليهم ويفهمهم أنهم مخطئون. لن يذهب، لا يرغب في صحبتهم أو معرفتهم أو رؤيتهم. أهانوه بالشك فيه فكيف يذهب إليهم بقدميه؟! لعنة الله عليهم جميعا وعلى غرناطة. لماذا عاد؟ هذه مدينة غريبة لا يعرف أحدا فيها سوى رجل وامرأته، ومريمة أحقر من زوجها. ليسوا أهله. أهله هناك وراء البحر، يحبونه ولايرتابون فيه. غداً يركب أول سفينة مغادرة ويعود إلى أرضه هناك. يجد مايا وأولاده وأهله الطيبين. يعيش بينهم،

ويموت بينهم فيبكون عليه ويدفنونه بجوار مايا وابنه هلال. ما الذي أتى به ليعيش هنا غريبا بين الغرباء؟ سيسافر وعندما يصل سيجد امرأة تشبه مايا ويتزوجها فتنجب له صبية عديدين. وستحيك له امرأته ثيابا جديدة. بليت ثيابه وكثرت الرقع فيها ولكن ما العمل؟! هل يخلعها ويسير عاريا كالمعتوهين؟! حين يتزوج ستفصل له زوجته ملابس مطابقة لثيابه، ملابس جديدة. ما أن يطلع النهار حتى يغادر هذه المخروبة غرناطة ويمشي إلى مالقة أو المرّية ويركب السفينة. سيتدبر أمر النقود. يعمل في السفينة أو يسرق متجرا على الطريق ويدبر اللازم من النقود ليعود إلى مايا وابنه هلال.

وجدته مريمة نائما في ظل جدار قديم. صرته تحت رأسه وشمس الضحى تقدح في السماء. فتح عينيه فرآها:

- لماذا أفشيت السر يا مريمة؟

- أيّ سر يا نعيم؟

- سر الكتاب!

- أيّ كتاب؟!

- ألم يخبرك حسن؟

- أخبرني أنك أمس عدت غاضبا إلى الدار وحملت أغراضك وذهبت. قلنا يعود بعد المغرب، ثم قلنا يعود بعد العشاء، وتأخر الوقت ولم تعد. ولما أصبح الصبح اشتد بنا القلق. سرت في اتجاه، وسار عليّ في اتجاه غيره، وذهب ابن فضة إلى ناحية ثالثة نبحث عنك...

- أنا أسألك عن الكتاب؟

- اللهم طوّلك يا روح. أيّ كتاب يا نعيم؟

- هل تقسمين على المصحف؟

ـ لماذا أقسم على المصحف؟!

ـ لن أعود إلى الدار إلا إذا أقسمت أنك لا تعرفين شيئا عن الكتاب الذي غلفته.

سايرته فقبل أن يمشي معها عائدا إلى الدار. ولكن عندما وصلا توقف بالباب وأصرّ أن تأتي بالمصحف وتقسم قبل أن يدخل.

ـ وهل هذا يعقل يا نعيم؟ ماذا لو مرّ غريب فرأى بين أيدينا مصحفا.

حرن كالبغال فدخلت مريمة وجاءت بمصحفها الأخضر مخبأ في ثوبها... وضعت يدها عليه، وأقسمت ثم دخلت إلى الدار فتبعها.

٩

استبدت الشمس بالمدينة فسلّطت عليها قيظا على قيظ. الطرقات كالنار، والدور خانقة تشربت جدرانها بالحرارة فأطبقت على الأنفاس. وكان حسن يشكو من آلام في صدره، وقدّرت مريمة أن هواء عين الدمع يفيده.

تركوا البيازين وفي نيتهم أن يقضوا أسبوعين أو ثلاثة في عين الدمع، ولكن حسن، بعد يوم واحد من وصوله، قال إنه يريد العودة إلى البيازين.

ـ ولكننا تركناها أمس!

ـ أريد أن أموت في البيازين!

ـ يا أبا هشام ستشفى وتقوم معافى وبألف خير. لم نعرف صيفا بهذه القسوة، أتعبتك شدة الحرارة، وهواء عين الدمع، إن شاء الله، يشفيك.

بكى حسن وقال:

ـ بالله عليك يا مريمة أعيديني إلى البيازين.

ـ بعد يومين أو ثلاثة نتفق مع مكاريّ ينقلنا إلى هناك.

ـ أريد العودة اليوم.

ـ غدا إن شاء الله.

ـ أريد أن أشرب من ماء النبع.

ـ ماء البئر بارد ولا ملوحة فيه، لحظة وآتي لك بالجرة.

كان نعيم يقرفص في جانب من الحجرة. وكان صامتا حتى أن مريمة نسيت أنه موجود. فاجأها بالكلام:

ـ لماذا تقسين على زوجك يا مريمة؟ يشتهي ماء النبع فلنعطه ما يشتهيه. يا عليّ. . . تعال.

قام نعيم وأتى بجرة فارغة وناولها لعلي.

ـ خذ هذه الجرة واذهب إلى النبع وعد بسرعة، لا تتأخر يا عليّ.

كان وجه حسن شاحبا وكذلك وجه نعيم. أخذ عليّ الجرة وطار إلى العين. لم تكن قريبة. كانت الطريق، حين يجد عليّ من يذهب معه من الصبية فيلعبون قليلا ويتراشقون بماء العين قليلا، تستغرق نصف نهار. ولكن عليّا أطلق ساقيه وظل يركض حتى وصل إلى العين. ملأ الجرة ثم استدار وعاد أدراجه في الحال. لم يكن بإمكانه أن يركض في طريق العودة خشية أن تسقط الجرة فتنكسر، أو ينسكب ما فيها من الماء. سار بخطى حثيثة. قبل أن يصل إلى الدار وجد نعيم واقفا ينتظر. حمل عنه الجرة ودخل على حسن وعاونه على الشرب منها.

أمضى حسن ليلته يئن. سألته مريمة.

ـ ما بك يا أبا هشام، ما الذي يؤلمك، لماذا تئن؟

قال:

ـ أفرِّج عن نفسي يا مريمة.

ظل نعيم مقرفصا في الزاوية، شاردا لا يتحدث.

ـ قم يا نعيم لتنام.

- لا أريد أن أنام.

في الصباح حملتهم عربة إلى البيازين. سأل حسن الحوذيّ:

- هل تأخذنا إلى بالنسية؟

- بالنسية بعيدة، آخذكم إلى عين الدمع.

بكى حسن، وقال إنه يريد أن يرى بناته. ذكرته مريمة أن أربعة من بناته رحلن منذ سنين إلى فاس، ولم يبق في بالنسية سوى واحدة. ولكن حسن واصل البكاء.

صاح نعيم في مريمة.

- إنه يرغب في رؤية بناته، لماذا تحرمينه منهن؟!

خاطب الحوذيّ.

- لا تذهب إلى البيازين، خذنا إلى بالنسية.

حدقت مريمة في نعيم. هل كان ينقصها كلام هذا المجنون... كيف يذهبون إلى بالنسية ولا يحملون تصريحا بمغادرة غرناطة؟!

هذا الحوذيّ فطن. ظل صامتا ولم يجب على ما لا يعقل من الكلام.

تطلعت إلى حسن. كان واهنا، شاحب الوجه، يستند إلى كتف نعيم الذي كان يحيطه بذراعيه، ذراعه اليمنى حول كتفه واليسرى على صدره. قال نعيم فجأة:

- تعالي يا مريمة اجلسي مكاني.

قام وبقي منحنيا على حسن ممسكا به حتى جلست مريمة مكانه وأحاطت زوجها بذراعيها مثلما كان يحيطه.

خطا نعيم ثلاث خطوات أوصلته إلى مؤخرة العربة. أعطاهم ظهره وراح يحدق في الطريق التي يخلفونها وراءهم ويتحدث مع شخص لا أثر له. بدأ الحديث هامسا ثم صار مسموعا. وكان عليّ يتطلع وينصت فلا يرى سوى ظهر نعيم وجزء جانبيّ من وجهه. أما ما يقوله من كلام فلم يكن مترابطا ولا مفهوما، ثم بدأ نعيم يحرك ذراعيه كأنه يتعارك مع الفضاء، أو يدفع عن نفسه طيورا جارحة تنقض عليه.

في الأسابيع التالية صار حسن يخلط بين مريمة وسليمة، ويسمي نعيما سعدا، ويتطلع إلى عليّ بنظرة حائرة متسائلة كأنه لا يعرفه ولم يره أبدا من قبل. ثم عاد لا يتعرف على أحد من أهل الدار، وإن هو إلاّ يوما ونصف يوم، حتىّ مات.

قالت مريمة لنعيم:

- ألن تودع صاحبك إلى قبره؟!

كان يقرفص تحت شجرة التين. جاء الرجال وغسلوا حسن وكفّنوه، ونعيم منكمش في مكانه لا يتحرك. كررت مريمة عليه السؤال. قال:

- لن أدفن أحدا من أهلي بعد اليوم.

دفنت زوجتي، ودفنت ابني، يكفي!

- وهل ماتت زوجتك يا نعيم؟

قفز كالممسوس وعلا صوته:

- أقسم بالله أنني لم أر امرأة أكثر منك غباءً. اتركيني.

انهمرت دموع مريمة وأمسكت بيد عليّ وخرجت خلف حسن لتودعه إلى مثواه الأخير.

لم تملك مريمة أن تحزن بهدوء على موت زوجها. كان نعيم موتورا وساخطا، كل ساعة يصيح، وكل يوم يتشاجر.

هل تطرده من الدار؟ أين يذهب وهو شيخ مهدّم على مشارف الثمانين؟ ما العمل إذن ولم تعد تطيق الحزن وفوقه نعيم؟

لم تكن أربعون الحداد قد انقضت ولا صورة حسن قد غابت من حجرته ولا من رواق الدار، عندما انتبهت مريمة من نومها على صوت طفل رضيع. ترى ابن من من الجارات هذا الذي يبكي؟ كان الصوت قريبا كأنه يأتي من داخل الدار. حاولت مريمة أن تنام ولكن البكاء تواصل. من أين يأتي الصوت؟ خرجت إلى الباحة ثم دخلت غرفة نعيم.

- بسم الله الرحمن الرحيم، ما هذا يا نعيم؟

كان نعيم يحمل رضيعا يهزهزه، والصغير يبكي بحرقة على طريقة المواليد.

- ابن من هذا الوليد يا نعيم؟

- وجدته!

- أين وجدته؟

أشاح بيده ولم يجب عن سؤالها.

انهمكت مريمة في العناية بالصغير. غلت له منقوع الكراوية وشرّبته له بملعقة صغيرة، ثم أتت بشرشف قديم ومزقته واستخدمت جزءا منه قماطا بدلا من القماط المبلل، ثم هدهدت الرضيع حتى نام.

- أين وجدته يا نعيم؟

لا يجيب.

انتظرت مريمة طلوع النهار ثم خرجت لتستعلم من نساء الحي. كانت المرأة التي فقدت طفلها قد عادت إلى دارها مهدودة باكية بعد أن طافت بأزقة البيازين وخرج زوجها للسؤال في حواري غرناطة، ثم استأجر مناديا دار في كل مكان يعلن ضياع طفل رضيع لعل أحداً ممن يسمعه وجده أو رآه.

عادت مريمة مهرولة إلى الدار. لا حول ولا قوة إلاّ بالله. فقد نعيم عقله نهائيا وامتدت يده لسرقة طفل وليد. ما الذي تقوله لأمه، ولأهل الحيّ؟ الحقيقة، كيف؟ هل تفضح الرجل في آخر عمره، وتفضح نفسها؟

كان نعيم يغط في نوم عميق والصغير نائما بالقرب منه.

حملت مريمة الولد وعادت تهرول قاصدة بيت الأم.

ـ أين وجدته يا خالة مريمة؟

كان الأب هو الذي يسأل، أما الأم فكانت منهمكة في تحسس وليدها، وتفقد كل جزء فيه، والبكاء.

ـ نعيم أسعده الله، وجده يبكي على دكة حجرية في الطريق. وبالقرب منه رأى صبية يلعبون. سألهم: «ابن من هذا يا صغار؟». قالوا: «لا ندري» الأشقياء حملوه دون أن تنتبه أمه. وبّخهم نعيم وصاح فيهم فاعترف له صبيّ منهم أنهم حملوا الوليد ليداعبوه، وكانت أمه جالسة بالقرب منه تثرثر مع امرأة أخرى... ساروا بالصغير مبتعدين فلم تنتبه ولا هم انتبهوا إلى أنهم ابتعدوا، ولما بكى الولد غادروا به إلى حيث كانت تجلس أمه فلم يجدوها. بحثوا عنها ثم ملُّوا البحث فوضعوه على الدكة وانصرفوا إلى اللعب.

حمل نعيم الصغير وظل يسأل والولد بين يديه يبكي فعاد به إلى البيت، وقال لي: أطعميه يا مريمة وغيري له أقمطته المبللة والصباح رباح.

شكرها أهل الطفل ودعوا لنعيم بطول العمر والصحة والعافية والسعادة في الدارين، لأن الله لا يضيّع أجر من أحسن عملا.

عادت مريمة إلى البيت منهكة راضية لأن الله ستر، ولكن نعيم كان ينتظرها في باحة الدار متهيجا كالثور المذبوح. سبها وقال إنها سرّاقة، سرقت طفله هلال، ثم غادر البيت وهو يلعنها ويلعن غرناطة ويقول إنه راحل إلى بلاده هناك حيث زوجته وأولاده.

قررت مريمة أن تأخذه إلى البيمارستان، وتقول للقائمين عليه إن الرجل مجنون، وإنها لم تعد قادرة على رعايته. ولكن نعيم عاد في المساء وكان هادئا يتحدث ويسلك كالعقلاء، فقالت: لا يصح أن ألقي به في البيمارستان بين المجانين. كرامة لسعد أبقيه في الدار وأتحمله وأرعاه.

بعد أسبوعين مات نعيم. لم يمرض، فلم تقم مريمة بتمريضه وإطعامه، ولا بتحميمه بالماء الدافئ وتبديل ملابسه كلما قضى حاجته في ثيابه، كما كانت تفعل لحسن.

كان الطقس على حاله خانقا وحارا. تناولوا عشاءهم زيتا وزيتونا وهم جالسون في باحة الدار. قام نعيم فجأة وخطا مبتعدا عن الحصيرة، مال بجذعه وأفرغ ما في جوفه، ثم عاد وتمدد على الحصيرة بالقرب منهم وتمتم «يكفي... يكفي!».

قامت مريمة لتغلي له أوراق النعناع، ولما عادت وجدته نائما فلم توقظه. أخذت تتحدث مع علي بصوت خفيض، ثم غلبها النعاس. نادت على نعيم لينتقل إلى فراشه، لم يجب. هزته، ونادت بصوت أعلى ثم أطلقت صيحة ملوّعة.

توافد الجيران على الدار، وانهمكوا فيما يجب عمله، وانكمش عليّ مقرفصا تحت شجرة التين يفكر في نعيم الذي مات أمام عينيه وهو نائم بالقرب منه، يرتدي الملابس الغريبة العتيقة نفسها، التي رآه فيها يوم جاء من السفر. ثياب رثة لا تنتهي مريمة من رتقها وترقيعها. تشتري له غيرها فيتعلل أنها

واسعة أو ضيقة، أو صارخة اللون لا تليق برجل في عمره، أو قاتمة اللون تجثم على الأنفاس وتقبض القلب.

ذهب نعيم بثيابه وغليونه ورائحة دخانه، وحكايته الطويلة الواحدة التي تتسلسل أجزاؤها المرة بعد المرة. لم يكن ما يقصه عليه نعيم يشبه حكايات مريمة. كان يقص حكايته منذ مد له رجل أزرق العينين، فارع الطول، يده، وسأله: «ما اسمك يا ولد؟» واصطحبه إلى داره وطلب من زوجته أن تحممه، وأطعمه، وعلمه دباغة الجلد وتغليف الكتب. كان كل فصل من فصول حكايته يصور بشرا وأماكن ووقائع رأتها عيناه وعاش تفاصيلها. حدثه عن سعد الذي أتى من مالقة، وسليمة وهي تقرأ في الكتب وتداوي أوجاع الناس. حكى عن غرناطة العرب، وعن قرية على شاطئ بحر محيط مكسوة بأخضر نباتات كثيفة، إن تقارن غرناطة بها تَبْدُ لك غرناطة قاحلة جرداء، أمطارها وبل وسيول تجمّع في اليوم الواحد ما يهطل على الأندلس على مدار العام. هناك في القرية، يقول نعيم، له زوجة وأطفال ثلاثة ولدوا في ليال مقمرة فسمى أولهم «هلالاً»، والثاني «بدراً»، والثالثة «قمراً». «ولماذا تركت أولادك هناك يا جدي نعيم؟» «غدا أحكي لك» ولكنه في اليوم التالي يحدثه عن فصل آخر من فصول الحكاية.

١٠

عرض إرناندو بن عامر على مريمة أن يُشغّل حفيدها في متجره ويدرّبه على الحرفة مع ابنه خوسيه. وقال إنه لا يرى ضرورة في استمرار عليّ في المدرسة الإرسالية: «صار الولد في الثالثة عشرة من عمره، وحان الوقت الذي يعولك فيه بدلا من أن تعوليه». ثم قال وهو يستعد للانصراف:

ـ اطمأني يا أم هشام. سأرعى عليا رعايتي لابني.

شكرته ورافقته إلى الباب، ثم حسمت أمرها وقالت:

ـ هل أطمع في مزيد من كرمك يا أبا خوسيه؟

ـ أستغفر الله يا أم هشام، أنتم أصل الكرم وجميلكم أسبق.

ـ لي صديقة اسمها فضة تخدم في بيت الدون بدرو المتنفذ في مستشارية غرناطة، ولها ابن يكبر عليا بعامين وهي تبحث له عن عمل.

ـ ليأت مع عليّ فأراه وأقرر إن كان يصلح للعمل عندي.

شكرته مريمة مرة أخرى، وودعته وهي تدعو له بطول العمر، وموفور الصحة، والبركة في المال والعيال، وكانت دعواتها له من قلب القلب، إذ كان الرجل يقدم مع كل يوم دليلا جديدا على كرم أخلاقه، ولم ينس بعد كل هذه السنين أن سليمة، في يوم بعيد من الأيام، شفت أمه من مرض هدد حياتها، فلما قامت معافاةً امتدت أواصر الودّ بين دار ابن عامر ودار أبي جعفر، وحفظ إرناندو، بعد موت أبيه وأمه، العهد فلم يقصر يوما في فرح أو أحزان.

يزورهم في الأعياد والمواسم، ويقدم واجب التهنئة والعزاء كلما توجب هذا أو ذاك.

أعطاه الله بقدر صفاء نيّته، وأنعم وتفضّل. ورث إرناندو عن أبيه ثروة ضاعفها فصار من أثرياء البيازين، يملك فضلا عن الدار التي يسكنها ثلاث دور أخرى وطاحونتين وأربعة متاجر، ثلاثة منها في السقاطين وواحدًا في الصنادقية يدير منه عمله وتجارته. وكان من بين قلة من العرب القادرين على الاحتفاظ بخدم في بيوتهم. كانت داره بخدمها الأربعة، وكرمتها الغناء، والحصانين الأصيلين اللذين يستبدل ركوبهما، شاهدة على يسره ومكانته.

قالت مريمة لعليّ:

ـ مبروك يا علي. غدا تذهب إلى العمل وتخطو أولى خطواتك على طريق الرجال.

قال:

ـ أحب أبا خوسيه ولكنني لا أطيق خوسيه، إنه مقرف وثقيل الظل.

ـ ستقربكما رفقة العمل فتأتلفان وتتصادقان.

حين أصبح الصبح خرج عليّ قاصدا عمله الجديد. لم يتجه يسارا ليخرج من الحارة، بل مشى في الاتجاه المعاكس حيث دار إرناندو بن عامر. رفع ذراعه وأمسك بالسقاطة وطرق بها الباب، وانتظر آملا أن تفتح له وردة فيصطبح بوجهها، ويتبادل معها ولو كلمات قليلة عابرة. فتح خادم الباب فسأل عليّ عن خوسيه ولم ينبه سوى صحبة ثقيل الظل حتى وصلا إلى رصيف حدره حيث دار الدون بدرو. طرق علي الباب الجانبيّ الصغير الذي يفتح على مسكن الخدم، فخرج إليهما ابن فضة، وتوجهوا إلى السوق.

كان متجر إرناندو بن عامر يقع في حومة من الحومات المتفرعة من سوق الحرير بالقيصرية، حارة ضيِّقة تصطف على جوانبها حوانيت المصنوعات

الخشبية والصناديق المعروضة لا تترك للسائرين في الحارة سوى ما يسمح بمرور شخصين متكاتفين.

قابلهم إرناندو في الحانوت، ثم انفرد بابن فضة يسأله ويتحدث معه، ثم قاد ثلاثتهم عبر باب خلفيّ إلى فناء مربع واسع يعمل فيه النجارون، ينشرون ويخرطون ويدقون أو يحفرون على الخشب أو يطعمونه بالصدف أو العاج. أسلمهم إرناندو إلى كهل أسمر قال إن اسمه صدِّيق، وإنه سيباشر تعليمهم.

في ذلك اليوم الأول علّمهم صدِّيق تمييز أنواع الخشب، خشب الجوز، والبلوط، والصنوبر، والأرز والزان، وما يختص به كل نوع من الصفات والمزايا، كما سمح لهم بأن يُعمل كل منهم المنشار في قطعة من الخشب، وأن يدق بعض المسامير موجها للطريقة المثلى التي تحول دون انثناء المسمار أو سقوط المطرقة على الأصابع.

أقبل عليّ على الذهاب إلى عمله، وواظب على المرور بخوسيه كل صباح لعله يرى وردة. يمر يومان وثلاثة وأحيانا أربعة دون أن يراها، ثم تفتح الباب فتتعلق عيناه بوجهها، وتتسمر قدماه في الأرض، وينعقد لسانه. كانت هي أيضا قد كبرت وبقي وجهها وضاء وعيناها سوداوين يعلوهما حاجبان ثقيلان سوادهما من سواد شعرها المموج الكثيف. ابتسامتها ترد الروح، لكنها كالحلم الجميل تختفي في لمحة عين. تقول: «صباح الخير يا عليّ، كيف حال جدتك، سأنادي خوسيه» وتذهب ركضا. لماذا تذهب ركضا؟! ويلازمه خوسيه من الصبح حتى المساء فيتناساه حتى ينساه. يتحدث مع صدِّيق أو ابن فضة، وينهمك في حرفته الجديدة، ويكتشف مع كل يوم المدهش والمثير. ليس خرط الخشب وتثبيته بالمسامير أو الغراء، بل العمل الدقيق المنمنم الذي يراقبه بعينيه، وكأنما تركزت فيهما حواسه الخمس. يتحرق أن يسمح له صدِّيق بأن يقوم بمثله: الزخرفة بالحفر حفرا مائلا أو مشطوفا فتتشكل على الخشب فروع أو خطوط أو رسم نخلة أو أسد أو طيرين متقابلين.

أحب عليّ عمله، ثم أحبه أكثر لمنزلة هبطت عليه ذات يوم، مصادفة.

كان صديق قد تلقى رسالة من ابن عم له في تونس، أمسكها وأخذ يقلبها ويلعن الزمان الذي جعله يجهل لغة أجداده. قال:

- لا أحد منا يقرأ العربية ولا حتى إرناندو!

قال له عليّ:

- هاتها أقرؤها لك.

حدق فيه مصعوقا.

- وهل تقرأ العربية؟!

- أقرؤها.

- ومن علمها لك وأين ومتى؟

- علمها لي جدي أبو هشام رحمه الله.

سرى الخبر همسا في الحانوت، ثم في حارة الصنادقية فعلم به بعض تجار القيصرية العرب، فصاروا يطلبون منه أن يكتب لهم رسالة لقريب في فاس، أو ابنة في تطوان، أو صديق في تونس، وأحيانا يدعوه أحدهم إلى داره ليطلعه على كتاب قديم، أو حجة أرض أو عقار، أو أوراق ورثها عن أبيه أو جده، ويعرف في الغالب مضمونها ويحفظه حفظا، ولكنه يريد أن يتيقن أن الذاكرة بخير لا تخون.

يذهب عليّ إلى عمله ويعود منه فيرى قبل أن يصل إلى البيت الورد الدمشقيّ متفتحا نضرا، يُزيّن حافة النافذة المطلة على الحارة. ووراء الورد وجه جدته، متغضنا، وساهما، وينتظر. يشاركها العشاء، ويحكي لها بعض تفاصيل يومه، ثم يدخل لينام فيحلم بوردة فيخرج في الصباح آملا في لقائها. يراها فينشرح صدره أو لا يراها فيمضي كسير الخاطر. ولكن التلة تراوده بمتعة

الركض في المنحنى، وتلجم خطوته هيبته الجديدة ما دام فتى أو شك على إتمام عامه الرابع عشر، يسعى سعي الرجال ويعول جدته، ويكتسب مع كل يوم مهارات جديدة تجعل صدِّيق يثني عليه، ويشيد بفطنته ودقته.

بعد عام واحد من التحاقه بالعمل عاش عليّ فرحة أول صندوق صنعه بيديه. صندوق خشبيّ صغير لا يزيد ارتفاعه على متر؛ صنعه من خشب الجوز وزين غطاءه وجوانبه بكسوة من رقائق النحاس المفرغة بأشكال نباتية.

قص شرائط من رقائق النحاس المطروق، لا يزيد عرض كل شريط منها على عقلتي الأصبع، وتتفاوت أطوالها بطول الصندوق وعرضه وارتفاعه. وانهمك أياما في تفريغ النحاس بزخرف نباتيّ وحفر قليل. وعندما انتهى من ذلك ثبت الشرائط لتصبح إطارا لغطاء الصندوق وواجهته. وزين مستطيل الخشب داخل كل إطار بثلاث وحدات كالورد، قوام كل وحدة منها خمسة مسامير نحاسية تتجاور رءوسها مُقبّبة مدوّرة، ومن المسامير نفسها صنع إفريزا مستقيما يثني على شريط النحاس ويفصل بينها وبين مستطيل الخشب. أنجز ذلك على غطاء الصندوق ثم كرره على واجهته.

حين انتهى من عمله قفز في الهواء كالممسوس، ثم ضحك، ثم تأمل الصندوق. هل هو فعلا جميل؟ أربكه السؤال لحظة. اضطرب، ثم صاح: إنه جميل! وحمله وطار به ليفرج كل من يعملون في المكان. صحيح أنه قلد صندوقا آخر أكبر حجما في المتجر، واستعان بصدِّيق كلما واجهته مشكلة، ولكن الصندوق كان من صنع يديه بالكامل منذ كان قطعة من الخشب المصمت، ورقيقة من نحاس ومسامير مفروطة، إلى أن أصبح ذلك الشيء البهيج الذي لا يمل تأمله أو التحدث عنه.

ولما وضع إرناندو الصندوق على قطعة من المخمل الأخضر وعرضه في مدخل المتجر امتلأ عليّ زهوا وانتشاء، وألحت عليه الرغبة في أن يطير بالصندوق ليريه لجدته ولوردة ولأنطونيو، وأيضا للجيران. أراد أن يطلب ذلك من إرناندو ولكنه استحى.

١١

لم يرصد عليّ بوادر العاصفة ولا التقط علامة تمهد لها حتى في ذلك اليوم الأول من العام الجديد، حين شق موكب القضاة المدينة يسبقهم قارعو الطبول، ونافخو المزامير، وحاملو الأعلام القشتالية. أذاعوا المرسوم على الناس وعلَّقوه في ساحة باب الرملة، وكان المرسوم يقضي بحظر استخدام اللغة العربية في الكتابة والتخاطب، في المحافل والبيوت، ويمنع الاحتفاظ بالألقاب العربية، واللباس العربيّ، والحمامات العامة، والرقص والغناء، وكل العادات المرتبطة بأبناء العرب. ويقضي بترك أبواب الدور مفتوحة في أيام الأعياد والخميس والجمعة ضمانا لالتزام الناس بنبذ المحظورات.

بدا لعليّ أن القانون مجرد محاولة لتجديد القوانين القديمة التي كثيرا ما كان يشير لها جده وجدته، والتي لم يعد أحد يلتزم بها، ولكن المرسوم أثار بين تجار الصنادقية والعاملين بها قلقا وتوجسا، واضطربت مريمة اضطرابا شديدا عند سماعها به، وراحت تسأل عليّا عن تفاصيله وتعلن استياءها ثم تعود تستفسر: «كيف يقول المرسوم إن على نساء غرناطة أن يكشفن وجوههن؟! نساء المدينة سافرات منذ أجيال، حتى جدتي لم تكن تغطي وجهها، ونساء القرى محجبات فأيّ أذى يلحقه حجابهن بالملك؟!»، «الثوب الحرير لا يبلى في عام واحد، والثوب الصوف يدوم عامين وثلاثة وأحيانا أربعة، ولي ملف صوفيّ أستخدمه من عشر سنين، فكيف لا يسمح لنا المرسوم إلا بعام واحد لاستخدام أثوابنا الحريرية، وعامين للأثواب الصوفية؟!»، «أنت تتقن القشتالية، ولكني لا أتقنها وحين أتحدث بها أشعر أنني بنصف لسان، فكيف أتحدث معك هنا في

داري بلغة غير لغتي؟!»، «ما الذي نفعله في رمضان، هل نغلق الباب علينا، رغم الحظر، ساعة الإفطار، أم نؤجل إفطارنا إلى ما بعد العشاء، ونتناوله سرا بعد أن نغلق أبواب الدار ساعة النوم؟!».

لا تتوقف مريمة عن الأسئلة، ويضرب إرناندو بن عامر كفا بكف وهو يعيد على العاملين معه ما قاله أوروتسكو راعي كنيسة سان سلفادور حين دعا أعيان غرناطة والبيازين: «طلب منا أن نقنع الأهالي بضرورة الطاعة لأن الملك يريد ذلك، ولأن العصيان ليس من صالحهم، وقال إن قيامنا بهذه المهمة يكسبنا لدى الملك حظوة، وألمح إلى ما قد يغدقه البلاط علينا من مناصب وتشريفات إن.قمنا بالمطلوب. فقلنا له إن أحدا منا لا يجرؤ على ذلك، فالأهالي غاضبون وسيرجمون بالحجارة كل من يدافع عن هذا المرسوم».

يضرب إرناندو بن عامر كفا بكف ويسب أوروتسكو وملوك الروم، وملوك المسلمين، والزمن الجائر الذي ولى هؤلاء وأولئك. ولكنه بعد يومين دخل المتجر وبدا مستبشرا، وقال إن الوجهاء قد كلفوا مولاي فرانسيسكو نونييز بالتظلم باسم الأهالي لرئيس المحكمة العليا، وإن الرجل كتب رسالة بلغته ستقنع السلطات وتحل المشكلة.

شاع أمر الرسالة في الصنادقية والقيصرية والسقّاطين، والأسواق المجاورة، ثم عرفت تفاصيلها من صديق مقرب من فرانسيسكو نونييز، قرأها بنفسه مرتين، فنقلها عنه الناس ثم تناقلوها.

بشَّر عليّ جدته وقال لها إن كل من في السوق من أولاد العرب مستبشرون خيرا بمسعى الرجل ورسالته.

ـ قل لي ما الذي كتبه الرجل في رسالته.

ـ قال إن الملابس التي ترتديها نساء العرب ملابس شعبية شاعت بينهن ليس لأنهن مسلمات، بل لأنها محلية ترتبط بالأرياف والمناطق التي يعشن فيها.

ـ وما الذي يعنيه هذا الكلام؟

ـ يعني أن نساء العرب تعوَّدن على هذه الملابس، وأن ارتداءها جزء من طريقتهن في الحياة.

ـ صحيح، وماذا أيضا؟

ـ وقال إن نساءنا يحتفظن بثيابهن من العام للعام، وأحيانا لسنوات متصلة، ولا يملكن شراء ملابس جديدة.

ـ هذا ما قلته لك. ألم أقل لك هذا الكلام؟

ـ وقال أيضا إن ترك أبواب الدور مفتوحة قرار جائر، لأنه يشجع اللصوص والمتطفلين، وإن كان الهدف هو منع الأهالي من ممارسة عاداتهم العربية، فهذا القرار لايجدي لأن بالإمكان فعل ذلك أثناء الليل.

ـ هذا الرجل محترم، وكلامه حكيم! ماذا قال غير ذلك؟

ـ قال إن قرار إغلاق الحمامات خطأ فهي مكان للاغتسال يستفيد من وجوده العرب وغير العرب، وإن الطبل والزمر وليالي السمر لا ترتبط بالإسلام تحديدا، ولا تتنافى مع المسيحية. وقال إن إلغاء الألقاب العربية أمر غريب، لأن الناس تعرف أصولها بألقابها التي توارثتها ولم تخترها.

ـ لم يقل شيئًا عن حظر الكلام باللغة العربية؟

ـ قال يا جدتي، قال: كيف نحرم الأهالي من اللغة التي ولدوا وتربوا عليها؟! وقال إن أهالي القرى والجبال لم يسمعوا أحدًا يتحدث بالأعجمية التي يجهلونها تماما، لأنه حتى القسس في تلك الأماكن النائية يتحدثون العربية، ثم إن هناك في المدن أيضا من المسنين من لا يعرف سوى العربية، ولا يستطيع في هذه العمر أن يتعلم لغة جديدة.

كانت مريمة تهز رأسها موافقة على الكلام، متأثرة بهذا الجزء الأخير منه، كأن الرجل لم ينسها فقصد أن يشير إليها بالتحديد.

ـ أما نهاية الرسالة يا جدتي فهي قوية للغاية، حتى إن الشباب في الصنادقية صفقوا وهتفوا وهم يستمعون إليها. قال إن هذا القرار فيه خراب، وإن الأهالي لا يستطيعون تحمله، وإن فرضه عليهم سيجعلهم يشردون إلى الجبال، ويشقون عصا الطاعة ويتمردون ويشعلون نار الفتنة.

ـ ما اسم الرجل الذي كتب الرسالة؟

ـ مولاي فرانسيسكو نونييز.

ـ اسمه غريب، ولكنه منا أليس كذلك؟

ـ طبعا يا جدتي.

كررت مريمة الاسم على نفسها حتى حفظته. وصارت تدعو للرجل الطيب كل صباح ومساء، وانشغلت بأمر الرسالة وعوّلت عليها حتى إنها كانت تسأل حفيدها ما أن يدخل الدار عائدا من عمله:

ـ ما الأخبار يا عليّ؟

فيجيبها:

ـ لا جديد يا جدتي!

لم يخبر عليّ جدته أن فرانسيسكو نونييز فشل في مسعاه. كان يراها تطعن في السن وتزداد وهنا فأشفق عليها من وقع الخبر، وكان أيضا ينتظر، مثل غيره، نتائج مساع أخرى لعل واحدا منها ينجح في حل المشكلة فيحمل لها، بدلا من الغمّ البشارة.

كان إرناندو بن عامر يأتي كل يوم بالجديد. يدخل عليهم وقد أضاء وجهه الأسمر المكتنز، وتألقت عيناه الصغيرتان وانفرجت أساريره. فيقول: «قبل رجل من القشتاليين بصاحبة اثنين من أعيان العرب، أحدهما من غرناطة والثاني من وادي آش، إلى مدريد لمقابلة الكاردينال والتشكّي للملك مباشرة»

وبعد أيام يجلس متكدرا، شاحب الوجه زائغ العينين، يقول: «عادوا بخفيّ حنين»، يقول: «فوضنا جماعة منا لمقابلة حاكم غرناطة، ومطالبته بكتابة مذكرة إلى الملك تشرح له الوضع الذي يهدد بإثارة الفتنة» ثم يعلن: «لا حياة لمن تنادي» ويظل رغم ذلك، متشبثا بذلك الدولاب الذي يرفعه لحظة، ثم يهبط به في اللحظة التالية. يراه صدِّيق ويسمعه فيهمس: «لا فائدة من وراء هذه المساعي، فكيف ينصفك عدوك، وكيف تتوقع أن يجيرك من المصائب من سببها لك؟ لا فائدة!» فيقول ابن فضة بصوت عال: «وما الحل؟!» فيضع صدِّيق يده على فمه ثم يعود يهمس: «ليس الآن، لدينا عمل» فيخشى عليّ أن يبشر جدته بالجديد الذي يصبح بعد أيام مقبضًا يثقل القلب. يتذكر كلمات صدِّيق فلا يرغب أن يُركب جدته ذلك الدولاب العجيب الذي يبهجها وهو يرفعها في العالي لكي يسقط بها فجأة إلى القاع. إنها تقارب الثمانين ولن تحتمل.

حجب عليّ عن جدته الأخبار المتداولة في السوق فلم ينقل إليها خبر القبض على أكثر من مائة من وجهاء غرناطة وتفتيش بعض الدور بحثا عن السلاح، ولا قال لها عن مهاجمة بعض العرب لعدد من الجنود والموظفين الرسميين.

يذهب عليّ إلى عمله كل صباح، لا يمر بدار إرناندو بن عامر لأن وردة لم تعد تفتح الباب، ولأنه لم يعد يطيق صحبة خوسيه.. يهبط التلة إلى عمله، ثم يصعدها عائدا إلى داره، وفي الحالتين يرى الحمراء، قلعة حكام البلد ومعقل جندهم ومخزن السلاح والبارود، كما يرى الجبال الممتدة من ورائها، تشرف عليها وتنيف، غائمة تغطي قممها الثلوج وتتلون مع الساعات والمواسم بألوان الصباح والمساء.

ما الذي حدث لكي يطوق الجند البيازين؟ في طريقه إلى عمله رأى الحراس المسلحين، لم يفهم فمر بابن فضة وسأله، لم يكن لديه جواب فقررا أن

يستطلعا الأمر قبل ذهابهما إلى السوق. صعدا التلة وسارا في أنحاء الحيّ. كان الجنود قد انتشروا عند أبوابه وأسواره وساحاته، والبعض منهم وقف على أسطح الدور يراقب، وفي ساحة باب البنود عسكر حشد كبير منهم. لم يقتربا من الساحة بل استدارا وهبطا في اتجاه السوق. كان الخبر قد سبقهم إليه والسؤال أيضا، فلا أحد يعرف لماذا طوّق الجند البيازين. وهمهم صدِّيق: «لابد أن أحدًا أخبرهم!»، «أخبرهم بماذا يا صدِّيق؟» تلعثم ثم قال في ضيق: «أخبرهم بما يعتمل في دواخلنا!».

ظل السؤال معلقا أياما حتى عُرف السبب، فتوارى القلق والخوف والضيق وراء فرحة عارمة عمت الأهالي، وتجلت في زهو العيون، والجذع المشدود، والضحكة المجلجلة.

لم يكن الوقت ربيعا بل شتاء قارسا، وانحدرت رغم ذلك أخبار الثورة كما الجداول والغدران والسقايا من جبال الثلج إلى المدينة، فطار عليّ إلى جدته يُبشرها: «اشتعلت الثورة في البشرات يا جدتي، واختار الثوار لنا ملكا بسطوا تحت قدميه أعلاما تزينها الأهلة، فولى وجهه شطر بيت الله الحرام وصلى واستعاد اسمه القديم». «بعض تجار السوق يعرفونه يا جدتي اسمه إرناندو دي قرطبة إي بالور. شاب في الثانية والعشرين من عمره كان يسكن هنا في البيازين. أصبح اسمه محمد بن أمية يا جدتي، وهو الآن يقود جيش الثوار في الجبل، وأهل القرى معه. اليوم في السوق عُرف الخبر فعَمَّ الأهالي الفرح، ووزع التجار الحلوى والصدقات».

١٢

ترحّمت مريمة على أم يوسف، وقرأت على روحها الفاتحة، وقالت: «ظلمتها». كانت مريمة قد انتظرت شهرا بعد شهر، وسنة وراء سنة حتى أقبل العام السابع فوافق الأول من المحرم يوم سبت تماما كما قالت أم يوسف، فصارت تحسب انتظارها بالأيام والساعات، فما جد شيء سوى ذلك المرسوم الجائر الذي جنّن العباد. ولكنها رغم ذلك قالت لعل المرسوم يكون ذروة طغيانهم فترتد سهامهم إلى صدورهم، وتدور على الباغي الدوائر. حمل لها عليّ خبر رسالة فرانسيسكو نونييز، ولم يحمل لها ردهم على الرسالة. تسأله كل يوم: «ما الجديد يا عليّ؟» فيقول: «لا جديد يا جدتي!» أو يقول: «الصبر يا جدتي فهذه الأمور تستغرق وقتا طويلا، والرجل يفاوض الحكومة، والحكومة ليست شخصا واحدا بل هي ملك وكاردينال وبلاط ونبلاء ومتنفّذون». فعرفت أن الولد يحجب الحقيقة عنها، ويراوغها في الإجابة، فاستعلمت من جاراتها اللائي استعلمن من أزواجهن وإخوانهن، فعرفت أنه لا رسالة نونييز ولا غيرها من الرسائل التي حملت إلى الحكام ضيق العباد قد نفعت في شيء. و«المحصول؟» سألت مريمة امرأة من الجيران لها إخوة مزارعون، فقالت المرأة: «المحصول شحيح هذا العام يا أم هشام، والمزارعون في ضيق، وتجار الحرير في أزمة». فتذكرت مريمة الوعل المحاصر برماح الصيادين، ولامت نفسها لأنها تشبثت بتفسير أم يوسف لحلمها، رغم أنها رأت بأم عينيها تفسيرا وتفصيلا لتلك الرؤيا. لم يكن النجم الكبير في السماء سوى طالع سوء ينذر بمصائب أكبر وأشد.

قالت مريمة لنفسها: عشت في الوهم سبع سنين، زرعت بستانا وزهورا، وعشمت روحي بعودة الغائبين ولمّ الشمل وحسن الختام. وما كان ذلك سوى وهم. البنات لن يعدن والولد الشارد في الجبال لن يأتي إلا لزيارة عابرة كل عامين أو ثلاثة فيكسر قلبي بالحضور كما يكسره بالغياب.

لم تعد مريمة تنتظر إلا الموت. تقضي ساعات النهار جالسة في الرواق، ساهمة في اللاشيء، وبعد العصر تتحامل على نفسها وتقوم لتعد لقمة تقيم بها أود الصبيّ الذي يشقى في عمله طوال اليوم، ولا يعود إلا قرب المساء.

بدا لها أنها زاهدة في كل شيء، وأن قلبها قد أغلق بابه في وجه الفرح والغضب والانهماك، ولكن الإنسان مخلوق عجيب. عرفت ذلك وتأكدت منه لأنها حين سمعت من جارة لها بأمر بث الجند في البيازين وتطويق الحيّ، تحرك قلبها بالسخط، وراحت تلعن وتسب، وقالت للمرأة: «أريد أن أرى ذلك بعيني». حاولت جارتها أن تثنيها ولم تفلح، إذ أتت مريمة بعصاها وقالت إنها ستذهب في الحالتين، معها أو دونها، فصاحبتها الجارة. رأت مريمة بعينيها الجنود في كل مكان، واستبد بها الغضب حتى إنها رفعت عصاها وكادت تهوى بها على رأس واحد منهم لولا جارتها التي جذبتها بعيدا، وحالت بينها وبين ضرب الرجل. وعندما عادت إلى البيت لم تقدر على الجلوس ساكنة، فملأت الدلو وسكبت ماءه في الباحة مرة واثنتين وثلاثا، وأمسكت بالمقشة وراحت تكنس الفناء بهمة كأنما تقش الجنود مع التراب والوسخ المتراكم.

ثم أتى عليّ بأخبار اندلاع الثورة في البشرات وتولية محمد بن أمية ملكا على الأندلس، فاستمعت إليه ودمع عينيها يفيض، وتمتمت: صدقت أم يوسف، اختلط حساب السنوات عليها، ولكنها أصابت.

نوت الصيام وصامت الأيام المتبقية من شهر شعبان، ودعت لله، وتشفعت بمحمد خاتم المرسلين، وعيسى النبي الذي أوقدت له شموعا في الكنيسة يوم القدّاس، أن يتمم الأمر على خير.

لم تعد تقضي يومها جالسة في الرواق، بل صارت تحكم ملفها الصوفي حول جسمها، وتمسك بعصاها، وتخرج إلى الحارة تزور الجارات، وتتبادل معهن الجديد من الأخبار من جهة الثورة والثوار.

كان يوما شتائيا باردا، ولم تكن قد قامت من فراشها بعد، حين سمعت طرقا على الباب لم يعقبه صوت أي من نساء الجيران يعلمها كالمعتاد بالزائرة، فقامت وتدثرت بملفها، ومشت ببطء إلى الباب وصوتها يسبقها: «من الطارق؟» لم يأتها على سؤالها رد، بل سمعت جلبة وأصواتا لا تعرفها. حركت المزلاج، وفتحت الباب، فدخل عليها ثلاثة جنود مسلحين. جنود في دارها؟! سألوها بالقشتالية إن كان هناك غيرها في الدار، فأجابتهم بأنها وحدها وأنه لا يصح، وهم أغراب، أن يدخلوا الدار عليها وهي وحدها، ضحكوا وتجاوزوها إلى الرواق فالغرف. لحقت بهم وهي تصيح أن للدور حرمات، ولكنهم لا يعرفون لشيء حرمة، ثم انتبهت أنها تكلمهم بالعربية، فحاولت أن تعيد الكلام بالقشتالية فبدا لها غريبا والمعنى غير المعنى.

فتشوا في الخزائن وتحت الفراش. فتحوا صندوقها ونثروا ما فيه من ملابس، ورأت واحدا منهم يضع خلسة في جيبه المكحلتين: الصغيرة المصنوعة من الذهب الخالص والأكبر المصنوعة من الفضة، فعلا صوتها:

- هل أنتم لصوص؟! . . . هات المكحلتين. لقد ورثتهما عن أمي عن جدتي، هات!

ضحكوا، وأزاحها واحد منهم بعيدا، فكادت تتعثر وتسقط على الأرض. خرجوا إلى الباحة. بحثت عن عصاها وخرجت بها إليهم. لم يكونوا في الباحة. هل ذهبوا؟! فتحت الباب. كانت الحارة خالية. أغلقت الباب. خرجوا إليها من المطبخ، ما الذي يبحثون عنه في المطبخ؟! رفعت عصاها عليهم، ولكنهم دفعوها جانبا فسقطت هذه المرة على الأرض. رأتهم يغادرون

الدار وهم يضحكون. سبتهم ولعنتهم. قالت إنهم لصوص وأولاد حرام، وإن الله سيعلقهم من رموشهم في جهنم يوم الحساب.

ظلت جالسة على أرض الفناء. ما الذي حدث؟ هل هم مجرد لصوص أم كانوا يبحثون في الدار عن شيء؟! ما الذي كانوا يبحثون عنه؟ هل يقصدون عليّا؟ هل يظنون أنه على علاقة بثوار الجبل؟ هل له علاقة بثوار الجبل؟ كانت دقات قلبها تعلو وتتسارع، والعرق يتفصد من جبينها رغم برد الشتاء. لابد أن تذهب إلى عليّ لتطمئن عليه وتحذّره إن كان يحتاج تحذيرا. ولكن كيف تهبط التلة، هل تستطيع؟! يعينها الله.

قامت وأمسكت بعصاها، وربطت رأسها بمنديل صوفيّ، وخرجت إلى الحارة ثم إلى الطريق الهابطة إلى رصيف حدرّه... تمشي ثم تجلس لتستريح، ثم تمشي ثم لا تقدر على المواصلة فتعود تجلس.

رآها إرناندو بن عامر وهي تقترب من متجره، فهب واقفا وخرج لملاقاتها.

- مرحبا بأم هشام، ما كنت أظن أنك تنزلين إلى السوق، ولكن لِمَ لا ما دمت تقدرين. أدام الله عليك الصحة والعافية. تفضلي، تفضلي.

أجلسها وطلب مشروبا ساخنا يضيّفها به، ولم ينتبه إلى اضطرابها إلا عندما جلس أمامها. سألها فحكت له فنادى عليا، وقبل أن يعيد عليه ما سمعه من مريمة أو يسمح لها بأن تقص عليه ما حدث، سأله بصرامة:

- هل لك علاقة بثوار الجبل؟

لم يكن عليّ قد أفاق من دهشته من زيارة جدته، عندما فاجأه إرناندو بالسؤال وبالنظرة المرتابة: قال:

- لا، ليس لي علاقة بثوار الجبل إلا ما أسمعه عنهم هنا في السوق.

- هل تكذب؟!

ـ لا أكذب!

قالها عليّ بحدة وقد ضاق بأسلوب إرناندو في الحديث. قال:

ـ ما الذي حدث يا أبا خوسيه، ما الذي حدث يا جدتي؟ لا أفهم شيئا.

ـ جاء الجند، ودخلوا على جدتك الدار، وفتشوها.

ـ فتشوا دارنا، لماذا؟!

قال إرناندو بالصرامة نفسها.

ـ عد إلى عملك!

ولما استأذنت مريمة في الانصراف، أصرّ إرناندو أن يرافقها إلى ساحة باب الرملة، حيث اكترى لها حمارا دفع أجره للمكاريّ، فحملها عائدة إلى البيازين.

ما أن أوصلها المكاريّ إلى ساحة كنيسة سان سلفادور، حتى رأت جمعا من المعارف والجيران فنزلت. كانوا جميعا يتحدثون عن تفتيش بيوتهم. كل منهم يحكي تفاصيل ما حدث له، وفي الحارة سمعت من جاراتها الشيء نفسه. قالت إحدى الجارات:

ـ لقد فتشوا بيوت الحارة العليا والحارة السفلى والحارة المتاخمة لساحة الكنيسة.

ـ عمّ كانوا يبحثون؟

ـ عن السلاح!

ـ السلاح؟!

ـ لقد سرقوا مني مكحلتين، واحدة منهما من الذهب الخالص.

ـ وأخذوا مني جرة زيت.

ـ وأنا كنت قد عدت لتوي من الفرن أحمل سمكا شويته فيه، فأخذوه.

ـ بالسم الهاري!

ـ يقولون إنهم قبضوا على بعض الرجال في القصبة القديمة.

ـ لماذا، هل وجدوا في بيوتهم سلاحا؟!

ـ لا أحد يدري!

نقلت مريمة لعليّ، حين عاد في المساء، ما سمعته من الأخبار، ونقل لها ما بلغه في السوق، ثم قال:

ـ لا تخافي يا جدتي.

أجابته وهي تبتسم:

ـ وممّ أخاف يا ولدي؟ إنهم يفتشون الدور، وغدا يفعلون ما هو أسوأ لأن الثورة في البشرات توجعهم، وكلما أوجعتهم أكثر تزعزعوا وهاجوا كالثور الذبيح.

ولم تكن مريمة تصطنع كلاما تطمئن به حفيدها، إذ كانت تعرف أن لكل شيء ثمنًا، وكلما كان المطلوب عزيزا وغاليا ارتفع ثمنه وظل رغم ذلك زهيدا، وعندما حمل لها عليّ، بعد أسابيع قليلة، خبر مقتل وجهاء البيازين الذين كانوا قد سجنوا قبل عام، قال:

ـ مرادنا غالٍ يا عليّ ولكل شيء ثمنه.

فقال:

ـ إنهم أكثر من مائة يا جدتي... قتلوهم غيلة في ظلام سجنهم فانخربت بيوتهم وترملت نساؤهم وتيتم الصغار، وحُرمنا نحن ممن كانوا يتحدثون باسمنا مع السلطات ويقولون نعم ولا نيابة عنا. إنها مصيبة يا جدتي.

ظلت مريمة صامتة.

ـ عندما بلغنا الخبر في السوق بكى الرجال. انتحبوا بالصوت المسموع، ولم يقدر إرناندو بن عامر على الوقوف، فجلس وأخفى وجهه بكفيه وانخرط في النشيج، فداهمنا الفزع ولم نعد نعرف أيّ مصير ينتظرنا.

فكررت مريمة ما قالته في بداية الحديث:

ـ مرادنا غال يا ولدي، ولكل شيء ثمنه، لكل شيء ثمنه!

١٣

كان الطقس ربيعا لطيفا تسري في نسماته رائحة العشب المبلل، وزهور اللوز والمشمش، فغادر عليّ البيت وهو منشرح الصدر لانقضاء الشتاء وتخففه من الملف الصوفيّ. مشى إلى السبيل القريب من كنيسة سان سلفادور، فوجد ابن فضة في انتظاره فاتجها معا إلى بيت أنطونيو، وكانو قد قرروا أن يقضوا يوم عطلتهم معا، يُشرِّقون إلى التلال أو يهبطون إلى شاطئ شانيل.

كان أنطونيو يسكن مع أهله في الطابق الثاني من بناية في القصبة القديمة. لم يدقا الباب، بل ناديا بصوت عال على صاحبهما. أطل أبوه من النافذة.

- ليس هنا!

- ولكنه اتفق معنا أن نمر عليه، أين ذهب؟!

- لا أدري أين ذهب!

- سننتظره حتى يعود!

- لا تنتظرا، لا أريدكما هنا، ولا أريد لا بني مصاحبتكما، اذهبا!

قال ابن فضة وهو يتطلع إليه، ويبتسم:

- سننتظره!

كان الرجل محتقن الوجه، عبوسا، وكانا قد تعودا منه غلظة المعاملة. كانا

يعـرفـان أن أنطونيـو في الدار وأن أباه ينكره، فـراحـا يناديان عليـه بأعلى صوتهما.

ابن فـضـة هو الذي لمح الدلـو في يدي أبي أنطونيـو، فـقـفـز إلى الوراء وهو يصيح محذرا عليا. أفلتا من الماء القـذر الذي كـان يُسكب عليهما من الطابق الثاني، وركـضـا مبتعـدين يلاحقهـما سبـاب أبي أنطونيو «كـلاب، عرب، حقراء».

انتظرا صـاحبـهـمـا في زقاق متفرع من الحارة، وكـانا يعرفان أن أنطونيو سيلحق بهما ما إن يغادر أبوه الدار. شاهدا الأب وهو يمضي ثم جاء أنطونيو. قال له ابن فضة:

- أبوك كلب، ابن كلب!

- لا تقل هذا عن أبي!

- لقد سبني، وسكب عليّ ماء قذرا، فلم لا أسبه وألعن دينه؟!

- لأنك تسبّني حين تسبه ولم أسبك يا فديريكو ولم أسئ إليك!

تدخل عليّ لفض الاشتباك:

- هل نبدأ يوم عطلتنا بالشجار. أبو أنطونيو هو أبو أنطونيو، لا نملك تغييره ولا يملك هو تغييره. إلى أين نذهب؟

ناقشوا الأمر، ثم استقر رأيهم على النزول إلى ساحة باب الرملة للفرجة على مـوكب الأمير خوان دي أسـتوريا، إذ قال أنطونيو إنه أخـو الملك، وإن استقباله سيكون حافلا.

وافق عليّ على الاقتراح وإن عبر عن قلقه من أن يحول الزحام بينهم وبين رؤية الموكب:

- ونُضيِّع بعضنا في الزحام ويضيع علينا يوم العطلة.

- حين يقترب الموكب يمسك كل منا بيد صاحبه، ونحني رءوسنا قليلا وندفعها للأمام كالثيران فنخترق الصفوف، ونضمن لأنفسنا مكانا أماميا يتيح لنا المشاهدة.

قطعوا الطريق إلى باب الرملة بين ركض وهرولة. اخترقوا الصفوف في خفة ومهارة دون الحاجة إلى خطة الثور التي اقترحها ابن فضة، وزرعوا أنفسهم في موقع يمكنهم من متابعة الموكب بكل تفاصيله.

كان حملة البيارق والأعلام والطبول والمزامير يتتابعون أمامهم راكبين أو راجلين، والحشود من حولهم صاخبة، وكان بعضهم يهتف بحياة الملك وأخيه الأمير. قال أنطونيو:

- قال أبي إن الأمير خوان دي أستوريا ليس سوى أخ غير شرعيّ للملك فيليب الثاني، ولما سألت أمي عن معنى ذلك قالت وهي تشير بعلامة الصليب: «ليحفظنا الرب من كل خطيئة. هذا الأمير ثمرة علاقة الإمبراطور كارلوس الخامس بامرأة لم يتزوجها».

بعد طول انتظار، ظهر الأمير ممتطيا جوادا شديد السواد، عالي المتن، يتهادى بخفّة، ويقترب. كان صدر الأمير مدرّعا بالحديد حتى العنق فلا يبدو من قميصه سوى ياقة عالية بيضاء منشاة تغطي رقبته. كان وجهه عريضا واضح القسمات، وعيناه واسعتين لوزيتين يعلوهما حاجبان ثقيلان، وأنفه بارزا ذا قصبة طويلة وأرنبة كبيرة. يعلو فمه شاربان كثان مفتولان من طرفيهما إلى أعلى، ولحيته مدببة صغيرة. هل يبتسم؟ تساءل عليّ وهو يحدق فيه ليستنطق تلك النظرة الغامضة في عينيه. كان على فمه ما يشبه الابتسام، ولكن عينيه بدتا شاردتين وبهما رغم ذلك لمعة وعيد بارد قاطع كنصل السكين. كان مربوعا قويّ البنية، يُزيِّن صدره المدرّع بقلادة ثقيلة من الذهب المطعم

بالأحجار الكريمة، وكان مستقرا على ظهر حصانه وظهره مشدود يضفي عليه شيئا كالشموخ، أو ربما غطرسة وكبراً.

ظلت عينا عليّ معلقتين بوجه الأمير، كأن عليه أن يقرأ المخفيّ فيه. وكلما تمعن في الوجه سرت في جسمه قشعريرة، وشد على يد ابن فضة.

ـ ما الذيّ دهاك يا عليّ، لماذا تضغط على يديّ؟!

لم يجب عليّ سؤاله، وعندما انتهى الموكب عادوا إلى رصيف حدرهُ ومشوا بحذاء الشاطئ. عبروا من قنطرة حمام التاج إلى ضفّة النهر الأخرى، ثم جلسوا لتناول طعامهم في بقعة معشوشبة بين الأشجار. كان أنطونيو وابن فضة يأكلان، ويعلقان على الموكب، ويثرثران، ولكن عليا بقي صامتا يلوك اللقمة في فمه ولا يقدر على ابتلاعها إلا بصعوبة.

ـ ما بك يا عليّ، هل أنت مريض؟!

ـ لم أكن مريضا... أشعر ببعض التعب. سأعود إلى الدار.

قال عليّ لنفسه إن وجه الأمير، مهما بدا أو كان، لا يدعو إلى التطير. ولكنه كان متطيرا بل ومفزوعا، ولما استلقى على فراشه لينام سرت في بدنه برودة وأصابته رجفة، فطلب من جدته أغطية إضافية لم تذهب شعوره بالبرد. لام نفسه وقال لها إنه لا يصح، وهو فتى يوشك على إتمام عامه الخامس عشر، أن يسلم نفسه لمخاوف لا أساس لها، ولفزع لا يوجد ما يبرره، وظل عليّ لأسابيع وشهور تالية يؤكد لنفسه أنه واهم حتى أتى الصيف بأخبار المعارك الخاسرة.

كان دون لويس دي ريكسنس قد أتى من إيطاليا بقوة عسكرية قوامها أربع وعشرون سفينة، ووصل قائد فرنسيّ على رأس أسطول من ثماني عشرة سفينة حربية، وفتح باب التطوع لكل القادرين والراغبين من أنحاء البلاد كافة وللجنود الفرنسيين، ودارت عجلة الحرب أشرس وأسرع، يتناقل أخبارها تجار

السوق وأهل البيازين، كل يوم وكل ساعة. كان الثوار يواصلون ويحققون نصرا صغيرا هنا وهناك تتبعه هزيمة ماحقة، أو مجزرة، أو أسر جماعيّ، أو تشريد، أو كلّها مجتمعة.

رأى عليّ أسرى البشرات يباعون على خشبة المزاد في ساحة باب الرملة. النساء عرايا أو شبه عرايا شاردات العيون، حرائر تتطفل على عريهن عيون البائع والمشتري وعابر السبيل. ورأى الرجال مكبلين بالقيود تحجرت وجوههم سوى العيون مترقرقة بدمع لا يسيل. لم تطق نفسه أن يرى المزيد، فغض الطرف ومضى مبتعدا.

لم ينقل لجدته ما رآه، ولكنه سألها:

- هل يمكن يا جدتي أن يحدس القلب بشيء قبل وقوعه أو تعرُّف العقل عليه أو حتى التفكير فيه؟

فتطلعت إليه مريمة مستوضحة، فقال:

- حين رأيت دون خوان دي أستوريا قبل شهور شعرت بالفزع، وكأن قلبي عرف أن خرابنا سيأتي على يديه. لم أفكر في ذلك، ولا مرت الفكرة مرورا بخاطري، ولم أكن حتى أعرف أنه جاء لغرناطة ليقود الجيوش ضد الثوار في الجبل. ولكن قلبي ارتجف فزعا كأنه عرف.

فقالت له مريمة:

- يسبق القلب العقل أحيانا، ولكن من قال لك إن خوان دي أستوريا سينتصر؟ مازالت الثورة مشتعلة في الجبال، ومازال أهلنا هناك يواصلون جهادهم. الملك، وأخوه الأمير، وقادة جيوشهم لهم المُلك والعتاد، ولكن الله فوق كل جبار عنيد، ونحن أقوى لأننا أصحاب حق والله معنا.

ولكن عليّا، حين آوى إلى فراشه، رأى دون خوان دي أستوريا واضحا

وكاملا كأنه يقف أمامه، عريض الوجه، واضح القسمات، تضيء ملامحه تلك الابتسامة الغامضة، ونظرة العينين الموزعة بين الشرود وازدراء متغطرس يقصدك بالوعيد.

أخفى وجهه بكفيه وانتحب.

١٤

قضت مريمة ثلاثة أيام لا تغادر الفراش. يدخل عليها علي في الصباح حاملا لها إفطارها، ويلح عليها لتأكل، ثم يذهب إلى عمله، ولا تأتي الجارات إلا قرب الضحى، يجالسنها قليلا ثم يذهبن فتبقى وحدها تغفو، وتصحو تنتظر، ولا تملك أن تجلس، كما اعتادت منذ مطلع الربيع، بباب الدار لترى الرائح والغادي، وتسمع الجديد من الأخبار، وتتبادل بعض كلمات مع هذه الجارة وهي خارجة من بيتها، ومع تلك وهي عائدة، ومع ثالثة وجدت متسعا من الوقت للوقوف بالنافذة والحديث معها، فتنقضى الساعات التي لا تنقضي.

ما عادت مريمة تطيق البقاء وحدها في البيت، لأن الوحشة تطبق على الأنفاس. قديما كان البيت صاخبا بحياة الكبار والصغار، ثم رحلوا جميعا. الكبار إلى القبر والصغار إلى المدن البعيدة حيث لا تطالهم. ذهبوا جميعا سوى عليّ، فلماذا لاتزوجه؟ بدا لها الولد هذا الصباح حزينا كأنه يحمل هموم الدنيا على ظهره. ستبحث له عن عروس تملأ قلبه بالفرح والدار بالعيال.

غفت مريمة وهي تستعرض بنات الحيّ لتنتقي لحفيدها العروس، ولما تنبهت وجدت فضة جالسة بجوارها:

- متى أتيت يا فضة؟ لم أسمعك وأنت تدخلين.

- وجدتك غافية يا أم هشام فانتظرت.

تطلعت مريمة إلى فضة، فرأت وجهها شاحبا وفي عينيها آثار دموع:

ـ ما بك يا ابنتي؟

انفجرت فضة في البكاء:

ـ هرب فيديريكو!

ـ ليلحق بالثوار في البشرات؟!

ـ لا أدري، ولكنه منذ علم بقرار الترحيل، قال لن أرحل معهم، فماذا لو اتضح أنهم ينقلوننا من غرناطة لنصبح عبيدا يسوقوننا إلى خشبة المزاد؟ قلت له: «صبرا يا ولدي، لعلنا نفلح في الحصول على تصريح ببقائك». وحدثت دون بدرو فوعدني خيرا، وقال لي أبو خوسيه، حين طلبت عونه: «سأحاول». ولكن الولد...

قاطعتها مريمة:

ـ لا أدري ما الذي دهاني، هل امتد الوهن لعقلي؟! لم أفهم مما قلته شيئا. قلت: ترحيل فأي ترحيل؟! وقلت: تصريح فما هو تصريح البقاء؟! وما علاقة هذا وذاك بهروب الولد؟!

قالت فضة:

ـ ألم يخبرك علي؟

ـ يخبرني بماذا؟

ـ صدر قرار بترحيل رجال البيازين. كل من يزيد عمره على أربعة عشر عاما ويقل عن الستين، فلا يبقى منهم إلا من ترى السلطات مصلحة في بقائه، أو من يحصل على تصريح منها بذلك.

ـ يرحلون إلى أين، ولماذا؟

ـ لا أدري إلى أين يا أم هشام، ولكنهم يقولون إن السلطة تخشى أن يتمرد الرجال فيعززوا بتمردهم ثوار الجبل، فقرروا إبعادهم عن غرناطة.

ـ كل الشباب؟!

ـ باستثناء من يحملون تصريحا.

ـ ويأخذون عليا؟!

ـ قال لي أبو خوسيه إنه نجح في استخراج تصريحات لنفسه ولابنه ولعليّ، وقال إنه سيعمل على استخراج تصريح لفيديريكو، ولكن الولد لم يصبر. استيقظت هذا الصباح . . .

لم تجد مريمة ما تقوله، فما الذي يخفف حرقة قلب الأم على فراق الولد؟ بكت فضة، فبكت مريمة لبكائها، وتجددت أحزانها فبكت أكثر، ثم حبست الدموع وتحاملت على نفسها وقالت:

ـ لعل في هروب الولد النجاة. ربما ينوون بيعهم أو إلحاق ضرر آخر بهم. هرب من أذاهم يا فضة، وعندما تهدأ الأمور يعود. إن شاء الله يعود.

ساد صمت ثقيل قطعته مريمة بعد حين:

ـ قومي يا فضة وأعدي لنا لقمة نأكلها.

ـ لا رغبة لي في الطعام.

ـ ولكني لن آكل إلا لو شاركتني.

قامت فضة لتعد المطلوب، ولم تكن مريمة جائعة أو تفكر في طعام، ولكنها أرادت أن تشغل فضة بغير حزنها والبكاء.

ترى أين ذهب الولد؟! هل لحق بالثوار في الجبل، وكيف، والناس يقولون إن الطريق محروسة بالعسكر والجيوش؟ هل غرّب باتجاه إشبيلية، وأين يسكن، وكيف يعيش؟ لابد أنه أسرّ لعليّ بوجهته.

ـ يا فضة . . . تعالي يا فضة .

جاءت فضة ، فقالت لها مريمة :

ـ فيديريكو وعليّ صديقان متلازمان معظم ساعات النهار ، فلابد أنه قال لعليّ أين يذهب .

ـ لم يدر ذلك بخاطري يا أم هشام .

ـ سأسأل عليا . سيخفف من حزنك أن تعرفي مكانه .

ـ ليت عليّا يعرف .

عادت فضة إلى المطبخ ومريمة إلى التفكير : ولعل عليّا أشار على صاحبه بالمكان الذي يذهب إليه ، وربما أعانه على الاختباء في مكان قريب في التلال ، في عين الدمع ، أو هنا في البيازين .

ـ يا فضة . . . يا فضة . . . تعالي .

أتت فضة تحمل خبزا وجبنا وزيتونا . وضعتها بجوار مريمة ، وجلست فقالت مريمة :

ـ ألا يمكن أن يكون فيديريكو مختفيا هنا في البيازين؟

ـ هنا في البيازين ، كيف؟!

ـ الأولاد يعرفون كل صغيرة وكبيرة في الحيّ ، وربما دبّر عليّ وأنطونيو مكانا لصاحبهما يختبئ فيه ، يحملان له طعامه ، ويؤنسانه بزيارة كل حين حتى تهدأ الأمور . في المساء أستعلم من عليّ فيتضح لنا الأمر . كلي يا فضة ، كلي .

أمسكت فضة باللقمة ولم ترفعها إلى فمها ، أما مريمة فظلت تلوك لقمتها ببطء ، ثم ابتلعتها بصعوبة ولم تُثَنِّ .

حين عاد عليّ في المساء سألته مريمة :

ـ لماذا تخفي عني الأخبار يا عليّ؟

ـ أية أخبار يا جدتي؟

ـ ترحيل الشباب.

ـ من أخبرك؟

ـ فضة.

ـ وحكت لك عن هروب فيديريكو؟

ـ حكت.

ـ الأخبار سيئة يا جدتي، لا يأتي يوم إلا بالموجع من الأخبار.

ـ وهل رحل ابن فضة من غرناطة حقا؟

ـ رحل يا جدتي.

ـ هل قال لك إلى أين يذهب؟

ـ لم يقل لأنه لم يكن يعرف. قال سأذهب إلى حيث تحملني قدماي، وبلاد الله واسعة.

ـ ألم يختبئ في كهف من الكهوف، في عين الدمع، أو هنا في البيازين؟

ـ لا يا جدتي، فالجنود يطوقون المكان، ثم إنه كان خائفا وغاضبا، وقال إنه سيترك مملكة غرناطة كلها.

ـ هل ذهب إلى الجبل ليلحق بالثوار؟

ـ لم يشر لذلك يا جدتي. لا أدري.

ـ ما الذي أقوله لأمه، إنها تبكي بلا توقف؟!

لم يجب عن سؤالها، بل قام وعاد بعد لحظات يحمل عشاء.

- كلي يا جدتي.

- أكلت مع فضة.

صارت مريمة تلح على حفيدها أن ينقل إليها الجديد من الأخبار فيتحدث إليها باقتضاب. لماذا يتحدث الولد باقتضاب؟!

لم تطق البقاء في الفراش، فتحاملت على نفسها وعادت إلى جلستها المعتادة أمام باب الدار، تقضي نهارها تتسقط الأنباء.

نزل الحيّ بعض أرامل قادمات من البشرات يحملن معهن صغارا وحكايات شاعت في البيازين، فتناقل الناس تفاصيل المجازر، وحرق المزروعات، وقتل الماشية وخراب القرى. تتابع مريمة كل تفصيلة منها وتسأل وتستعلم، وتجاهد ذلك الصوت في داخلها وهو يعلو ملحّا بأن الثمن المطلوب صار باهظا بما لا يُطاق، ثم سمعت مريمة بخبر مقتل محمد بن أمية.

- قُتل، كيف؟!

- قتله حراسه!

- حراسه؟!

- تظاهروا بالوفاء وكانوا خائنين. عيّن الثوار ملكا يخلفه أسموه مولاي عبدالله.

لم تستمع مريمة لذلك الخبر الأخير، إذ انهمكت في الإمساك بعصاها ومحاولة القيام، ودخلت الدار وأغلقت الباب وراءها. جلست في الرواق وكشفت رأسها وتطلعت إلى السماء وتحدثت بالصوت المسموع:

«ما عدنا نطيق، والله ما عدنا نطيق، فلماذا تبلونا بكل هذا البلاء؟ هل

طلبنا منك الكثير؟ لم أطلب جاها ولا مالا. ما طلبت سوى أن أكحِّل قبل الموت عينيّ برؤية الصغار، وأن أدفن بعد الموت، بما شرّعتَه من غُسل وكفن وآيات من آياتك تقرأ في العلن عليّ، فلماذا تضن وأنت الكريم؟ ولماذا تستبد وتقهر وتتجبر، وأنت الرحمن الرحيم؟!».

أجهدت مريمة عقلها لتجد مسلكا تسلكه بين سبب ونتيجة. يعجز عقلها فيداهمها شعور بأنها ضيعت طريق الفهم. فلا شيء يعقل ولا شيء مفهوم، وتصورت أمام عينيها صورة النساء والأطفال وقد هربوا من المجزرة إلى ستر الكهوف فأضرم الجنود النار في المداخل فاحترقوا وهم يتمتمون بالشهادة وما حفظوه من الآيات. «هل أتى أجدادنا جرما تعاقبنا نحن عليه، أم أنك خلقت الكون للبشر بخيرهم وشرهم يسيِّرونه على هواهم كيفما يكون؟ ولماذا تتركهم ما دمت تعرف هواهم هكذا، شرس ولعين؟

أنا مريمة ابنة أبي إبراهيم منشد سيرة نبيك ومصطفاك وصحابته الأكرمين، ولدت يوم كان القشتاليون على أبواب غرناطة يحكمون الطوق عليها، والناس جوعى، والزاد شحيح، ولكن أبي كان رجلا صالحا، لم يقل: هذه الوليدة تحمل لي نحسا، ضمني وأنشأني في ظله الضافي. ولما دخلت دار أبي جعفر فرض القشتاليون على العباد تغيير دينهم، فلم تقل أم جعفر دخلت علينا العروس والمصائب في أذيالها. حملت وهنا على وهن كباقي النساء، وربيت الصغار وكبرتهم. ما سرقت يوما. ما خنت أمانة. ما كذبت قاصدة شرا بأحد من العباد، فلماذا تلوِّح لي بنصرة في المنام أتعلق بها وتطلق الأمل من صدري ليحلق عاليا، ثم تسقطه فأعيش بدلا من الحسرة الواحدة حسرتين؟!

الولد الجميل ولّي وجهه شطر قبلتك، واستعاد اسم مصطفاك، وجاهد كما عيّنت في شرعك وكتابك، فلماذا تأخذه وسماؤك عامرة بأنبيائك وملائكتك والقديسين؟! لماذا؟ قل لي لماذا تمنح خصومنا فرحة الزهو بالانتصار وتعلي مجدهم على أطلالنا؟! هل هجرتني... هل هجرتنا»؟!

١٥

تطلع عليّ إلى جدته. كانت واهنة نحيلة العود، خف شعرها الفضّي ودقت جديلتاها، خيطان يؤطران وجهها المتغضن وعينيها الشاردتين.

- سنذهب يا جدتي.

- إلى أين يا عليّ؟

- يعلم الله يا جدتي. يقولون إلى قرطبة.

- أبي رحمه الله كان يحلم برؤية قرطبة.

- إذن نذهب يا جدتي لعلنا نراها.

- لن أترك البيازين!

لم يكن هناك بد من الرحيل، وقد صدر قرار النفي الجديد وأذيع مرسومه، وتعين على الأهالي كافة أن يتجمعوا في ساحات الكنائس الأقرب إلى مساكنهم.

عندما نامت مريمة قام عليّ بإعداد كل شيء. أخرج قدور الزيت والزيتون وأكياس الطحين والسكر إلى خارج الدار ليأخذها من يرغب من عابري السبيل، واستخرج من ثياب جدته وثيابه ما يفي بالحاجة، وطواها وصرّها في حرام قديم. ثم أتى بحصيرة وثلاثة أحرمة صوفية ثقيلة ولفها لفا وربطها، ثم تذكر الصندوق. كان في طفولته يختبئ فيه، تبحث عنه جدته وتنادي وتكرر النداء فيرفع الغطاء ويضحك قائلا: «أنا هنا يا جدتي!» واصلا اللعبة شهورا

حتى عندما صارت تعرف أنه يختفي داخله، ويعرف أنها تعرف. صندوق زيتونيّ عتيق، سطحه مزخرف برسم طيور وعصافير ملونة.

رفع عليّ غطاء الصندوق ففاحت منه رائحة زهر الخزامى. كان بداخله مصحف أخضر الغلاف، وقنينة بها سائل رقراق كالماء، وحجر ورديّ، وجلالات مخملية، وأوراق مطوية.

قرّب الأوراق من القنديل ليتعرف على مضمونها. كانت عقود زواج الأجداد، وأيضا عقد أبيه على أمه، وصكوك ملكية دار عين الدمع ودار البيازين، وشهادات ميلاد وأخرى تثبت التعميد، ثم ثلاثة أوراق مثبتة معا فيها قائمة بأسماء كتب.

لم يأخذ من الصندوق سوى المصحف الصغير وما يخصه ويخص جدته من الأوراق، أودعها كيسا قماشيا علقه على صدره تحت الثياب.

جلس متربعا ينتظر طلوع الفجر، وعندما تلونت السماء بخيوطه الأولى حمل صرّة الملابس والحصيرة والأحرمة إلى ساحة كنيسة سان سلفادرو، ثم عاد إلى الدار وأيقظ جدته.

أقنعها أنهما سيذهبان لكي يراها المسئولون فيقتنعون أنها لا تقوى على المشي فيسمحون لها بالبقاء.

أطعمها وعاونها على ارتداء ملابس ثقيلة، وربط سبّاطها على قدميها بخرقتي صوف ولفهما لفا على ساقها حتى أسفل الركبتين، ثم وضع كل ما يملكه من نقود في جيبه، وصرّ منديلا على زوادة من الخبز والزيتون واللوز والتين المجفف.

أمسك الزوادة بيسراه، وأسلم ذراعه اليمنى لجدته وخرجا من الدار. أغلق البوابة بالمفتاح وعلقه حول رقبته مع الكيس والسلسلة الذهبية التي أهداها له أنطونيو، ثم سارا ببطء تواكب خطواته خطوة جدته الواهنة.

كانت الساحة المتاخمة للكنيسة مكتظة بالبشر، وكان الرجال أقل عددا بسبب ترحيل أعداد كبيرة منهم في الصيف السابق. أما النساء والشيوخ والعجائز والأطفال فكانوا كثيرين. وقف منهم من وقف، وجلس من جلس بالقرب من أمتعته. كان مسئول يصيح بأسماء يقرؤها من دفتر مفتوح أمامه، فيتقدم من يسمع اسمه، ويشق طريقه بين البشر والأمتعة حتى يصل المسئول ويعلمه بوجوده.

أتى عليّ بالصرة والحصيرة والأحرمة، وبحث لجدته عن حيِّز تجلس فيه. فرش لها الحصيرة على الأرض، وأجلسها ووضع حراما على ركبتيها. لم يكن الشتاء قد توغل بعد، ولكن الساحة كانت باردة تصفر فيها رياح نوفمبر، وكان عليّ متوجسا من مرض يصيب جدته فيزداد السفر تعقيدا. جلس بجوارها فقالت له:

- لماذا لا تأخذني الآن إلى المسئول فيراني فيتركنا نعود إلى الدار؟

- عندما ينادي علينا أذهب إليه وأخبره بحالتك.

انتظر حتى نودي علىٰ اسميهما، فقام وهمت جدته بالقيام لتتبعه، فقال لها إنه لاداعي لذلك. ذهب ثم عاد. سألته:

- هل قلت له؟

- قلت.

- بإمكاننا أن نعود إلى الدار، أليس كذلك؟

- لا يا جدتي. كل هؤلاء الناس سيرحلون، عليهم أن يرحلوا!

- ولكني لا أريد الرحيل.

قالتها وبكت. ضاق ببكائها، قال:

ـ ولا أنا أريد الرحيل، ولا أي واحد من هؤلاء الناس يريد ترك داره، ولكننا سنرحل. جميعا سنرحل!

تركها تبكي ومضى مبتعدا. بدا له المكان قابضا وخانقا. في اليوم السابق كان عليه أن يودع إرناندو بن عامر الذي لم يشمله قرار الترحيل كما لم يشمل عددا من كبار الحرفيين، وأن يودع زملاءه في السوق لأن أحدا لم يكن يعرف إن كانوا سيرحلون في القافلة نفسها أم لا. تحايل لرؤية وردة فلم يفلح، فعرف أن الله قدّر له أن يترك غرناطة دون أن يتملى وجهها أو يقول لها «وداعا». وكان لقاؤه بأنطونيو الأكثر إيلاما، لأن صاحبه بكى طويلا فخفف عنه بترداد ما تقوله السلطات: «هذا ترحيل مؤقت ولن يطول»، وعندما حانت لحظة الفراق قال أنطونيو متلعثما، وهو يخلع عن رقبته سلسلة ذهبية دقيقة تنتهي بصليب صغير:

ـ لا أدري إن كانت هذه الهدية مناسبة، ولكنها الشيء الثمين الوحيد الذي أملكه. لقد منحتها لي أمي وأنا طفل صغير.

علق عليّ الصليب الذهبيّ في عنقه، وتعانقا وافترقا.

تحركت القافلة مع الخيوط الأولى من فجر اليوم التالي. سارت جموع الأهالي في حراسة جند مسلحين يعتلون الخيل. بعضهم يسبق الحراسة في المقدمة، وبعضهم الآخر يتبع في المؤخرة، وبعض يكمل الطوق من اليسار واليمين، وخلفهم كانت العربات، التي تجرها الثيران القوية، تحمل المؤن والمسموح به من الأمتعة.

شقت القافلة طريقها ببطء إلى شمال الحيّ الذي غادرته من باب فحص اللوز، وعندها ارتبكت الصفوف، وبكت النساء، وعلا صوت امرأة بكلمات نادبة، ومسح الشيوخ دموعهم في صمت وواصلوا المشي.

قبل الضحى كانت غرناطة قد ابتعدت، وكانوا قد قطعوا عدة ساعات سيرا

على الأقدام. أوقفوهم وسمحوا لهم بالجلوس للراحة وقضاء الحاجة، ووزعوا على كل فرد شريحة خبز أسمر، وعلى كل عشرة قالبا من دهن الخنزير. أكلوا الخبز وتركوا الدهن. لم تأكل مريمة، وتشاغل عليّ عن ضيقه بإحصاء الحراس. كانوا مائتين. حاول عد الراحلين فلم يفلح، ولكنه قدر أنهم بين ألف وألفين.

مرّ اليوم الأول بسلام. كان الطقس على برودته محتملا، وكانت مريمة تمشي بوهن وبطء متكئة على عصاها وذراعه، ولكنها كانت تمشي. لم يعاملهم الحراس بغلظة أو فظاظة، بل على العكس من ذلك، كانوا يؤكدون أن هذا الترحيل مؤقت، وأن الملك قرره إشفاقا على الأهالي من المجاعة بعد أن تسببت الحرب في حرق المحاصيل. قال الحراس إنهم ينقلون الأهالي إلى قرطبة، يقيمون فيها عاما واحدا يعودون بعده إلى غرناطة.

عند غروب الشمس أوقفوهم وقالوا: هنا نقضي الليلة. وزعوا وجبة المساء. رفضت مريمة الطعام، فألح عليها عليّ، فأكلت حبتين من التين.

رأى عليّ الرجال يفرشون الحصر والأبسطة الصوفية ويوقدون نارا ليتدفئوا، ففعل مثلهم. كانت السماء صافية تلتمع فيها نجوم كثيرة، وكان القمر كنصف برتقالة، بين هلال وبدر. ارتفع صوت امرأة بمطلع موّال. خيّم الصمت على السامعين توجسا، ولكن الحراس لم يفعلوا شيئا. تشجعت أخريات وعلت في الفضاء أصوات مفردة يكمل بعضها بعضا وتتجاوب بمواويل شاكية، ثم سرت عدوى الغناء فصار جماعيا، ولما صار جماعيا تبدل الإيقاع والنغم. صفقوا وتمايلوا وهم في أماكنهم جالسين، وواصلوا الغناء حتى هدهم التعب فناموا.

مضى اليوم الثاني كالأول، وفي اليوم الثالث لم تقدر مريمة على المشي فحملها عليّ على ظهره. لم يكن وحده الذي يحمل، فالعديد من النساء كنّ يحملن صغارهن، وكان بعض الصغار قد أصيب بالقيء والإسهال فدبّ

الوهن في أجسامهم ولم يعودوا قادرين على المشي. وكان شاب يحمل أباه الشيخ على ظهره، وآخر يحمل فتى في ساقيه علة.

لم يتضايق عليّ من حمل جدته وإن أثقله بكاؤها المتصل. لا يسمعه ولا يراه، ولكنه يشعر بقطرات الدمع ساخنة على عنقه، تنفذ إلى ظهره فتسري قشعريرة في بدنه.

- لماذا تبكين يا جدتي، ألا تكُفّين عن هذا البكاء؟!

لا تجيب. تواصل سكب الدموع.

في الليلة الرابعة أصابتها حمى أبقتها مستيقظة تئن. دثرها بالأحرمة الثلاثة وسهر بجوارها حتى الفجر، وعندما تحركت القافلة لم يحملها على ظهره بل حملها بين ذراعيه. يتطلع إلى وجهها فيختنق بالرغبة في البكاء فيحدق بعيدا في جبل أجرد مشرف على الطريق.

في المساء سهر بجوارها ثلاث من نساء القافلة، ألححن عليه أن يتركها في رعايتهن وينام، ولما استؤنف السير فجرا حملها بين ذراعيه. رآها في ضوء النهار شمعية وساكنة. مال برأسه على وجهها فلم يشعر بأنفاسها. هل ماتت؟ دفع الفكرة بعيدا. ضم جدته إلى صدره وانغلقت ذراعاه أكثر على جسدها الملفلف بالصوف، وواصل السير. ولكن جسدها كان ثقيلا بين يديه لا يختلج بأية علامة من علامات الحياة. ماتت جدتك يا عليّ... ماتت مريمة في العراء.

واصل المشي كأن شيئا لم يحدث، ثم فجأة توقف. تسمرت قدماه في الأرض وصاح بأعلى صوته: «ماتت جدتي!».

تفاوضت النساء مع الحراس بشأن الماء. أعطوهن ما طلبنه على أن يُحسب من نصيب القافلة. ملأن الجرار والتففن حول مريمة في دائرة مغلقة. وسرت في القافلة همهمات وتمتمات ونتف من بكائيات، وآيات من الكتاب المحرّم.

حفر عليّ مع بعض الرجال قبرا، ثم حمل جدته إلى الشق الغائر في الأرض. مال بها ووسّدها التراب، وكان شيخ رخيم الصوت يردد بصوت خافت: «يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعى إلى ربك راضية مرضية. فادخلى فى عبادى. وادخلى جنتى». صعد علي ثم أهالوا على الجسد التراب.

والرحلة لا تنتهي. يمشون ويتوقفون ثم يمشون. ذهبت برودة الطقس المحتملة، وهبت الرياح الشتائية القارسة، وفشا المرض بين الصغار والكبار. يبكون من تقلصات بطونهم، يستفرغون ما في جوفهم بالقيء والإسهال. تمشي القافلة ثم ترتبك الصفوف. تتوقف لدفن موتاها، ثم تعود تمشي. ولا يشغل عليّا سوى طريقة للهرب، فيحصي اللحظات ويترصد الفرص.

في ظلام الليل حارس. أوقد زملاؤه نارا وجلسوا حولها يستدفئون ويتسامرون. بعيدا عنهم كان الحارس يعتلي حصانه يتهادى به، يروح ويجىء. بإمكان عليّ أن يتسلل إليه، أن يقفز خلفه على الحصان، أن يباغته، وقبل أن يصيح مستنجدا، يكتم فمه بخرقة صوفية، يقيد يديه، ينزله عنوة من على متن حصانه، ويعتلي هو الحصان ويطير.

لف عليّ حراما صوفيا على منكبيه، وتسلل بخفة إلى أن وصل إلى الحصان وقفز عليه، وقبل أن يلتفت الحارس أو يستغيث قيّد فمه. قفز الحارس من فوق الحصان وركض. قفز عليّ وراءه وأمسك بإحدى ساقيه وأوقعه على الأرض. تصارعا، ثم رأى عليا الخنجر في الظلام يلتمع. اختطفه وطعن به الحارس. لم ير دماء ولكنه شعر بسخونة السائل على كفيه.

قيّد يدي الحارس وقدميه، واعتلى الحصان ولكزه بقوة فطار.

لم يتوقف عدو الحصان إلا وخيوط الشمس تلوّن زرقة الفجر، ومنابت شعره مبللة بالعرق وكذلك متن الحصان. تطلع إلى المكان من حوله. كان في واد تحيط به جبال حجرية جرداء. ترجّل وجلس على حجر فرأى الحصان في

وجه النهار: كان أشهب يمتزج أسوده بأبيضه ويزيد، عالي المتن، واسع الظهر، مدمجًا ومفتولاً.

قام واقترب من الحصان ولمس جبهته وناصيته وربت على قوس العنق. فانتصبت أذناه إلى الأمام، وحمحم كأنه استأنس باللمسة الرفيقة. ترى ما اسمه؟ سأله عليّ بصوت خفيض: «ما اسمك يا حصان؟» عاد عليّ يربت على ناصية الحصان فانتبه إلى أثر الدماء المتخلفة على يديه. اعتلى الحصان ومضى يبحث عن الماء.

وكأن جدته كانت تحرسه بالدعاء. لم تطل به الطريق بين الصخور الموحشة إذ فاجأه، مع انعطافه في الجبل، جدول ماء وأرض معشوشبة خضراء. غسل وجهه ويديه وشرب، ثم جلس يرقب الحصان وهو يرعى.

لم يعرف الخيل عن قرب، فلم يتح له ركوبها ولا معاشرتها. ولكن جدته حكت له وهو طفل حكاياتها. قالت له: «عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يخلق الخيل أمر بريح الجنوب فأتته تسبّح، فقبض الله منها قبضة وأطلقها حصانا وقال: خلقتك عربيا تطير بلا جناح والخير معقود بنواصيك، فأنت للطلب وأنت للهرب، تعز صاحبك فيعطف عليك ويتعلق بك قلبه أكثر من تعلقه بماله وعياله». وحكت جدته: «لما خلق الله آدم عليه السلام خيره بين دابتين: البراق والفرس، فاختار آدم الفرس، فقال له الله: يا آدم اخترت عزك وعز أولادك، خالدا ما خلدوا باقيا ما بقوا».

لابد أن جدته كانت تحفظه بالدعاء، وأن الله استجاب لدعائها فأعطاه هذا الحصان.. سيسميه وردا. تأمل الاسم ثم بدّله بزاد المسافر، ثم تطلع إلى الحصان، وظل يراقبه، ثم حسم أمره: اسمه «حجاب». أعجبه الاسم فتدثر بحرامه الصوفي ونام.

استيقظ من نومه فزعا. نظر حوله فلم يجد سوى الحصان. تمتم «لقد قتلت

نفسا ياحصان»، ترقرقت في عينيه الدموع، وثقل عليه الكلام، ولكنه واصل الحديث مع صاحبه: «لم أقصد قتله يا حجاب. كنت أريد الهرب، وكنت خائفًا، وجدتي ماتت في العراء». قام وخطا مقتربا من الحصان. ربت على عرفه المسترسل، ثم أسند رأسه إلى عنقه، ثم همسَ: «ربما لم يمت صاحبك يا حجاب. ربما لم أتسبب إلا في جرحه. ربما يكون على قيد الحياة...».

تطلع إلى وجه الحصان فتطلع إليه الحصان. كانت عيناه صافيتين كحلاوين واسعتين. سأله عليّ بصوت خفيض: «هل كان صاحبك رجلا طيِّبًا يا حصان؟!».

١٦

هرب عليّ من القافلة فقال إنه الأكثر حظا، فلما طالت رحلته بين خوانق الجبال، وهده الجوع، قال: ليتني ما هربت.

رأىٰ تلك البيوت المنقورة في صخر الجبال فزاد اضطرابه، وتحير هل يلكز حصانه، ويشد على خطمه اللجام ليركض مبتعدا عن المكان أم هل يقصد الكهوف، ويستجير بأهلها فيجيرونه؟ وماذا يحدث لو وجد نفسه أمام نفر منهم، هل يقطعون عليه طريقه ويجردونه من حجاب والمال القليل الذي يحمله، أم ينصتون إلى حكايته ويكونون له أهلا؟ وما الذي دفع أباه إلى هجرة ألفة داره في البيازين ليسكن تلك الشقوق الغائرة في الوعر الموحش؟!

لم يره سوى مرات معدودة، في المرة الأولى كان يلبس قلنسوة حمراء ويربط عنقه بمنديل صغير. حمله وضمه إلى صدره وأودع في يده كيسا من النقود. كان كلما جاء يعطيه كيس نقود فيسأل جدته: «من هذا الرجل يا جدتي، ولماذا يعطيني نقودا» فتبكي ولا تجيب.

كانت مريضة تلزم فراشها يوم أطلعته على السر.

ـ ذلك الرجل الذي يأتي لزيارتنا ويعطيك نقودا وتلح في السؤال، من يكون...

ـ الرجل المربوع الأعرج؟

ـ إنه ابني هشام.

- أبي هشام؟!

حكت له جدته الحكاية كلها، فعرف أن أباه هجر البيت إلى الجبال، وأنه منفيّ مطارد وقاطع طريق؛ وكانوا قد حجبوا عنه أنه كباقي الصغار له أب على قيد الحياة، ولما أعلم بالحقيقة اكتملت المعرفة بما يؤرّق ويخجل ويصم. اشتعل بالسخط، وكاد يفلت منه صراخ يهد أركان الدار عليها. بدا له أنه لن يغفر لها أبدا إساءتها إليه بالكتمان. تركها ومضى ولما عاد وجدها أكثر هزالا وشحوبا مما تركها. كانت تبكي بصمت فعطف عليها وأشفق، وراح يهوّن عليها همها.

فهل يسكن أبوه في هذا الجبل دون كل جبال الأندلس، وهل ينقّض عليه الآن مهاجما ويقتله ثم يتفرس في وجهه فيتعرف عليه، فيعوي عواء مفجوعا، تردده الأرض والسماء؟!

لكز علي حصانه فاضطرم عدوه، وظل يعدو حتى هدهما التعب، وتصبب العرق الغزير على وجهه، وعلى عرف الحصان، ولم يتوقف إلا عندما وصل إلى واد يشقه جدول. ترجّل وافترش الأرض على حافة الماء، وبكى. كان يريد العودة إلى غرناطة، وكانت غرناطة بعيدة وتبتعد.. لابد من مكان يذهب إليه، قرية عربية تستر وجوده في وجودها، أو مدينة كبيرة يذوب كالملح فيها، أو بالنسية يبحث عن سبيل للوصول إليها فيجد عمته فتساعده هي وأولادها على تدبير أمره.

ركب الحصان وواصل طريقه. كان يصعد طريقا ملتوية، فإذا بالمعجزة أمام عينيه تتجلى. قال: سراب. قال أنهكني الجوع فاضطرب العقل، وثقلت موازين الخيال، ولكنه وحجاب كانا يقتربان، رويدا رويدا وعلى مهل، من الخضرة اليانعة. تخفي ولاتخفي ثمار ليمون وبرتقال وتفاح وطيف امرأة ناهضة. قال: حورية يا حصان، ثم قال: ليس في هذا البر بحر، والحورية لا تطلع إلا من فورة الزبد، وللحورية عود كغصن البان أو كقضيب الخيزران، وهذه المرأة ممتلئة وافرة البدن، وما أرخى سدوله ليس ليلا بل شعر على النحر يموج.

كان للمرأة كوخ وبستان. فتحت له بابها فدخل. أوقدت نارا ورفعت عليه

قدرها وسوّت حساء تشاركا فيه . على فراشها في الليل بكى فأمسكته ، ولم ترخه حتى هدأ ونام .

لم تنبهه ولكن النهار نبهه فخرج إلى البستان . كان مزروعا بالسرو السامق والأرز وأشجار فاكهة غام أخضرها في ضباب شتائيّ ناعم ، وتبلل بالندى . وكانت في البستان بئر ماؤها عذب رقراق .

أقبل على حجاب فانتصبت أذناه ، وتحركتا للأمام . ربت على جبهته ، وناصيته ، وظهره فحمحم . حمل له ماء ليشرب وأطعمه . انفلت إليه من الكوخ صوت المرأة تغني فرأى حبات البرتقال ، رغم الغيم ، تتقد برتقالية ، والتفاح ناضجا يثقل الفروع ، وأصفر الليمون يراوغ كأنما حياء ، فيلوح ويختفي بين خضرة الأوراق .

دخل عليها فناولته قدر عسل ، مدّ فيه يده ، ففاحت منه رائحة زهر البرتقال . ذاق من شهده واستطعم ثم خرج إلى التلال يتقافز بين شعابها كالظباء .

وعندما توغل الشتاء وهبطت الثلوج على المرتفعات المشرفة ، ظل البستان كالمعجزة أخضر ، والكوخ دافئا ومضاء بنار يشعلانها كل يوم في الصباح وفي المساء .

لم تسأله عن الذي كان ولا سألها عن حكايتها . اختزلا الكلام . سكن إليها وسكنت إليه ، يعلو صوتها بالغناء في النهار ، ينتشر فوق البستان ، بستانًا على بستان . وفي الليل أيضا تغني غناء خافتا يمتزج بطقطقة الأخشاب المشتعلة فيها النار ، يتواصلان بلغة غير لغة الكلام .

عندما زقزقت عصافير الربيع على الشجر نوى الرحيل ، فبكت :

ـ ستنساني !

ـ كيف أنساك؟ !

منحته قدر عسل فودعها . أمسك بلجام حجاب ، وسار بجواره مخلفا وراءه البستان .

١٧

تطلع إلى عمائر غرناطة، وبكى ثم ضحك. كان يقف على تلة تشرف على المدينة فيراها كاملة تمتد أمامه. يطيل النظر إليها فيملكها بالعينين قبل أن يأتي المساء فيدخلها خلسة في الظلام، يخطو في حواريها ويتوغل في المكان الأليف، يرافق التلة فيصعد، ينحني مع المنحنى، يتوقف عند السبيل ليشرب أو ليتوارى عن عين الغريب. ولكن قبل اللقاء بالتفاصيل كانت غرناطة تطالعه بكلِّها المكتمل في ضوء النهار: السبيكة والبيازين. وبين التلتين حدرُّه يجري بينهما دقيقا يتمايل قليلا هنا وهناك. هل صحيح أن قاع هذا النهر الصغير من التبر الخالص كما حكت مريمة؟ وهناك إلى يساره شانيل، تماما كما وصفته في حكايتها، يحيط بذراعه كتف غرناطة ويصاحبها. يراه في المدى يشق طريقه إلى الفحص المزروع. يعود بعينيه إلى البيازين. بدت بيضاء صابحة كالحليب تتراكب على التلة وتتكاثف، يعلو فيها السرو والصنوبر والتين في مواجهة التلة المقابلة التي تمتد عليها قصور الحمراء بأبراجها وأسوارها والبساتين. ذهبت جدتي، وذهب الحصان ولكنني عدت.

مال على نبتة صبار وقطف منها ثمرة. أخرج سكينا من جيبه وقطع طرفها، ثم حزَّ قشرتها حزا طوليا، وبطرف السكين استخلص الثمرة ورفعها إلى فمه. يذكره الصبار بروبرتو البطل يتدرع بغلاف من الشوك ويبدو قاسيا وهو حلو.

أوصله روبرتو حتى مشارف غرناطة، وقضى الطريق يحذره ويفطنه: «لم تعد المدينة لنا. ليست كبالنسية ولا حتى كمرُسية، فلم يعد فيها سوى أقليات

تشظت. غرناطة العرب صارت كالغانية ترقص وتتعهر إرضاءً لأسيادها لأنها خائفة. لا تأمن الآخرين يا عليّ، احذر القشتاليين ولكن احذر العرب أكثر. . . لماذا تريد العودة إلى غرناطة؟! لماذا لا تبقى معي؟! ابق معي. . . ولكنك تريد غرناطة، لا فائدة من محاولة ردك عنها. أستودعك الله إذن، في أمان الله. . . في أمان الله».

أدار روبرتو البطل رأسه قبل أن يستدير بالفرس، وقال دون أن يلتفت: «أودعت جعبتك بعض نقود قد تفيدك في شيء».

تابع عليّ عدو الأصيلة وهي ترجم الأرض رجما بحوافرها تسبق الريح، والشمس تكاد لا تقدر على رسمها ظلا على الأرض، وروبرتو على متن الأصيلة مائلا للأمام يبتعد، تتطاير من حوله بردته السوداء.

أغمض عليّ عينيه واستحضر لقاءهما الأول. لم يكن قد رآه ولا استشعر اقترابه عندما انتبه لحمحمة حجاب وحركة أذنيه وقوادمه، ثم سمع وقع حوافر تقترب. كاد يقفز على حجاب ويهرب، ولم يفعل. ليكن القادم من يكون، صديقا أو عدوا، فهو إنسان يرى فيه بعد شهور من الوحشة والعزلة وجها آدميا يبتسم أو يضحك، يكفهر أو يغضب. بقي ساكنا في مكانه ينتظر حتى رأى الرجل يقترب. كان يعتلي فرسا سوداء، ويعتمر عمامة، وعلى كتفيه بُردة. كان عربيا. صاح:

- سلام عليكم.

أجاب الرجل.

- سلام ورحمة الله.

أوقف الرجل فرسه ثم ترجل. كان له وجه أسمر نحيل به استطالة، وعينان حادتان نافذتان كعيني صقر، له لحية وشارب اختلط الأبيض فيهما بالأسود وزاد.

حدق الرجل في عليّ بنظرة متسائلة لا تخلو من صرامة.

- من أنت يا ولد، وما الذي أتى بك إلى هذه الجهات؟

- اسمي عليّ وأنا من غرناطة. هربت من قافلة الترحيل وجئت لألحق بالثوار، ولكني لم أجد أحدا في هذه الجبال.

بدا الرجل أكثر صرامة، وقال موبخا:

- هل أنت أبله يا ولد؟! كيف تُسِرُّ لغريب بحقيقتك؟! لا تأمن غريبا يا ولد!

قال عليّ مدافعا عن نفسه:

- عرفت من ملامح وجهك وثيابك أنك عربيّ.

- الحذر واجب، وليس كل عربيّ مؤتمنا... ألا يمكن أن أكون جاسوسا فتفقد حياتك ثمنا لثرثرة اللسان؟!

لم يجد عليّ ما يقوله فظل صامتا. قال الرجل:

- هل تقيم وحدك؟

- نعم.

- في هذه القرية العربية القريبة؟

- نعم، ولكنها مهجورة تماما، لا يقيم فيها سواي.

- سآتي لزيارتك، أنا روبرتو البطل، هكذا يسميني الآخرون، وأسمي نفسي أيضا.

ركب روبرتو فرسه وسبقه علي على حجاب، تتسارع دقات قلبه بفرح منتش. كان قد جاءه ضيف كأنه منّ وسلوى هبطت عليه من السماء. سيؤنس وحشته ويقيم معه يوما أو أياما وربما أسابيع، وقد يجد له مخرجا فيأخذه معه إلى حيث يعيش البشر متكاتفين مؤتلفين.

التقاه مصادفة ذات يوم فصاحبه عامين يتبعه كظله، يطرح عليه أسئلته وهمومه، يحتمل فورات غضبه، ويستدرجه إلى لحظات صفاء بالحديث فيما تستعذبه نفسه.

ـ حصانك جميل يا روبرتو!

ـ إنها فرس، واسمها الأصيلة. أدللها أحيانا بالعنود، وأحيانا بعتيق. اشتريتها ذات يوم بكل ما معي من مال، وكانت لي زوجة حمقاء فلم تفهم. قالت: هل تدفع كل مالك في حصان؟! قلت لها: وكَمَ لا، ألا يدفع الرجل كل ماله مهرا لامرأة. . . والحصان أغلى على قلب الرَجل! أغضبها الكلام فقلت: لتغضب!

ـ أين زوجتك يا روبرتو؟

ـ تركتها!

ـ ماتت؟!

ـ لم تمت فمثلها لا يموتون. أعدتها إلى أهلها.

ـ هل كانت سيئة معك يا روبرتو؟

ـ كانت ثقيلة الظل. لماذا يجلس المرء تحت شجرة؟

ـ ليستريح، وتظله ويأكل من ثمارها.

ـ زوجتي لم تثمر وكان ظلّها يسقط عليّ ثقيلا وخانقا. أعدتها إلى دار أبيها، وأخذت الأصيلة وذهبت.

تربع عليّ بجوار شجيرات الصبار ينتظر حلول الظلام لكي يتسلل تسللا إلى المدينة. تشاغل عن بطء الساعات بحساب السنين.

حين ودع المرأة ذات البستان كان يريد اللحاق بالثوار في البشرات، يريد

سترهم وستر الجبال، وقد ذهبت جدته وذهبت غرناطة فلم يعد له من أهل سواهم. حمله حجاب وشرّق، وواصل به العدو إلى الجنوب، ثم صعد به المرتقى العسير، وكان يتوقف ليجيل النظر في المكان من حوله، والفضاء المفتوح على أرض الله الواسعة تتموج فيها قمم الجبال وتتلون سفوحها بأخضر الشجر أو بحليب الغيوم.

ثم استوقفته تلك الصخرة فوقف مشدوها يحدق فيها. كانت صخرة هائلة الحجم، قائمة بذاتها مكتملة، وترتكز ـ كيف ترتكز؟ ـ على قمة الجبل. كان جزء من قاعدتها مستقرا على القمة المدببة، والباقي كأنه يحمل نفسه أو يحمله الفضاء. تأملها، بدت له ثابتة. كيف لم تسقطها الريح العاتية والسيول؟ هل تزحزحها العاصفة، ثم تأتي عاصفةأخرى فتزحزحها أكثر ثم تهوي مع العاصفة ثالثة، فتحدث دويا هائلا وهي تتدحرج بقوة مندفعة إلى القرار؟ أم تبقي في مكانها رغم الزوابع والأعاصير لأن الله يريدها معجزة، يحدق الخلق فيها مشدوهين وهم يتمتمون: «سبحان الله!».

واصل طريقه حتى دخل قرية تتكاتف بيوتها البيضاء وتتراكب على سفح المنحدر. كانت العصافير تغرد على صيف الشجر، والفروع مثقلة بالثمار، ولكن المكان كان مهجورا كأن الله لم يخلق العباد بعد. لا إنسان. لا صوت. لا دخان يشي بامرأة تعد الطعام لرجلها والصغار.

ترجل عن الحصان، ثم سارا معا في أزقة القرية، ثم أوقف الحصان بباب دار من الدور. دفع الباب ودخل فوجد سلما عن يساره، وحجرة مفروشة بالأبسطة إلى الجهة اليمنى. صعد السلم. تسع درجات حجرية ملتفة أوصلته إلى الطابق العلويّ. وجد حجرة صغيرة فيها ثلاث فرشات متجاورة، وحجرة أكبر فيها فرشة كبيرة تتوسط المكان، وكان لصق الحائط خزانة خشبية وصندوق، وفي الجهة المقابلة صندوق آخر، وفي الحائط المواجه لمدخل الحجرة باب، فتحه. كان يفضي إلى شرفة مفتوحة على الجبال. اقترب من بابها

الخشبيّ وأطل تحته مباشرة، فرأى أسقف البيوت بيضاء تتوهج في ضوء الشمس. تطلع أمامه: كانت الجبال تمتد على مدى البصر، سلاسل متماوجة تميل خطوطها تنحدر إلى الوديان أو تصعد مع السفوح إلى القمم الغائمة.

استدار، نزل الدرج إلى غرفة الجلوس. رأى بابا منخفضا، انحنى ليمر منه فأفضى به إلى غرفة أخرى فسيحة قدر أنها للطهو وللخزين. في جانب منها وجد قدوراً نحاسية، وأخرى من فخّار، ومغارف وصحونًا، وغربالا كبيرا وآخر صغيرا، وفي جانب وجد أكياس طحين وسكر وعدس وفول، وجرة زيت، وأخرى فيها زيتون، وفي الزاوية وجد فأسًا تستند يدها إلى الجدار، ومطرقة، ودلوًا فيها آثار الشيد البيضاء، وكيسًا من الشيد، وفرشاة.

قضى عليّ ليلته في البيت، وعندما طلع النهار حمل الفأس وقلب أرض بستانها الصغير وروى الشجر والزهور، وفي اليوم الثاني أخذ قدرا من الشيد الذي وجده وخلطه في الدلو ببعض الماء. قرر أن يعيد طلاء الجدران.

يغمس الفرشاة في الدلو ويُعملها في واجهة الدار. ترى من صاحبك يا دار؟ ما اسمه وما عمر زوجته؟ كيف تبدو، بدينة وطيبة القلب أم حسناء ويغار عليها من عيون الجيران؟ هل الحجرة الصغيرة لصغارهم؟ صبية يا ترى أم بنات؟ أم أن الحجرة للضيوف، أم أن رب البيت وربته كريمان يأتيهما الضيف فينامان في الحجرة الصغيرة ويتركان له المكان الأوسع والفراش الكبير؟ هل كان الرجل مزارعا أم حرفيا، والفأس لزوم العمل في البستان؟ يغمس عليّ الفرشاة في الشيد ويحركها على سطح الجدار. يتساءل كيف هاجر الرجل، هل حمل زوجته وصغاره تحسبا من الحرب القادمة، أم شارك في الحرب وقتلوه؟ أين صاحبك يا دار ومتى يعود، هل يعود؟

لا ينطق الحجر لأن الله جعله، على غير البشر، معقود اللسان. ولكنه يعرف لأنه رأى كل شيء وكان شاهدا ساعة الرحيل.

انتهى عليّ من طلاء الدار في أيام معدودة فصار يتجول في القرية، ثم صار يركب حصانه ويمضي إلى الجبال باحثا، عن أي شيء؟! لا يجد بشرا يتحدث معهم، فيجالس زهور البر ينتقي من بينها جميعا شقائق النعمان، يحدثها ويشرك في الحديث حجابا. يعود قبل الغروب يعد طعاما ويأكل، ثم يخرج إلى الشرفة ليرى القمر سارحا في السماء من منزل إلى سواه فتأتيه الأسئلة: ما الأرض وما السماء وما الحياة المعلقة بينهما؟ وكيف بدأت الحكاية، وما الذي حدث ليصير ذلك الذي صار؟ هل هو شر لايحكمه منطق سوى الأذى، أم أن الأسباب مستغلقة عليه؟ ذبحوا الثوار في البشرات، ورحّلوا الأهالي من غرناطة فتوزعوا بين مدن البلاد وقراها، فما الذي يحدث بعد ذلك؟.. الله في علاه يعرف الغيب فهو مكتوب ومسجل في اللوح المحفوظ... ترى ما المكتوب في اللوح، نصر أم هلاك؟

وذات يوم توغل في شعاب الجبل فوجد منحدرا كالدرج، ترجّل ونزل ليستطلع المكان، فإذا بمهبط كالكهف في باطن الجبل. لم يكن كهفا، كان مفتوحًا على السماء، تبين زرقتها وتختفي بين فروع أشجار سامقة نابتة من حوله. كانت الأرض مبللة وزلقة تتفاوت ألوان حجارتها بين الأحمر الداكن والورديّ والرمليّ الأصفر، تضرب في الأحجار جذور قوية ومتشعبة تختفي في باطن الأرض ثم تشقها وتطلع ظاهرة للعين. وجذوع الأشجار قوية، بُنيها أسود وخشبها مشقق عتيق.

من أين يأتي هذا الخرير المتصل الخافت؟ توغل أكثر فرأى الماء ينحدر مندفعا من أعلى في مجرى عموديّ يلتمع كالفضة السائلة تخالطها حُمرة. يسقط الماء ويسري في مسارب الأرض ويشطف الحجارة، ويمضي تاركا فيها قدرا من لونه الأحمر.

كان المكان ظليلاً ورطبا وملونا ينبت من بين شقوق حجارته العشب وزهور البر، صفراء ووردية وحمراء، هتف عليّ «يا الله!» فتردد الصدى عاليا في

المكان. كرر النداء «يا الله!» فعلا بعد صوته الصوت. صاح: «يا جدتي»، نادى «يا مريمة»، ثم علا صوته أكثر وهو ينادى: «يا غرناطة». ينادي ثم يسمع صوته يتردد في رجع النداء، ثم جلس منهكا وسالت دموعه، ثم علا صوته بالنشيج.

ساعتها بدت غرناطة مستحيلة، ولكن ها هو يعود. تطلع من حوله فرأى المساء يهبط على المدينة، فحمل جعبته وقام. غذ السير نحوها وهو يترنم بالأغنية القشتالية الشائعة:

يا ابن عمّار، يا ابن عمّار.

يا ابن العرب الساكن في الحيّ العربيّ.

أية قصور هذه المشرفة.

في فضاء المدينة؟

لم يكن دون خوان الملك أتاها فاتحا يستعلم عن معالمها، ولكنه واصل الغناء:

أيتها المدينة.

قلبي على كفي إليك أحمله.

وقرطبة وإشبيلية.

لك مهر في العرس أدفعه.

وأزيد عليهما طوقا من لؤلؤ المحار.

فتجيبه غرناطة:

احفظ هداياك.

يا ملك ليون العظيم .

تزوجت منذ زمان .

ومنحني زوجي أطفالا .

وصان عهدي .

١٨

ـ خوسيه!

ـ عليّ؟

كان خوسيه يرتدي ملابس النبلاء وأثرياء القشتاليين. يعتمر قلنسوة من المخمل القرمزيّ، وسترة مطرزة بخيوط الفضة، وسروالا ينتفخ حول البطن والردفين قليلا، ويضيق على الفخذين لينتهي عند الركبتين مسلما الساقَيْن لجوربين حريريّين ينتهيان داخل زوج من الأحذية لامع مصقول كالمرايا. ولكن عليّا تعرف عليه في الحال.

أصبح خوسيه أكثر شبها بوالده. له الوجه المكتنز نفسه، والجبهة العريضة واللحية الكثة كستنائية اللون على احمرار. حتى مشيته كانت كمشية إرناندو، بطيئة متثاقلة.

ـ إذن أنت عليّ؟ ما الذي حدث، ما الذي أصابك؟!

لم يفهم عليّ سؤاله وهو مأخوذ مازال بحقيقة أنه قد وجد وجها أليفا في البيازين. كان قد سعى إلى غرناطة كأن لا حياة له إلا فيها، فلما وصل إليها بعد خمس سنين لم يجد فيها صاحبا ولا رفيقا. كان أنطونيو قد رحل عنها، إلى أين لا يدرى، وابن فضة لم يعد بعد هروبه، والحارات مقفرة من الوجوه التي ألفها في الصغر. كانت الدور والحواري هي نفسها، ولكن البيازين ما عادت البيازين. في اليوم الثالث لوصوله جلس على ضفة شانيل وبكى، وتذكر روبرتو، وقال: نصحني روبرتو بالبقاء معه، ياليتني بقيت.

دعاه خوسيه إلى بيته فتبعه وجلا خائفا من لحظة يؤجلها منذ زمن وصوله، أن يرى بعينيه الدار والباب المغلق والنافذة التي اعتادت جدته الجلوس بالقرب منها تنتظره.

دخلا الحارة. كان خوسيه يواصل الكلام، وعليّ غائب لا يفهم من كلامه شيئا. رأى جزءا من الفروع المورقة لشجرة التين المزروعة في فناء الدار، ثم مرّ بالباب لايفصله عنه سوى ذراع. تحسس المفتاح في جيبه ثم رفع عينيه فالتقت بالنافذة في موضعها نفسه بمشرفيتها الحديدية تتعرج قضبانها كالغصون. كان ساترها الخشبيّ مغلقًا، والورد الدمشقيّ غائبا والتربة في حوض الزهور شقراء يابسة.

في نهاية الحارة كانت دار إرناندو بن عامر قائمة كما هي، والفناء أيضا على حاله. النخلة إلى يساره وشجرتا الفستق والكستناء إلى يمينه. تحت شجرة الكستناء كان يركع على ركبتيه ويميل برأسه وجذعه، يرسم بعود على التراب رسمات تعجب وردة ويحاول خوسيه تقليدها. يقول لأبيه: «انظر ما رسمته» فيقول له أبوه: «عليّ يفوقك في الرسم، يفوقك كثيرا» فيجيب خوسيه الإجابة نفسها كل مرة: «لأنه يكبرني بسنة» فتقول وردة «أنا أكبر منه بسنة ولكنني لا أتقن الرسم مثله!».

جلسا وضيّفه خادم أتى بطعام وشراب. قال خوسيه:

- احكِ، متى عدت إلى غرناطة وكيف، وما الذي فعلته في هذه السنين؟!

- احكِ أنت لي أولا، هل الوالد والوالدة بخير؟

- توفي الوالد منذ عامين، والوالدة بصحة جيدة ولكنها دائمة الشكوى، تقول أقفرت الحارة من الأحباب والمعارف.

- وإخوتك الصغار، ووردة؟

ـ الصغار صاروا رجالا، ووردة تزوجت.

لم يجد عليّ ما يقوله. واصل خوسيه:

ـ تزوجت وردة فارسا قشتاليا ذا نفوذ وجاه، وهي تعيش الآن في رغد الأميرات، ولقد أكرمها الله بالولد والثاني على الطريق. جاء دورك لتحكي لي... أين ذهبت ومن أين جئت وما الذي فعلته؟

حكى عليّ عن أشياء دون أشياء، ثم قال له إنه بلا أوراق، وبلا عمل، ويسكن مؤقتا في بيت مهجور في أطراف الحيّ.

قال خوسيه:

ـ أمهلني أسبوعا واحدا، وإن شاء الله تكون لديّ أخبار طيبة.

قام عليّ مستأذنا في الانصراف فقال له خوسيه وهو يمد له يده ببعض النقود:

ـ شكلك لا يسر، اشتر لنفسك ملابس لائقة.

كاد عليّ أن يرد الإهانة بلكمة يسددها إلى وجه خوسيه، ولكنه لجم غضبه وقال:

ـ معي نقود، معي ما يكفي ويزيد!

أعاد خوسيه النقود إلى جيبه، وقال وهو يبتسم بعادية كأن شيئا لم يحدث:

ـ ما دام معك نقود يا أخي ارتَد ملابس مناسبة. إنهم يسيئون إلينا، ويتحرشون بنا، ويتعالون علينا ويقولون بازدراء: «أولاد عرب!» ولكن الواحد منا إذ يبدو عليه الثراء، ويمشي في الأرض مختالا كالنبلاء لا يجرءون على الإساءة إليه، ولا التحرش به. علينا أن نبدو كالأسياد وأن نتصرف مثلهم!

بعد أسبوع ذهب عليّ إلى خوسيه في الصنادقية. وجده جالسا في المتجر، يحيط به ثلاثة يماثلونه فيما يرتدون من ثياب تشي بالجاه والأهمية. لمحه خوسيه فحياه بيده وأشار إشارة فهم عليّ منها أن عليه الانتظار.

كان خوسيه قد حل محل أبيه في المتجر الذي وسعه بضم متجرين ملاصقين. كان عمله رائجا، وبدا ذلك واضحا من كم المعروضات وعدد العاملين.

طال انتظار عليّ، وأثقل عليه شعوره بأنه صاحب حاجة، فتشاغل عن ضيقه بتأمل الصناديق وتفحص الفروق في الصنعة، ثم عاد يتطلع إلى خوسيه الذي كان يتحدث بالقشتالية ويضحك بصوت عال مع مجالسيه، قدر أنهم قشتاليون، ثم تشكك في تقديره إذ كانوا يشبهون خوسيه شكلا وملبسا ولهجة كلام. قاموا وودعهم خوسيه، ثم أقبل عليه مبتسما. قال:

ـ أبشر، أمورك حلت. استخرجت لك الأوراق اللازمة مضافا إليها ورقة أنك تعمل عندي هنا في المتجر.

تلعثم عليّ ثم قال بصوت خافت:

ـ جميلك على رأسي يا خوسيه.

ـ لم تبق سوى مشكلة السكن. يا إدواردو... تعال.

اقترب منهما كهل نحيل له عينان خضراوان:

ـ نعم يا سيدي.

ـ هذا عليّ، سيعمل معنا في المتجر وسيسكن معك في دارك بشكل مؤقت حتى نجد له دارا مناسبة.

ـ أمرك يا سيدي.

قال خوسيه وهو يضحك في غبطة:

ـ انتهينا من كل المشكلات . . . وها أوراقك الجديدة. بالمناسبة يا عليّ، هل بعتم دار عين الدمع قبل رحيلكم؟

ـ لا لم نبعها، لماذا تسأل؟!

ـ قد . . . قد . . . لست متأكدا بعد، ولكني قد أقوم بترتيب يمكنك من العودة للإقامة في داركم في البيازين. اذهب الآن واشتر لنفسك ثيابا جديدة. ألم أقل لك إن هذه الثياب التي عليك لا تصلح!

لم يتوقف عليّ أمام عبارات خوسيه الأخيرة، ولم تمسه بسوء إذ باغته الكلام عن إمكانية استرداده بيت البيازين فاستغرق فيه.

صافح خوسيه وغادر الصنادقية والسوق كلها، ثم جلس تحت أول شجرة صادفته. من يكون خوسيه ومن أين له بكل هذا النفوذ؟ استخرج له أوراقا تفيد أنه لم يرحل أصلا من غرناطة، وقال «أعيدك إلى دارك» والدار مصادرة تملكها الدولة. هل أصبح خوسيه صديقا شخصيا للملك؟! لحاكم غرناطة؟! للكاردينال؟! أم يستمد نفوذه من نفوذ زوج أخته الذي قال إنه نبيل من النبلاء، فارس ذو سطوة وجاه؟! وهل تدور الدوائر بما يجعل الرجل الذي تزوج وردة يذلل له العقبات ويجعل من إقامته في غرناطة إقامة مشروعة وميسورة؟!

يدور رأسه بالأسئلة، وترجّه فكرة استرجاع بيت البيازين وتزيده اضطرابا على اضطراب.

اشترى لنفسه ملابس جديدة، وفي الصباح التالي بكر في النزول إلى الصنادقية. لم يكن خوسيه قد وصل بعد، ولكن العاملين في الفناء الخلفيّ للمتجر كانوا قد بدءوا يومهم فراحوا ينشرون ويدقون ويحفرون ويُطعِّمون. أمسك عليّ بمنشار وراح يعمله في قطعة من الخشب، فبدا له، وهو منهمك في عمله، أن السنوات التي مرت لم تمر، فمن قال إنه غادر غرناطة؟ من قال إنه

طعن رجلا لا يكرهه ولا يحبه ولا يدري عنه شيئا؟ من قال إن الجوع والوحشة والتعب كادت تقتله وهو ضائع بين خوانق الجبال؟ حتى المرأة ذات البستان وكوخها وقدر العسل، وروبرتو البطل والأصيلة وحجاب تباعدت كومضات وهم في منام. من قال إن جدته ماتت؟! الآن الآن بعد أن ينتهي من عمله يغادر الصنادقية عائدا إلى البيازين، يصعد إلى كنيسة سان سلفادور، وينحني يسارا إلى حارة تقوده إلى حارة، فيدخلها فيلمح وجه مريمة يتطلع عبر مشرفية تزين حافتها الورود.

- وحد الله يا عليّ، لا تضيق إلا وتفرج، لا يصح أن تسيل دمعتك وأنت تعمل بين الرجال!

تطلع عليّ. كان إدواردو يميل عليه بجذعه ويتحدث إليه همسا. كان يتحدث بالعربية. كان عربيا مثله.

عض عليّ بأسنانه على شفته وانهمرت رغم ذلك من عينيه الدموع.

داوم على الذهاب إلى عمله، ولم يكن يرى خوسيه إلا لماما عندما يمر على العاملين في الفناء الخلفيّ، يلقي بتعليماته على عامل ويوبخ آخر، ولكنه في ذلك اليوم قصده مباشرة. قال:

- عليّ، مرّ بي هذا المساء في الدار.

في المساء ذهب. قال خوسيه:

- سأسدي لك خدمة قد لا تنساها ما حييت.

عرف عليّ أنه يقصد بيت البيازين. قال خوسيه:

- ستعود إلى بيت البيازين، إن أردت!

- إن أردت؟! أريد ذلك جدا يا خو.... يا دون خوسيه.

ـ اسمعني جيدا إذن : البيت مصادر ويتوجب لاستعادته دفع مبلغ كبير من المال، والتوسط لدى أصحاب النفوذ. حاولت ذلك وأفلحت. وما أعرضه عليك هو التالي :

توقع لي على صك بيع يؤرخ بما قبل الرحيل لبيت عين الدمع وبيت البيازين. الأول آخذه مقابل ما بذلته من مال وجهد، والثاني آخذه لكي تسكن أنت فيه. ماذا تقول؟

ـ لا أفهم!

أعاد خوسيه عرضه، فقال عليّ:

ـ ستأخذ بيت عين الدمع في مقابل إعادتي لبيت البيازين، فلماذا تأخذ مني صكا بملكية بيت البيازين؟!

ـ كلامك غريب يا عليّ، إنني أعرض عليك أن تعود إلى دارك القديمة بأجر زهيد، ودون هذا العرض تبقى في هذا الجحر المظلم مع إدواردو. أنت لا تملك البيتين أصلا. أقصد لم تعد تملكهما، فلماذا تتحفظ في التوقيع على صك بيعهما؟!

وجم عليّ.

ـ ماذا تقول؟

لم يقل شيئا فقام خوسيه وأحضر الصكوك وقلما ودواة.

قال :

ـ وقع، هذه فرصة عمرك.

ثم قال :

ـ لا تكن أحمق. أعرض عليك أن تعود إلى دارك وها أنت تتردد. هذا ما لم يخطر لي ببال قط!

ـ أعطني شربة ماء يا خوسيه .

قام خوسيه ليأتي بجرة الماء وشعر عليّ بحلقه يزداد جفافا وبالعرق يتصبب من جسمه وبدوار يلف رأسه .

شرب ثم ناوله خوسيه القلم فغمسه في الدواة . تذكر كتب جده في عين الدمع ، قال :

ـ لي كتب في عين الدمع خلفها لي جدي أبو هشام ؛ أريد الكتب .

ـ سأعطيها لك .

كان القلم مشرعا في يدع عليّ . قال خوسيه :

ـ مادمنا قد اتفقنا وقع .

غمس علي القلم في الدواة مرة أخرى ووقع على الصك الأول ببيع بيت عين الدمع وعروق الزيتون والأرض المحيطة به ، ثم وقع على الصك الثانى .

حين سأله إدواردو عن سبب وجومه لم يجبه ، وحين دعاه لمشاركته العشاء لم يأكل . أكل إدواردو ثم نام وتوغل الليل فتحدد اضطراب عليّ غضبا . خوسيه كلب ، حقير ، نذل ، يمتص دمنا ليزداد على سمنته سمنة ، يغتني بخرابنا . وبدا لعليّ أنه لو رأى خوسيه أمامه لألقى بنفسه فوقه وانهال عليه ضربا وركلا فلا يتركه إلا وهو جثة هامدة ، ولكنه لم يجد خوسيه أمامه . كان هناك في داره آمنا منعما ينام ملء جفنيه . ما الذي يفعله الآن ، ما الذي يفعله؟ لماذا وقّع لذلك الكلب على صك لا حق له فيه؟!

قفز إدواردو من فرشته وأمسك بعليّ بقوة وهو يصيح فيه :

ـ ما الذي تفعله بنفسك ، وحد الله يا رجل؟!

كان عليّ يجأر بصوت عال ويضرب رأسه في الحائط ودمه يسيل .

١٩

أدار المفتاح في الباب ودفعه. خطا خطوتين ثم توقف. راحت عيناه تمرّان ببطء على مألوفاتهما القديمة: التينة عن يمينه، يحملها جذعها قويا ومتغضّنا، ويطلق غصونها المورقة في دائرة تتجاوز السياج الحجريّ، وتلقي على الأرض مساحة دكناء من الظلال.

الفناء، على غير الشجرة، يحكي هجره. تراكمت عليه الأتربة والأوراق الجافة وفضلات العصافير. تسكنه السحالي والفئران والخنافس. تحجبها عن عينيه الأوراق ولكن يسمع خشخشتها.

في عصاري الصيف كانت مريمة تقش الفناء، ترطبه بماء البئر، تملأ الدلو منها، وتسكب ثم تملؤه من جديد وتسكب مرة أخرى. وحوض مزروعاتها؟ تطلع علي إلى الجهة المقابلة فلم ير سوى شجرتي اللوز والمشمس عاريتين من الأوراق، والأرض من تحتهما يابسة مشققة. كانت جدته تقول: «بستاني» ولم يكن سوى حوض مستطيل تقلب طينه وتغرس الشتلات فيه، وتقلّم وتروي. أحاطته بإطار من حصى البان، وزرعته بالورد الدمشقي والريحان والخزامى، تسري رائحتها في ليالي الصيف.

الزرع كالبشر يموت، أما الأحجار فتقوى وعمرها يطول. انتقل بعينيه من حوض الزهور إلى مبنى الدار. تملى الأقواس الثلاثة، والأعمدة الأربعة التي تحملها والرواق. وفي زاوية الحجرة ذات المشرفية، كانت جدته تجلس وراءها تنتظر، فيراها ما إن يدخل الحارة وهو عائد من عمله في المساء.

والبئر؟ اقترب منها. انحنى وحدّق، بها ماء! بحث عن الدلو. أنزله فيها ثم جذبه، خلع ملابسه وسكب الماء على رأسه دفعة واحدة. شهق ثم ضحك ثم أعاد الكرّة. بإمكان المرء أن يبدأ من جديد، بإمكاني أن أبدأ من جديد.

سيبدأ بتنظيف الدار، يكنس الحجرات والفناء ويقشها بالماء ويشتري فراشا وأغطية، وزيتا وزيتونا، وشتلات يغرسها في البستان.

في اليوم التالي لوصوله اشترى سمادا للأرض وبذورا وشتلات. حمل الفأس القديمة وقلب الأرض وسمّدها وزرع بستان مريمة بالزهور نفسها: الورد البلديّ والخزامى والريحان، ثم أضاف إليه شتلتي ليمون وبرتقال. بعدها كنس الباحة، وشطفها ثلاث مرات بالماء.

اشترى طلاء وألواحا خشبية، ومطرقة جديدة، ومنشارا ومسامير. بيّض الجدران وجدد خشب النوافذ والأبواب وأعاد طلاءها، ونجرّ خزانة كبيرة نقل إليها الكتب المحفوظة في عين الدمع. مسح الغبار عن الكتب وصفها في الخزانة ثم أغلقها بمفتاح صغير حمله في جيبه مع مفتاح الدار.

كان يحظى بشروق مبكر، فينشط في العمل ساعتين، ثم ينزل إلى الصنادقية يشتغل في متجر خوسيه، وعندما يعود يواصل ما بدأه في الصباح حتى تغرب الشمس، فيهبط المساء ويستلقي على فرشته منهكا وينام. تأتيه مريمة في الحلم كثيرا، وفي بعض الأحيان يرى المرأة ذات البستان والنار الموقدة في كوخها، يمد يده إلى قدر العسل، يشهق ويصحو ومذاق الشهد لاذع حلو لم يتبدد.

لم يكن يحلم بروبرتو البطل، ولكنه كان يستحضره وهو يعمل في تعمير الدار فيطول بينهما الحديث. لم يفهم روبرتو أبدا لماذا تلح عليه غرناطة إلى هذا الحد، ولا رغبته في العودة إلى بيت البيازين. هو أيضا لم يفهم منطق روبرتو في تفسير الأمور:

ـ قاطع طريق يا روبرتو؟ هذا حرام!

ـ ليس حراما بل عين الحلال!

ـ تنقض على المسافرين في أمان الله، وتسرقهم وتضربهم إن قاوموك، وتقول حلال؟!

ـ أنت حمار يا ولد!

قالها وضحك، ولكنه في يوم آخر قالها بغضب، وقد احتد بينهما الحديث. ارتفع صوته زاجرا وموبخًا.

ـ هل تظننا لصوصا؟! لست لصا يا ولد، وأمقت كل خسيس وجبان. هل نقطع الطريق على أهلنا؟! على المستضعفين؟! على من لا حول لهم ولا قوة؟! حكام البلاد يسمون من يهاجم الشواطئ أو سفنهم قراصنة، أما نحن فنسميهم مجاهدين. لماذا؟! افهم يا ولد، لأنهم مهاجرون من أهل الأندلس وأنصار من الجزائر يركبون البحر، ويضربون عدوهم، ويثأرون لأنفسهم ويستنقذون ـ كلما تمكنوا ـ بعض أهلهم من أيدي المتجبرين. ليسوا لصوصا ولا قراصنة.

ـ ولكنك لا تنقذ أحدا يا روبرتو. تسرق مال هذا المسافر أو ذاك وتمضي.

غضب، وخاصم عليا يومًا وبعض يوم فلم يبادله حرفا، وعندما هدأ لم يعاود أيّ منهما الحديث في الموضوع، يسأله عن الثورة في البشرات فيحكي، ويسهب في الكلام عن الذي حدث يوم كذا ويوم كذا، وعن محمد بن أمية وابن عبّو، ثم ينهي كلامه كل مرة بالعبارة نفسها:

ـ المشكلة يا ولد أن قادتنا كانوا أصغر منا. كنا أكبر وأعفى وأقدر ولكنهم كانوا القادة، انكسروا فانكسرنا!

أخذه روبرتو ليقيم معه بين قطاع الطرق في الجبال. قال:

ـ لا يملك أحد أن يرغمك على شيء. احرس كهوفنا، وارعَ أغنامنا فتكون ذا نفع للآخرين.

تبعه وبقي معه عاما ونصف عام، ولكنه لم يألف المكان. قال:

ـ سأعود إلى غرناطة.

ـ إن تذهب يقبضوا عليك.

ـ أعود وليكن ما يكون!

لو صاحبه روبرتو لحظة دخوله البيت، لو رآه وهو يبيّض الجدران وينجّر خشب النوافذ ويلونها ويزرع بستان مريمة، لو أن روبرتو معه الآن لفهم كل شيء بلا طول شرح أو كلام.

بعد ثلاثة شهور من العمل اليوميّ، أصبحت الدار مضيئة كالعروس. بستان مريمة بستان، ومشرفيتها المطلة على الحارة مطلي حديدها بالأخضر، ومزينة بحوض ورود دمشقية تتكاثف أوراقها حمراء ووردية وصفراء. ما رأيك يا مريمة؟

في الليلة، التي انتهى فيها تماما من تجديد الدار واستلقى على فرشته قرير العين بما أنجزه، استعصى عليه النوم وأرّقته الصكوك التي وقعها. نسيها أم أجّل التفكير فيها ليتفرغ للعمل ويتمّه؟ هل تمر فعلة خوسيه دون انتقام؟ كان قد حكى لإدواردو عن تلك الصكوك، فقال له: «ليس في سلوكه جديد. هذا هو خوسيه. ومع ذلك، ورغم انحطاطه، فقد خدمك. كانت الدار مفقودة لا أمل في استرجاعها فمكنك منها».

فهل خدمه خوسيه أم سرقه لأنه لص مبتذل وحقير؟! لن يهدأ قبل أن يرد لخوسيه الصاع صاعين، والأيام بينهما.

٢٠

لمحها عن بعد وسط زحام السوق. امرأة في طولها، مشدودة الجذع مثلها، ولها كفلان ثقيلان يتحركان مع مشيتها الوئيدة. غذ الخطو في اتجاهها حتى بلغها وجاوزها ثم استدار. تقابل الوجه بالوجه. هتف عليّ: «خالتي فضة!».

تطلعت. مرت لحظة صمت. بدا له أنها لم تتعرف عليه، ثم انتبه أنها لم تكن تحدق فيه تساؤلا. كان وجهها الأسمر يغيم ويشرق وعلى الشفتين رجفة معلقة بين ابتسام وأسى.

ـ متى عدت؟

ـ منذ شهور.

ـ ولم تأت للسؤال عني، وعن صاحبك؟

ـ سألت عنه فعرفت أنه لم يعد.

ـ هل عدت مع جدتك؟

ـ جدتي؟!

ـ عدت وحدك؟!

ـ ماتت.

لم تعلق. شردت عيناها وطال شرودهما كأنها نسيت أنه يقف أمامها. قطع الصمت بالسؤال:

ـ هل جاءتك أخبار من فيديريكو؟

ـ قبل عامين جاءتني منه رسالة. تركها لي شخص غريب لم يكلف نفسه عناء انتظار عودتي إلى الدار. تركها مع خادمة من رفيقاتي. أطلعت عليها الدون بدرو ليقرأها فقال إنها مكتوبة باللغة العربية، فبحثت عن شخص يعرف القراءة بها، بحثت أسابيع متصلة حتى وجدت من يقرؤها لي.

يقول فيديريكو إنه بخير ووجد عملا، ولكنه لم يذكر شيئا عن المكان الذي يقيم فيه، ولا نوع العمل الذي يقوم به، ومازلت بانتظار مكتوب آخر يطمئنني عليه ويخبرني بالتفاصيل.

ـ هل معك المكتوب؟

ـ احتفظ به في البيت.

ـ أطلعيني عليه فاقرأه لك.

ـ وهل تقرأ العربية؟

ـ أقرؤها.

كاد يدعوها إلى زيارته في داره، ثم انتبه إلى أنه يقيم وحده وأن ذلك لا يجوز. قال:

ـ نلتقي يوم الأحد بعد القداس في ساحة كنيسة سان سلفادور.

ـ مادمت تقرأ العربية سآتي لك بالرسالة هذا المساء... أين تنزل؟

ـ عدت إلى دارنا في البيازين.

ورغم قلقه من زيارة قد تثير فضول الجيران أو تقولاتهم، إلا أنه توقف بعد انتهائه من عمله ليشتري ما يُضيّفها به، وكان مبتهجا بفكرة الزيارة التي تحمل معها شيئا من ألفة الدار القديمة، يتردد عليها معارف جدته من الجارات والصديقات.

سمعها وهي تدفع باب الدار فركض إليها مرحبا بصوت جهوريّ:

ـ نورت الدار يا خالة فضة، تفضلي. . . أهلا وسهلا، أهلا. . .

اصطحبها إلى داخل البيت، وانتظر حتى جلست، ثم سارع إلى إحضار الفطائر والفواكة المجففة، ثم جلس أمامها. قرر أنه لن يبادئها بالسؤال عن مكتوب فيديريكو. قد تعطيه الرسالة فيقرؤها ثم تذهب. لم يكن يريد أن تذهب، ولكنها مدت يدها إلى صدرها وأخرجت قماشة مخملية مطوية. فتحتها بعناية وناولته الرسالة:

تناولها وراح يقرأ. لم يصدق عينيه فأعاد القراءة. كيف يتحكم في صفحة الوجه فلا يفضح ما باغتته به الكلمات؟ ما الذي يقوله لها وما الذي يفعله الآن؟

ـ ما بك يا سي علي، لِمَ لا تقرأ المكتوب؟ ألم تقل إنك تتقن القراءة بالعربية؟!

ابتلع لعابه وقال دون أن يتطلع إليها:

ـ الخط رديء يا خالة فضة. أملى فيديريكو خطابه لشخص لا يتقن الكتابة. عليّ أن أتملى الحروف حرفا حرفا حتى أستبينها وأتأكد من معناها.

عليه أن يقرر، استجمع شجاعته وحسم أمره، قال:

ـ «إلى والدتي الغالية فضة، أدامها الله في صحة وعافية وسرور، أعلمك أنني بخير، وقد وصلت إلى مالقة وأقمت فيها ووجدت عملا. وصاحب العمل رجل طيب، وهو يحسن معاملتي، وينصفني، فيما يدفعه لي من أجر.

بلغي سلامي لعلي وأنطونيو ولأبي خوسيه. وكذلك لكل المعارف والجيران.

أقبل يديك، ابنك البار فيديريكو».

وتعجب عليّ حين انتهى من كلامه كيف انطلق لسانه فقال الذي قاله بيسر وسهولة كأنه مكتوب بين يديه.

وكانت فضة تتطلع إليه، وقد تعلقت عيناها بوجهه وتحددت على شفتيها ابتسامة. بدا وجهها عذبا وناعما وحزينا رغم الابتسام.

- أعد عليّ ما قرأته يا سي عليّ.

أعاد عليها الكلام مرة ثانية ثم ثالثة. قالت وهي تقوم استعدادا للذهاب:

- ذلك الرجل الذي قرأ لي الرسالة، سامحه الله، لم ينقل لي ربع ما جاء فيها. ربي يحميك يا سي علي. بفضلك صرت أعرف كل كلمة وردت فيها وأحفظها عن ظهر قلب. بإمكاني أن أنشر الورقة أمامي وأعيد لنفسي الكلام فأقرؤها على طريقتي، سأقرؤها كل يوم.

مدت يدها لتسترد منه الخطاب.. كيف يستبقيه؟ لم يسعفه عقله.

أخذت فضة الرسالة وطوتها ووضعتها بعناية في القماشة المخملية الزرقاء ولفتها وأعادتها إلى صدرها.

- وما العجلة في الذهاب يا خالة فضة، اجلسي لنتحدث؟

- شكرا يا سي علي، بارك الله فيك وحفظك.

أوصلها إلى باب الدار، وظل واقفا يتطلع إليها وهي تبتعد، ثم أغلق الباب واستند إلى الجدار.

كانت الرسالة من شخص تعرف على فيديريكو في مركب تجاريّ مبحر من مالقة إلى تونس، وكان يقول في رسالته إن فيديريكو مات في عرض البحر متأثرا بحمى أصابته، وإنه أوصاه قبل موته أن يخبر أمه إن وافته المنيّة.

لو كانت هذه الرسالة قد وصلت إلى فضة للتو، لو كان أول من يقرؤها لها

لواتته الشجاعة في نقل مضمونها. ولكنها كانت تحملها منذ عامين، تقول ابني بخير في مكان ما أجهله ولكنه بخير. تروح وتأتي، تمشي في الأسواق، تصحو وتنام وهي تحمل في صدرها، دون أن تعلم، خبر موت ابنها.

قضى عليّ ليلته لم تغمض له عين، يلازمه طيف فيديريكو ووجه فضة.

٢١

ما الذي حدث؟ أهل غرناطة الجدد من النصارى الأصلاء مشدودون كالوتر، يقال إنهم خائفون ولكن خوفهم لا يظهر خوفا بل تحرُّشا وشراسة. تتردد أنباء أن السلطات ستسمح لأهل غرناطة العرب بالعودة إلى ديارهم من منافيهم في قرطبة وإشبيلية وجيّان، يعودون إلى دورهم كيف... وأين يذهب من أسكنوا هذه الدور؟!

تمشي فتُحدق بك العيون، متربصة بالأذى، تسمع بأذنك عبارات «عربي قذر»، «كلب موريسكي» فتمضي كأنك لم تسمع شيئا، مرة ومرتين وثلاث، ثم تمسك بتلابيب القائل فتضربه ويضربك، ويسيل دمه أو دمك.

وفي الصنادقية لا يدور كلام إلا عمّا وقع من شجار، وعن وساطات يقوم بها بعض المتنفذين من وجهاء العرب لإعادة المهاجرين إلى دورهم.

عندما جاء رجال الشرطة وألقوا القبض عليه قدر أن الرجل الذي تشاجر معه قبل يومين قد تقدم بشكوى ضده. سيحققون معه ثم يخلون سبيله، فليست مشاجرته سوى واحدة من آلاف مثلها تشهدها شوارع غرناطة كل يوم.

لم يسأله المحقق عن ذلك بل سأله عن اسمه، ومكان ولادته، وسكنه، ومحل عمله. إذن يتشككون في أنه عاد متسللا إلى غرناطة بعد طرده منها. لم يضطرب؛ إذ كانت معه الأوراق التي استخرجها له خوسيه، وهي تثبت أنه لم

يُرحَّل من غرناطة، بل سُمح له بالبقاء فيها لأنه كان يعمل خبّازا، ولم يكن المرسوم يشمل الخبّازين.

أبرز الأوراق.

في اليوم التالي مَثُل مرة أخرى أمام المحقق. سأله:

ـ ما اسم والدك؟

أسقط في يده فلم يكن يعرف له اسما سوى هشام فماذا عن اسم التعميد؟!

ـ ألفاريز.

ـ هذا اسم العائلة، ما اسمه الأول؟

تلعثم.

ـ لا أعرف.

ـ كيف؟

ـ لأنني تربيت يتيما في كنف جدي وجدتي. ولما كان أبي هو ابنهما الوحيد الذي لم يمنحا من الذكور سواه، فقد كانا يشيران له بكلمة «ابني» وأحيانا يقولان: «أبو عليّ».

ـ أنت تكذب!

ـ ولماذا أكذب؟!

ـ أبوك هشام ألفاريز قاطع طريق خطر يهدد كل العابرين في جبال مالقة، وله اتصال بالمغاربة وبقراصنة البحر.

ـ هل تقصد أنه على قيد الحياة؟!

ـ ألا تعرف أنه على قيد الحياة؟!

ـ لم أره في حياتي قط. قيل لي إنه مات قبل ولادتي بأسابيع.

ـ ولا تعرف عماتك أيضا:

كان هذا آخر ما يتوقع. ردد مأخوذا:

ـ عماتي؟!

ـ نعم عماتك؟

ـ لي خمس عمات تزوجن جميعا في بالنسية، قبل ولادتي بسنين. لم أر أيا منهن في حياتي، ولكنني أعرف من جدتي أن أربعا منهن رحلن إلى فاس منذ زمن، أما الخامسة فكانت في بالنسية، ولا أدري هل بقيت فيها أم لحقت بأخواتها.

ـ إذن أنت تعرف أن لك عمة وزوج عمة وأولاد عمة في بالنسية.

ـ أعرف يا سيدي المحقق. ترى الآن أنني لا أكذب، ما أعرفه أقوله، وما لا أعرفه أقول لا أعرفه.

ـ زوج عمتك وأبناؤها في بالنسية أودعوا السجن وهم متهمون بالاتصال بأعداء البلاد من الأتراك والبروتستانت الفرنسيين. كانوا يجمعون المال والسلاح ويبعثون الرسائل إلى أعدائنا لينسقوا بين هجوم الأعداء من البحر وتمرد موريسكيّ في الداخل.

ـ لم ألتق بعمتي ولا بزوجها ولا بأبنائها طيلة حياتي. وها أنا أسمع منك عنهم أخباراً لا أملك تأكيدها أو تكذيبها لأنني لا أعرفهم!

ـ لقد تتبعنا سلوكك وتقصينا عنك فعرفنا أنك تعمل في متجر خوسيه بن عامر وتستأجر دارا يملكها في البيازين.

لم نجد في سلوكك ما يثير الشكوك.

واصل المحقق:

ـ نرجح أنك تقول الصدق، ولا شأن لك بهشام ألفاريز، ولا بالمتآمرين في بالنسية.

ـ تطلقون سراحي إذن يا سيدي؟

ـ سنطلق سراحك ولكن ليس الآن. لن نقدمك لمحاكمة فليس أمامنا ما نحاكمك عليه. سنحتجزك بعض الوقت، مجرد إجراء احتياطيّ.

«بعض الوقت» فسرها علي وهو واقف أمام المحقق بأنها عدة أيام أو أسبوع أو ربما أسبوعان وبدا له «بعض الوقت» هذا ثمنا معقولا وربما بخسا لاكتشاف خبايا عائلته. كان أبوه وزوج عمته وأبناء عمته يقلقون السلطات ويهددون أمنها. «بعض الوقت» ليس بالكثير الذي يدفعه مقابل معرفة هذه الخبايا الثمينة.

لماذا دفع بأبيه هكذا في زاوية منسية من عقله فكاد يُسقط أنه موجود؟ هل كان يخجل منه أم كان يغضبه أنه تركه وترك بيته في البيازين ليعيش بين قطاع الطرق في الجبال؟ ولكن أباه ـ هكذا قال المحقق ـ يهدد أمن البلاد. ابتسم عليّ ثم ضحك، ثم راح يتأمل صورة أغفلها، ولكنه لم ينسها رغم السنين: الوجه المدبوغ، والجسم المربوع، والمنديل الأحمر المربوط حول العنق، والكيس المخملي الصغير، يودعه في يده ويضمه ثم يمضي فيتابع مشيته الوئيدة وساقة العرجاء.

لم يحك لروبرتو البطل أبدا عن أبيه. هل نسي أم قصد النسيان؟ قال المحقق إن هشام ألفاريز يتصل بمجاهدي البحر، وروبرتو أيضا كان ـ وهو قاطع طريق ـ من بين الثوار. التقى بمحمد بن أمية وحكى له تفصيلا عن لقائه به. قال له روبرتو: «عندما اندلعت الثورة ركبت الأصيلة وذهبت إلى محمد بن أمية. وجدته فتى يافعا وسيما ومهذبا. قلت هذا الولد المُنعَّم لا يصلح. ولكني

مددت له يدي وأعطيته صندوقا به ألف قطعة من العملات الذهبية جمعها رجاليَ من أجله. قلت له: «سآتي لك بمائتي رجل من الأشداء، مدربين على الكرّ والفرّ» فسألني: «من أي عائلة أنت ومن أي بلد، وهل من تأتي بهم من أبناء عشيرتك أم من أهل الحرفة؟» قلت له: «نحن قطاع طرق في الجبال، لا عشيرة لنا ولا بلد». جفل وبدا عليه الاضطراب. كدت أمضي غاضبا ولكني بقيت. ثم حبست مخاوفي وأحضرت رجالي وخضنا الحرب تحت لوائه. ليست الحرب نزهة يا عليّ بل تطلب قلبا كالحجر. لم يفهم. كان صغيرا مثلك، أخضر العمر والتجربة. قلبه أيضا كان أخضر. اعترض على شراستنا. ضيق علينا فضيقوا هم عليه ثم قتلوه، ومن جاءوا بعده راودهم الاستسلام. خافوا، وفقدوا العزم، ولما فقدوا العزم صاروا يتراجعون، ولما صاروا يتراجعون أخذ القشتاليون يتقدمون يحرقون وينهبون ويسبون ويقتلون».

تذكر كلام روبرتو البطل، وتمنى وجوده لكي يحكي له عن أبيه وما قاله المحقق عن زوج عمته وأولادها. ولكنه كان في السجن لا يملك أن يذهب إليه حتى إن أراد.

في البداية لم يبد له السجن ثقيلا، فكان يمازح من معه، يتحدث كثيرا ويضحك كثيرا، ولما طالت الأيام وأصبح «بعض الوقت» شهوراً، أصبح السجن بحجارة جدرانه، وحديد قضبانه، ووقع خطى الحراس فيه، ووجوه من معه في الزنزانة وأصواتهم تكدّره وتثقل عليه، فلا يطيق المكان ولا نفسه.

يكره صاحب النبوءات في الزنزانة، الذي لا يكف عن إعلان رؤاه فيسخر منه البعض وينصت له البعض الآخر في وجل. كان الرجل ستينيا سقطت أسنانه إلا القليل منها، نحيلاً كالعود، غائر العينين، بارز عظمات الوجه، له صوت عال كالنفير. يغفو ثم يفاجئهم بالقيام. ينزرع وسط الزنزانة مزمجرا: «ويل للأمة الخاطئة والشعب الثقيل الإثم، نسل فاعلي الشر أولاد المفسدين. قشتالة يهلكها الله بريح صرصر عاتية يسخّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام

حسوما، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية». يعلو صوته مدمدما كالرعد: «ادخل يا عربيّ إلى الصخرة، اختبئ في التراب حتى تأتي عليهم العاصفة ويبين غصن الرب بهاءً ومجدا وثمرة في الأرض وزينة للناجين».

يجلس ساكنا وتأخذه سنة من النوم ثم يفيق صارخا: «رأيتها الآن، شاهدتها بأم عيني وهي تلقي في الموانئ مراسيها. هاهم الرجال يغادرونها إلى البرّ، السيوف تلتمع في أياديهم التماعا، يجتاحون، يصيحون الله أكبر، والله في علاه يبارك خطوتهم. افرحوا وتهللوا فالوقت جاء... الوقت جاء».

يكررها ويضحك، ويكررها ويبكي، ويكررها ويحكي عن الطفل اليتيم الذي ولد بستّ أصابع في اليد الواحدة، فسجد له حيوان الصحراء، والذئاب، وبنات النعام، وجعل في البرّية الماء أنهارا. «هذا الطفل بشير وعلامة أن الله سكب من رحمته على غرناطة ظلا يبارك ذريتها فتنبت مثل العشب، مثل الصفصاف على ضفاف حدرّه وشانيل».

يهدر بنبوءاته ثم يهدأ باقي اليوم أو عدة أيام يعود بعدها للصياح من جديد.

في ذلك اليوم لم يهدأ منذ مطلع النهار حتى هبوط الليل. كان مشتعلا بالرؤى يعلنها صياحا يخترق الآذان. «اخفض صوتك قليلا، ارحمنا». ولكن الجن في داخله كان متمكنا وجامحا، لا سبيل للتحكم فيه. جلس عليّ منكمشا في زاوية بعيدة يغالب رغبة تلح في أن ينقضّ على الرجل ويسكته عنوة. الصوت يضرب في رأسه ضربا يكاد يحيله للجنون، يكاد يصرخ فيكتم فمه برسغ يده، يكتمه أكثر ولكن الصرخة تنفلت منه فيسمعها. يصيح وينتبه حين ينبهه الآخرون أن أسنانه مغروسة في رسغه، وأنه جرح نفسه جرحا غائرا وأن دمه يسيل.

تتشابه أيام السجن، تتعاقب كابية وخانقة سوى أيام تهب عليه فيها نسمة

شرقية. يفتح السجان الباب ويعطيه لفافة ويقول: «تركتها لك العبدة السوداء التي تأتي للسؤال عنك». تحضر إليه فضة في ظلام سجنه، متألقة ودافئة، ومضات حلم ناعم يرى فيها وجهها الأبنوسيّ العريض، وتلك الرجفة المعلقة على الشفتين بين أسى وابتسام، والنظرة الشاردة.

كانت فضة تأتي للسؤال عنه، تحمل له في كل مرة طعاما هو رسالتها المنتظمة إليه، يقرؤها فيهدأ.

٢٢

غادر عليّ بوابة السجن وقد انقضى «بعض الوقت» الذي قرروه له. وكان قد أمضى في الحبس ثلاث سنوات وخمسة أشهر وأربعة أيام.

تطلع فأخذت عيناه بالضوء. لم تكن الشمس مشرقة، ولكن الفضاء كان مضيئا بضوء نهار شتائيّ تكسوه الثلوج. أسرع الخطو إلى بيته لكي يوقد نارا يتدفأ بها، ويسخن ماء ليستحمّ، ويقص شعره ولحيته ويذهب إلى دار دون بدرو ليعلم فضة بخروجه.

وجد الباب مغلقا بقفل جديد عليه. ثم انتبه إلى اللوح الرخاميّ المثبت يمين الباب. كان اسم خوسيه بن عامر محفورا عليه بخط قوطيّ مزخرف. تسلق السور وقفز إلى داخل الفناء، وأوقد نارا واستحمّ ونام نوما عميقا.

قام من نومه جائعا فلم يجد ما يأكله. ارتدى ثيابه وغادر الدار قفزا من على السور. مشى إلى الساحة القريبة، واشترى طعاما، وأكل ثم هبط إلى رصيف حدرّه، ومنها إلى السوق قاصدا حارة الصنادقية.

رفع خوسيه حاجبيه دهشة ثم ابتسم:

ـ حمد الله على السلامة!

ـ رأيت القفل على الباب!

تنحنح خوسيه ثم قال:

ـ اسمع يا عليّ: ساعدتك، وذللت لك صعابا ماكنت تملك التغلب عليها دوني. الآن، ليس بإمكاني مساعدتك. أنت خارج من السجن، ولا أريد لنفسي الشبهات.

ـ وهذا يعني؟!

ـ اذهب للعمل في أيّ مكان آخر.

ـ والبيت؟

ـ البيت صار لي، وهو مسجل في البلدية باسمي.

ـ ليس بإمكاني الإقامة في البيت؟

ـ لا!

ـ نلتقي لاحقا، إذن، يا خوسيه!

لم يكن منفعلا ولا غاضبا ذلك الغضب الذي تشتعل في الصدر ناره. فيتفزز البدن بالرغبة في الصياح أو السباب. مشى مبتعدا بهدوء وقد حسم أمره وقرر.

عاد إلى البيازين، ودخل البيت بالطريقة نفسها التي دخله بها في اليوم السابق. تشاغل بتنظيف الفناء وترتيب الحجرات حتى غربت الشمس.

نزل إلى رصيف حدرّه، انتظر بين الأشجار. كان المارة قليلين والثلوج تغطي الرصيف. رآه مقبلا يمشي بخطواته الوئيدة، ولما صار على بعد خطوات منه قفز خلفه، وكمم فمه بمنديل، ربطه ثم أحاطه بذراعيه وجذبه بقوة متوغلا بين الأشجار. دفع ظهره إلى جذع شجرة، وطوّق عنقه بذراعه اليسرى، وبيده اليمنى أخرج السكين من ثيابه وقربه من عنقه. قال:

ـ أقسم برب الكعبة أنه لولا ذكرى أبيك لغرست هذا السكين في عنقك،

وذبحتك غير نادم. اسمعني يا خوسيه جيدا. سأعود الآن إلى دار البيازين فهي داري أبقى فيها ما حييت. إن حلت بيني وبينها أقتلك، وإن وشيت بي للسلطات يقتلك رجل من رجالي، وهم عديدون وأنت لا تعرفهم!

كان خوسيه ينصت، لا يبصر عليّ تفاصيل وجهه ولكنه يشعر بالرجفة في بدنه وبالعرق المتصبب منه. قرب عليّ السكين أكثر، قال:

- الآن تذهب إلى بيتك وتأتي بمفتاح القفل وتقف في انتظاري عند بيت البيازين. إن لم تأت أعرف أنك اخترت الموت، ولا تقل إنني لم أنذرك!

أرخى عليّ قبضته وفك الرباط عن فم خوسيه وقال وهو يمضي مبتعدا:

- في أمان الله يا خوسيه!

تباطأ في العودة إلى البيت. وعندما دخل الحارة رأى خوسيه يقف بجوار الباب في انتظاره.

في المساء جاءته فضة. جلس أمامها معقود اللسان لا يدري كيف ولماذا، وقد بدا له أن لديه كلاما كثيرا يريد أن يقوله لها. لم يكن يتطلع مباشرة إليها، بل كان يسترق النظر بين حين وآخر إلى وجهها. كيف لم يلحظ أبدا ذلك الوشم القديم على شفتها السفلى يميز وجهها ويزيده جمالا. قالت:

- كنت أدعو لك يا سي عليّ، كل يوم كنت أدعو لك.

قال ممازحا:

- واستمع الله لدعواتك يا خالة فضة فلم أمض في السجن سوى ثلاثة أعوام ونصف!

- احك لي عن السجن يا سي عليّ.

حكى. قالت:

ـ أحيانا أقول إن الحياة تقسو بلا معنى ولا ضرورة، وأحيانا أقول حظنا منها، وإن ساء، أقل قسوة من الآخرين، أقل بكثير.

تنهدت فتطلع إليها عليّ مستوضحا. قالت:

ـ الدون بدرو يطلب أحيانا ما يطلبه السيد من امرأة يمتلكها، ولا أملك له ردا. أقول يا رب لماذا تحملني مالا أطيق؟ ثم أعود فأقول إنني أفضل حظا من الأخريات اللاتي يشغلهن أسيادهن ويفرضون عليهن القيام بذلك الفعل في بيوت السوء والفنادق للتكسب من ورائهن. إنهن تعيسات الحظ بائسات.

قال علي بضيق وقد بدا له الخوض في هذا الموضوع وعرا ومحرجا ولا داعي له:

ـ ليس الأمر مجرد سوء حظ، إنهن نساء ساقطات اخترن السير في طريق بطّال!

ـ لم تختر أيّ منهن شيئا!

قالتها بحسم زاده ارتباكا على ارتباك، فقال قاصدا أن يغير مجرى الحديث:

ـ احكي لي ما الذي حدث في غرناطة بعد رحيلنا.

ـ لم يحدث شيء!

لفهما الصمت. لم يجد ما يقوله، فبدا موزعا بين رغبة في أن تبقى وتتحدث معه، وإحساس بالحرج وتوتر لا يدري لهما سببا يجعله يفضل أن تمضي وتتركه وحده. لماذا تشرد عيناها وهو جالس معها فتبدو كأنها لا تراه؟! قال:

ـ سمعت أنهم عندما انتهت الثورة أتوا بجثة مولاي عبدالله إلى غرناطة ومثلوا بها.

ـ فعلوا ذلك.

ـ ماذا فعلوا؟

ـ وضعوا جثته على بغل يتقدم موكبا كبيرا يحيط به الطبل والزمر ومن ورائه صفوف أسرى البشرات الذين بيعوا بعد ذلك في المزاد.

ـ أسرى كثيرون؟

أومأت برأسها.

ـ وبعدها؟

ـ قطعوا رأسه ووضعوه في قفص حديديّ رفعوه إلى جهة البشرات. وظل معلقا لشهور عديدة، يبصره الرائح والغادي وتحيط به غمامة من الغربان الناعقة. أما الجسد فقد أحرقوه على الملأ في الساحة.

ـ فضة.. هل تقبلين الزواج مني؟

فاجأه السؤال الذي نطق به لسانه، وفاجأها... لم تجب. قالت وهي تقوم.

ـ سأذهب يا سي عليّ.

أوصلها إلى الباب، تلح عليه الرغبة في أن يقبل رأسها أو يديها. لم يجرؤ. مضت وأغلق الباب.

لم تجبه فضة على سؤاله. لماذا لم تجبه؟ ألأنها لا تريده أم لأنها فوجئت بعرضه تماما كما فوجئ هو به؟ وما الذي كان يفعله لو وافقت على عرضه، هل كان يفرح ويمضي في تنفيذه أم يشعر أنه تورط في أمر لم يسع إليه ولم يفكر فيه؟ لم يكن مخمورا فما الذي حدث لكي يفاجئه لسانه بما لا يعنيه أو يقصده؟

قضى عليّ ليلته بلا نوم. كان مضطربا من عرضه الزواج على فضة، ومن

صمتها غير المفهوم، ومما قالته عن العلاقة بينها وبين دون بدرو. جفل من الكلام. أوجعه ثم أغضبه، فالحرة لا تسلم نفسها لرجل غريب، مهما كانت الظروف. باستطاعتها أن تحمي شرفها ولو بالموت. أشارت فضة للأمر بشكل عابر. كيف؟ ودافعت عن الداعرات؟!

كانت جدته قد حذرته من أولئك النساء، «لن أصفهن لك يا عليّ. . . ستتعرف عليهن وحدك. . . يختلفن عن باقي النساء فيسهل التعرف عليهن. . . إياك والاقتراب منهن يا بنيّ، إن تلمح واحدة منهن في طريق فاستدر واسلك طريقا أخرى، وإن دخلت خانًا أو اضطرتك ظروفك للمبيت في فندق فانْأَ عن القسم الذي يتزددن عليه أو يقمن فيه».

لم يكن قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره عندما قالت له جدته هذا الكلام الذي ملأه فزعا ونفورا، فكانت رؤيته لامرأة منهن، يفضحها عطرها الثقيل ومغالاتها في التبرج والزينة، تثير في بدنه قشعريرة فيغذ الخطو مبتعدا كأنما يصيبه سوء من مجرد الرؤية بالعين. ولكن فضة قالت إنهن بائسات، تعيسات الحظ فانزعج، وعندما أراد أن يحول مجرى الحديث لم يجد عقله سوى بسؤال عن نهاية زعيم الثورة، فاستجلب بسؤاله ضيقا على ضيق، فهل كان خائفا ساعة حاصرته الهموم واستحكمت من حوله حلقاتها فاستجار بها قائلا: «فضة هل تقبلين الزواج مني؟» أم عزَّ عليه أن يُحمّلها رجل غريب ما لا تطيقه من فعل حرام؟ أم أنه يريدها لأنه يريدها وقد شاغلته صورتها في السجن أياما وليالي، في الصحو وفي المنام؟ كان يجلس أمامها يتطلع إليها لا تفوته اختلاجة من اختلاجات وجهها، وحركات اليدين والرأس لو مالت، والجذع إن تحرك ولو حركة خفيفة تكاد لا ترى. تشرد عيناها ثم تعودان، فيلحظ لحظة شرودها ولحظة الحضور بعد الشرود. تتنهد فينتبه للشهيق وللزفير، يلوح على شفتيها الابتسام فيلتقط انفراجة الأسارير ورجفة الشفتين والابتسام. هل صار يعشقها؟ ولكن كيف ومتى؟!

فاجأته مساء اليوم التالي بالزيارة. سمع الطرق على الباب فقام ليفتح متسائلاً: من يكون الطارق؟ هتف مأخوذا حين رآها. دخلت وأغلق الباب، ثم ظل واقفا يتطلع إليها معقود اللسان كأنه نسي الكلام. سمعها تقول: «سي علي» ورآها تمد كفيها إلى وجهه تمسح دموعا لم ينتبه لها. فتح ذراعيه وضمها. ضم رأسها واحتضنه في صدره ثم قبله، وقبل جبينها وجديليتها، ثم انحنى على يديها وقبل ظهر الكفين وباطنهما. أمسكت رأسه وتطلعت في وجهه، فالتقت العينان بالعينين، فجمحت الروح في وصل الشفاه.

امرأة أم حياة فتحت له بابها وأطلقته حرا متوهجا بالحياة. يمر بكفيه على جسمها فيرى في سواده الحالك مرآة روحه مضيئة ومجلوة. يضحك فتضحك. تدمع عيناها فيرتقي إليها. امرأة أم بحر فاض ينشر قلوعه ويمضي مركب الحس مبحرا فيه، يطوي قلوعه ويلقي بمراسيه على شطآنه ويسكن. يتطلع إلى وجهها يقول:

ـ هل تتزوجينني يا فضة؟

تقبل جبينه وتربت على رأسه ولا تجيب عن السؤال.

٢٣

لم يكن قد مضى على خروجه من السجن سوى شهر عندما جاءه إدواردو، وأخبره أن صبيا من العاملين في المتجر سمع خوسيه يتحدث عنه مع غرباء كانوا في زيارته.

- يُدبّر لك خوسيه مكيدة ما، وقد تجد نفسك متهما من قبل ديوان التحقيق. خوسيه لا يتورع عن ذلك. إنه حقير وأنت تعرف.

- ولكنه لا يستطيع أن يكشف لهم أمر الأوراق فهو الذي دبرها. وتهمة التزوير تنطبق عليه كما تنطبق عليّ.

- لن يشير إلى الأوراق. سيلفق لك تهمة من نوع آخر. يدعي أن لك اتصالات مريبة، أو أنه سمعك تردد كلاما فيه كفر وهرطقة.

- لقد كنت في السجن فمن أين لي بالاتصالات؟

- قد تدفع سنوات أخرى من عمرك في السجن حتى تنجح في إثبات ذلك.

- وما العمل الآن؟

- اهرب!

- إن هربت يأخذ البيت!

- وإن بقيت يقبضون عليك!

ذهب إدواردو، وراح عليّ يقلب البدائل ويجتهد. قد يأتون الآن أو بعد

ساعات حين يتوغل الليل، فما الذي يفعله وكيف يتدبر أمره؟ وقد لا يأتون فيكون الولد قد أساء فهم ما سمعه من الكلام، فهل يهرب من داره كالأرنب المذعور بلا داع ولاضرورة؟! هل يدق باب الجارة ويطلب منها أن تسمح له بقضاء الليلة عندها فيتمكن من مراقبة ما يحدث من وراء نافذتها؟ إنها أرملة ترعى سبعة عيال نزلت البيازين مؤخرا، أثناء وجوده في السجن على الأرجح. لا تعرفه ولا يعرفها. ستستغرب طلبه وتتوجس منه. لو كان الوقت صيفا لقضى الليل في العراء مختبئا وراء السبيل عند مدخل الحارة يراقب ولكنه الشتاء القارس يقص العظام قصا. فليكن. ارتدى ثوبا على ثوب، وتدثر بملفه الصوفيّ، ورفع الحرام الثقيل عن فرشته وطواه وأحاط به كتفيه وجذعه، وخرج إلى الحارة وقد قرر أن يقضي ليلته يقظا ينتظر.

كان يغفو وهو واقف عندما سمع وقع أقدامهم فانتبه. كانوا ثلاثة يقتربون في الظلام. توارى وراء السبيل حتى تجاوزوه. دخلوا الحارة. سمعهم يطرقون الباب ثم كسروه. مرّ الوقت بطيئا وثقيلا وهو ينتظر، ثم سمع وقع أقدامهم، ثم رآهم وهم يتجاوزونه ويختفون في الظلام.

ركض إلى البيت ومازال يمني نفسه بأنهم جاءوا يقصدون سواه، ولكن الباب كان مكسورا ومشرعا. إذن صح الكلام ولم يعد من الرحيل بد.

للحظات ألحت عليه فكرة أن يبدأ بالذهاب إلى خوسيه، يغرس سكينا في صدره ثم يمضي. يقتلني بالرحيل فلم لا أقتله؟! أكرمني أبوه وأحبني، وأمه عجوز طيبة القلب وأخته وردة. وقد يمسكون بي ويحكمون بالموت عليّ. لن يدفع عمره ثمنا لعمر خوسيه. لم يعد من الرحيل بد. لن يأتوا ثانية هذه الليلة، وفي الصباح سيذهبون للبحث عنه في الصنادقية. بعدها قد يعودون ثانية إلى البيازين. أمامه ساعات معدودة لتدبر أمره. وفضة . . . هل يتركها؟ كيف يبلغها؟

راح يجمع الضروريّ من أغراضه. وصندوق جدته؟ والكتب؟ برقت

الفكرة في رأسه فشرع على الفور في تنفيذها. فتح الخزانة وفتح الصندوق، وأخذ ينقل الكتب من الخزانة إلى الصندوق ويصفها فيه.

خرج إلى الفناء وأمسك بالفأس وبدأ يحفر في بستان جدته. أزاح الثلج ثم التراب وواصل العمل حتى صارت الحفرة مستطيلا غائرا في الأرض. دخل البيت وحاول أن ينقل الصندوق. لم يقدر على زحزحته. أخرج الكتب منه ثم حمله وأنزله في الحفرة. ثم عاد إلى الكتب وراح ينقلها، المرة بعد المرة، وحمل الفأس وأخذ يهيل عليه التراب. سوّى الأرض تماما فعادت كما كانت جزءا من الفناء مغطى بالثلوج، لا يشي لعين مهما حدقت بالسر المخبوء فيه.

وفضة؟ هل يذهب الآن إلى بيت دون بدرو ويطرق باب الخدم ويلتقي بها وليكن ما يكون؟ لن يطيق لحظة الوداع. هل يمضي هكذا فتقول هجرني عليّ فلم يكلف نفسه إبلاغي بسفره والسلام عليّ؟ هل يكتب لها مكتوبا؟ وما الذي يقوله في مكتوب؟ ستبحث في الأسواق عن شخص يقرؤه لها؟ هل يقول أحبك ولكنني اضطررت للرحيل، فيبقى رحيله غير مفهوم ولا مبرر، أم يفهمها أن ديوان التحقيق يتعقبه فيلحق بها الشبهات؟!

سبّ خوسيه وغرناطة ونفسه والأرض والسماء، ثم جلس منهكا وحائرا وعاجزا. اندفع محموما يبحث عن ورقة، ورقة بيضاء، لابد من ورقة، لابد.. وجدها. وضع القنديل بجواره وقرفص على ركبتيه وأسند الورقة على المصطبة وراح يكتب:

أمي الحبيبة

اغفري لي تأخري في الكتابة لك طوال الأعوام الماضية، والسبب أنني رحلت من مالقة إلى تونس، وبعد أن نزلت تونس رحلت مرة أخرى إلى الإسكندرية حيث استقر بي المطاف، والإسكندرية يا أمي مدينة كبيرة في مصر وهي تقع على البحر نفسه الذي تقع عليه مالقة والمرية.

ولقد وفقني الله في عملي فتزوجت منذ عامين وصار لي ابنة أسميتها فضة تيمنا باسمك يا والدتي.

إن لم تصل إليك رسائل مني فلا تقلقي، فالبريد مقطوع بين الإسكندرية وغرناطة، ولولا المصادفة التي جعلتني ألتقي بشخص من جنوا قال إنه يقصد غرناطة لما تمكنت من إرسال هذا المكتوب.

ادعي لي يا أمي واعرفي أنني لا أنساك أبدا.

ابنك البار فيديريكو.

مسح عليّ العرق عن جبينه، وقرأ الرسالة التي كتبها ثم طواها ثم أحصى ما معه من المال وقسمه نصفين، أودع نصفا في جيبه ووضع النصف الآخر في كيس مخمليّ من الأكياس الثلاثة التي أعطاها له أبوه. ثم انتظر طلوع النهار.

غادر البيت وهبط إلى رصيف حدرُّه. أوقف أول صبيّ يمر بالطريق وقال له وهو يفتح قبضته ويريه ما فيها من دراهم:

- سأطلب منك خدمة، وفي مقابلها أعطيك هذه الدراهم.

- لا أستطيع التأخر عن عملي، هل ما تطلبه يستغرق وقتا طويلا؟

- أترى هذه الدار؟ - أشار عليّ إلى دار دون بدرو - اطرق على هذا الباب الجانبيّ الصغير واسأل عن فضة. أعطها هذا المكتوب وهذا الكيس. لا تقل إنّني أعطيتك الرسالة. إن سألت قل لها إن شخصا غريبا من جنوا كان يسأل عن دار الدون بدرو، وعندما قلت له إنك تعرف الدار طلب منك أن توصل الرسالة والكيس إلى سيدة تدعى فضة هناك.

وقف عليّ يراقب الصبيّ وهو يطرق الباب الجانبيّ الصغير، ورأى الباب

يُفتح. لم يتمكن من موقعه من رؤية فضة، ولكنه رأى الصبيّ وهو يسلم الكيس والرسالة ويتحدث، ثم انغلق الباب وعاد إليه الولد راكضا. أعطاه الدراهم وشكره وصعد إلى البيازين.

حمل أغراضه وغادر البيت دون أن يلتفت وراءه.

٣
الرحيــل

١

وقف عليّ في باحة الدار وتطلع إلى السماء. كانت صافية تلتمع بما لا حصر له من النجوم: «يا الله. حجابك، رغم هذه السماء الصافية، كثيف. توّجتني بتاج العقل، وأبقيتني طالبا فقيدا يعجزه المسطور في الكتاب. هل أودعت يارب القلب جواب السؤال؟ وكيف لي أن أشق صدري، وأغسل قلبي من كل شائبة، فيصفو كما المرآة وينجلي، فأشاهد فيه معنى الحكاية والهدف؟!».

تربّع تحت النخلة وأسند ظهره إلى جذعها فغفا. رأى في المنام حلما تجمعت فيه الأضداد، ولما استيقظ لم يذكر إلا أنه ضحك ثم بكى ثم طرب ثم عاد ينتحب، وأفاق وعلى شفتيه كلمات:

يا طالبا لطريق السر تقصده   ارجع وراءك فيك السر والسنن

فلما كررها على نفسه انتبه إلى أنها بيت من الشعر. حاول أن يتذكر من قاله أو متى سمعه فلم يفلح، فقام ودخل البيت ليعد نفسه للرحيل.

* * *

وصل إلى القرية قبل سبعة وعشرين عاما. رحل من غرناطة فقصد بالنسية ليبحث عن عمته وعن مكان يقيم فيه، وفي بالنسية أخبروه أن عمته انتقلت إلى قرية عيّنوها له بالاسم ووصفوا له سبيل الوصول إليها.

كانت الطريق إلى الجعفرية تتجه جنوبا وتغرّب، والطقس في نهاية الصيف

ومطالع الخريف. تتخلل أشعة شمسه عروق الزيتون، وكروم العنب تمتد على مدى البصر في تربة أدهشه أحمرها كأنها شيء سوى التراب، ينبت فيها عدا عن العنب والزيتون توت وليمون وبرتقال وصبّار.

تطالعه تلة جرداء أو جبل صخريّ يقطعه فتلاقيه خضرة الزرع من جديد، ثم فاجأه النخيل. لماذا يألف المسافر النخيل؟! لأنه فارع الطول كرماح أجداد راسخين، أم لأن الجمال يؤنس وحشة الروح حين ترى العين الجمال غابة نخيل مكللة جذوعها بالسعف العميم، والعراجين تسخو مثقلة بالثمار؟

يفارق النخيل متوجسا من الأرض العراء، يصعد جبلاً أو تلة، ثم يهبط رويدا رويدا ليكتشف بعد السعف الجذوع.

رأى الجعفرية من الوادي. كانت صغيرة بيضاء، معلّقة على السفح، مسوّرة بالكَرْم والزيتون. صعد إليها صعودا مع السكة المتعرجة. كانت في حجم نصف البيازين، تتكاتف بيوتها في أزقة تلتف صاعدة إلى ساحة فيها بعض الحوانيت، وأطلال مسجد صغير تهدمت مئذنته، وتحول صحنه إلى مخزن للأخشاب، وفي الجهة الأخرى تنحدر الأزقة انحدارا حادا إلى الوادي، يشقه مجرى ماء شُيِّدت على ضفته طاحونة وفرن ومعصرة، وعلى بعد مسافة في أعلى نقطة مشرفة على المكان، قلعة قديمة متداعية، يجاورها قصر صغير وحفنة من بيوت.

سأل صبية يلعبون في الساحة عن دار شيخ القرية.

- هل تسأل عن سيدي عمر الشاطبيّ؟

لم يكن يعرف الرجل ولا سمع عنه. قال:

- نعم.

فقاده الصبية إليه.

كان عمر الشاطبي بين الأربعين والخمسين. قصير وبه امتلاء. غزا المشيب فوديه، وانحسر شعر رأسه كاشفا عن جبين واسع ووجه مدوّر أبيض البشرة، دقيق الملامح. حتى العينان كانتا صغيرتين.

سأله الرجل وهو يقوده مرحّبا إلى داخل الدار:

- متى تركت غرناطة؟

استغرب السؤال:

- كيف عرفت أنني من غرناطة؟!

ضحك. قال:

- لا يحتاج الأمر إلى فراسة يا ولدي، تتكلم بلهجة غرناطية خالصة!

بعد الترحاب وحديث المجاملة قال علي:

- ذهبت إلى بالنسية لأبحث عن عبدالعزيز الطاهر، فقالوا لي إنه وأولاده انتقلوا إلى هذه القرية منذ سنين، فهل تعرفهم؟

- أعرفهم حق المعرفة، ولكنهم تركوا الجعفرية منذ عامين ورحلوا إلى فاس.

- رحلوا؟!

تكتشف أن الحارة مسدودة فتدير لها ظهرك ببساطة وتعود أدراجك لتدخل حارة غيرها تقودك إلى مقصدك. لم تكن حارة مشى فيها خطوات معدودة بل طريقًا وعرة، يصعد المرتقى العسير، ينحدر إلي الوادي، يتوارى عن العيون، يجوع ويعطش ويواصل رحلته من غرناطة إلى مُرسيّة، ومن مُرسية إلى بالنسية، فيدلونك على الجعفرية فتمشي إليها تمني نفسك أخيرا بالوصول، فيقول لك شيخ البلد بكل هدوء إنهم رحلوا، فيقطع عليك بالخبر الطريق. عليك أن تدير ظهرك الآن... تعود أدراجك إلى... أين؟!

ـ لماذا تسأل عنهم؟

ـ عبدالعزيز الطاهر زوج عمتي. لي خمس عمات تزوجن جميعا من دار الطاهر.

قام عمر الشاطبي واحتضنه، ورحّب به أكثر وبعد أن ضيَّفه بالعشاء، حكى له قال:

«حتى عام ١٥٢٦ كانت عائلة الطاهر تسكن بالنسية العاصمة. كانوا أثرياء ومتنفذين، منهم القاضي، ومنهم الامين، ومنهم التاجر موفور المال، ولما تبدّل الحال وفرضوا علينا ما سبق وفرضوه عليكم في غرناطة، هاجر معظم أفراد العائلة. لم يبق منها في بالنسية سوى زوج عمتك عبدالعزيز وابن عمه، ثم انتقلا بزوجيهما وأولادهما إلى الجعفرية واستقروا فيها.

ولما كان عبدالعزيز صاحب تجارة كثرت أسفاره وتنقلاته بين مدن شرق الأندلس، بل وسافر مرتين إلى خارج البلاد. شكوا في أمره وألقوا القبض عليه وعلى ثلاثة من أولاده، واتهموهم بالاتصال بالفرنسيين والتآمر على المملكة. ولم يتمكن زوج عمتك من إثبات براءته وبراءة أولاده إلا بعد سنة قضوها في الحبس، فلما أفرج عنهم أصر الأولاد على الرحيل فرحلوا.

قضى عليّ ليلته في دار عمر الشاطبي. في الصباح قال:

ـ سأرحل.

ـ إلى أين؟

ـ لا أدري، ولكن بلاد الله واسعة.

ـ ابق معنا.

كل شيء في هذه الحياة مقدّر، وكل خطوة نخطوها مكتوبة في اللوح المحفوظ. جاء إلى الجعفرية ليسأل عن عمته، وكان مقدرا له أن يبقى فيها.

يتلمس الغريب المكان، يتعرف ببطء عليه، وتبقى المسافة لتؤكد غربة المكان وغربته فيه.

ولد في مدينة ونشأ فيها، وألف بدلا من النهر الواحد نهرين، وبدلا من القنطرة قناطر. الطرقات واسعة والعمائر ممتدة، والتلة الحمراء تشرف على المكان بأسوارها وقصورها وأبراجها، وكاتدرائية هائلة إن تمر ببوابتها الحديدية مرورا تتيقن أنك في مدينة. والحرفيون بلا حصر، لكل حرفة حارة مزدحمة بالباعة والشارين. صخب تجارة وحياة في الصنادقية والعطّارين والفخّارين والنحّاسين وسوق الحرير.

لا قيصرية هنا، لا شارع للسقّاطين، ولا أرباض بل حفنة بيوت متكاتفة تصب جميعها في ساحة صغيرة سوقها يوم الخميس، والباعة فيها معدودون يبسطون بضاعتهم في اليوم المعلوم فيشتري منهم أشخاص يعرفونهم ويعرفون بعضهم أصلا وفصلا.

كان معظم أهل الجعفرية من المزارعين، والأرض لهم يحرثونها أبا عن جد، وكان عليهم رغم ذلك أن يدفعوا إيجارا وضرائب للمالك الإقطاعيّ. كيف؟ بدا له الأمر صعبا يستعصي على الفهم في أيام وأسابيع.

كانت لهجته غريبة فيشيرون إليه بالغرناطي، وكان يجتهد في فهم سنتهم وقانونهم. يخالطهم في النهار وفي الليل يغلق باب الدار فتلحّ عليه البيازين، ورصيف حدرُه، وأسواق غرناطة. يشقيه الحنين، ثم تمر به الأيام فينتبه ذات صباح أنه وهو الغريب لم يعد غريبا. صار يزرع الأرض، وينتظر موسم الزيتون ليسد دينه، ويشتري كسوته، ويؤمن خزين الدار. يضجّ بيوم السخرة، ويسب ويلعن مالك الأرض واليوم الذي تملّك فيه. يغضب ثم يهدأ ويواصل مثلهم الحياة. يضحك ويعلن الفرح بالرقص والغناء لأن جيش الملك انهزم، هزمه الأتراك أو الفرنسيون أو الإنجليز.

لم يكن قد أمضى في القرية سوى عامين أو ثلاثة عندما طلبه عمر الشاطبي وأوكل إليه مهمة تعليم الصغار، فصار الصغار يأتون إلى داره في الأسبوع مرتين يعلمهم اللغة العربية، ويراهم يكبرون يوما بعد يوم. يلحظ ذلك في تحسن خطوطهم على اللوح، في طلاقتهم في الإلقاء، في سؤال فطن يطرحه أحدهم، وفي ثياب ضاقت أو قصرت على هذا الولد أو ذاك.

يأتون ثم يذهبون، ليأتي غيرهم وأيضا يذهبون، ثم يلتقي بأحدهم هنا أو هناك فيدهشه أن سنوات معدودة لم تغيِّر من مظهره شيئا، بدّلت الصبي تبديلا: خط شاربه، ونما جسمه وطال، وصار يمشي كالرجال، يفضي له بهَمّ من همومه أو يطلبه اعتزازا ليرافق أهله لطلب العروس. يستغرب ثم ينتبهَ أن السنوات تعبر بهم طفولتهم، وتعبر به شبابه فيكتهل، كيف لكهل أن يعشق طفلةً طفلة؟!

كان جالسا في بيته ومن حوله الصغار يعلِّمهم. سمعوا طرْقا على الباب، فقفز ولد ليفتح ثم عاد راكضا، قال:

- بالباب صبية!

- صبيْة؟!

جاءت لتطلب أخاها لأمر ما. نادت على الولد وغادرا معا.

وقف يتابع خطوتها المتعجلة، وضفيرتها السوداء تتمايل مع تمايل جذعها على ثوب أحمر عليه نقش ورود بيضاء. بقي يرقبها حتى غابت مع انعطافة الزقاق ثم عاد إلى الدرس.

في الفراش عاوده وجهها: شعرها فاحم أسود مطروح للخلف يكشف جبينها العالي، كثيفة الحاجبين، والعينان واسعتان مكتحلتان برموش سوداء طويلة. تطلعت إليه وهي تسأل عن أخيها فأخذ بالنظرة الصريحة. كانت تقف مشدودة الجذع، مضمومة القدمين كجنديّ مستنفر. وبدت نبرة صوتها قوية

واثقة. الوجه مرآة الروح، وفي هذه الصبية شيء من ماء النبع يندفع بقوة آسرة، تشعل فيه نار العشق ولوعة السهاد. أيّ عشق، وأيّ سهاد، ما العشق نظرة، وهذه طفلة لا يعرف حتى اسمها، ماله وقد تجاوز الثلاثين وطفلة! نحّى صورتها وفكرتها وأغمض عينيه ونام. أتته في المنام.

ما الذي يقوله أهل القرية عنه وهو يذهب كل يوم إلى حيث تذهب النساء، ينتقل من الفرن الكبير إلى الفرن الصغير، ومن المعصرة إلى الطاحونة إلى مضرب الأرز إلى عين الماء؟ لا يحمل بين يديه حاجة يقضيها سوى رغبة تلح في رؤيتها. يستغرب هذا العشق الذي لا يسعى إلى لمسها وضمّها وتذوق الشهد من شفتيها. لا تطلب روحه سوى رؤيتها، وكأن الرجل فيه عاد إلى الصبي الذي يكتفي من عشق وردة بالنظر.

اسمها كوثر. عرفه بالتحايل والالتفاف حول السؤال.

جمع نتفا من هنا وهناك، ولكن «عيد» الحلاّق زوده بالقدر الأكبر من المعلومات. قال:

- بنو تهامة نزلوا الجعفرية منذ مائة وخمسين عاما. قبلها كانوا يسكنون العاصمة، ولما اشتعلت الفتن وأحرقوا الحيّ العربيّ في بالنسية انتقلوا إلى هذه القرية، ويقال إنهم كانوا أثرياء، وأصحاب نفوذ حتى في ظل ملوك الروم. هاجر إلى تونس معظم بطونهم ولكن مَن بقي منهم احتفظ بعصبيته، لا يزوجون بنتا لغريب، ويواجهونك مجتمعين لو اختلفت مع واحد منهم.

لماذا تسأل يا سي عليّ، هل تعرقلت في مشكلة مع واحد منهم، أم تريد أن تتزوج صبية من صباياهم؟ لو تشاجرت مع أيّ منهم فقل على روحك السلام، فهم شرسون، وفي كثرة عددهم عزوة. مشهود له بالشهامة والكرم ولكنهم يبطشون ساعة الخلاف. من الأفضل أن تحل مشكلتك معهم بالمعروف.

وإن كنت تريد مصاهرتهم فاصرف النظر لأنهم لا يزوجون بناتهم إلا

لأبنائهم، وعندما حرّمت السلطات الزواج من الأقارب المباشرين صاروا يزوجون الصبية من ابن عم أبيها أو من ولد من أولاده. لماذا تسأل؟

ـ لي تلميذ درّسته يريد مصاهرتهم.

ـ بنت مَن التي يطلبها؟

ـ لا أدري يا عيد، قال: صبيّة من دار التهامي.

ـ لن يعطوا ابنتهم لغريب!

ـ أرهقتني يا عيد، خلخلت سِنّي ولم تخلعها!

ـ سأخلعها حالا.

جذب عيد السن بقوة واقتلعها. ناول عليّا الجرة، وقال:

ـ تمضمض.

متى تخرج كوثر؟ متى تعود؟ والأماكن التي تتردد عليها أملت عليه نظام يومه. يراقبها من بعيد ولو لدقائق معدودة، يتزود بالنظر إليها. يذهب إلى المدينة لقضاء حاجة فيضنيه البعد. يقضي حاجته على عجل أو لا يقضيها لأنه ما عاد يطيق يوما آخر لا يراها فيه إلا بعين الخيال.

ما الذي حدث؟! أين ذهبت كوثر؟! لم تغادر دارها يوما ويومين وثلاثة. وأخوها أيضا تغيّب عن الدرس. قال للصبية: «اسألوا عن زميلكم» ولما جاء الولد بدا شاحب الوجه زائغ العينين. «هل كنت مريضًا يا غياث؟» نفى ثم قال: «بلى كنت مريضا».

ذهب عليّ إلى عيد الحلاق. تحدث معه في مواضيع شتى إلى أن وصل إلى ما جاء من أجله من كلام. قال عيد:

ـ ألم يبلغك الخبر؟

- أيّ خبر؟

مال عيد عليه وهمس في أذنه، لم يكن في المكان غيرهما ولكنه همس:

- سأسرّ لك بأمر، ولكن أقسمْ لي أولا ألاّ تفشيه، فلو علم أحد منهم أنني مصدر هذا الكلام قطعوا رأسي. أى والله يقطعون رأسي!

- لن أنقل أي شيء مما تقوله لي.

- أقسمْ برب الكعبة.

عنّ لعيد فجأة أن يراعي الكتمان وهو الذي يعمل على مدار اليوم كالطاحونة في إذاعة الكلام.

- أقسم برب الكعبة أن أصون كل ما أسمعه منك.

- أعرف يا سي عليّ أن السر عندك محفوظ، وما دفعني لهذا الحرص سوى خوفي منهم. اسمع.

عاد عيد يهمس:

- يقولون إن أبا الطيب اكتشف أن ابنته.

- كوثر!

- كوثر أختها التوأم، أما صاحبة المشكلة فهي أختها سلسبيل، اكتشف أبوها أنها تخرج لملاقاة شاب من عائلة موسى، فأصبحت المصيبة مصيبتين، فبين العائلتين ثأر قديم وعداوات متجددة. يقول بعض الناس إن أبا الطيب عرف أن ابنته تلتقي بالشاب وبعضهم الآخر يقول إنها كانت حبلى، والله أعلم.

حين عرف الأب بما عرف، أخذ ابنته وابنه البكر وسافروا. تغيبوا أسبوعا ثم عاد الولد وأبوه، ولم تعد معهما سلسبيل. قالا إنها أصيبت بحمّى وماتت. لم تعلن عائلة التهامي حدادا ولا أقامت مأتما، ولا أحد يعرف إن كانوا قتلوها

وواروها التراب أم تركوها في مكان ما لتتم حملها وتضع مولودها، إن كانت حبلى كما يقولون.

أمسك عيد بلحية عليّ، وقال:

-بحق هذه اللحية يا سي عليّ، لا تقل إنني قلت.

لم يقل عليّ شيئا، ولكن الجعفرية كلها عرفت، وقد دار الأمر مشاعا أمام العيون.

٢

تعرف القرية بأمر الزيارة قبل وقوعها. يتسرب الخبر إليها من القرى المجاورة، فيدبّ في الأهالي نشاط موتور يغذيه خوفهم ويتجاوزه بفعلٍ درّبتهم عليه الأيام وآباؤهم والأجداد.

من يمتلك مصحفا أو كتابا بالعربية يخفيه، ومن يرتدي مقطعا تونسيا أو ما شابه يخلعه ويواريه. تتوقف دروس الصغار وينبههم أهاليهم إلى ضرورة الكتمان والحذر. إن كان في القرية شباب من أراغون يتعلمون الفقه وأصول الدين من عمر الشاطبي يلزمون الدور ولا يغادرونها. النساء اللائي يبعن الحنّاء في السوق يرفعنها ويخبئنها. يتوقف ذبح الأغنام. تؤجل الأعراس واحتفالات الميلاد والطهور، ولا يرتفع في الفضاء صوت موال ولا دف ولا مزمار، والعقلاء من أهل القرية يجمعون بين المتخاصمين، يسعون لحل ما بينهم من نزاع، أو في أضعف الإيمان إلى تهدئة النفوس حتى لا يتمكن الغضب، وفي لحظة طيش ينفلت اللسان بما لا تحمد عقباه، وإن وافقت الزيارة يوم خميس أجّل الأهالي حمامهم، وإن وافقت يوم الجمعة لا تنبعث من الدور روائح الضأن المتبّل والكُسكس والفطائر المقلية، لأن أحدا لا يطهو المعتاد من الطعام في نهار الجمعة الفضيل، وقبل هذا وبعده يتوقف كل لقاء لصلاة جماعة أو تشاور في أمور فقه أو دين حتى يأتي الزوّار ويذهبوا في سلام.

كانوا يأتون في الربيع أو في مطلع الصيف. حين يكون الطقس مستقرا يدخلون القرية في كامل هيئتهم لا ينتقص من هيبتهم سوى إرهاق السفر،

وحين يكون الطقس عاصفا يخرج الأهالي للفُرجة إذ تكون ثيابهم مبللة بماء الأمطار، وأقدامهم ملوثة بالوحول، ووجوههم منكّدة وقد طارت أغطية الرءوس فبقيت عارية في المطر تحت مظلات تهرّأت بفعل الرياح. بعد رحيلهم، وإن جاءوا وذهبوا دون أن يُلحقوا بأحد من الناس الأذى، كان الشباب يتبارون في وصفهم ساخرين، يطلقون عليهم تعليقات متهكمة ونكات، فيشيع التعليق الأطرف ويذهب في الجعفرية مثلا.

في ذلك اليوم كان المحقق مضمّد الرأس. قال شاب من الشباب لعل أحدا على الطريق شفى غليله بإلقاء حجر عليه، وحين وقف المحقق البدين في الساحة ليقرأ على أهل الجعفرية عريضة الاتهامات المعتادة، كانت ملحوظة الشاب قد صارت رواية، لها بداية ونهاية، وتفاصيل ذروتها تساقط الأحجار على رءوس موظفي الديوان حيث أصيب رأس المحقق البدين، وسقط آخر من على بغلته، والثالث تعثر وهو يركض فكسرت ساقه فحملوه إلى مُجبر وبقي عنده هناك.

وقفوا يتطلعون إلى الرأس المعمّم بالضماد، ويتراسلون فيما بينهم بالنظرات، ويسمعون الكلام المكرر عن أسباب التهم وأنواعها والعقوبات المترتبة عليها، وضرورة الاعتراف عن حالات الهرطقة والخروج عن الدين أو تهديد أمن البلاد.

كان المحقق يقرأ من الأوراق وهو يقرّبها من عينيه تكاد تلامس وجهه. يقرأ فقرة باللغة البالنسيّة، ثم يتوقف ليتيح للمترجم نقل ما قاله إلى اللغة العربية.

ساعتها انطلقت كالسهم في اتجاه المحقق. ضفيرتاها محلولتان وعلى وجهها وملابسها آثار عراك. قفز أبوها من بين الرجال وركض خلفها ولكنها سبقته إلى المحقق.

ساد الهرج في الساحة، واضطرب الناس وتدافعوا باتجاه موظفي الديوان

ليعرفوا ما الخبر. ولكن المحقق جمع أوراقه وأخذ كوثر والكاتب والمترجم والوكيل وتوجهوا إلى دار الأخير حيث ينزلون.

اشتد اضطراب الأهالي، وخرجت النسوة من الدور وأحطن بأم كوثر التي كانت تلطم، وتمرغ وجهها في التراب، وتولول فيتردد صراخها النادب في أرجاء الساحة.

وجد علي نفسه يطرق باب الوكيل. قال: «أريد المحقق». سمحوا له بالدخول. كان المحقق جالسا على مقعد خشبي كبير وعلى يساره طاولة جلس وراءها الكاتب، وأمامه محبرته والدفتر الذي يسجل فيه. وعلى بعد خطوتين وقفت كوثر وبجوارها المترجم.

تطلع إليه المحقق مستفسرا:

ـ من أنت، وماذا تريد؟ جئت بتهمة؟ بوشاية؟ باعتراف؟ عليك أن تنتظر. ننتهي من أمر هذه البنت ثم نستمع لك.

ـ جئت أحدثك بشأنها.

ـ فهمت، أنت شاهد. إذن انتظر حتى نستمع لأقوالها.

ظل عليّ واقفا مكانه. رأى امرأة الوكيل وعيالها يطلون برءوسهم من باب جانبي، يتابعون ما يحدث، والوكيل يروح ويجيء بلا سبب واضح. سأله المحقق:

ـ متى يجهز الطعام؟

ـ حالا يا سيدي.

التفت المحقق إلى عليّ، وحدّق فيه باندهاش، ثم صاح:

ـ ما الذي تفعله هنا، لماذا تقف أمامي هكذا؟

ـ ألم تطلب مني الانتظار؟!

ـ انتظر هناك!

طلب من أحد معاونيه أن يصطحب عليّا إلى قاعة مجاورة. كان أبو كوثر قاعدا على مصطبة حجرية. جلس عليّ بجواره، وظل كلاهما مطرق الرأس وصامتًا.

ما الذي سيقوله؟ وجد نفسه يتبع كوثر، ويطرق باب الوكيل، ويقف أمام المحقق. حاول أن يرتب كلاما مقنعا يفيد، ولكنه كلما استقر على شيء يقوله رجع عنه واستبدله بسواه، ثم استدعوه.

سأله المحقق:

ـ هل أنت شاهد على الجريمة؟

ـ أية جريمة؟!

ـ جريمة القتل التي تتهم بها الصبية أباها.

ـ لا يا سيدي لم أشهد جريمة، وأعتقد أن لا جريمة هناك على الإطلاق.

ـ كيف؟

ـ كان لي ابنة في مثل سن كوثر و. . .

ضاع منه الكلام فتوقف.

ـ وماذا؟ هل أنت عييّ، لماذا تتحدث ببطء هكذا؟!

ـ ابنتي رحمها الله. . .

ـ هل قتلها هذا الرجل أيضا؟

ـ لا يا سيدي ماتت ميتة ربها. كانت ابنتي صديقة لكوثر. ولقد قالت لي إن كوثر تخاف خوفا شديدا وتفزعها في النوم الكوابيس وإنها. .

- إنها ماذا؟!

- وإنها كلما سمعت بموت شخص ظنّت أنه قُتل، وأعتقد يا سيدي أن كوثر حين سمعت بموت أختها التوأم اضطربت اضطرابا عظيما، وتصورت أنها قُتلت، ولما كانت البنت سافرت مع أبيها فقد تهيّأ لكوثر أن الأب هو المسئول عن موت أختها.

- هل لديك أقوال أخرى؟

- نعم يا سيدي كوثر طفلة مذعورة أفزعها موت أختها التوأم، ولا يمكن لمحقق كبير مثلك أن يأخذ بكلام طفلة في هذه الحالة.

- انتهى!

لم يفهم عليّ ما المقصود بالكلمة؛ فظل واقفا، فإذا بالمحقق البدين يصرخ فيه:

- اذهب، عد إلى دارك، سمعت كلامك وانتهى!

لم يتطلع إلى كوثر. استدار وغادر بيت الوكيل يجرجر قدميه وفي أذنيه صوت كوثر وهي صارخة تركض في الساحة وصوت أمها النادب. ما الذي فعله وكيف أتاه هذا الكلام هكذا ارتجالا مع كل عبارة جديدة؟ هل ينفع ما قاله أم يضر أم هو فعل اليائس لا معنى له ولا ضرورة؟!

ليس الجحيم أن تصطلي بنار جهنم، بل بنار قلبك وهو مروّع، مضطرب، وواهن، ولأن الكلام كل الكلام يجرحك. كانت الجعفرية كلها تتحدث عن بنت الحرام التي شكت أباها لديوان التحقيق: «لم يكن حليبا ما رضعته بل ماء!»، «لا يخون المرء العشرة ولقمة خبز بالملح، والفاجرة خانت النطفة التي منحها لها أبوها لكي تبدأ على هذه الأرض الحياة!».

لم يكن السخط وصدمة سلوك غير معهود والفضيحة هي وحدها ما يحرك

أهل الجعفرية. كانوا أيضا خائفين. قد يكون المحقق البدين غبيا، ولكنهم هناك في المدينة سيعرضون البنت على المحققين فيسألونها، ويلفون ويدورون ويعاودون السؤال حتى يستدرجوها إلى إفشاء الأسرار، فتقع بلسانها، وتوقعهم جميعا وهي تقول: يذبحون الماشية ذبحا، ويصومون رمضان، ويحتفلون بالعيدين وبالمولد النبويّ وعاشوراء. ويعلّمون الصغار اللغة العربية، وبعض منهم يحفّظونه القرآن. كانوا مذعورين يحسبون الأيام وينتظرون، يدعون الله أن يحفظ الجعفرية من شر صبيّة عصته فلم تخفض لوالديها ـ كما أمر في كتابه ـ جناح الذلّ من الرحمة ولا صاحبتهما بالمعروف.

فرّ أخو كوثر لأنه عرف، منذ رأى أخته تركض إلى المحقق، أن المصائب على الطريق، ولم يملك أبوها المسكين أن يترك لحمه هكذا بين أيدي الأغراب، فظل ملازما لها حتى قبضوا عليه. من يدري ما الذي سيحدث له، وكم سنة يقضيها في السجن، أم تُرى تُختَصَرُ السنين إلى شهور تقوده إلى نار المحرقة؟

أينما ذهب، وحيثما جلس، يسمع عليّ هذا الكلام، فيشرد إلى الحقول أو يبقى في داره، ويظل محاصرا بين نار هذه الصبيّة التي أخذت قلبه وألقت بنفسها إلى التهلكة، ونار أهل الجعفرية لا يرون فيها سوى شيطان رجيم.

ذهب إلى عيد الحلاّق. قال:

ـ افصد لي دمي يا عيد، لعل الفصد يخلصني من هذا الألم الذي يتأجج في رأسي ناراً لا تطاق.

ـ لحظات وألبّي لك طلبك.

كان صالح بلبيس، الذي درس الصيدلة في الجامعة، ولم تمنحه السلطات إذنا بممارسة المهنة، جالسا بين يدي عيد يقص له شعره. قال عيد وهو يتطلع إلى علي ليشركه في الحديث:

ـ كنت أقول لسي صالح إن هذه البنت الملعونة صارت تهدد الجعفرية كلها. أقسم برب الكعبة أنني لم أعد أنام، وإن نمت أقوم مفزوعا أتساءل: هل رأتني هذه الشيطانة أدخل بيتا لطهور ولد؟ وهل تعرف أنني قمت بطهور صبية القرية كلهم؟ أقول لنفسي لابد أنها تعرف يا عيد، فكل نساء القرية يعرفن، والنساء بالطبع ثرثارات، لا تستقر على لسانهن كلمة.

علمتني أمي منذ نعومة أظافري أن ألجم لساني. قالت لي: «يا عيد لا تثق بأحد حتى زوجتك، فقد تختلف معها في يوم من الأيام فتشي بك إلى الديوان». وحكت لي أمي عن جارة لها مات ابنها، فجاءت النساء معزيات، فحكت لهن المرأة كيف قامت الأسرة بعمل الواجب للولد، غسّلوه بماء الزهر، وكفّنوه، وأودعوا معه في مدفنه قدر عسل وزرعا يانعا أخضر. هل تصدقان؟! بعد ستة أشهر ألقوا القبض على المرأة بسبب ما قالته. لا إله إلا الله، لم يعد في هذه الدنيا أمان، والعاقل يكتم أمره عن ظلّه ولا يخبره إلى أين يذهب ومن أين يجيء. لا تحزن يا سي عليّ أنك حُرمت من الخلف. الحق أنك محظوظ، لا زوجة، ولا بنت، ولا ولد يعرفون دخيلة بيتك فيكشفون أسرارك للديوان. ما فعلته بنت الحرام هذه جعلني أخشى أولادي، أي والله، صرت أخاف منهم فلا أتحدث أمامهم في أي شيء.

سأله صالح بلبيس:

ـ كم عمر أولادك يا عيد؟

ـ عقبى لأولادك يا سي صالح، كلهم ذكور. أكبرهم في الرابعة، والثاني عمره سنتان، والأخير ولد منذ شهر.

قال صالح بلبيس:

ـ كنت في الساحة يوم ركضت البنت إلى المحقق، ورأيت أمها وهي تصرخ وتنتحب، وتابعت الصخب والجلبة، وبدا لي أن الأب سيستل سيفه و. . .

قاطعه عيد:

ـ سي صالح نحن لا نخرج سيوفنا في حضرة موظفي الديوان. إن السيوف من الأسلحة الممنوعة!

قال صالح بنفاد صبر:

ـ أعرف يا عيد، أعرف. قلت بدا لي ـ وضغط على كلمة بدا ـ أن الأب سيستل سيفه وينزل به على رأس ابنته فتسقط غارقة في دمها. رأيت تمثيلية شبيهة وأنا في مدريد.

ـ وما معنى تمثيلية؟

ـ أشخاص مثلي ومثلك يقفون على مصطبة خشبيةواسعة ومرفوعة أمام الناس، ويلعبون أدوارا ويشخِّصونها بدقة فتنسى أصلهم وحقيقتهم وتتابع الحكاية التي يقدمونها كأنها واقع يجري أمام عينيك: أمراء يتبارزون، ملوك يُخلعون عن عروشهم، فرسان يعشقون، غيد يضحكن أو يبكين لغياب الحبيب.

ذلك اليوم ونحن واقفون في الساحة، قلت هذه تمثيلية، لو قطع الأب رأس ابنته لاكتملت.

ضحك صالح بلبيس مغتبطا بفكرته، ولكن عيد الحلاق لم يضحك. قال ببؤس باد:

ـ ولكنها ليست تمثيلية يا سي صالح!

كان عليّ قد قام من مكانه ومضى باتجاه الباب. لحقه عيد:

ـ انتظر يا سي عليّ. انتهيت من قص شعر سي صالح، لحظات وأشذِّب له لحيته.

لم ينتظر.

قيل إن الصبية وأباها نقلا إلى العاصمة للتحقيق. هل يذهب للبحث هناك، ومن أين يبدأ، ومن هو ليطرق أبواب ديوان التحقيق ويستعلم من المحققين؟! سيقولون له: هل هي ابنتك؟ أختك؟ زوجتك؟ فبماذا يجيبهم؟! حتى الآباء والإخوة والأزواج لايقدرون على الوصول إلى ذويهم في أقبية الديوان. عليه الانتظار لعل أخبارا تصل إلى الجعفرية تساعده على التصرف السليم، وأيضا ليجمع الزيتون ويبيع الزيت فيذهب مزوّدا بمال قد تكون بحاجة إليه. ليست متهمة بشيء، سيفرجون عنها، ولكن ماذا ستفعل بعد ذلك، تعود إلى القرية أم تبقى في المدينة، وأي مصير تلاقيه هناك؟!

٣

للخريف في الجعفرية أفراحه. في الصيف قبل الخريف، يحمل الكرم البشائر. يقطفون عناقيده. يغنّون له، وبرفق يودعونه السلال. يحملونها على رءوسهم، وعلى ظهور بغالهم، وعلى الحمير إلى البلدة القريبة أو المدينة الأبعد، وينطلق الصوت الجبليّ في السوق بالنداء: «شهد يا عنب». حبّات يشّف أسودها ويشّف أخضرها كأنها تكتم عن عين الحسود سكرها المركّز فيها.

ومن لا تخرج من النساء إلى السوق تأخذ نصيبها من فرحة المحصول. تغسل النساء العناقيد. يفرطن الحبّات عن أغصانها. ينشرنها على أسطح الدور فتتعهدها الشمس، تسوّيها زبيبا يبعنه أو يبقينه زادا مخزونا في البيوت.

الكرم يُبشّر، ثم يأتي موسم الزيتون. يخرج الصغار والكبار، الرجال والنساء يقضون نهارهم، منذ شروق الشمس حتى المغيب، هناك عند الشجر المثقل بثمره العميم. يحرّكه الرجال بالعصي، فتتساقط الحبّات على الأرض وعلى الرءوس، ينزل الله على خلقه من السماء ماءً، وينزل عليهم من ثمر كدهم وعرقهم الزيتون، بسم الله ما شاء الله. يجمعونه في السلال والأكياس. ينقلونه إلى المعصرة. تدور، فتمتلئ الجرار. للدار منها نصيب، ولسيد الأرض نصيب يأخذه بلا حق فلا بارك الله فيه، ثم تحمل البغال الجرار إلى السوق فيبيعون بحمد الله ويقبضون.

إنه موسم الزيتون. من أراد أن يزوج ابنه يطلب له الصبية بلا حرج وقد أنعم الله وتفضّل بما يفي بالمهر والعرس الكريم. يشترون الكسوة للعيال، وما

ينقص أم العيال، والمُسعد من الرجال تكرمه امرأته وتكرم الجيران بقدر من الزيت من صنع يديها. تدق حبات الزيتون بالحجر، تنقله إلى وعاء، تسكب الماء المغليّ عليه، وحين يبرد الماء تدعكه دعكا كالعجين، تنقيه من البذور وتهرسه بيديها، ثم تحفن بالكفين الزيت من على وجه الماء. «ذُق يا أبا العيال»، «تفضلوا يا جيران».

تغني النساء، وتنطلق أصوات الرجال بالمواويل، ثم يمسكون عصيهم ويرقصون، تراقبهم النساء من وراء مشربيات الدور ومن على الأسطح وخلف الأبواب المواربة، وتقع الصبايا في الحب في موسم الزيتون.

ولكن الموسم كان هذا العام شحيحا؛ والعارفون من الرجال تطلّعوا إلى السفوح المزروعة بعروق الزيتون وقدّروا، قبل الجني بشهور، ما تعطيه من جرار الزيت. كانت أقل من نصف المعتاد، فمن أين يسدون ديونهم، والضرائب لا تقل إن قلّ المحصول، وما يطلبه صاحب الأرض كثير؟! لعنة الله على هذه السنة وعلى الزيتون!

سكن القلق مع الأهالي في البيوت. يذهب الرجال ويجيئون حاملين معهم همّ العيال، وأكل العيال، وكسوة العيال. يلعنون أبا العيال وخلفة العيال! يتفششون في زوجاتهم. تسمع الجارة صياح جارتها فتعرف أن زوجها يضربها. تحمد الله أن زوجها أهدأ بالا وأقل شراسة، وما إن يمض يومان أو ثلاثة حتى ينشأ النكد كأنه يهبط على الخلق من السماء. يضربها زوجها فيعلو صوتها بالصياح، تسمع جارتها الصوت فتبكي تعاطفا، ثم تتذكر علقة بداية الأسبوع فترثي لحالها وتبكي أكثر.

وكأن همًا واحدا لا يكفي، أو كأن الهموم يأتنس بعضها ببعض فلا تنزل على الناس إلا معا. استيقظت الجعفرية على الجلبة والصراخ، وركض عليّ ضمن من ركضوا ليستطلعوا الخبر. دلته النار والدخان على موقع المصيبة. كان اللهب يرتفع عاليا في الفضاء، ينشب زرقته وأحمره في خشب الأشجار

وأوراقها وثمارها، يأكلها ويستعر متّقدا بوهج وحرارة ودخان تعمي الأبصار. لم يُجْد الماء شيئا فوقف الرجال عاجزين، لا يملكون سوى الجزع والتمتمات: «لا إله إلا اللّه»، «لا حول ولا قوة إلا بالله»، «الطف يا رب العالمين».

اتّهم أولاد النعمان عائلة القيسي بإضرام النار في حقلهم، وكان الخلاف بين العائلتين قديما منشأه نزاع على المياه تسبب في مقتل شاب من عائلة القيسي، وثأر ممتد راح ضحيته رجال من الطرفين. ثم تدخل أولاد الحلال فصالحوا بينهم وجعلوهم يوقعون معاهدة صلح وهدنة. كان ذلك قبل أكثر من مائة عام.

شاع الاتهام في القرية فغضب أفراد عائلة النعمان وكل من يمت لهم بصلة قرابة أو نسب أو صداقة، وغضب القيسية وكل المقربين منهم وقالوا إن الاتهام باطل. استنفر هؤلاء وأولئك وانقسمت الجعفرية، وتداعت الذاكرة بعشرات الوقائع القديمة التي تدين أولئك أو هؤلاء.

قال عمر الشاطبي:

ـ تتعقد المشكلة يوما بعد يوم، وتهدد بفتنة تأتي علينا كما أتت النار على حقل أولاد النعمان. قم بنا يا عليّ لزيارتهم والتحدث بالعقل معهم لعلنا ننجح في تهدئة النفوس.

بدءا بزيارة أولاد النعمان.

كانوا خمسة أولاد يسكنون معا في دار كبيرة. استقبلوهما ورحبوا بهما وضيّفوهما، ثم بدأ عمر الشاطبيّ الكلام عن الحاجة لوحدة الجماعة ليس في الجعفرية وحدها بل في شرق الأندلس كله. قال:

ـ يطوّقنا الأعداء ويحملوننا ما يكفي من الهمّ ويزيد، وبالكاد نستطيع الوقوف في وجههم. لا نملك أن نحيي العداوات القديمة.

ـ هم الذين أحرقوا أرضنا يا سي عمر، والبادئ أظلم!

ـ إن بعض الظن إثم، ما دام أيّ منكم لم ير بأم عينيه أحدا منهم يشعل النار في الحقل.

ـ لم نر ذلك ولكننا متأكدون أنهم الجناة.

ـ ومن أين هذا اليقين؟!

ـ قبل خمس سنوات طلب ابن عم لنا صبية منهم للزواج. لم نرحب بالمصاهرة ولكنه كان يريدها وأصرّ. بعد عامين من الزواج عادت المرأة إلى دار أبيها وطلبت الطلاق...

ـ هذه حكاية معروفة ولا جديد فيها، والطلاق مشروع، والله تعالى قال في كتابه «سرحوهن بمعروف».

ـ اسمع يا سي عمر تفصيل ما حدث، ثم احكم بالعدل.

لم يكن ابن عمنا راغبا في الطلاق فذهب إليها ليُرجعها. قال لها: «يا بنت الحلال في الطلاق وقف لحالك وحالي. لن يتمكن أي منا من الزواج مرة أخرى ما دام قانون البلاد لا يقرّ طلاقا رسميا، وزواج أيّ منا يوقعه تحت طائلة القانون» ولكن بنت القيسي قالت إنها تريد طلاقها وصداقها، وإن وقف حاله هو عين المراد، أما هي فلم تعد راغبة في الزواج ثانية.

أوجز لك ما جرى يا سي عمر، ولكن تفاصيل ما دار فيها شجار وقبح، إذ تدخّل الأب والإخوة وأهانوا ابن عمنا وتركوا ابنتهم تهينه، كأن من المقبول أن تتطاول المرأة على زوجها، أو على رجل من الرجال.

غضب ابن عمنا وقال إنه لن يطلق، ولن يدفع صداقا، فقال له أبوها: «لا تريد أن تدفع الصداق، إذن فاعلم أننا سندفّعك وسندفع عائلتك أضعافا مضاعفة!».

عندما شبّت النار في الحقل لم يكن في العقل عقل ليفكر في ذلك كله، ولكننا جميعا تذكرنا هذا الكلام ونحن مؤرقون في الليل نقلب في رءوسنا ونتساءل عن الذي حرق أرضنا. كان كل واحد منا يفكر وحده، ولكن الفكرة جاءتنا جميعا، وفي الصباح تناقلناها فتأكدت أكثر، واعلم يا سي عمر أن ابن عمنا يعمل خبّازا، ولم يكن في مقدورهم أن يحرقوا الفرن فهو من مرافق الإقطاعية. ولو فعلوا لوقعت الخسارة على سيد الأرض وليس على ابن عمنا.

قرر أولاد القيسي أن يحرقوا أرضنا نحن لأننا أولاد العم المباشرون، فانتقموا من صهرهم بتخريب حقلنا، فهل نسكت؟

ـ لو ثبت ذلك فلابد من معاقبة الجاني على جريمته، لأن الله تعالى قال: «ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب»، ولكنه لم يثبت، وإشعال نار الفتنة في الجعفرية تؤذي الجميع. كل ما أرجوه منكم أن تتريّثوا، ولا تنشروا الاتهام أكثر، وأن تهدّئوا شبابكم حتى نعرف الحقيقة ونجد الحل الذي لا يأخذ القرية كلها بجريرة شخص واحد.

لم يُرق الكلام لأولاد النعمان، ولكن عمر الشاطبي أكرمهم بالزيارة وهو شيخ البلد وفقيهها، واصطحب معه الغرناطي الذي درّس ثلاثة من أولادهم. لم يعلقوا.

وحين قام عمر الشاطبيّ وتبعه عليّ استعداداً للانصراف، قال أكبر أولاد النعمان:

ـ طلبك مجاب يا سي عمر. نتريث حتى نتيقن من الجاني.

ذهب عليّ وعمر الشاطبيّ إلى دار القيسي، ثم رجعا إلى أولاد النعمان، ثم زارا القيسية مرة أخرى، ثم التقيا بشيوخ العائلتين، وتحدثا في تفاصيل قديمة وجديدة طوال شهر كامل، بدا فيه وكأن الحياة تركزت فيما قاله أولئك أو هؤلاء.

لم يعترف أولاد القيسيّ بأن أحدا منهم أشعل النار في الحقل، ولكن ابنتهم وافقت على العودة إلى دار زوجها، وتردد كلام أن بعض الفتية من دار القيسي أبدوا استعدادهم للمشاركة في تقليب الأرض المحروقة وتسميدها مع بدايات الربيع، وقال واحد منهم: «كيف نكره أولاد النعمان». ذاعت العبارة في الجعفرية وتناقلها الأهالي، ثم وصلت إلى أولاد النعمان فردوا على الكلام بأحسن منه، وقالوا مؤكدين: «القيسية أخوالنا ولنا فيهم عزوة!».

أراد عمر الشاطبيّ تثبيت المصالحة، فجمع كبار العائلتين، فوقعوا معاهدة هدنة وصلح نسخوها بالنص من المعاهدة القديمة:

«يتعهد كل من أولاد النعمان وأولاد القيسي وأقربائهم وأصدقائهم والمناصرين لهم أن يحفظوا هذه الهدنة بينهم، ويلتزموا بالسلام لمدة مائة سنة وسنة، أيّا كانت الخلافات أو النزاعات أو الإساءات أو الأقاويل أو سوء النوايا التي كانت بينهم حتى هذا اليوم، ويقسمون باللسان، وبأيديهم التي توقع على هذه الأوراق، وفي حضور الشيخ عمر الشاطبيّ وعليّ الغرناطيّ، وأمام الله وقبلة رسوله محمد المصطفى خاتم المرسلين، أن يصونوا هذا العهد بالعمل على تنفيذ ما جاء فيه».

وقّع أولاد النعمان الخمسة، وبصم خمسة من عائلة القيسي، ووقّع الشيخ عمر الشاطبي وعليّ على الاتفاق، وقام الجميع لتناول لحم خروف ذبحه عمر الشاطبيّ بنفسه تيمنا بالمناسبة وسوّته زوجته وقدمته، على صحن نحاسي كبير، محاطا بالكُسكس المخلوط بالزعفران.

٤

ذهب عليّ إلى بالنسية وعاد. لم يجد كوثر. يُبكر في الخروج إلى الحقل. يقتلع الأشواك. يقلّب التربة لترى وجه ربها والشمس والهواء. يصلح ما حطمته السيول من سلاسل الأحجار. يحوّط زيتونه ويرعاه. وفي العصر يأتيه الصغار في الأسبوع مرتين، يحمل كلٌّ لوحه، يدرِّسهم ثم يذهبون فينهمك في صناعة الصندوق. يشطف العصافير في خشبه، يطرق شرائط الفضة ويفرِّغ في رقائقها حروفا ترسم اسم الصبية الغائبة.

ذهب إلى بالنسية مرة ثانية. قضى نهاره الأول في المدينة يسأل ويتقصى ويبحث حتى في الأسواق، ثم عاد إلى الفندق عند الغروب، وانتحى ركنا من الباحة، وراح يتشاغل بتناول طعامه ومراقبة إسكافيّ استأجر محلا في جانب من الخان، واستراقِ النظر إلى عدد من المومسات جلسن في الزاوية المقابلة.

كن يتحدثن بصوت عال، ويؤكدن الكلام بحركات الرأس والجذع واليدين. منهن الشقراء بيضاء البشرة زرقاء العينين، ومنهن السمراء جعداء الشعر لا تخطئ أنها من بنات العرب. انتبه لفتاة لها جديلة سوداء طويلة، مليحة الوجه، وجسدها ممشوق ناهض. حدّق فيها متأملا، ثم غض الطرف، ثم تحول بعينيه جهة الإسكافيّ. كان منحنيا على سبّاط يثبت جلده في النعل، يدق المسامير فيه.

سمع الصياح فعاد ينظر جهة المومسات. كان شجار بالكلام يدور بين ذات

الجديلة وامرأة في منتصف العمر لها شعر أحمر خيليّ كثيف ينسدل على كتفها.

ـ احفظي لسانك يا أنّا ولا داعي لهذا الكلام!

ضحكت حمراء الشعر ضحكة مجلجلة وهي تحرك رأسها في استهزاء:

ـ ولماذا أحفظه؟ هل أخشى منك ومن أمثالك. إنكم جميعا عبيد، ومن نسل عبيد، وأولاد حرام أيضا!

جذبتها امرأة سمراء مكتهلة لكي تجلسها بعيدا وتحول دون مواصلتها ما تقول، ولكن المرأة ذات الشعر الأحمر استمرت قائلة:

ـ لماذا يسمونكم الهاجريين؟ لأنكم من نسل هاجر الجارية، أما نحن فأسيادكم من نسل إبراهيم وسارة.

ضحكت المرأة المكتهلة:

ـ تصلحين للوعظ يا أنّا. من أين أتيت بهذا الكلام؟!

لم تعرها ذات الجديلة السوداء اهتماما. أشاحت بوجهها وتشاغلت بالنظر إلى مدخل الخان. تقدمت منها ذات الشعر الأحمر ودفعتها في كتفها وقد زادها التجاهل سخطًا وصاحت:

ـ كلكم كلاب، ونبيكم. . .

قفزت الصبية واقفة، وألقت بنفسها على المرأة المهاجمة وأمسكت بتلابيبها وهي تصيح:

ـ لو ذكرت اسم نبيّنا سأقطّع هذا على رأسك ـ متى خلعت حذاءها وكيف وهي تمسك بتلابيب المرأة ـ نعم من نسل هاجر، وحذائي هذا أشرف منك ومن الكاردينال الكبير والملك الذي يحكم البلاد!

انفلت منها الكلام واخترق آذان كل من في الخان. تطلعوا مبهوتين. كانت الصبية تلطم خديها ثم انهدّت جالسة وانخرطت في النشيج. هل يأتون للقبض عليها الآن، أم يأتون غدا؟

ـ الصغيرة تكايدك يا أنّا، تمزح معك. إنها تذهب معي كل أحد إلى القداس، وتعلق صليبا فوق فراشها!

كانت المرأة التى علا صوتها بهذا الكلام ليسمعه ويشهد عليه كل رواد الخان داكنة السمرة وسمينة ولها ثديان كبيران. قالت أخرى:

ـ ما الذي دهاكم؛ ما الداعي للشجار؟ كلنا سنموت ونذهب إلى الرب في السماء فيرحمنا ويشفق علينا لأننا تعذبنا كثيرا في هذه الدنيا، ثم مالت على أنّا وقبلت رأسها، وراحت تحدثها بحديث هامس. ما الذي يحدث للصبية؟ لا يقول ما قالته سوى مجنون، ولكن من يتحمل كل هذه المهانة ولا يصاب بالجنون؟!

صعد عليّ إلى الحجرة ونام، ولما استيقظ لم يسمع جلبة ولم ير محققين فاستبشر خيرا وخرج مع طلعة النهار ليواصل البحث عن كوثر.

انجلت الليلة الكئيبة بصبح أسوأ، سمع فيه أول ما سمع شخصًا يصيح في آخر: «عربي كلب!» استعاذ بالله ومضى في هدوء كأن العبارة لم تخترق أذنيه، وفي السوق الكبيرة صادفه رجلان يقول أحدهما للآخر: «إنهم ميالون للشر بطبعهم. لا يمكنك أن تأتمن أحدا منهم مهما أظهر لك المحبة والوفاء. هؤلاء العرب كذّابون مراوغون، والخيانة صفة أصيلة فيهم جميعا!».

«يا فتاح يا عليم»، أدار عليّ رأسه وابتعد. هل كان شيطان يتعقبه في ذلك اليوم ويضع على طريقه ما يلاقيه حتى يلقي بنفسه في التهلكة؟

ـ أنت!

ـ أنا؟ !

لم يكن يعرفها، امرأة ممتلئة ثقيلة الردفين، يتصبب وجهها المحتقن عرقا من ثقل صندوق تحمله على رأسها.

ـ ماذا تريدين؟

ـ احمل عني هذا الصندوق.

ـ ولماذا أحمله عنك؟

ابتسمت ابتسامة لا تخلو من ازدراء:

ـ لن تحمله بلا مقابل، سأدفع لك.

ـ لست خادما ولا حمّالا.

ـ أنت صفيق!

ـ اذهبي لحالك يا امرأة. لم أتطاول عليك، ولم أبادئك الكلام!

قالت وهي تمط شفتيها وتبصق على الأرض:

ـ عربيّ قذر!

انفلتت قبضته فرأى المرأة تسقط على الأرض مع الصندوق. سمع الارتطام والصياح والجلبة من حوله والناس يتجمعون.

ـ ضربني وسبّني وقال إن السيد المسيح دجّال!

من أين أتت المرأة بهذا الكلام؟ أيّ مصيبة حلّت به، وأيّ نحس ركبه هذا النهار؟ قبل أن يفيق من وقع كلام المرأة، سمع رجلا يقف بالقرب منه ويقول بصوت عال لجمهرة الواقفين:

ـ أمر النساء غريب! هذه المرأة رأتنا أنا وصاحبي. كنا نمشي في حالنا،

لا نعرفها ولا تعرفنا، فإذا بها تدعونا إلى بيتها. لم نلتفت إليها وفهمنا أنها امرأة سوء، ولكنها ظلت تلح علينا حتى زجرها صاحبي، ولما زجرها صارت تصيح وتدّعي ما لم يحدث، وإن لم تصدقوا كلامي اسألوا هؤلاء الرجال. كانوا يمرون بالقرب منا، ورأوا بعيونهم وسمعوا بآذانهم كل ما دار.

ما أن انتهى الرجل من كلامه حتى تقدم أربعة رجال وأكدوا ما قاله وعزّزوه بإضافة بعض التفاصيل، ثم أمسك الرجل الأول بيد عليّ وقال وهو يسير به مبتعدا:

-بنا يا صاحبي لنواصل أشغالنا.

مشى عليّ معه مشدوها يكاد لا يصدق، ثم توقف فجأة وسأل:

-أفهم أنك سارعت إلى نجدتي، وأنا ممتن لك غاية الامتنان، ولكني لا أفهم كيف شهد أولئك الرجال على صحة كلامك، ولم يشهدوا شيئا، ولا يعرفونك ولا يعرفونني.

ضحك الرجل، وقال:

-عندما يقع الواحد منا في مأزق يساعده من يتوافر من أهله. شكلك عربيّ وما اتهمتك به المرأة لا يتهمون به سوى العرب، وأصحاب المروءة يتقدمون للمساعدة، لو كنت مكانهم لفعلت الشيء نفسه، أليس كذلك؟!

-ما كنت أتوانى عن المساعدة لو كنت أعرف كيف، ولكن عقلي قد لا يسعفني فأعجز عن التفكير!

-بل يسعفك بلا تدبير ولا تفكير!

كان بشوش الوجه، عريض المنكبين قوي البنية، يتحدث بصوت خافت ويميل برأسه ليؤكد ما يقوله من الكلام.

رافقه فرانسيسكو زمزم إلى الفندق، وحكى له حكايته. كان يعمل مكاريا

يتنقل بين بالنسية وقطالونيا ناقلا الأقمشة في رحلة الذهاب، والفواكه واللوز والجوز والبندق في رحلة الإياب. قال:

ـ لا أخرج في تلك الرحلات وحدي، بل عادة ما نكون خمسة رجال، وأحيانا ستة أو سبعة، نذهب معا ببغالنا وحمولاتنا، ونرجع معا فنأتنس بالصحبة في الطريق، ونتعاون حين تنشأ مشكلة.

ـ هل كان الرجال الأربعة الذين شهدوا لصالحي اليوم أصحابك؟

ـ وهل بادرك في ذلك شك؟!

ضحك عليّ من سذاجته فشاركه المكاريّ الضحك ثم واصل:

ـ كثيرا ما تضطرنا الظروف لمواجهة مواقف من هذا النوع، ولكن في مرة من ذات المرات ألهمنا الله تصرفا ما كان يقدر عليه سوى فرقة من الرجال. كنا قد نزلنا فندقا من تلك الفنادق الصغيرة المنعزلة بالقرب من الشاطئ. ربطنا بغالنا ودخلنا وجلسنا قرب النار نستدفئ.

كانت صاحبة الفندق امرأة بدينة كتلك المرأة التي وقعت بصندوقها اليوم في السوق. طلبنا منها طعاما فأتت به، وما أن بدأنا نأكل حتى دخل علينا اثنان من موظفي الديوان، أحدهما طويل ونحيل والثاني قصير وبطين، ومعهما امرأة مقيدة. كانت دون الثلاثين ممتقعة الوجه منكمشة وخائفة.

قدمت صاحبة الفندق الطعام للرجلين فانهمكا في الأكل دون أن يقولا للمرأة المقيدة اجلسي أو خذي شيئا من هذا الطعام.

سألتهما المرأة البدينة:

ـ ما الذي فعلته هذه المنحوسة؟ قتلت أم سرقت؟

قال الطويل النحيف:

ـ تصنع أحرازا . داهمنا بيتها يوم جمعة . كان على النار قدر فيه لحم!

هتفت المرأة البدينة في استياء :

ـ لحم في يوم الجمعة؟

ـ الأدهى من ذلك أننا وجدنا حين فتشنا البيت أوراقا عليها خطوط ودوائر ومربعات وكتابات بالعربية ، وعثرنا أيضا على ريشة ومحبرة وسائل مخلوط بماء الورد والزعفران .

أشارت المرأة البدينة بعلامة الصليب وهي تدير عينيها بعيدا عن المرأة المقيدة ، وتمتمت :

ـ ليحفظنا الرب! قد تفك وثاقها في الليل وتهرب .

قال القصير البطين :

ـ سنقيدها في حديد النافذة ، وفي الصباح نرحل إلى مقر الديوان .

حين دخلنا للنوم جاءتنا الفكرة فشرعنا على الفور في تنفيذها . كنا سبعة فخرج خمسة منا خلسة من النافذة ، وفكّوا بغالهم وابتعدوا ، وعندما سمعنا الجلبة المتفق عليها ، والصيحات ونفخ الأبواق ، ووقع حوافر البغال ، بدأ زميلي يدق على الخزانة دقات قوية منتظمة ، واندفعت من الغرفة صائحا : «الأتراك ، الأتراك ، رأيتهم بعيني من النافذة ، رأيت العمائم في ضوء المشاعل التي يحملونها . قراصنة أتراك نزلوا الشاطئ . إنهم يقتربون من الفندق . النجدة . النجدة» ، وكان زميلي يواصل الدق على الخزانة ويعزز صياحي بالصياح واختلطت أصواتنا بأصوات زملائنا في الخارج بصراخ صاحبة الفندق . خرجت من غرفتها مهوشة الشعر ، نصف غافية ، تحمل شمعة في يد راجفة وتصرخ في هلع . قلت لها :

ـ قد لا يصيبوننا بالأذى ، ولكن المصيبة في العاملين في الديوان . سيتعرفون

عليهما ويرون المرأة المقيدة فيزدادون سخطا ويقتلوننا جميعا. ما العمل الآن، كيف نهرب؟!

نادت المرأة مولولة على موظفي الديوان، ثم اندفعت إلى الحجرة التي ينامان فيها، وفي غمضة عين كان الرجلان يهرولان خارجين بملابسهما الداخلية، يمسك كل منهما بفردتي حذائه في يد وملابسه في اليد الأخرى. تذكر الطويل قبعته فوضعها مائلة على رأسه، أما القصير فخرج من الفندق راكضا بلا قبعة. ركبا حماريهما واختفيا.

قلت للمرأة البدنية:

- ادخلي غرفتك وأغلقي الباب بالمفتاح. سأتصرف مع الأتراك. سأخبرهم أنك تشفقين على العرب من أمثالنا.

حللت وثاق المرأة المقيدة، ولحق بي زميلي ثم ركبنا بغلتينا وذهبنا لملاقاة باقي زملائنا.

لم نضحك في حياتنا كما ضحكنا في تلك الليلة. لم تعُد المرأة إلى قريتها، بل أخذناها إلى دار شخص من معارفنا وبقيت هناك حتى جاء أهلها وأخذوها.

ضحك فرانسيسكو زمزم، ثم تطلع إلى عليّ واكتسى وجهه بالجدية، وقال:

- في هذه المرأة يا صاحبي شيء لله. ألهمنا الله، وما ألهمنا إلا لأنه يريد لها السلامة. انظر.

أخرج من تحت ثيابه كيسا قماشيا صغيرا من الحرير الأخضر مطرزا بخيوط بيضاء.

- صنعت لي لوسيّا مورينا هذا الحرز، ونصحتني أن أبقيه ملاصقا لبدني

ولا أخلعه أبدا. قالت لي: «إن الإنسان الذي لا يتحرز بحجاب كدار مفتوحة بلا باب، يدخلها كل من هبّ ودبّ من إنسان وجان. وحرزك على بدنك باب موصد في وجههم، فلا يملكون الدخول عليك بالأذى». وصدقت فمنذ حملت هذا الحرز لم يصبني أيّ سوء، وكلما تعرضت لمأزق خرجت منه آمنا. إنها امرأة مباركة، وما فعلناه في تلك الليلة لم تُمله علينا عقولنا، بل كان إلهاما من الله.

٥

ذهب عليّ إلى بالنسية، وعاد دون أن يجد كوثر أو يعثر لها على أثر، ثم سافر مرة ثانية بلا جدوى، فقرر ألا يواصل البحث. قال: ليست سوى صبية أخذت قلبي حين تطلعت إلى وجهها، ولكنها ضاعت، سأخلّف الحكاية ورائي، وانشغل بما تقضيه الحياة من حياة. يعمل في حقله، يعلّم الصغار، يروح ويجيء، يأكل ويشرب وينام، ثم داهمته ذات ليلة صورة المومسات في ذلك الخان. قبل طلوع الشمس ركب بغلته وقصد بالنسية.

وجدها تبيع السمك في سوق المدينة الكبيرة، لم تتعرف عليه فعرّفها.

قالت:

ـ ما الذي تريده مني؟

ـ أن تعودي إلى الجعفرية.

ـ قتلوا أختي، وإن أعُدْ يقتلوني.

ـ يجيرك عمر الشاطبيّ حتى يصلح بينك وبين أهلك.

ـ قتلوا أختي، لا أريد العودة إليهم.

كانت تتطلع إليه بالنظرة الصريحة نفسها التي سبته. غض الطرف ثم عاد يرنو إليها. قال:

- هل تقبلين الزواج مني؟

طرفت عيناها. قالت:

- أشكرك!

- توافقين؟

- لا أوافق!

مسح العرق عن جبينه بطرف كمِّه وذهب.

غادر بالنسية قاصدا فرانسيسكو زمزم. نزل داره يوما وليلة واستدل منه عن مكان لوسيّا مورينا. قطع الطريق الوعر بين القريتين، ولما بلغها قال:

- أريد حرزا قويا يحمي صبية من الزلل، ويصونها من الأذى.

حمل الحرز وركب بغلته وعاد إلى بالنسية. أعطاه لكوثر:

- ستحتفظين به؟

- سأحتفظ به!

- سأكلم عمر الشاطبي وسنذهب معا إلى أهلك. اسمعي مني يا كوثر، البقاء هنا هو المخيف وليس العودة إلى القرية. لا تخافي من أهلك.

أشاحت بوجهها. قالت:

- لا أريد أهلي ولا أريد القرية!

قال عليّ لنفسه إنها خائفة وغاضبة. بعد وقت يتبدد الخوف والغضب وتهدأ.

ما أن عاد إلى الجعفرية حتى تحدث مع عمر الشاطبيّ، ولكن الشيخ قال:

«أسلمت روحها للشيطان. لم تعد منا، ولا شأن لنا بها». بعد أيام أثار معه الموضوع ثانية، بدا الشيخ أقل غضبا، وفي المرة الثالثة لان أكثر فأسهب عليّ في الكلام عن مخاطر الحياة في المدينة: «وهي طفلة في العراء، لا أهل، ولا مال، ولا سند. صبية مقطوعة، والمدينة تغص بالمومسات وأولاد الحرام. هل نرمي لحمنا للكلاب؟ إن تركناها يسألنا الله عنها يوم القيامة».

رافقه عمر الشاطبي إلى أعمام كوثر، ثم رافقه إلى أخوالها. تطابق كلامهم: «سيعود أخوها ليغسل بيديه العار، وإن لم يظهر سيقوم واحد منا بذلك». ولكن عليّا لم ييأس. قال بعض الوقت وتهدأ النفوس... وأمها، كيف يلتقي بأمها؟ وكم يطول بعض الوقت هذا؟!

تأجّل السؤال وتوارى كما توارت غيره من المشاغل وراء ذلك الوافد الذي نزل الجعفرية بمرافقيه وأتباعه وخدمه.

لم يثر الخبر، عندما تناقله الأهالي، سوى الفضول واستباق متعة الفرجة على شخص يتردد اسمه على لسانهم كل يوم مسبوقا بـ«الله لا يبارك له». يسبّونه أو يلعنونه، ويكرهونه كراهية غير مشخّصة فلا أحد منهم رآه، ولا انشغل بطوله وعرضه أو أصله وفصله. حاضر غائب كالشيطان أو الجان أو عزرائيل الموت أو الملك.

قال الوكيل: «سيأتي الدوق لقضاء بعض الوقت في قصره ومباشرة مصالحه في الإقطاعية» فليأت. لن يقيم فوق رءوسهم، وما يدفعونه في غيابه لن يزيد بحضوره. سيسكن هناك أعلى التلة في قصره بعيدا عن بيوتهم وحواريهم. هذا ما قاله الأهالي، ولكن عجوزا قالت وهي تتنهد: «يا قاعدين يكفيكم شر الجايين!» ولم يعر أي من أبنائها اهتماما لعبارتها، ولكنهم عادوا وتذكروها.

شاهد الأهالي الركب: العربة السوداء المزينة بمستطيلات مذهبة الطلاء،

يجرها حصانان أشقران قويان، يسوقهما حوذيّ يرتدي ملابس الأمراء: قبعة مخملية تزينها ريشة، وسروال ضيق يفصّل الساقين، وسترة مقصبة. هذا هو الحوذيّ، ترى كيف يبدو السيد، وما الذي يرتديه؟!

كان السيد بصحبة زوجته وأولاده داخل العربة مسدلة الأستار، ومن خلف العربة ركْبٌ من الفرسان يعتلون خيولا باذخة السروج، وخلف الخيول بغال تحمل الأمتعة يسوقها عبيد بينهم الأسود والتركيّ والنحيل ذو الملامح الدقيقة والشعر الأملس والذي ميزه صالح بلبيس، وقال: «إنه من سكان العالم الجديد الواقع فيما وراء البحار. رأيت العديد من أمثاله عندما كنت في مدريد».

راقب الأهالي الموكب، وتحدثوا عنه يومين وليلة، ثم عادوا لأشغالهم. ولكن الوكيل دعا كبار القرية لاجتماع عاجل: «متى؟» «غدا»، «ولماذا؟»، «ياخبر بفلوس!» ناموا متسائلين، وفي اليوم التالي ذهبوا للقاء بالوكيل.

قال:

- الدوق غاضب، ويقول إنكم تسرقونه.

- نسرقه؟!

- يقول إن ما تدفعونه من الإيجار أقل من القليل، وإن غيره ممن يملكون إقطاعيات أصغر يحصلون على أضعاف ما يحصل عليه.

- ندفع له الإيجار، والضريبة، ويوم السخرة نعمل فيه بلا مقابل في الشهر مرة، وندفع للملك، وندفع للكنيسة فما الذي يتبقى لنا؟!

- ما على الرسول إلا البلاغ. يقول سيدي الدوق إن الأرض خصبة ومحصولها وفير، وهو لا يحصل على حقه منكم، ويكفي ما اقتطعتموه في السنوات الماضية. لايطلب منكم سوى ما يطلبه غيره من أصحاب الإقطاعيات.

ـ إنه يأخذ ما يأخذه غيره من ملاك الأرض: الضريبة والعُشر، ويملك الفرن والطاحونة والمعصرة ومضرب الأرز، ولا نملك استخدام مرافق غيرها حتى إن كانت أرخص.

نتعب ونشقى ونعيش على الكفاف ونعطيه ليعيش كالأمراء، وبعدها يقول إننا نسرقه، لا إله إلا الله!

علت الأصوات، وتوترت الأبدان، واحتقنت الوجوه، ثم انفض الاجتماع وعاد كل إلى داره مغموما يحمل هم المطالب المحددة: ربع محصول الزيت والزيتون، نصف ثمار أشجار الخروب والفاكهة، ونسبة من التين المجفف والزبيب وغزل النساء في البيوت وما يصنعنه من السلال والدواجن التي يربينها، فما العمل؟!

كشفت النساء رءوسهن أمام الشمس ساعة العصر، ودعون على كل ظالم مستبد وعيَّنَّ الدوق بالاسم، وإن ضقن بعدم معرفة اسم أمه لتكون الدعوة مكتملة الأركان يسمعها الله في سمائه، فينزل غضبه في الحال ولا يمهل.

وبات الرجال ليلتهم مؤرقين، يجمعون ويطرحون، يحسبون الوارد والمصروف، غلّة الأرض وضرورات الحياة والضرائب والمطالب المستجدة للدوق. يختصرون الحاجات. يختصرونها أكثر ويحسبون ثم يفزّون جالسين. يسبّون ويلعنون، ثم يستعيذون بالله ويستهدون به ويعيدون الحساب من جديد.

قلّب الأهالي الأمر فيما بينهم، في الحقول، في ساحة القرية، في الفرن والطاحونة ومضرب الأرز والمعصرة، وأيضا في مضايف الدور. زادوا وعادوا فما أوصلهم الكلام إلا إلى النتيجة نفسها: في مطالب الدوق خراب بيوتهم. ذهبوا إلى الوكيل. قالوا: «ما يطلبه السيد مستحيل. لا نملك ولا نستطيع». ذهب الوكيل إلى الدوق، ثم عاد بعد يومين بالرد: «يقول الدوق إنه لن يتنازل عن حقوقه، وإن امتنعتم سيلجأ إلى القوة!».

لم يكن الوكيل بحاجة لشرح المقصود، ولا تذكيرهم بما حدث قبل عامين في «بني حسن» فالكل يعرف، الصغار والكبار، الرجال والنساء.

لم تكن «بني حسن» مجرد قرية مجاورة يصل إليها المرء مشيا على قدميه في ربع نهار، أو يركب حصانه أو بغلته أو حماره وينزل الجبل إليها، ويقضي حاجته فيها ويعود في اليوم نفسه. كانت تربط أهالي القريتين علاقات مصاهرة وصداقة وبيع وشراء.

كانت الأمطار شحيحة ذلك العام، والماء في الوادي بالكاد يكفي ضرورات الري، فأقام أهالي بني حسن قنطرة على المجرى تسببت في نزاع مع إقطاعي يملك أرضا مجاورة. تدخلت السلطات. «افتحوا القنطرة»، «نروي أرضنا أولا ثم نفتحها»، «افتحوا»، «لن نفتح». فوجئ الأهالي بقوة من الفرسان المسلحين يدخلون القرية ويهدمون القنطرة ويجمعون كبار البلد ويعلمونهم أن عليهم دفع غرامة في غضون شهر واحد، وإلا اقتيدوا إلى السجن. دفع أهالي بني حسن الغرامة بكل ما معهم من مال، وباعوا ذهب نسائهم واستدانوا من أهل الجعفرية ومن سواهم دينا لم يتموا بعد سداده. هل هذا ما يلوّح به الدوق؟ أم يأتي العسكر ليقطفوا نصف الثمار من الشجر، ويأخذوا من المعصرة ربع الزيت، ويدخلوا على النساء الدور ليفتشوا عن الدواجن والمغازل وسلال التين والزبيب؟

قررت الجعفرية الإذعان لمطالب الدوق. «لا حول ولا قوة إلا بالله» «الله يمهل ولا يهمل وهو المنتقم الجبّار» يتمتم اللسان بالكلمات ليفك ضيقا لا ينفك، والحسرة تثقل القلوب، والمرارة تطغى على طعم اللقمة وتبدد حتى فرحة الزيتون. جمعوه عن الشجر وعصروه وأعطوا ربعه في هدوء كأن الغضب لا يتقد جمرة في الصدور.

كيف حدث ما حدث؟ لا أحد يعرف بالضبط. هل كان النجارون هم الذين بدءوا برفض العمل بلا أجر في يوم السخرة، أم البناءون الذين طلب منهم تجديد جناح في قصر الدوق؟ أم بدأه الصبية في بساتين القصر حيث يعملون في العناية بالزهور والأشجار؟ أم بدأ العصيان من النساء حين خرجن إلى أبواب الدور وتربعن في الشمس يثرثرن، كأن اليوم ليس يوم السخرة ولا يتعين عليهن تقديم منتوج الغزل للدوق؟

توقف العمل في الجعفرية. تجمهر الرجال في الساحة ثم تطلعوا من حولهم فانتبهوا لكثرتهم: فتية أشداء ورجال وكهول وصبية وشيوخ؛ حرّاثون ونجارون وحدادون وبناءون وطحانون وعمال في المعصرة وخبازون وخياطون.

- لنذهب إلى قصر الدوق.

- لنذهب!

صعدوا باتجاه القصر. التقوا بالوكيل وثلاثة من معاونيه يهرولون هابطين. صاح بهم الوكيل ليسمعوه، ولكنهم تجاوزوه وواصلوا الصعود. استدار وهرول صاعدا ثم ركض ليسبقهم إلى القصر ويُعلم الدوق.

أحاطوا بالقصر فخرج إليهم الدوق. قال كلاما باللغة البالنسيّة فهمه بعضهم ولم يفهمه بعضهم الآخر. ترجم الوكيل الكلام:

- يسألكم الدوق ما الذي تريدونه؟

- تحدث عنا يا سي عمر.

قالها شخص فرددها آخرون.

- نفوّض عمر الشاطبي.

تقدم عمر الشاطبي وصعد الدرج المفضي إلى بوابة القصر.

دعاه الدوق إلى الدخول.

وقف الحشد ينتظر. مرّ الوقت بطيئا وثقيلا، ثم ظهر عمر الشاطبي باسم الوجه.

ـ خير؟!

صاح الشيخ بأعلى صوته.

ـ خير إن شاء الله. وافق الدوق على التراجع عن مطالبه. نصرنا الله وأعزنا، وهو على كل شيء قدير.

هرولوا هابطين تحملهم الطريق المنحدرة من القصر إلى الساحة خفافا مسرعين، والفرحة في صدورهم تسابق خطو الأقدام تكاد تطير بهم طيرانًا إلى زوجاتهم. كان الصبية يتقافزون ويصيحون والشباب يركضون، والرجال والكهول والشيوخ، حتى الشيوخ، كانوا يسارعون الخطو.

قبل أن يصلوا إلى الساحة سمعوا زغاريد النساء والأهازيج. عزز الصوت الفرح، ثم وصلوا إلى الساحة فأمسك الرجال بالعصيّ ورقصوا.

احتفلت الجعفرية ثلاث ليال ثم رحل الدوق. راقبوا العربة السوداء المذهبة والحوذيّ والحصانين الأشقرين في الطريق المنحدرة من القرية، وتابعوا ركب الفرسان والخدم والعبيد والبغال المحملة بالأمتعة. زغردت النساء. كان عيد الأضحى بعد يومين فعيّدوا قبل العيد، وفي العيد ذبحوا الضحايا وواصلوا الفرح.

في اليوم الرابع للعيد داهم القرية مائة من الفرسان المسلحين توزعوا في الحواري، واقتحموا حرمة البيوت. كسروا جرار الزيت والزيتون، شقوا

أكياس الطحين والسكر. ألقوا بالتين والزبيب وداسوه بأحذيتهم ولوثوه بالطين وبالبصاق. مزقوا ما وصلت إليه أيديهم من جلالات المخمل أو أثواب الحرير. حطموا المغازل والأنوال، ثم غادروا القرية مخلفين وراءهم ثلاثة من القتلى وعشرة مجروحين، ونساء تولول على الشباب الذين اقتادوهم إلى سجن الناحية.

٦

«تغيرت» تمتم عليّ وهو يتأمل كوثر. كانت تقف على بعد بضعة أمتار وراء بسطة السمك المعروض للبيع. لم يعد وجهها شاحبا نحيلا. زاد وزنها وتورد وجهها مع امتلاء الجسم. لم تعد طفلة. كبرت. ترى هل تفرح لرؤيته؟ هل تعجبها الهدية؟ هل افتقدته وقد غاب عنها كل هذه الشهور؟ ظل واقفا يراقبها وهي تتحدث مع الشارين، تزن لهم السمك وتقبض ما يدفعونه، تبتسم، تبدو منشرحة مبسوطة.

اقترب فرأته. رحبت به. ودّ لو تسأله لماذا غاب هكذا طويلا. لم تسأل. أراد أن يشير إلى ذلك الامتلاء الذي زادها حسنا، لم يقل سوى:

ـ هل أنت بخير يا كوثر؟

ـ الحمد لله بخير. تزوجت وبعد أربعة أشهر يأتينا المولود.

قالتها ببساطة، بعادية كأنها لا تقول شيئا. انعقد لسانه ولكنها واصلت:

ـ زوجي رجل طيب يحسن معاملتي. إنه صيّاد، ساعدني على العمل هنا، ثم طلب مني الزواج.

ـ ما اسمه؟

ـ سانشو لوبيس.

ـ نصرانيّ؟

ـ ألم نعد نحن أيضا نصارى؟!

غادر السوق. ما له ولهذه الصبية؟ لماذا يعشقها، لماذا يقطع المسافات ليتملّى وجهها؟! لعنة الله عليك يا عليّ وعلى اليوم الذي رأيتها فيه. لماذا تنشغل بها، وتشتري لها المخمل الغالي، تلف السوق وتحدق في الأقمشة تلمسها وتتحير، تريد لها الأبهى والأغلى؟! ألم ترفض الزواج منك وفضلت عليك غريبا يستحمّ في العامين مرة؟! رأيتها بعينيك متوردة الوجه ممتلئة ببذرته، فلتذهب إلى الجحيم. ليست سوى صبية حملت العار لأهلها ووشت بأبيها للديوان.

ألقى القماش على الأرض. بصق عليه. داسه بقدميه. ظل يمشي في الطرقات حتى كلّت قدماه. عاد إلى الفندق. صعد إلى غرفته. لم يطق الجدران، نزل إلى باحة الفندق. طلب عشاء فأتوا له بالعشاء. لم يتناوله. قام إلى ركن المومسات واصطحب واحدة منهن إلى فراشه، ضاجعها.

ـ لماذا تبكي يا سيدي؟

كانت تحدق فيه باندهاش أبله. ناولها أجرها وطلب منها أن تنصرف. ارتدت ملابسها وفتحت الباب وخرجت ثم عادت.

ـ هل ستعود للبكاء ثانية؟ بإمكاني أن أبقى معك، لن أطالبك بأجر إضافيّ.

تطلع إليها. كانت دون العشرين. في وجهها الأسمر ملاحة وإن شابته ندبة في جبينها من ناحية اليمين. شعرها أسود مموّج يطول إلى كتفيها، وكتفاها صغيرتان كباقي الجسم الذى لم يكن نحيلا ولكنه كان أقرب للصغر، بحيث يبرز كبر الثديين نحافته.

ـ ما اسمك؟

ـ نجاة.

ـ هل تعملين هنا منذ زمن يا نجاة؟

ـ منذ قرابة عامين يا سيدي. لست من بالنسية بل جئتها من قرية . . .

قاطعها:

ـ اجلسي يا نجاة؟ احكي لي حكايتك.

ـ أحكي حكايتي؟

ـ احكيها!

نحن في الأصل من سرقسطة. يقول أبي إن أجدادنا كانوا يعيشون فيها ثم انتقل فرع منهم إلى مملكة بالنسية. ولدت في نواحي بني قارلو على شاطئ البحر. لا أذكر أمي لأنها ماتت وأنا صغيرة، ولكني أذكر أبي، كان رجلا طيبًا ويحبني ويدللني ولا أطلب شيئا إلا ويحضره لي. ولما مات أبي انتقلت للإقامة مع عم من أعمامي. كانت زوجته قاسية تضربني كثيرا. ثم أحببت شابا لم يكن يقيم في القرية، ولكنه كان يتردد عليها. طلب مني الزواج ففرحت، ولكنه قال إن عمي لن يقبل لأنه غريب، وأنا أيضا خفت من زوجة عمي. قلت له: «ما العمل؟!» قال: «نذهب إلى المدينة ونتزوج». هربت معه وجئنا إلى بالنسية ونزلنا في هذا الخان.

هل كان النحس يلاحقنا أم أن زوجة عمي عملت لي عملا يتسبب في هذا الشر؟! في ليلتنا الأولى هنا في المدينة فتح أحدهم الباب علينا وأمسك بتلابيبي وقال إنني أمارس العمل دون ترخيص. لم أفهم تماما ماذا يعني، ولكني أقسمت له أن مسعودا طلب مني الزواج، وأننا سنتزوج صباح اليوم التالي. تطلعت إلى مسعود لكي يؤكد كلامي، ولكنه بقي صامتا كأنه بلا لسان. «قل يا مسعود، انطق يا مسعود!» أخيرا نطق، هل تعرف يا سيدي ماذا قال؟ قال إنه لم يكن يعلم أنني أعمل دون ترخيص وارتدى ملابسه وحمل أغراضه وتركني وذهب. هل تصدق؟! ساعتها قال لي الباستو.

ـ من هو الباستو؟

ـ متعهد هذه الأمور في الخان، وهو الذي يُحصّل منا النسبة المقررة للملك.

ـ الملك؟!

ـ نعم يا سيدي. أنا أيضا لم أكن أعلم كل هذه الأشياء، ولكني صرت أعلمها. الحي العربي، كل مرافقه، من أملاك الملك.

ـ هذه أعرفها.

ـ وهذا الخان أيضا من أملاكه، وبما أننا نعمل فلابد أن يذهب جزء مما نكسبه إلى الملك، يأخذها الباستو، يقتطع أجره ويرسل الباقي إلى الملك. الجزء الأكبر مما أكسبه يذهب إلى الدون سباستيان لأنه اشتراني، والجزء الأصغر يذهب للملك، أما في البيوت المخصصة لممارسة هذا الأمر فيذهب الجزء الأكبر للملك لأنّه صاحب المكان يديره لمنفعته، أما الجزء الأصغر فتحتفظ النساء به لأنفسهن ما دمن أحرارا لا يمتلكهن أحد.

ـ هل أكمل حكايتي يا... ما اسمك يا سيدي؟

ـ عليّ.

ـ هل أكمل حكايتي يا سي علي؟

ـ أكمليها.

ـ أمسك بي الباستو وقال إنه لن يخلي سبيلي إلا لو دفعت له ثمن الترخيص وغرامة إضافية لأنني كنت أعمل دون ترخيص. قلت له: «ليس معي نقود». قال: «إذن نبيعك ونسدد ما عليك من دين». بكيت وتوسلت إليه، وقبلت يده وعرضت أن أعمل في خدمته وخدمة زوجته، ولكنه لم يتزحزح. قال: «لماذا تبكين؟ لن يتغير عليك شيء، سأبيعك لشخص يُشغِّلك في العمل نفسه». لطمت وصرخت.

تطلعت إلى عليّ ثم تنهدت. شردت عيناها وتمتمت: زوجة عمي هذه

قادرة. سحرت لي، ولعملها مفعول قوي، كل ليلة أدعو عليها. ربما ماتت بسبب دعائي، ولكن كيف أعرف وهي تسكن هناك في آخر الدنيا؟

بدت وكأنها تحدث نفسها، ثم التفتت إلى عليّ وعادت تحدثه.

ـ تبدو طيب القلب يا سي علي، لم لا تشتريني من الدون سباستيان، وتأخذني معك فأخدم زوجتك وأولادك؟

ـ ليس لي زوجة ولا أولاد!

ـ أخدمك.

ـ ليس في مقدوري شراؤك يا نجاة.

ـ أليس من بين معارفك من يقدر على ذلك؟

لم يجب.

ـ سمعت من صاحبتي أن هناك أولاد عرب يعز عليهم أن نمتهن هذا العمل، وأن بعضا منهم ذات مرة جمعوا أموالا واشتروا ثلاثة منا وأعتقوهن. من يدري لعل كلا منهن الآن وجدت زوجا وخلفت أطفالا. اسأل يا سي علي قد تجد من يرغب في شرائي.

ـ سأسأل.

ـ هل تذهب إلى القداس؟

استغرب السؤال والانتقال المفاجئ من موضوع إلى سواه. هل تكون المرأة عينا من عيون الديوان؟ ولم لا، إنها مومس لا رابط لها ولا خلق. لا يشي وجهها بأيّ شر. على العكس تبدو طيبة وبها سذاجة، ولكن الظاهر لا يكشف الباطن في كل الأحوال.

ـ طبعا أذهب إلى القداس.

- أنت مسلم، أليس كذلك؟

تريد الإيقاع به. تطمع في مكافأة من الديوان تشتري بها حريتها. ادّعى التثاؤب.

- كان أجدادي مسلمين وتنصّروا، وأنا الآن نصرانيّ، اذهبي الآن يا نجاة لأنني متعب، سأنام.

- سأذهب حالا يا سيدي، ولكنك رجل طيب وقد اطمأن لك قلبي فقلت أسألك عما يحيرني. كان أبي رحمه الله يقول إننا مسلمون، ولكن الناس هنا يقولون إن المسلمين سيذهبون إلى النار. أذهب إلى القداس وأركع وأصلي للمسيح، ثم أذكر كلام أبي فأدعو إلى رب المسلمين، ثم أضطرب ولا أدري أيهما الرب الصحيح، فأدعوه لكي يساعدني.

- اتركيني لأنام.

- ولكنك لم تجب عن سؤالي!

- اتبعي كلام القس.

ذهبتْ وظل مؤرقا يفكر في سؤالها وجوابه. إن لم تكن عينا من عيون الديوان يتحمّل وزرها وقد ضنّ عليها بالنصح وضللها بالكلام.

هل شغلته نجاة بحكايتها أم أنه تشاغل بها لكي لا يفكر في كوثر؟ ما أن وصل إلى الجعفرية حتى ذهب إلى عمر الشاطبي. قال له:

- أقصدك في مشورة وفتوى سألني عنها رجل التقيته مصادفة في بالنسية. أما المشورة فتخص المومسات من بنات العرب. أخبرني ذلك الرجل أن عددهن ليس قليلا، فبعضهنّ مملوك يُشغله أسياده الملاك، وبعضهنّ الآخر لا يجد مصدرا آخر للقوت.

قال عمر الشاطبيّ:

ـ ناقشنا هذا الموضوع قبل سنوات عديدة في اجتماع لفقهاء الناحية، واتفقنا أن نجمع المال لنشتري بعضًا منهنّ ثم نعتقهن ونوفر لهن مصدرا كريما للرزق، وفعلا جمعنا المال اللازم واشترينا ثلاث نساء، ونقلناهن إلى قرية من قرى الناحية، فإذا بنا نواجه بمشكلة لم تكن في الحسبان. خافت نساء القرية على بناتهن، والرجال على زوجاتهم وحدثت مشاجرات عديدة حتى إن فقيه القرية جاءني قائلا: إننا أخطأنا في قرارنا خطأ عظيمًا، وحكى لي كيف تعاركت بعض نساء القرية مع الوافدات الثلاث، فهربن ولم يعثروا لهن على أثر. «ومن يومها» قال لي الرجل، ونحن في ذعر من أن تثرثر أيّ منهن بما رأته من تفاصيل حياتنا اليومية: «قل لصاحبك إن كانت هناك واحدة بعينها يثق في معدنها الطيب، فليعطها ما تجود به نفسه حتى تتمكن من بدء حياة كريمة. ولكن أنصحه بألا يأخذها إلى قريته أو يصطحبها إلى الحياة بين أهله.

ـ وهل تجوز الصدقة على المومس؟ هذه هي الفتوى التي سألني عنها صاحبي.

ـ لو استتابها وتابت تجوز الصدقة. ليعطها ما يقدر عليه وليوجد لها عملا يسترها إن أمكنه، ولكن الحرص واجب يا بنيّ، فالمرأة التي تقبل بهذا العمل عادة ما تحمل بذرة الفساد.

غادر دار عمر الشاطبي وعاد إلى داره. قبل أن ينام حمل الصندوق الذي يحمل اسم كوثر وأخفاه في قاع الخزانة. أكل ثم تمدد على فرشته ونام.

٧

عمر الشاطبيّ هو الذي بشّره. طرق بابه ليلا وقال:

ـ علمت بالخبر في التو فقلت أفرّح الأحباب: عاد من أسطولهم أقل من نصفه والباقي تحطم وابتلعته أمواج البحر.

في الصباح كان الخبر قد شاع بين الأهالي وفاح العرس في الجعفرية. حتى العجائز والصغار صاروا عالمين بتفاصيل التفاصيل يتبادلونها على أعتاب الدور وفي الساحة وفي المعصرة والطاحونة، وبالقرب من الفرن ومضرب الأرز. يحكي الرجال وتحكي النساء في الحقول وفي ستر البيوت والدنيا نهار، وفي الليل يعيدون ويزيدون، يبرّد قلوبَهم الكلامُ والنسمة الصيفية العليلة: أسطول أسبانيا الذي يسد عين الشمس ويرهب أعتى الجبابرة خرج لملاقاة الإنجليز.

ـ كم سفينة؟

ـ مائة وثلاثون.

ـ الله أكبر، مائة وثلاثون!

أبحرت السفن شمالا بالقادة والعسكر والملاحين والمحكومين، يجدفون أو يرفعون الصواري وينشرون القلوع. ودع الملك قائد أسطوله وجلس على عرشه ينتظر.

ـ انتظره عزرائيل!

فإذا بالأخبار تنهمر عليه كالصاعقة من السماء. انتصر الإنجليز على أسطولك يا ملك، وما بدأه الإنجليز أكملته العواصف وأمواج البحر والصخور. انكسرت الأرمادا التي تسد عين شمس، كسرها الإنجليز!

- شكرا للإنجليز!

- ألف شكر للإنجليز!

- من هم الإنجليز؟!

لا أحد يعرف أو يهتم بأن يعرف أكثر من أنهم يبرّدون نارهم كل حين، عندما تتسرب أنباء عن سطوهم على سفينة أسبانية مبحرة إلى هنا أو هناك. أحبوا الإنجليز. ولكنهم في هذه الأيام أحبوهم أكثر كأنهم من باقي أهلهم العرب والمسلمين.

لم يكن الأهالي قد جمعوا الزيتون بعد. ولكنهم صرفوا ما في الجيب لأن عرسا هكذا عزيزا يليق به السخاء والكرم. ذبح الرجال الخراف وفتلت النساء الكُسكس وتصدقوا وأولموا وأكلوا، وبدت دورهم وحواريهم مجلوة كالمرايا وقد كنسوها وشطفوها وزينوها بالسعف وأنوار الزهور.

وفي ليلة الخميس احتفلت الجعفرية بالليلة الكبيرة. ارتدى الرجال ملابس العيد وتعطرت النساء وتزينّ بكحل العيون. رقص الرجال بالعصيّ وغنوا، وتوزعت النساء بين الفرجة علي الرجال من أسطح البيوت والحلقات المغلقة على رقصهن والأهازيج.

أعلنت الجعفرية الفرح بنصر حققه الإنجليز.

- من هم الإنجليز؟

قال شاب من الشباب:

ـ ليسوا أفضل من حكامنا الأسبان. إنهم يتعاركون على السيادة والملك، كلٌّ يطمع في النصيب الأكبر.

تطلع إليه الرجال مخذولين، وهل يصح النعيق في الأفراح. العرس مقام والبهجة مشعشعة كالخمر في الرءوس. كسر الإنجليز شوكة الإسبان، مرّغوا أنفهم في التراب فشكرا للإنجليز، أحب الأهالي الإنجليز.

بعد أيام سأل عليّ عمر الشاطبي:

ـ ماذا لو تصالح الإنجليز والإسبان، ألا يكون ذلك الشاب على حق ونكون نحن المخطئين؟!

ـ يكون على حق في تقديره ونبقى على حق في ابتهاجنا، لأن انكسار الأسطول عززنا بإضعاف عدونا وأشعرنا أن للظالم يوما، وأنه رغم قوته يمكن أن يهزم.

ـ وهل تعتقد يا سي عمر أننا قادرون على هزيمته؟

ـ بعون الله نعم قادرون.

ـ بلا عون من أحد؟

ـ قد يعيننا الترك أو الفرنسيون.

ـ وإن لم يفعلوا نعش ونَمُت مكمودين مهانين، ولا تجد ذريتنا من بعدنا سوى المصير نفسه!

ـ ما الذي دهاك يا عليّ، أين إيمانك يا رجل؟! الله أكبر ويخلق ما لا تعلمون. ما هي إلا ليلة وضحاها ويدمر الله ملكهم ويهلكهم كما أهلك عاداً وثمود وغيرهم. ليس ما نعانيه سوى اختبارك لقوة إيماننا، فهل ترسب يا عليّ في الاختبار؟!

كـان صـوتـه عـاليًـا ومـحتـدا ولائمـا، ثم توقف عن الكلام ولما واصل كـان صوته أهدأ، قال:

ـ الحرب سجال يا ولدي، يوم لنا ويوم علينـا، ثم ينصفنا الله لأننا أصحاب حق، ولأننا أسلمنا أنفسنا له وعبدناه ورفعنا ذكره.

حين اندلعت الثورة في البشرّات كنا نتـابع الأخبار وروحنا معلّقة بهـا. نصحو عليها وننام. نجمع مـا نقدر عليه من المال ونرسله سرا، ونبحث كيف نعزز الثوار بالرجال. نبتـهج مع كل نصر يحقـقونه، نوّد لو أن آذاننا تسـمع دبيبـهم على الأرض لنتبع خطاهم ونمنحهم قـوة سـواعدنا وعزمنا. لا نطول منهم سوى الأخبار فندعو لهم في كل لحظة.

ثم انهـزم الثوّار وتوالـت علينا بعد المصيبة مصائب، انتصر أسطول الملك على الأتـراك في ليبـانتو، ثم استـولى على تونس. هل فـقـدنـا الأمل؟ حـزنّا واضطربنا وخفنا ولكننا تشبثنا باليقين فأكرمنا الله. عامان اثنان لا أكثر وعشنا فرحة هزيمتهم في تونس وخروجهم منها، ثم محاصرة قواتهم في قبرص.

استجـاب الله لدعائنا فإذا بهم صـاروا هم المحاصرون يواجهـون الأعداء من كل جانب. يخشـون الأتراك، ويخشون الفرنسيين، ويـخشـون تمرد اللوثريين، وها هـم الإنجليز يكسرون الأرمادا. إن الله يمهل ولا يهمل يا ولدي.

من أين يأتي عـمر الشـاطبي بكل هذا اليقين؟ يؤمن بالله مثله فلمـاذا يؤرِّقه الشك في النهايات العـادلة السعيدة، وفي نظام معقول يحكم هذه الدنيا؟ وفي أواخر عـمره أصيب نعيم بالجنون. كان صغيرا فلم يفـهم أن الرجل كان غاضبا ومـخـذولا ومـعـذبا إلى حـد الجنون. كـان يحكي عن تفاصيل كثيـرة عاشـهـا ويسترسل في الكلام عن البحر والأشجار والطيور والمطر، ويقول إن له زوجة وأيضا ثلاثة عيال، وتقول مريمة إنه مـختل وإن الصغار الذين يتحدث عنهم من صنع الخيـال. سمعه ذات ليلة ينتحب. أيقظه الصوت فـخرج إلى باحة الدار

فوجده مقرفصا تحت شجرة التين يبكي. أفزعه بكاء نعيم، ظل واقفا في الرواق لا يقترب منه ولا يرجع إلى فرشته لينام. كان في السابعة من عمره ولم يفهم. هل يصبح حين يتقدم به العمر مثل نعيم تثقل عليه الدنيا حتى يصاب بالجنون؟ لا زوجة له ولا أولاد ولا مريمة ترعاه ولا حتى بيمارستان ينقله إليه أهل القرية حين يفلت منه العقل ويختل الميزان. لو أن كوثر قبلت الزواج منه لحمّلها أطفالا يكبرون ويدرءون عنه الوحشة في آخر أيام العمر. لماذا رفضت الزواج منه؟ هل عز عليها أن يطلبها إشفاقا؟ هل توهمت أنه يطلبها إشفاقا؟! لمَ لم يقل لها إنه أحبها منذ اللحظة التي طرقت فيها باب بيته لتطلب أخاها؟! اَختارت سواه وكان ما كان. غضب منها وعليها ويدهشه الآن أن الغضب راح. يفتش قلبه ويحدق فيه فلا يجد سوى حبه مضفورا بلهفة أمّ تدعو للصغيرة بهدوء البال والستر والسلامة. سيذهب إليها ويزورها ويأخذ معه هدية لوليدها. يقول له: «أنا خالك يا ولد!» باغتته الفكرة فابتسم ومسح دمعته. لن يذهب أخواله إليه. لو علموا أن كوثر تزوجت نصرانيا لاتقدت النار في قلوبهم أكثر. لم يسمع من جهتهم شيئا. يلتقي بأخيها الأصغر فيسأله: «هل خرج أبوك من السجن؟» يقول: «لم يخرج!»، «هل عاد أخوك الأكبر» يقول: «لم يعد!». يود أن يسأله عن أمه وماذا تقول عن كوثر، ولكنه يمضي كأنه لا يعرف كوثر ولا يشغله أمرها.

قبل أن يأوي إلى فراشه أخرج الصندوق من قاع الخزانة وتأمله، لمس بكفه العصافير المشطوفة في خشبه، ورقائق الفضة التي تحمل اسمها، ثم أغمض عينيه وبدا له أنه سيرى كوثر في المنام. لم تأته، بل أتته مريمة، رآها كاملة فانتبه على وحشة أعادته للولد الصغير يصحو مضطربا ومنكّدا لأن جدته تركته وحده وذهبت إلى السوق.

٨

قال عيد الحلاق وهو يقص لعليّ شعره:

ـ التُّهاميّة قتلوا ابنتهم.

جفل عليّ فأسقطت حركته المفاجئة المقص من يد عيد، فمال على الأرض ليلتقطه.

ـ ما الذي دهاك يا سي علي. لم يقتلوا أحدا بلا ذنب، لقد قتلوا كوثر، الصبية التي جرّست القرية وشكت والدها إلى الديوان. هل نسيت؟ لم يمض على الحكاية سوى ست سنوات؟! ظل أخوها، الذي هرب يوم الواقعة، يبحث عنها حتى وجدها في سوق السمك في بالنسية. تصور، بنت الحرام تزوجت من نصراني وخلفت منه بنتا! قتلها أخوها وأرسل بالخبر إلى أعمامه وأخواله. ألم تلحظ أنهم يمشون في القرية مرفوعي الرءوس؟!

ناوله عليّ أجره. في الدار ضاق بالسقف والجدران فغادره إلى ممر النخيل. ظل يمشي حتى مالت الشمس، ثم غابت، ثم هبط الليل وتوغّل. عاد إلى بيته وانزوى في ركن لا يفكر في شيء بعينه، يشعر برأسه كتلة ثقيلة ولكن عائمة في فراغ، وجسده غريب عليه ككيس خاو لا يخصه وملحق، رغم ذلك، به، يجرجره بلا معنى، ويتحرك به أينما تحرك ثم يجلس فينحطّ معه.

ظل قاعدا في الزاوية حتى صاحت الديوك ثم طلع النهار. قام إلى بيت الخلاء واستفرغ ما في جوفه. كان أكل البارحة على حاله في بطنه، تتقلص

معدته فتدفع به إلى جوفه وحلقه فيقذف به حارقا حامضا، تسري في بدنه قشعريرة فيرتج بالوهن.

كان عليه أن يواجه النهار، كيف يواجهه؟ عاد إلى زاويته وبقي قاعدا. انقضى اليوم والليلة وعادت الديوك تصيح. شقشق الفجر وأضاءت الشمس المكان. خرج ليسعى في الأرض.

راودته الفكرة شهورا ثم حسم أمره، وركب بغلته، وقصد بالنسية.

كان يتناول عشاءه في الخان عندما سمع صوت امرأة تهتف باسمه. تطلع مندهشا فرآها تقبل عليه متهللة.

- حمد لله على السلامة يا سي علي. انتظرت طويلا.

زاده الكلام اندهاشا، ثم قدر أنها تخلط بينه وبين شخص آخر.

- سي علي أنا نجاة، هل نسيتني؟!

- نجاة؟!

تذكر، فدعاها للجلوس معه لتناول العشاء. ظلت واقفة.

- اجلسي يا نجاة.

تلعثمت، ثم قالت:

- أفضل أن يكون أجري نقودا.

ضحك مداراة للحرج. قال:

- ليس العشاء أجرا يا نجاة، بل ضيافة!

جلست على استحياء، ثم تطلعت إليه وقالت:

- لم أقل ما قلته بخلا وتقتيرا، ولكني أدّخر النقود لأدفع للدون سباستيان الثمن الذي حدده لبيعي، كدت أكمل المبلغ.

ياسي علي، كل يوم أبحث عنك بين نزلاء الخان، ثم أقول لعله يأتي غدا أو الأسبوع القادم أو بعد شهر، ولكنك لم تأت، هل أنت بخير؟

ـ الحمد لله.

ـ هل كنت مريضا؟

ـ لا.

ـ تبدو أنحف.

ـ رأيتني مرة واحدة يا نجاة. ربما نسيت شكلي.

ـ لم أنس شكلك. كنت أراك كل ليلة، أغمض عيني وأراك كأنك تقف أمامي، وأحيانا كنت أحدثك. هذه عادتي. لي ثلاث رفيقات يشاركنني الفراش يقلن لي ستفقدين عقلك إن واصلت الحديث مع الغائبين، فأقول لهنّ إنني، حين أتحدث مع أبي، لا يكون غائبا بل حاضرا بطوله وعرضه وابتسامته وجعدة شعره. يقلن لي: ربما ليس أبوك بل الشيطان يظهر على صورته. لا أصدق ما يقلنه لأن الصوت صوت أبي ورمشة العين، وإيماءة الرأس وحركة اليد كلها لأبي. وهو يأتي إلى زيارتي حتى بعد موته، لأنه يحبني كثيرا ويشتاق لي، وأيضا لأنه لا يريد أن يتركني وحدي. أرى أبي كثيرا وأحيانا أراك ونتحدث.

ـ سأذهب إلى حجرتي لأنام. لديّ مهمة أقضيها في الصباح، وفي المساء ألتقي بك. تصبحين على خير.

بدا عليها الحيرة والاضطراب. قالت:

ـ إن لم يكن معك مال، أقصد بإمكانك أن تدفع لي لاحقا حين يتوافر المال.

ـ معي مال يا نجاة ولكني متعب. اذهبي يا بنت الناس ونامي في أمان. تصبحين على خير.

في الصباح بكّر في الخروج من الفندق. قصد سوق السمك واستعلم عن الرجل. أشار صبيّ بيده إلى شاب سمين في العشرينيات من عمره له وجه مدور كوجوه الأطفال وقال:

ـ هذا هو سانشو لوبيس.

اقترب عليّ منه وحيّاه، فرد الشباب التحية وسأله: أيّ نوع من السمك يريد.

ـ لا أريد سمكا. أريدك في حديث خاص لو سمحت.

مسح الرجل يديه وطلب من زميل له أن يحل محله، ثم خرج من وراء العارضة الخشبية. قال عليّ:

ـ أنا قريب زوجتك.

امتقع وجه الشاب ثم سرت في ملامحه رعشة. ضغط على شفتيه بأسنانه ثم قال:

ـ ماذا تريدون؟! قتلتم زوجتي وهددتم بقتلي وقتل صغيرتي إن تفوهت بكلمة. لم أفتح فمي، ماذا تريدون أكثر من ذلك؟!

ـ لا أريد منك شيئا. جئت لأقدم لك واجب العزاء وأرى الصغيرة و . . .

ـ لا نريد منكم عزاءً، اتركوا الصغيرة، قتلتم أمها وهذا يكفي!

ـ ألا تسمح لي برؤية الصغيرة.

ـ لا!

كان وجهه يرتعش وقد اصطبغ أبيضه بحمرة قرمزية.

ـ لقد قطعت المسافة من قريتنا إلى هنا لأرى البنت وأقدم لها هدية.

ـ لن أسمح بذلك.

ـ إذن أعطها هذا.

ناوله عليّ الكيس المخملي الأحمر الصغير. كان قد أودع فيه ثلاث دبلات من الذهب.

أمسك سانشو لوبيس بالكيس وبدا مرتبكا، ثم أعاده إلى عليّ.

ـ خذه. لا نريد منكم شيئا.

ـ الهدية للصغيرة، ليس من حقك أن ترفضها، وليس من حقك أن تحجب عنها أن لها أهلا من طرف أمها يحبونها ويسألون عنها.

ولكنه استدار ومضى مبتعدا.

لم يكن عليّ قد غادر السوق حين سمع الصوت اللاهث:

ـ يا سيد، يا سيد.

كان سانشو لوبيس قد لحق به. تطلع إليه عليّ ولكن سانشو وقف صامتا كأنه لم يتبعه ولم يناده.

تحير عليّ ولم يعرف ماذا يقول. مرت لحظة صمت قطعها سانشو:

ـ بإمكانك أن تأتي معي لرؤيتها.

منذ علم بما أصاب كوثر وهو يريد أن يرى الصغيرة، وبدا له وهو يتبع سانشو من زقاق إلى زقاق أنه سيحقق ما يريد، فلماذا وهو عائد إلى الفندق كان حزينا يختنق بغصة في حلقه؟ وجد الصغيرة تشبه أمها، لون البشرة نفسه، العينان السوداوان الواسعتان والنظرة المباشرة الصريحة نفسها. ما الغريب في ذلك؟! لم تنفر منه بل على العكس أقبلت عليه وتركته يحملها ويضمها، وابتسمت له وقبلته وهو يلاعبها ويلاطفها وكان يضحك، ولكنه حين غادر البيت أسرع الخطو كأنه يطلب هواءً أو بكاءً أو مكانًا يهرب إليه. كأن أحدا

يلاحقه والخطى التي تتبعه فيه. يمشي مكمودا مثقلا بحزن يكاد يقعده على قارعة الطريق. يجرجر جسده. يريد بيت البيازين. يريد مريمة. ما الذي أصابك يا عليّ لتبكي في الطرقات كالصغار؟ لأن كوثر ذهبت؟ لأنك رأيت ابنتها؟ هز رأسه كأنه يجيب بنفي السؤال. من أين داهمه الحنين وأتته غرناطة كالعذاب تفرفط حلاوة الروح فيه كطائر ذبيح وهو يمشي كالبشر على قدمين، يخرج من حارة ليدخل حارة تقوده إلى الخان. وجد نجاة تنتظر...

- سي علي هل أنت غاضب مني؟

- لست غاضبا يا نجاة، تعالي...

اصطحبها إلى الغرفة قال:

- اجلسي.

جلست على طرف الفراش. أحصى ما معه من مال. احتفظ بالربع لنفسه ومدّ لها يده بالباقي:

- هذه النقود يا نجاة تكمل المبلغ المطلوب من دون سباستيان، وما يزيد تستخدمينه في تدبير شئونك.

- هل أنت ثمل يا سي علي؟!

حدجها بنظرة زاجرة، ثم وضع يده على كتفها، وقال وهو يدفعها برفق في اتجاه الباب:

- أسافر فجر الغد، في أمان الله يا نجاة.

أغلق الباب وانكفأ على وجهه في الفراش.

في الصباح، حين فتح باب غرفته ليمضي، وجدها تفترش الأرض متربّعة بجوار الباب. كانت تنتظره لتودعه. أسندت رأسها إلى الجدار فغلبها النوم. فكر أن يوقظها ليسلم عليها. تطلع إلى وجهها وركب بغلته ومضى باتجاه الجعفرية.

٩

كأن الأيام دهاليز شحيحة الضوء كابية يقودك الواحد منها إلى الآخر فتنقاد، لاتنتظر شيئا. تمضي وحيدا وببطء يلازمك ذلك الفأر الذي يقرض خيوط عمرك. تواصل، لا فرح، لا حزن، لا سخط، لا سكينة، لا دهشة أو انتباه، ثم فجأة وعلى غير توقع تبصر ضوءا تكذّبه ثم لا تكذّب، وقد خرجت إلى المدى المفتوح ترى وجه ربك والشمس والهواء. من حولك الناس والأصوات متداخلة أليفة تتواصل بالكلام أو بالضحك، ثم تتساءل: هل كان حلما أو وهما؟ أين ذهب رنين الأصوات، والمدى المفتوح على أمل يتقد كقرص الشمس في وضح النهار؟ تتساءل وأنت تمشي في دهليزك من جديد.

جمعهم عمر الشاطبيّ في داره. كانوا عشرة من رجال الجعفرية أطلعهم على التفاصيل.

«وعدتْ فرنسا بالتدخل، وملكها يعد العدة لغزو أراغون. ذهب إليه مفوض منا، وأوضح له أن عددنا هنا في بالنسية ٧٦,٠٠٠ عائلة، وفي أراغون ٤٠,٠٠٠ و٣,٠٠٠ في قطالونيا، وفي قشتالة ٥,٠٠٠، ولو قدمت كل عائلة فردا واحدا لتجاوز عددنا المائة ألف مقاتل. لا ينقصنا السلاح فلدينا معامل البارود، والسيوف والحراب مكدسة في ستر البيوت.

لو دخلت جيوش ملك فرنسا من جهة نقار، أو رست أساطيله في دانيا نعلن العصيان، ولن نكون وحدنا لأن اللوثريين سينضمون إلينا، وعلينا الآن أن نجمع المال، ونحصل على المزيد من السلاح ونستعد».

هل تسربت الأخبار إلى أهالي الجعفرية من أحد من الرجال العشرة الذين حضروا الاجتماع؟ هل نقلوه بالكلام إلى ذويهم، أم أن البشر في وجوهم سرى دون كلام في دار كل منهم، ثم سرى من دار إلى دار؟ أم أن الشباب، الذين يترددون لقضاء حاجتهم على بالنسية وشاطبة وغيرهما من مدن المملكة، سمعوا بالتفاصيل فعادوا إلى أهاليهم بالأخبار؟ كيف انتشر الخبر في الجعفرية؟ لا أحد يعرف، ولكنه صار مشاعا بين الأهالي، يتكتمون عليه وهم يتشاركون فيه. ينعكس عزما في سلوكهم، تتألق به الوجوه. تتردد ضحكاتهم في الساحة وفي الحقول وداخل البيوت. جمعوا المال، وأخرجوا السيوف والحراب من مخابئها وصقلوها، وراحوا يحسبون الأيام وينتظرون.

وذات صباح نزل القرية ثلاثة مبعوثين من موظفي الدولة، يحمل واحد منهم دفترا كبيراً لتسجيل الأسماء والأرقام. قالوا حكومة جلالة الملك تعد تعدادا لسكان البلاد. «عرب البلاد أم كل من فيها من السكان؟».

قال بعضهم: مصادفة، مجرد مصادفة، وهذا التعداد لا يعني شيئا. وبعضهم الآخر توجس متسائلا إن كانت الأنباء تسرّبت للقائمين على الأمر فصاروا يحصون العرب من الأهالي. الشيوخ من أهالي الجعفرية تطيّروا، إذ تداعت في عقولهم الذكريات. قالوا: قبل أربعين عاما جاء رجال مثل هؤلاء وزمّموا القرية وسجلوا في دفاترهم أسماء العائلات وعدد أفرادها. جاءوا ليجمعوا من الناس السلاح وجمعوه، ومن لا يملك سلاحا كتبوا أمام اسمه أنه لا يملك أي سلاح. قال المعمِّرون: هذه الزيارة نذير شؤم. ضحك الشباب في السر من خوف الشيوخ وقالوا: حتى عندما جاءوا لجمع السلاح أعطتهم القرية القليل منه وخبأت الكثير، وسلاحنا معنا محفوظ في البيوت.

تقصّى الموظفون الأعداد، ولم يفُتْهم السؤال عن الحوامل من النساء ليسجلوا في القوائم الأجنة في البطون، ثم أغلقوا دفاترهم، وركبوا بغالهم، وغادروا القرية مغتبطين بأداء مهمتهم. ضحكت الجعفرية من غفلة الموظفين

ومن الدفتر الذي سجلوا فيه أقل من نصف الأهالي. من له خمسة أولاد قال: لي ولدان لا غير، ومن أنجب ثلاثة من الذكور، قال لم ينعم عليّ الله بالولد ولكن أكرمني ببنتين، ومن تزوج منذ شهور قال والده ابني في العاشرة من عمره، صبيّ دون البلوغ.

ثم عادت القرية تضحك عندما اتضح الأمر وانجلى، فعرفت أن الغرض من الإحصاء فرض ضريبة جديدة. أعطوا أعدادا ستخفف عليهم عبء المال المطلوب، والأهم من ذلك أن مخاوفهم تبددت: كانت حكومة جلالة الملك منشغلة بطلب المزيد من الضرائب غافلة أنها ستصحو ذات صباح لتجد أساطيل الفرنسيين في الميناء والعرب من الأهالي يحرقونها حرقا فتتساقط كالرماد.

أسبوع كالأعياد، بدأ بهيجا وانتهى بمسك الختام. عاد عمر الشاطبيّ من سفره بعد ظهر يوم الخميس، وقبل أن يذهب أصدقاؤه للسلام عليه أرسل بمن يخبرهم أنهم مدعوون إلى داره مساء الجمعة.

التقوا عنده فضيّفهم وتبادلوا الأخبار والمعتاد من الحديث في الزيارات، ثم قال عمر الشاطبيّ:

-الآن أحدثكم بما لديّ: قبل يومين حضرت اجتماعا جمع ستة وستين ممثلا لأهالي بالنسية وفقهائها ووجهائها، وحضر الاجتماع مبعوث فرنسيّ من طرف جلالة الملك هنري، وسوف أنقل إليكم خلاصة ما توصلنا إليه: أولا: عزمنا وتوكلنا وحددنا اليوم الذي نبدأ فيه العصيان، وتحدثنا في التفاصيل، ووزعنا المهمات. اعلموا أن اليوم قريب، وأن علينا أن نتأهب ونستعد. ثانيا: عينا لنا ملكا اخترناه بعد التشاور هو لويس عسكر من الأقواس، عاهدناه على الولاء وعاهدنا على الوفاء. ثالثا: اخترنا خمسة مفوضين يتحملون مسئولية القيادة والاتصال بالمدن والقرى. رابعا: سلمنا مبعوث الملك الفرنسيّ ١٢٠,٠٠٠ دوقة من الذهب هي إسهامنا المالي في الحملة التي يقوم بها

الفرنسيون، كما سلمناهم الخرائط المفصلة للشواطئ والقلاع وأماكن تجمعنا وأماكن تجمعهم، التي لا وجود لنا فيها. خامسا وأخيرا: وعدنا بتقديم ثمانين ألف مقاتل من شبابنا يقومون بالاستيلاء على ثلاث مدن، منها العاصمة بالنسية وخططنا لتفاصيل حركتهم.

كان عمر الشاطبي يتحدث بهدوء وبصوت خافت، والرجال من حوله ينصتون، يرفع أحدهم يده ليمسح دمعة غالبته «ما الذي يقوله عنه الجالسون من الرجال؟!» ويغير آخر جلسته لعله يتخفف من تلك النبضات المتسارعة التي تعلو في صدره يكاد يسمعها الآخرون.

قال عمر الشاطبي:

ـ دفعت الجعفرية حصتها من المال، ويبقى علينا تقديم الشباب المطلوبين منا. نحددهم ونعلمهم ليستعدوا. قلت إن الجعفرية قادرة على إرسال مائتي شاب، واتفق الرأي على أن يكونوا جميعا دون الأربعين.

قال أحد الجالسين:

ـ بالله عليك يا سي عمر لا تحرمني من المشاركة، قد أفيد في القتال أو يكرمني الله فأحتسب عنده شهيدا.

أربعة من الشيوخ الحاضرين قالوا الكلام نفسه. فقال عمر الشاطبي:

ـ نحدد الشباب المطلوبين أولا، ثم نناقش هذا الموضوع.

انتقوا الشباب واتفقوا على إبلاغهم، ثم ناقشوا أمر الكهول والشيوخ، فاستقر الرأي على أن ترسل الجعفرية فضلا عن حصتها المقررة من يرغب بشرط أن يكون في أسرته من يعولها ويقوم بشئونها.

بكى بعض الرجال وهم يودعون عمر الشاطبيّ في تلك الليلة، ولكن عليّا لم يبك. سيذهب مع الذاهبين فلا زوجة له ولا صغار يعولهم. خرج من دار

عمر الشاطبي، خفيفا رائق البال، ودخل داره وهو يغني وبدا له وهو مستلق على فراشه أن الكهل الذي أتم الخمسين قبل شهرين من صنع الخيال، وأن السنوات الفاصلة بين شرفة مريمة المنوّرة بالزهور وهذه القرية المطوية بين الجبال وهم أو حلم عابر وقصير. رأى نفسه يدق باب وردة، طالعته فخفق قلب الصبيّ، ثم طار إلى التلة هابطا إلى رصيف حدرةٌ. رافق انحناءة النهر ثم مضى إلى الصنادقية وصنع صندوقا رآه في واجهة المحل على المخمل الأخضر. قبل سنوات قليلة. قبل لحظات كانت مريمة تضمه إلى صدرها فتملأ أنفه رائحة الخزامي في ملابسها. يقول احكي يا جدتي قصة المعراج فتحكي عن البراق، ورحلة الرسول إلى المسجد الأقصى ثم إلى السماوات السبع، سماء بعد سماء. في السماء الأولى يلتقي سيدنا محمد بسيدنا آدم جالسا على كرسيّ من نور، يلتفت يمينا حيث الجنة ويبتسم، ويلتفت يسارا حيث الجحيم ويبكي، ثم يصعد الرسول إلى السماء الثانية فيرى ملكا نصفه من نار ونصفه الآخر من جليد، وفي السماء الثالثة... يتعجلها «أريد السماء السابعة يا جدتي» «مازلنا في الثالثة يا علي، بعدها تأتي الرابعة فالخامسة ثم السادسة، ثم نصل إلى السابعة» ولكنه يلح: «احكي عن السماء السابعة» تحكي:

«حمل البراق سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام إلى السماء السابعة فعرف أنها الجنة. أرضها من مسك وعنبر، وماء الورد يرويها، وجدرانها من الذهب والفضة واللؤلؤ. جدران عالية ومتينة لا ينفذ منها إبليس ولا العفاريت ولا الجان. عند الباب استقبله سيدنا رضوان وقال: «مرحبا بالمصطفى. تعالَ يا سيد المرسلين لتشاهد وعد الله للطيبين من خلقه. أخذه ليشاهد نهرا اسمه «الحياة» له مجرى واسع لا يرى الناظر ضفته الأخرى، ويعبره إن أراد في ألف عام. كان ينبت على ضفته الياقوت الأزرق، والعشب الأحمر والحرير السندسي الأخضر. ثم شاهد بعد النهر سدرة المنتهى وهي شجرة طرحها لؤلؤ بجوارها نبع اسمه «الكوثر» لمائه رائحة المسك، ومذاق الشهد، ولون الحليب...».

يغفو على صوت جدته ويحلم بماء الكوثر ولكن رائحته في الحلم تكون رائحة الخزامى وفي مذاقه شيء من لذعة اللوز الأخضر.

يستحضر الحكاية والولد الصغير ومريمة، يكاد لو مدّ يده يلمس وجهها فيشعر على كفه بعرقها يشم فيه رائحة صيف غرناطة القائظ في النهار، ومع الليل يسري الهواء فيه محملا بشذى الريحان والورد والخزامى وحصى البان.

لم يشقه في تلك الليلة الحنين. انبثق كالنبع فيه. مال عليه وشرب حتى ارتوى ثم غفا في أمان الله.

١٠

لا يأتي الكدر منفردا، وكذلك الفرح يجيء وفي أعقابه فرح سواه. انتشر الخبر في الجعفرية. تناقله الأهالي متقدين مستثارين كأنهم سافروا وشاهدوا بعيونهم، وطوّفوا وعادوا محملين بطيب الزيارة ومسك الذكريات.

ـ كيف ذهب؟

ـ يقولون أبحر من البندقية ومنها إلى مصر ثم من مصر إلى هناك.

ـ ولم تعرف السلطات بأمر زيارته؟

ـ أعماها الله عنه فذهب آمنا وعاد في حفظ الله.

يضحكون، ويوزعون الحلوى والشراب، ويهنئون بعضهم بعضا ويحلمون بالأماكن الأليفة التي تستحيل، وحين يأوون إلى فراشهم يستحضرونها فإذا ما غلبهم النوم رأوا أطيافها في المنام.

صباح الجمعة ركب عمر الشاطبيّ حصانه، وعليٌّ بغلته، وصحبهم خمسة آخرون على دوابّهم ومعهم زيت وزيتون ولوز وكيسان من الأرز وقفص دواجن، حمّلها لهم أهل الجعفرية ليقدموها نيابة عنهم إلى الحاج ديجو العطّار تهنئة له على عودته من الأراضي الحجازية.

تحدث الحاج، قال:

«غادرت بالنسية مستبشرا إذ شاء العليم القدير أن يوافق يوم السفر وهو

الإثنين الثاني من يوليو اليوم الأول من شهر المحرم، فكانت الرحلة ذهابا وعودة آمنة لا عواصف ولا دوامات، لا نقص في زاد أو شراب، لا لصوص يباغتونك في الصحراء فيجردونك من مالك كما يحدث للمسافرين في البر والبحر. كتب لي الله هذه الرحلة وحفظني على طول الطريق.

سافرت بالبحر إلى البندقية، ومنها حملتني السفينة إلى الإسكندرية، فلما نزلت أرض مصر صرت أتحدث مع الناس ويتحدثون معي بألفة كأنني لست الغريب، ثم التقيت بجماعة من أهل الأندلس استقر أجدادهم في الإسكندرية منذ زمان. اصطحبوني لزيارة معالم المدينة، وعمائرها وضريح الإمام الشاطبي والمرسي أبي العباس، وكلاهما عالم أندلسي يجلّه الناس، ويحتفلون بمولده كل عام، ويقصدون مثواه، ويتبركون بمزاره.

ثم تركت الإسكندرية إلى رشيد قاصدا القاهرة. سمعت بالإسكندرية قبل زيارتها ولكنني لم أسمع برشيد، فإذا بها ميناء موفور الثراء يزدحم بالبضائع والباعة والشارين، والسفن القادمة من كل أنحاء مصر وبلاد العرب. عندها يلتقي الماء العذب بالمالح ويصب فرع النيل في البحر.

أتينا المدينة على ظهور البغال من جهة الغرب، فطالعتنا على مشارفها غابات النخيل وحقول قصب السكر، ورائحة الزهور. ولما دخلناها وجدناها مدينة جميلة تكثر فيها البساتين، رمان وبرتقال وخروب وتين.

ومن رشيد ركبت السفينة، حملتني في بحر النيل إلى القاهرة».

- بحر النيل؟!

- هكذا يسميه المصريون، فهو واسع المجرى أكبر من الوادي الكبير، ويغذي البلاد بمائه، ويفيض في كل عام فيحتفل الأهالي بفيضه احتفالا عظيما يطلقون عليه وفاء النيل.

- وفاء النيل!

«في الطريق من رشيد إلى القاهرة رأينا على ضفتيّ النهر الأرض مبسوطة كالكف، خصبة خضراء، مزروعة بالأرز والذرة والفول وبساتين الفاكهة، وقطعان الأبقار والأغنام بلا حصر ما شاء الله.

ثم رسا بنا المركب في ميناء يدعى بولاق، فنزلنا القاهرة فإذا بها تفوق كل تصور، مترامية الأطراف، كبيرة العمائر، ينبهر زائرها بمظاهر البذخ والثراء ويؤخذ بفقر غالبية الناس. تعرف كل طبقة من طبقات أهلها من النظرة العابرة: الفقراء يلبسون الجلاليب الزرقاء ويغطون رءوسهم بالطواقي الخشنة، والأيسر حالا يلتحفون بعباءة يلفون الكتف اليمنى بذيلها الأيسر. وأثرياء التجار والمتنفذون من المماليك والحكام يرتدون الديباج المنسوج بخيوط الذهب والفضة، والحرير الدمشقيّ، والأطلس، والقطيفة المطرزة. الفقهاء يتعممون بالأبيض والأشراف بالأخضر، والأتراك يتميزون عن باقي الخلق بالعمامة الصفراء، وفقراء مصر، على ثراء بلادهم، كثيرون وظلم حكامهم لهم شديد».

- ألا يحكمهم الأتراك؟

- الأتراك وأيضا المماليك يجورون على الأهالي ويبطشون بهم، ويثقلون عليهم بالضرائب والمكوس.

- الله أكبر! مسلمون يستبدون بالمسلمين؟!

- استغربت مثلكم عندما وجدت أن أهل مصر يكرهون حكامهم كما نكره نحن حكامنا الأسبان، واستغربت أكثر عندما رأيت بعيني وسمعت كيف يشير التركي أو المملوكي إلى الرجال من أهل البلاد فيقول: «مصريّ فلاّح!» يقولها بتعال وازدراء وكأنه واحد من الأسبان يشير لواحد منا «بعربيّ كلب!».

- لا إله إلا الله!

«قضيت في القاهرة سبعة شهور. صليت في الجامع الأزهر، وفي مسجد

سيدنا الحسين، وزرت ضريح السيدة زينب، وقبور ملوك مصر الأقدمين، هرمية الشكل عالية كالجبال. خالطت تجارا وأهل حرف وغيرهم من عامة الناس، وشاركتهم الاحتفال بالمولد النبويّ وليلة الإسراء، وخروج كسوة الكعبة من القاهرة في طريقها إلى الحجاز. صمت معهم شهر رمضان، وأفطرت في العيد، ثم صمت الأيام البيض الستة، وفي اليوم السابع ودعتهم فشق عليّ الوداع، ولم يهوِّن منه سوى أنني أقصد مكة وقبر الرسول. التحقت بقافلة وحملتنا الجمال إلى السويس وهي بلدة صغيرة على شاطىء البحر الأحمر وبها ميناء. ركبنا السفينة بإذن الله فأوصلتنا إلى أرض الحجاز. عدنا إلى ركوب الجمال قاصدين مكة. كنا في مطلع الشهر الخامس ولكن القيظ كان شديدا، تقدح الشمس فوق رءوسنا قدحا تكاد تهلكنا ولكننا والحمد لله وصلنا إلى أمّ القرى ودخلناها بسلام.

تدخلها فتتبدد مشقة السفر. تسبقك روحك إلى البيت العتيق. تراه قبل أن تراه، تلقاك أسراب الحمام تسبح بحمد ربها محلقة في فضاء البيت، تقترب منك وتعود تطير، ثم رأيت الكعبة. والوصف يا إخواني يعجز عنه اللسان. لا عين رأت ولا قلب أحس بما يحسه المرء في حضرة كعبة الله الراسخة في المكان، لا تزحزحها نوائب الدهر ولا تقدر عليها. لا شيء في حضرتها سوى الرهبة والجلال، تتذلل أمام بابها لله فتتعالى على الكون وأنت تردد الله أكبر، تقولها وتسمعها من حولك من آلاف البشر. كيف أحكي وعن أيّ شيء من الأشياء أحكي؟ عن مقام سيدنا إبراهيم أم عن السعي بين الصفا والمروة؟ تتذكر أمنا هاجر وهي تسعى ملهوفة على صغيرها تبحث له عن قطرة ماء فيكرمها الله بماء زمزم! في اليوم الثامن من ذي الحجة صعدت إلى منى، وفي التاسع منه إلى عرفات. كبّرت وصليت وذبحت مع غيري من العباد الأضاحي. طوّفت بالكعبة سبعة أشواط، ورميت على إبليس الجمرات، تسع وأربعون من الحصى ألقيتها على إبليس.

بعد أيام عدنا إلى ركوب الجمال فحملتنا إلى المدينة المنوّرة. زرت الروضة الشريفة وقبر رسول الله. كان الناس من حولي يدعون ويتضرعون وهم يبكون، ثم يجففون دمعهم ويذهبون. قضيت في المدينة ثلاثين يوما بلياليها جاورت فيها قبر المصطفى فما جف لي دمع. أدعو الله أقول: بشفاعة نبيك فك كربتنا وغربتنا وخلصنا من بطش القوم الظالمين. أدعو ساعة السحر، وأدعو والشمس قدّاحة، وفي المساء أدعو. أعود في الليل إلى المنزل لأنام فيستعصي عليّ النوم لأن قلبي منشغل بالدعاء.

ودعت أرض الحجاز بدمع العين، وعدت إلى السويس ومنها إلى القاهرة، بقيت فيها أياما معدودة ثم حملني مركب من ميناء بولاق إلى مدينة دمياط، حيث يلتقي الفرع الآخر للنيل بماء البحر. ومن دمياط ركبت سفينة إلى ميناء يافا قاصدا ثالث الحرمين.

للقدس سور عتيق وعشرة أبواب، وتحيط بها جبال مغروسة بعروق الزيتون، فهم مثلنا يكثر عندهم الزيتون، ومدينة القدس جميلة وصغيرة، طرقاتها مبلطة وبعضها مسقوف، والدور فيها مشيدة بالحجر الأبيض المنحوت وهي ملتحمة متكاتفة كالبيوت عندنا.

والحرم القدسيّ الشريف رحب وواسع، يقع المسجد الأقصى في الصدر منه، له قبة مرتفعة مزينة بالفسيفساء وأعمدة من رخام. أما مسجد الصخرة ففريد بين الفرائد، بديع في شكله مدهش. في داخله الصخرة التي عرج منها النبيّ- صلّى الله عليه وسلّم- إلى السماء معتليا البراق. قبة المسجد مغشية بالذهب وسوارها وجدرانها كلها رخام مزين بالفسيفساء الملونة.

حضرت ليلة الإسراء والمعراج في القدس، والناس هناك تحتفل بها احتفالا كبيرا، تتزين له المدينة وأهلها زينة الأعياد. في الليلة الكبيرة يوقدون قناديل الحرم كلها، قالوا لي إنها عشرون ألف قنديل، يسطع ضوءها كغابة من النور.

ـ هل في القدس نصارى؟

ـ فيها، وفيها من أقباط مصر ومن الأحباش والهنود، والسريان واليونان، ويأتيها من بلاد الروم كل عام حجاج.

ـ يصلون في الكنائس؟

ـ لم أر كنائس كثيرة، ولكني شاهدت كنيسة القيامة وكنيسة الأرمن وبعض الأديرة. في كنيسة القيامة تجتمع الطوائف المسيحية على اختلافها للصلاة. كذلك يقصدها الحجاج ويحتفلون فيها بالمواسم الدينية والمناسبات. وللنصارى في القدس بطرك مسئول عنهم وله لقب ينادي به وهو «البطرك المحتشم المبجل العالم بأمور دينه، المعلم أهل ملته، ذخر الملة السمحة، كبير الطائفة العيسوية المشكور بعقله عند الملوك والسلاطين وفقه الله تعالى».

قام الحاج وتغيب لحظات، ثم عاد حاملا منديلا مصرورا وضعه أمامهم. فتحه وأمسك بخمس زجاجات صغيرة بها سائل رائق شفاف قال: «هذه من ماء زمزم» «وتلك». أشار إلى أخرى السائل فيها أقل شفافية ويميل إلى اصفرار: «تلك بها عطور من زهور رشيد. وهذه الخواتم والمسابح من الحجاز أما تلك فمن مصر، وهذا اللوح الصغير من خشب الزيتون، اشتريته من القدس. . . تذكارات صغيرة، تفضلوا ليأخذ كل ما يشاء».

أربعة اختاروا ماء زمزم، وواحد أخذ مسبحة والآخر خاتما فضيا، أما عليّ فمد يده إلى اللوح الخشبيّ الصغير وسأل الحاج على استحياء: «هل تسمح؟».

ودعوا الحاج وقفلوا عائدين. لم يقطع الصمت سوى سؤال:

ـ كم سنة قضى الصليبيون في القدس؟

أجاب عمر الشاطبيّ:

ـ تقريبا مائتي عام.

واصلت البغال طريقها في الشعاب وواصلوا شرودهم حتى دخلوا القرية.

لم يتح لعليّ أن يتأمل اللوح إلا بعد عودته إلى داره. ميزته عيناه واستوقفه الشكل المنقوش عليه، ما أن وضع الحاج أمامهم تلك التذكارات. ولما اختلى بنفسه أمسكه وأمعن النظر فيه. كان لوحا مستطيلا في حجم كفين مبسوطتين، خشبيًا أملس نُقشت عليه قباب القدس ومآذنها. الأقصى والصخرة يعلو كلا منهما هلال، وفي الخلفية كنيسة فوق برجها الوحيد الصليب. أطال النظر في اللوح، ثم فكّر في صنع لوحٍ مماثل عليه رسم غرناطة: أبراج الحمراء وأسوارها المشرفة على مجرى حدرهٌ تقطعه القناطر، أو عليه رسم البيازين.

خرج إلى الحقل في الصباح. عمل في الأرض طوال النهار، ثم عاد إلى داره يحمل قطعة من خشب الزيتون. أعمل المنشار والإزميل فيها، سوّاها وشذبها ونعّم خشونتها حتى صارت لوحا مستطيلا أكبر قليلا من لوحة القدس. قلبه بين يديه وتحسس سطحه، كان أملس تماما ومناسبا ليبدأ.

لم ينقش رسم غرناطة ولا البيازين. مالت السكين في يده تحزّ خطا مقوسا ثم خطا مقوسا غيره. كان ينقل الصورة التي أمامه ويقلدها. ضغط أكثر فتعمق الحزّ حفرا وتحددت القبتان. لماذا ينقش المكان البعيد، ما الذي تعنيه له القدس؟ نجمة مضيئة في السماء أم يجرب يده لتدريبها قبل أن تشرع في تصوير غرناطة؟ جاءهم الروم وغزوا أرضهم تماما كما حدث لنا، ولكنهم طردوا الصليبيين، فلماذا استطاعوا ما لم نستطعه وكيف استطاعوه؟ هل كانوا يفوقوننا عزما أم أن الجواب في سؤال يختلف؟ ترى ما الذي حدث بالتفصيل هناك؟ لن يجد من يحكي له الحكاية كلها من البداية للختام، وهو لا يعرف سوى أن صلاح الدين طردهم من القدس مرة، ولكن للحكاية بقية فمن يحكيها له؟ لماذا رجحت الكفة في المشرق وهنا خفّت الموازين؟ هل بنا عيب ليس فيهم، أم أن مصيبتنا أننا مقطوعون بالبحر، لا مصر جارتنا، ولا حولنا عراق ولا شام؟ قال الحاج إن في القدس نصارى من أهل البلاد، فلماذا يفرضون علينا التنصير هنا ولماذا

يزدروننا، ولم يكن سيدهم روميا ولا كان له عينان زرقاوان؟ كان السكين في يده يحز خطا رأسيا ثم يقطعه بخط أفقي أقصر، يحفر في الصليب. بعث الله في عباده عيسى المسيح. حدّق في الصليب على اللوح، بدا أليفا ووديعا والهلال يجاوره. ما علاقة هذا الصليب بجيوش خوان دي أستوريا وذبح أهالي البشرات؟ ما العلاقة بين الوجه الشاحب والرأس المائل بتاج الشوك، وما نحن فيه من عذاب؟ وأيّ رابطة تربط الجسد العاري النحيل لمسيح تبكيه أمه، بالأسياد وملاّك الأرض والضرائب والمكوس والملك وديوان التحقيق؟!

١١

انتظروا الإشارة شهرا، شهرين، ستة، يسألون عمر الشاطبيّ، ثم يعاودون السؤال:

ـ لم تأتنا رسالة؟

ـ لم تأت!

ـ والفرنسيون؟

ـ لا حس ولا خبر!

ـ عقد الإنجليز صلحا مع الملك، ماذا لو عقد الفرنسيون معه صلحا مماثلا؟

ـ يكون الصلح كارثة، ولكني أستبعد ذلك.

ـ وإن حدث؟

ـ الله لا يترك عباده، سنجد طريقة لتدبير أمورنا دونهم.

ـ لِمَ لا تذهب إلى بالنسية وتستعلم ممن سبق لك اللقاء بهم؟

ركب عمر الشاطبي حصانه وسافر إلى العاصمة ثم عاد. جمع شيوخ الجعفريّة. قال:

ـ الكل مضطرب وعلى قلق، يرجّحون أن السلطات عرفت بالخطة؛ عرفت إجمالا أم عرفت بالتفاصيل أيضًا؟ الله أعلم. الفرنسي الذي سافر إلى بلاده

لعرض الخطة على الملك هنري لم يرجع، وداهمت السلطات بلدة الأقواس، وقبضت على بعض رجالنا وعلى رجل فرنسي مقيم فيها، والكل يخشى أن يعترف المقبوض عليهم بتفاصيل التفاصيل ويكشفوا الأسماء.

سمعت في العاصمة أقوالا متضاربة وترجيحات مختلفة. بعضهم يقول إن ملك فرنسا أرسل يخبر ملك إنجلترا بنواياه، وإن هذا الأخير، حين عقد الصلح مع فيليب الثالث، أبلغه بترتيبات الفرنسيين، وبعضهم يقول إن من أهل الأقواس العرب عينا من عيون الديوان، وبعضهم الآخر يؤكد أن أشخاصا اتهموا بالمروق اعترفوا عند تعذيبهم بما يعرفونه، ثم تلتقي بمن يقول لك لا السلطات عرفت ولا هناك من وشى. تريد الحكومة التخلص منا وليس استشراسها سوى مقدمة لبيعنا عبيدا أو ترحيلنا. تمهد الحكومة لقرارها بالكلام عن مؤامرة كشفتها، ومخطّط ضد البلاد يعده العرب بالتعاون مع الفرنسيين. ما الجديد في ذلك؟ ألم يقولوا من قبل إننا نتعاون مع الأتراك أو المغاربة أو اللوثريين؟! بضاعة قديمة يخرجونها من جعبتهم كل حين!

كان وجه عمر الشاطبيّ شاحبا. أرهقه السفر والتنقل من مكان إلى مكان، ولم يسمع في رحلته ما يسرّ القلب.

قالوا: «نتركك لترتاح». أصّر على مرافقتهم حتى باب الدار. قال أحدهم وهم يصافحونه.

ـ نحن منحوسون تلاحقنا الخيبة كظلنا، لا أمل في شيء، لا أمل!

زجره عمر الشاطبي كأنه ولد صغير أخطأ وأساء. قال:

ـ لا يصح هذا الكلام! توكلوا على الله فهو يمهل ولا يهمل. لا اليوم آخر يوم في العمر، ولا هو الفيصل في القادم من الأيام. كبوة موجعة نقوم منها ونواصل أو يواصل أبناؤنا من بعدنا. ومادمنا أصحاب حق فنصر الله أكيد!

عـاد عليّ إلى داره وانكفـأ على وجـهـه فـوق فـراشـه ونـام. أيقظه الـطرق المحموم على الباب، ففز مفزوعا:

ـ عمر الشاطبيّ يحتضر ويطلبك.

سحب سبّاطه وخرج مهـرولا في غبـشة الفـجر. لم يكـن قـد أفاق تمـامـا، فاختلط الخبر بكابوس استيقظ منه لحظة الطرق على الباب. رأى نفسه في الحلم يحـاصـره اللهب. هرب ومن مـعـه إلى جبّ ولكـن لحقت بـهم النيـران، ثم رأى ثعبانا هائلا يطل عليهم من أعلى الجب، وينفث دخانا أسود كثيفا، ويصدر صوتا كالدويّ. كـان الدخـان يعـمي عيـونهم ويحـول بينهم وبين التنفس. كـان يختنق ويرتعد هلعا ثم دق الباب.

لم يقدر على المشاركة في تغسيل عـمر الشاطبي. جلس صـامتا بين رجـال يرتلون مـا يحفظونه من آيات القرآن. حـاول أن يفعل مثلهم، ولكن عقله كـان مـشتـتا وكـأن الحلم الذي رآه مـازال ممتدا. ليس الجب والنار والثـعبـان ولكن الخوف الهائل، والاختناق والدويّ في الأذنين.

انتبه إلى أن شخصا ما وضع ملفا على كتفيه وكان يحدثه. سمعه يقول:

ـ يبدو أنك مريض، إنك ترتجف!

شيعوا الجثمان وواروه التراب، ثم ذهبوا إلى دار عمر الشاطبي ليشاركوا في العزاء.

قبل أربع وعشرين سنة نزل الجعفرية، فكان عـمـر الشـاطبي أول من عـرف من أهلهـا. قال له: «ابق معنا» واستضـافه أسابيع تآلفا فيها وتصادقا. في تلك الأيام حدثه عمر الشاطبيّ عن أصله، قال:

ـ قبل زمان كان أجدادي يسكنون شاطبة ومن هنا اسم العائلة. لم يشغل أيّ منهم منصب القـاضي، ولكن الفـقـيـه كـان دائمـا منا. كـانت وظيفـة القـاضي

تقتضي الثروة والجاه والتوسط في كل قول وفعل بين حكامنا الروم وأهلنا المسلمين. كان عمل القاضي يتطلب البين بين، أما أجدادي فلم يكن لهم بذلك دراية، إذ كان شاغلهم الصراط المستقيم. كانوا أهل علم وثقة، وكان من يتوسم منهم في ابنه الفطنة وحسن الخلق يعلمه ويقوّمه ويرسله، ما أن يشب عن الطوق، إلى تونس أو غرناطة لينهل من علم المتبحرين. بعد سقوط غرناطة بعامين اثنين سافر جدي إليها، وتعلم في مدرستها، وقرأ على فقهائها. كان الروم قد دخلوها ولكن بقي علمها وخيرها فيها. على زمان أبي تبدلت الأحوال ولم تعد غرناطة غرناطة. قرأ أبي على يد أبيه، وبعد ولادتي بسنوات معدودة فرضوا علينا التنصير في بالنسية فعلمني أبي كما علمه أبوه؛ وإن توخى كتمانا لم يكن ضروريا أيام علّمه أبوه.

حين سمعت لهجتك الغرناطية، قلت: من رائحة الأحباب. أنتم أصحاب فضل ياأخي. ابق معنا فلست غريبا بل نزلت أهلا.

سأله عمر الشاطبي ذات مرة:

ـ هل تعرف يا عليّ متى سقطت بالنسية في يد الروم؟

كان يعرف أنها سقطت قبل غرناطة بسنين. دخلوا غرناطة قبل تسعين سنة فقدر الإجابة تقديرا:

ـ مائة عام أو أكثر قليلا؟

قال عمر الشاطبيّ:

ـ استولى الروم على بالنسية عام ١٢٣٦ أي منذ ثلاثمائة وخمسين سنة. تدخل العاصمة فلا ترى فيها من آثار أجدادنا شيئا، وكأنهم لم يسكنوها ويعمروها أكثر من خمسمائة عام، ورغم ذلك حافظنا على أنفسنا، وها أنت ترى أهلنا في كل مكان من المملكة لا يتحدثون إلا العربية، يصومون رمضان

ويحتفلون بخميس الله وجمعته والعيدين، ويحيون ذكرى المولد النبويّ وعاشوراء. هل ذهبت إلى أراغون؟

ـ لا. لم أذهب.

ـ هناك يختلط عليك الأمر. ترى أبناء العرب فلا تعرف لهم ملة ولا دينًا. يتحدثون بلغة الروم ويلبسون مثلهم ويسلكون سلوكهم. حتى في الحيّ العربيّ تجد الشباب مجتمعين في الحانة يعبّون الخمر ويقطعون وقتهم بالسكر ولعب الورق، والقلة الغيورة على دينها لا تجد من يعلّم أولادها الفقه وأصول الدين فيرسلون لنا بهم لنعلمهم.

في بالنسية صنّا أنفسنا، وكان لنا نحن الفقهاء دور في ذلك، وإن شاء الله نواصله حتى يوم الفرج وهو آت بإذن الله.

ظل عمر الشاطبي متماسكا إلى النهاية. عاد من العاصمة بالأخبار الحزينة، ولكنه زجر من قال أن لا أمل هناك. طمأن الناس وأشعرهم أنهم ليسوا وحدهم في دهليز مظلم. كان كعادته يحمل قنديله في المقدمة، يبعث في قلوبهم طمأنينة تجاور الفزع، وهدوءا يغلّف الفوضى. هل أنزل الله السكينة في قلبه رحمة بالآخرين، أم أنه في الليل بكى وارتج بدنه بالنشيج، وسكنه الفزع الذي يسكن الآخرين، ثم قال لنفسه أنت يا عمر شيخهم الفقيه، وأجدادك ما قصروا، فجمع لوعته على مخاوفه وخبّأها وخرج على الناس قويا كأن البلاء مقدور عليه، والطريق أمامهم مفتوحة؟!

لم يمنحه الله ولدا من صلبه ليعلّمه فيصير من بعده الفقيه، فعلّم النابه من شباب القرية وشباب أراغون. يأتون إليه من بعيد فيستضيفهم في داره، ويطعمهم ويعلمهم مطمئنا إلى أن كلا منهم يعود إلى قريته بيده قنديله وقد أسرج له القنديل. يتكتم على تلاميذه كما يتكتم على صدقة يمنحها. تؤرقه زيارات المحققين، وعيون الغرباء، ويتستر على خبايا بيته وخبايا الجعفرية.

يصلح ما أفسدته الأيام بالصمت أو بالصوت الهادئ أو بالزجر والتقريع، فهل كان ذلك كله عبثا، باطلا وقبض الريحِ، أم أن مسعاه في الأرض أثمر . . . ولكن ما جدوى الثمار؟!

اجتمع رجال الجعفرية في دار عمر الشاطبي بعد عام من رحيله لإحياء ذكراه. لم تحضر بطبيعة الحال النساء، ولكن الحديث الذي دار بين الرجال كان أيضا يدور بين النساء. «رحل عنا فرحلت البركة معه»، «لم نعرف منذ ذهابه لا راحة، ولا هدوء بال»، «ذهب. فمن نسأل في هذا الكرب ومن نستشير؟!».

كانت تأتيهم أخبار جديدة مع كل يوم. يقولون شائعات، يؤكدون أنها ليست سوى شائعات، ولكنهم إذ يأوون إلى فراشهم ليلا يقلبون في رءوسهم ما سمعوه من الكلام، يضطربون فيعزّ النوم ثم يأتي ومعه تأتي الكوابيس. يبكرون في الخروج إلى أشغالهم في الصباح، تبدد الشمس مخاوف الليل، ينهمكون في الفلاحة أو التجارة أو النجارة أو قضاء الحاجة في المعصرة أو الطاحونة فيأتيهم الجديد من الأخبار: «جئت بالأمس من شاطبة وهناك سمعت . . .»، «يقولون في بالنسية إنه . . .»، «أخبرني رجل من دانية . . .»، «فلان له صديق يعرف شخصًا متنفذا قال له . . .» وتدور عجلة الكلام ومعها تدور عجلة الأيام معصرة أو طاحونة تفتت عزم القلوب.

- يُرحّلوننا إلى أين؟!

- إلى الشواطئ المغربية.

- ودورنا وأرضنا؟!

- يصادرونها.

- يصادرونها!!

الوعاظ في بالنسية العاصمة يشنون حملة شعواء على العرب. والقس بليدا، وريبيرا رئيس الأساقفة وآخرون أيضا يقولون إنه لابد من قتل العرب أو حرقهم، لأن الشر يقتلع من جذوره وإلا نبت من جديد.

ـ هذا كلام يتردد ولكنه ليس سوى كلام.

ـ معك حق، ولكن يبدو أنهم ينوون بيع الرجال إلى من يشتري من الدول الأجنبية، والاحتفاظ بالذكور من المواليد بعد خصيهم.

ـ من أين أتيت بهذا الكلام؟!

ـ سمعته بأذنيّ هاتين والله شهيد!

تعود النساء من المغسلة ويسارعن في إعداد الطعام. يعود الزوج من عمله ويجلس للأكل مع الأولاد.

ـ ما الذي دهاك يا امرأة؟ اللحم محروق، والكُسكس عجين مخبوص. أين ذهب عقلك؟!

تبكي المرأة فيزداد الرجل توترا. يسبها ويلعن أباها ويغادر الدار غاضبا بلا طعام.

ـ كلوا يا صغار!

ـ شبعنا!

تلح عليهم، يعندون فتضربهم ضربا مبرِّحا ثم تبكي، ويبكي معها الصغار.

ـ من قال إنهم سيرحّلوننا؟ لو كان الترحيل قرارهم فنحن بألف خير. ولكنهم لن يفرطوا فينا. سيحكمون على الرجال بالعمل في السفن ومناجم ما وراء البحر، مدى الحياة.

ـ والصغار؟

ـ سيوزِّعونهم على الأسر الأسبانية لينشئوا نشأة صالحة!

ـ مستحيل!

ـ لا شيء مستحيل في حكم القويّ على الضعيف!

١٢

بكى عيد الحلاق. قال:

- جئت أستشيرك، لا أستأمن سواك يا سي علي، هل تحفظ سرّي؟!

- أحفظه يا عيد.

- لي زوجتان..

- جازاك الله يا عيد، زوجتان؟!

- ليست هذه هي المشكلة.

- ما المشكلة إذن؟

- لو فرضوا علينا الترحيل ماذا أفعل؟ زوجتي الأولى ابنة عمي ويشملها ما يشملني من قرار.

- والثانية؟

- الثانية تسكن شاطبة، وليست من بنات العرب، فلا يسري عليها الترحيل.

- عليك أن تتركها إذن لو فرضوا علينا الرحيل.

- وأولادي؟

- لك منها أولاد؟

ـ سبحان الله يا سي علي، لي أربعة من هذه، وأربعة من تلك.

كيف استطاع عيد أن يكتم سره وهو الذي يثرثر على مدار اليوم، ولا أمهر منه في إذاعة الكلام؟ كاد عليّ يضحك ولكن عيداً واصل:

ـ الأعجب من هذا يا سي علي أن الشهر الذي تلد فيه فاطمة تلد فيه ماريّا بلانكا. كل اثنين من أولادي في العمر نفسه كأنهما توأم!

لم يتمالك عليّ نفسه فضحك.

ـ لماذا تضحك يا سي علي؟ إنني في ضيق. ماريّا بلانكا لا تعرف أنني متزوج من غيرها، وفاطمة أيضا لا تعرف.

قالت لي ماريّا بلانكا لا تخف يا عيد، لو قرروا ترحيلكم سأتدبر أمر بقائك. قسّ الناحية صديق أخي وسيشهد أنك نصرانيّ قديم. لو دبرت لي البقاء كيف أدبر أنا بقاء فاطمة وباقي أولادي؟

ـ وما العمل يا عيد؟

ـ جئت أسألك!

ـ ألا يمكن أن تقنع زوجتك الثانية بالرحيل معك هي وأولادها؟

ـ حاولت. رفضت بشكل قاطع، ولم أحاول ثانية لأنني فكرت: «كيف آخذها تحت سمع السلطات وبصرها؟» سيكتشفون أنني خرقت القانون بزواجي من اثنتين، وهي أيضا ستكتشف ذلك، وأنت لا تعرف ماريّا بلانكا، إنها جميلة وطيبة القلب ولكنها حادة الطبع، لو عرفت أن لي زوجة غيرها ستفضحني وقد تجرني جرّاً إلى أول عامل من العاملين في الديوان وتقول: «أبقى على دينه المحمدي والدليل أن له زوجة غيري». وبدلا من أن أفارق أربعة من أولادي بالبقاء أو الرحيل، أفارق الثمانية إلى نار المحرقة. ماذا أفعل يا سي علي؟ لم أعد أنام الليل.

ـ هوِّن عليك يا عيد، قد لا يصدر قرار الترحيل.

ـ وإن صدر؟

ـ زواجك باثنتين حماقة يا عيد.

ـ وهل هذا وقت التوبيخ يا سي علي؟!

ـ لو أفلحت في إقناع ماريّا بلانكا بالرحيل بإمكانك أن تصحب زوجتك الأخرى بصفتها ابنة عمك. قل إنها أرملة ولا عائل لها ولا لأولادها سواك.

أضاء وجه عيد وابتسمت أساريره لحظة، ثم تجهم:

ـ ما الذي تفعله فاطمة وهي ترى بصحبتي امرأة غريبة تقول لي يا زوجي، وأولاد غير أولادها يقولون إنني أبوهم؟

ـ لا أرى حلا آخر يا عيد. أقنع ماريّا بلانكا بالرحيل، ومهِّد فاطمة للأمر، وإن لم يكن هناك بد من إخبارها بالحقيقة فأخبرها. إنها ابنة عمك وأم أولادك، وقد تغضب لأيام وأسابيع ولكنها لن تتسبب في هلاكك.

ومن يدري يا عيد، فقد لا يصدر هذا القرار، ولعل كل ما نسمعه من كلام مجرد شائعات يطلقونها قصدا لبث الذعر في نفوسنا فنلجم السخط داخلنا وأيّ فعل يمليه!

ـ هل ترجِّح أنها شائعات؟

ـ لنأمل ذلك يا عيد.

ذهب عيد ليتدبر طريقة للبقاء أو الرحيل محكوما في الحالتين بالزوجة والأولاد، وهو لا زوجة ولا ولد، وغرناطة هناك كسفينة غارقة استقرت في قاع البحر لا يطولها إن أبحر أو أقام.

أمسك بصندوق كوثر. تأمله فبدا له من صنع شخص آخر يفوقه موهبة

ومهارة. كانت العصافير المشطوفة فيه تسري في المادة المُصمتة كأنها وهي في الخشب تطير. لاعاج، ولا صدف. لا ألوان. فقط العصافير واسمها بحروف كوفية تشكلها الفراغات في رقائق الفضة.

هل الماضي يمضي حقا أم يُعرِّش على أيامنا، أم أننا نعيش كالبيت فيه؟ هل هذا الصندوق ماض؟ تحسسه بكفيه، لامس جناحي العصفور والفضة واسم كوثر. صندوق يشاغل العين بالصنعة الماهرة أم روح الروح في مرآته مصورة؟

أخرج درجا من أدراج الخزانة. كانت الأوراق المحفوظة فيه صفراء طالها القدم، ولكن رسم الكلمات واضح فيها ومقروء: عقد زواج حسن على مريمة، وصكّا شراء دار البيازين ودار عين الدمع اشتراهما جد الجد في زمن قديم وعليهما توقيعه: أبو جعفر الورّاق، ثم تنتهي الأوراق المكتوبة بالعربية. عقد زواج أبيه بأمه، وشهادة ميلاده، وشهاده تعميده مكتوبة بالقشتالية. عقد إيجار الأرض التي يزرعها هنا في الجعفرية منسوخ باللغة البالنسية.

مصحف مريمة أخضر وصغير تزينه نقوش ذهبية. كيس مخمليّ أحمر هو المتبقي من ثلاثة أكياس أعطاها له أبوه. وكيس مخمليّ أسود أودعه روبرتو البطل جعبته يوم ودعه على مشارف غرناطة ومضى مبتعدا فوق الأصيلة تتطاير من حوله بردته السوداء. وفي قاع الدرج المفاتيح: مفتاح بيت البيازين الحديدي الداكن والكبير، ومفتاح صندوق جدته المطمور في بستانها، مفتاح ذهبيّ دقيق لا يزيد على طول إصبع، وبضعة مفاتيح لعين الدمع لم يعطها لخوسيه. حدّق عليّ في المفاتيح. تأملها وقلبها بين يديه. تمتم: ابتعدت الأبواب والأقفال تغيرت فما نفع المفاتيح؟ ما الذي تبقى؟ صليب صغير من الذهب معلق في سلسال أهداه له أنطونيو ليلة رحيله الأول من غرناطة. كان في زاوية من الدرج، لماذا تركه هنا كل هذه السنين؟ أمسك به وعلقه حول عنقه.

هل في الزمن النسيان حقا كما يقولون؟ ليس صحيحا. الزمن يجلو الذاكرة كأنه الماء تغمر الذهب فيه، يوما أو ألف عام فتجده في قاع النهر يلتمع. لا يفسد الماء سوى المعدن الرخيص، يصيب سطحه ساعة فيعلوه الصدأ. لا يسقط الزمن الأصيل في حياة الإنسان. يعلو موجه، صحيح. يدفع إلى القاع. يغمر ولكنك إذ تغوص تجد شجيرات المرجان حمراء، وحبات اللؤلؤ تتلألأ في المحار. لا يلفظ البحر سوى الطحالب والحقير من القواقع، وغرناطة هناك كاملة التفاصيل مستقرة في القاع، غارقة.

يطفو صوت جدته: «ولدتك أمك ذات ليلة ربيعية ممطرة، فلما أصبح الصبح الطيب حملتُك إلى جدك أبي هشام، وكان يجلس في رواق الدار. تطلع إلى وجهك، وتطلع إلى شجرتي اللوز والمشمش. كانتا منورتين، والفناء مبللا بمطر الليلة الغزير. قال نسميه عليّا».

منحه جده الاسم، وحكى له عن الفتي عليّ وهو يركب حصانه السرحان، ويشهر سيفه ذا الفقار ويقدر على أعدائه.

حدق عليّ في يديه فرأى بيت البيازين، وبستان مريمة، وصبيا كأنه يهبط إلى قاع بئر جافة ويصرخ مفزوعا من طيف يطالعه في الظلام، ويرى الفتى يحمل جدته بين ذراعيه كأنه أبوها وهي الوليد، يصيح ماتت جدتي في العراء ثم يواريها التراب، ويربت على عرف حصان يسأله: «هل كان صاحبك رجلا طيبا يا حصان؟» يحمله الحصان إلى قرية في البشرات يسكن دارا من دورها، يجدِّدها كأن أهلها أوصوه بها قبل الرحيل، ثم يهبط مع منحدر الجبل إلى كهف كمهبط الوحي مفتوح على السماء، ينادي ولا يسمع سوى رجع الصوت. يرافق روبرتو البطل ثم يفارقه ليدخل غرناطة ليرحل منها ويأتي هذه القرية، يربي زيتونه، ويركب بغلته ويروح ويجيء. ليست كبغال الأنبياء تحملهم في البرّية وتقودهم رغم التيه إلى ضوء اليقين.

١٣

عز الهـواء فبدا الفضـاء خانقا كـالحواري الضيقـة وقد ازدحمت بالباعة والشارين، تتعثر أقدامهم بالمنشور من خبايا البيوت: جرار وقدور وسلال وقـفف، زيت وزيتـون، وقـمح وطحين وعـدس وسكر وعـسل وتين ولوز وزبيب، أحرمة وملابس، صناديق الجدّات، خزائن عتيقة أو نُجِّرت حديثا، جلالات مخملية وأخرى من حرير، مشكاوات وقناديل. كلها معروضة للبيع يشق على طريقه متعثرا فيها، يلتقط الأنفاس التقاطا، يريد مهربا، يبحث عن المهرب.

تتوزع عيناه بين الملاحظة والشرود، يتمتم «النادبون يطوفون في السوق» ولا يرى جلالات السواد بل وهجا برتقاليا يتّقد بنار يوم خريفيّ، الشمس تقدح على رأسه، والأرض تحت قدميه حارقة، والفضاء خانق كأنه ليس الفضاء، يتصبب عرقا ويسعى كأمثاله من أبناء العرب في المصيدة.

يقابل أمين الحيّ. يسأله. يسمع ما جاء من أجله. يودِّعه. يغادر الحيّ العربيّ إلى سوق بالنسية الكبيرة. يطالع وجوه من لم يمسهم القرار آمنين من الخوف الذي يستبد به. يمر ببائعي الخضرة والفواكه والتوابل والحبوب. تصطدم عيناه بالذبائح مسلوخة ومعلقة. يحوّل النظر عنها، تسري في بدنه رجفة. تقوده قدماه إلى حيث يبيعون السمك يفتش بعينيه فيراه أولا ثم يراها. صارت صبية. يتملى وجهها وشعرها وقدها ووقفتها وبسمتها، يرى كوثر فيها فيودعها دون أن يودعها، ويشق طريقه مرة أخرى في الزحام. يقصد الساحة ليقرأ بعينيه المرسوم كأنه مازال يكذِّب ما يعرفه ويؤكده كل شيء حوله.

المقدمة المعتادة عن خيانة عرب البلاد. بناء عليه تقرر ترحيلهم في غضون ثلاثة أيام إلى الثغور المحددة، والموت عقوبة المخالفين.

«للراحلين أن يأخذوا من المتاع ما يستطيعون حمله على ظهورهم، وتتكفل السلطات بإطعامهم أثناء السفر، وعلى كل أن يلزم مكانه انتظارا لنقله إلى الشواطئ، ومن يبرح مكانه يتعرض للنهب والمحاكمة، ومن يقاوم يعاقب بالموت.

أملاك المرحّلين صارت بحكم المرسوم الملكيّ ملكا للإقطاعيين، فمن يعمد إلى إخفاء أملاكه أو حرقها يعاقب هو وكل سكان الناحية بالموت.

يبقى من كل مائة ستة لزراعة الأرز، وتنظيم الريّ، وإدارة معامل السكر وأعمال البناء، يتم انتقاؤهم من الأسر المشهود لها بالولاء.

يسمح ببقاء الأطفال دون الرابعة، إن أراد أهاليهم ذلك، ويسمح للأطفال دون السادسة بالبقاء أيضا إن كانت الأم عربية والأب نصرانيّا قديمًا. ويُرحل الأب العربيّ تاركا أولاده مع أمهم إن لم تكن عربية مثله.

يسمح بالبقاء لمن يزكيهم القسس بعد التأكد أنهم لم يخالطوا أيا من أبناء العرب لعامين متتاليين.

من يُخْفِ الهاربين أو يتستر عليهم يعاقب بالسجن ست سنوات، ومن يتعرض للمرحلين بالإهانة أو الأذى يعاقب.

يسمح لعشرة من العرب بالعودة بعد كل نقلة إلى الشواطئ المغربية لكي يطمئنوا باقي الأهالي أن النقل تم بسلام».

يركب على بغلته عائدا إلى الجعفرية. «لكل أمر تحت السماوات وقت. للولادة وقت وللموت وقت. للغرس وقت ولخلع المغروس وقت». يحدق في سنوات عمره: ست وخمسون ممدودة بين الوقتين كهذه السكة الجبلية التي يسلكها متسائلا عن حساب المكسب والخسارة. لا زوجة، لا أولاد، لا أرض

تدوم. راحت غرناطة فجاء إلى بالنسية، لم ينصب فيها خيمة تذروها الرياح. غرس نفسه في الجعفرية كما يغرس زيتونة يتعهدها أو غصنا مورقا جديدا، يطمره في الأرض، يرطّبه بالماء حتى يطلق براعمه ووريقاته فينبش التراب وينقل الغرسة التي شرشت. يزرعها من جديد. تمد جذورها في الأرض. تنمو وتعلو وتعطي كل عام، حتى بعد موته، الجديد من الثمار. يرعى شتلاته شتلة شتلة. يقتلع من حولها الأشواك. يقلّب لها التربة. يربيها سبع سنين كالبنين. يطلب لها المطر. يخشى عليها من طفح الوادي بالسيول، يدرّج الأرض من حولها، يحيطها بسلاسل الأحجار. تنهدم السلاسل فيبنيها من جديد. يخاف عليها من الريح تسقط نوارها قبل الأوان، نوارها أبيض دقيق قلبه أصفر في أخضر يسقط في أوانه فيستبشر ويتمتم: «يارب ندى وسموم عند عقدك يا زيتون»، يتابع الحبات تنعقد، تكبر، تثقل الغصون، تنضجها شمس الصيف ويسويها مطلع الخريف. يقول: «وافر محصول هذا العام»، ثم لا يكرر الكلام توجسا من حسد عينيه قبل حسد الآخرين. يحمل عصاه. يحرك الفروع. يتساقط من حوله الزيتون. يحمله من الشجر إلى حجر المعصرة تهرسه. يراه يتدفق من المزراب سائلا أخضر. يملأ به جراره ما شاء الله.

يقررون عليه الرحيل. يسحبون الأرض من تحت قدميه، ولم تكن الأرض بساطا اشتراه من السوق، فاصل في ثمنه ثم مد يده إلى جيبه ودفع المطلوب فيه، وعاد يحمله إلى داره وبسطه وتربع عليه في اغتباط. لم تكن بساطا بل أرضًا ترابًا زرع فيه عمره وعروق الزيتون. فما الذي يتبقى من العمر بعد الاقتلاع، وأيّ نفع في بيع أو شراء؟ ولماذا يخرجون مكنون بيوتهم تتعثر الأقدام فيه؟ ما الذي تمنحه حفنة دراهم لشجرة مخلوعة تشرئب جذورها في الفضاء لتمسك بتربة غائبة؟!

يقطع الطريق إلى الجعفرية حيث ينتظرونه وينتظرون ما يحمله لهم من

الأخبــار . الطـريق نفسـها التي قطعهـا قبل سبعة وعشرين عاما عاريا ووحيدا لا يملك إلا اسم عمة لم يرها وجعبة من الذكريات . قال له عـمر الشاطبي : ابق معنا ، فبقي وهو الغريب ، ثم لم يعد الغريب . ألفـوا نخلة بباب داره وعرف مشرفيات بيوتهم وأصوات صغارهم . في المساء يغلق باب الدار عليه وعلى الحنين . تأتيه غرناطة . يقول يا غربتي ! ولكن يطلع عليه النهار . باطل وقبض ريح أم شيء سوى ذلك؟ يقطع عليه السؤال طريق الذاكرة ويبقى كالسيف معلقا لأن الحكمة في كل ذلك غائبة أو مطموسة ، ولأنه وهو يقترب من نهاية عقده السادس لا يدري إن كان عليه أن يسلِّم بالنهايات أم يكابر ويواصل؟ وما الذي يواصله ، وكيف ، ولماذا ، وإلى أين؟ أم يحرن كالبغال ويتمسمر في الأرض؟ يسحبونها من تحت قدميه ، ولم تكن بساطا اشتراه من سوق بالنسية الكبير .

«لكل شيء ثمن ، وكلما عز المراد ارتفع ثمنه يا عليّ» فما الثمن المطلوب يا مريمة؟ قصّرنا فغضب الله علينا ، أم أنه كتب في لوحه المحفوظ سيرة عذابنا قبل أن نخلق أو نكون؟ يتطلع في المدى فيرى خضرة الحقول وعشقه لطفلة هوجاء طواها الموت . عشق عينيها ونظرة صريحة أسرته وكان ما كان . يذهب إلى المدينة ليشتري أو يبيع فيثقله الشوق ، فيعود متعجلا ومتلهفا . يلعن بغلته لأنها بغلة ولا تطير كالحصان . يصنع للصبيّة صندوقا ، يشتغل فيه كل يوم بأناة ليس لأنه يريده صندوق عجب يشاغل كل عين تراه ، بل لأنه يريد للطير المرفرف في صدره أن يسكن فيه ، ويريد شهقتها وفرحتها حين تحمله وتلمسه وتتملاه . رجل في الرابعة والثلاثين يعشق طفلة فتعيده طفلا مثلها يريد أن يضحك أو يغني معلنا حبه كالمجنون القديم . ولكن لا شيء يدوم . تحمله بغلته وتمشي ببطء بليد ، تسلك به الطريق إلى الجعفرية . يلملم همّه . يصره في منديل يعقده ويحمله ويمضي مع الآخرين إلى شواطئ الرحيل .

١٤

أمسك عليّ بالسقاطة وطرق الباب. فتح له صبيّ، قال اسمه مشفوعا بكلمة السر، فقاده الولد عبر الباحة والرواق إلى غرفة فأخرى، ثم ممر ضيق يفضي إلى درج حجريّ. هبط الدرج إلى القبو.

كان الجمع مصطفا خلف شيخ من شيوخ القرية يؤمهم للصلاة ويتلو بصوت رخيم: «والضحى. والليل إذا سجى. ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى. ألم يجدك يتيما فآوى. ووجدك ضالا فهدى. ووجدك عائلا فأغنى. فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر. وأما بنعمة ربك فحدث» الله أكبر.

ردد الرجال التكبير وانحنوا كما انحنى، ثم استقام فاستقاموا، ثم كبر ثم سجد فتبعوه، وعندما انتهت الصلاة وانطلق صوت الإمام وهو راكع على ركبتيه:

ـ اللهم اشرح بالصلاة على رسول الله صدورنا.

ـ آمين.

ـ ويسّر أمورنا.

ـ آمين.

ـ وفرِّج همومنا واكشف غمومنا، واغفر ذنوبنا، وبلِّغنا آمالنا، وتقبل بها توبتنا يارب العالمين.

ـ آمين .

ترددت كثيفة عالية تتجاوز القبو وضوء المشاكي الشحيح إلى الفضاء المفتوح سلّما صاعدا نحو السماء .

ـ وآنس بها وحشتنا .

ـ آمين .

ـ وارحم غربتنا .

ـ آمين .

ـ واجعلها يارب نورا بين أيدينا ، ومن خلفنا ، وعن أيماننا وشمائلنا ، ومن فوقنا وتحتنا ، وفي قبورنا وحشرنا ونشرنا ، وظلا على رءوسنا يوم القيامة يا رحمن يا رحيم .

ـ آمين .

ـ اللهم ثقّل بصلاتنا على رسولك موازين حسناتنا حتى نلتقي بنبيّنا وسيدنا محمد ﷺ ونحن آمنون مطمئنون فرحون مستبشرون .

ـ آمين .

ـ رب ارحم ضراعتنا .

ـ آمين .

ـ وآمن خوفنا .

ـ آمين .

ـ وأصلح أحوالنا بشفاعة نبيك ورسولك محمد بن عبدالله المصطفى خاتم المرسلين .

نهض الإمام ونهضوا. كانت الوجوه ممتقعة مشدودة على النشيج المكتوم، يراوغونه بالتحية والحديث والقيام والقعود و«كيف حالك؟»، و«أين كنت؟»، «جاءتك أخيرا بالصبيّ؟ مبروك!»، «حموك على حق إما أن تردها وتراضيها أو تطلقها بالمعروف». كانوا يدرءون الصمت بالحركة والكلام، ثم استقروا أخيرا متربعين في دائرة واسعة تسمح للجميع برؤية بعضهم بعضًا:

ـ تأخرت يا عليّ!

ـ لم تكن الطريق آمنة، فكان عليّ أن أسلك سككًا ملتفة.

ـ حمدًا لله على السلامة. اسمعوا يا إخوان.

تطلعوا إلى عليّ منصتين فقال:

ـ ذهبت إلى بالنسية بناء على طلبكم، والتقيت بأمين الحيّ العربيّ فجمعني بعدد من أصحاب الكلمة والنفوذ في الجماعة. عرفت منهم أن المرسوم، حين دار المنادون به وعلقت نصوصه في الساحات، نزل على الأهالي نزول الصاعقة، كأنهم فوجئوا به رغم كل ما تردد حوله من كلام طوال السنوات الأربع الماضية. أما تفاصيل القرار فزادتهم فزعا على فزع. لن أطيل عليكم بوصف ما رأيته هناك، وأكتفي بنقل رسالة الأمين.

لقد قرروا في العاصمة وضواحيها تنفيذ أمر الترحيل وعدم تنفيذ البند الذي يقضي ببقاء ستة من كل مائة شخص للانتفاع بمهاراتهم في فنون الزراعة والبناء وغيرها من الأشغال التي نتقنها ولا يعرفونها، وقال لي الأمين، وهذا نص كلامه: «لن نترك لهم من يعاونهم ما داموا قد قرروا إقصاءنا عن البلاد. لنرحل جميعا ونرى ما الذي يفعلونه دون سواعدنا وعقولنا المدبرة»، وقال الأمين أيضا إن استبقاء بعضنا قد يخلق تناحرا داخل الجماعة وانقساما فيها في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى التلاحم والتعاضد.

كذلك بشأن البند الذي يقضي بالسماح للأطفال دون الرابعة بالبقاء إن

رغب أهاليهم في ذلك، قال الأمين: «إن كان قرار الترحيل مهينا في جملته وتفاصيله، فهذا البند أكثرها مهانة، فهل نحن قطط أو كلاب لنرمي لحمنا ونمضي راحلين؟!».

هذا ما قاله لي الأمين وصدّق عليه الحضور من الرجال، ولكني سمعت وأنا في العاصمة أن أهالي بعض القرى قد أعلنوا رفضهم للمرسوم وتمترسوا في معاقلهم الجبلية وقرروا البقاء ولو بالقتال، وعرفت أن هناك تحركا ملحوظا للقوات في تلك المناطق، ولاحظت ذلك بنفسي إذ شاهدت في طريق عودتي فرقا من العسكر تتجه شرقا، فكنت أتوارى عن عيونهم، وأسلك طريقا غير طريقهم فاستغرقتني العودة ضعف الوقت الذي قضيته في الذهاب.

انتهى عليّ من حديثه فسرى الصمت في المكان كأن مَنْ فيه من الرجال غادروا، ولكنهم كانوا جالسين، شردت عيونهم وعجزت الألسنة والأذهان تشتّتت بين شجون الذاكرة ومغالبة الدموع. ثقل الصمت وطال، ثم قطعه الصوت فجفلوا:

- لن نرحل. لنقاومهم ولو بالفئوس، ولو بالعصيّ والمدى والسكاكين.

- نعم لنعلن العصيان. قد نقدر عليهم فيرجعون عن قرارهم وإن لم نقدر نحرق المكان.

- مقاومة قرار الترحيل خطأ، سلوك أخرق نتيجته سفك الدماء. يملكون ما لا نملك من قوة. نرفع فئوسنا عليهم فيطلقون علينا من بنادقهم النار ويعملون القتل فينا فلا نجني سوى الهلاك!

- قد تأتينا النجدة.

- انتظرناها مائة عام.

- يا إخوان: العقل زينة، ليس الرحيل كله شرا. نترك أرضنا ولكننا أيضا

نعود إلى أهلنا لنعيش بينهم معززين مكرمين، لا تلتقي بمن يسبّك قائلا: «عربيّ كلب!» أو «مسلم جبان!». في الرحيل نهاية لغربتنا.

ـ هل تترك زيتونك على الشجر؟!

ـ قبل سنوات كان بعض منا يخطط ويدبر، ويعرض نفسه للمهالك، ويدفع ما يطيقه من مال وما لا يطيق مقابل السفر من هنا إلى هناك. ليس الرحيل كله شرا.

ـ بل هو الشر بعينه، إنه خراب بيت وموت وهلاك!

ـ قضاء الله.

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.

ـ ماذا دهاكم، أين ذهبت عقولكم؟! لا شر إطلاقا في هذا الرحيل. سمعنا أنهم ينوون قتلنا أو بيعنا عبيدا وتشغيلنا بالسخرة على السفن. قالوا نحرقهم، ثم قالوا نخصي الذكور من أولادهم. الحمد لله، وألف حمد على قرار الترحيل. هو نعمة وفاتحة خير. كان سجنا وانفتحت لنا الأبواب، فَلِمَ لا نعلن الفرح؟! سنحمل ساعة الرحيل الدفوف والطبول ونغني ونرقص.

ـ من يُعلن الفرح في موكب الجنازة مجنون!

ـ احفظ لسانك!

ـ اهدءوا يا إخوان!

ـ جور يوميّ، ونهب في عين الشمس، وضرائب لا تنتهي لسيد الأرض، ولبلاط الملك، وكنيسة الملك، وزفاف ابن الملك، وحروب سيدنا الملك. هل ما نحن فيه يطاق؟!

ـ الرحيل أرحم!

ـ لم يعد أمامنا سوى الرحيل!

ـ لو تركت لهم أرضي وداري أموت كمدا قبل الوصول إلى الميناء.

ـ والله يا أخي ما يعذبني أكثر من السؤال: أين ذهب العرب والمسلمون؟!

ـ لا أمل في النجدة.

ـ إذن فهو الرحيل.

ـ لا غالب إلا الله!

١٥

تطلع عليّ إلى السماء. كانت مُمشّحة بسحب بدت له كشعر أبيض نفشته الريح. شيخ عرب مكشوف الرأس كأنه جدُّه نعيم. شعره خفيف وطويل تثبت وهو يتطاير مشعثا على الصفحة الزرقاء. من هو الشيخ؟ وجهه لا يراه. كأنه يعوي. خائف أو ساخط، أو مر أو حزين، أو أعطب الجنون عقله فأطلق عواء ضاحكا بدلا من البكاء.

يجلس عليّ في مواجهة البحر، يحدق في الغيمة، يود لو يركب حصانا مجنحا ليصعد إليها فيرى وجه الشيخ فيها. فاقد أم مفقود؟ ما الذي فقده، أبناؤه أم شيء غير الأبناء؟

صخب في الميناء. صفارات السفن. وصهيل خيول الضباط، وصياح العسكر، ونداءات حاملي الدفاتر وأصوات الأهالي. يتطلع إلى باطن كفيه يتملى ما فيهما من خطوط: باطل وقبض ريح أم شيء سوى ذلك؟! هل للحكاية معنى يراوغه، أم أنها عبث لا سبب فيها ولا نتيجة؟! خيط ينتظم اللحظات أم لحظات مبعثرة في مهب الريح لا يحكمها إلا الولادة في البداية والموت في الختام؟!

حكايته يعرفها ويعرف ما عاشه وخبره من ناحية كلمة الحياة. ولكنه لا يعرف تفاصيل الحكاية الأكبر عن أهله العرب والمسلمين، والبشر يَقتلون ويُقتلون على هذه الأرض المتعلقة بالسماء - ما علاقة الأرض بالسماء؟ - يعجزه الفهم لأن الحكاية في حكاية. صندوق في صندوق في صندوق،

ولا يملك سوى صندوقه الصغير الذي صنعه بيديه وأودع فيه كل ما يخصه من أوراق ومفاتيح وتذكارات.

قبل يومين غادر الجعفرية مع أهلها. صرّوا زادهم وأوراقهم ومفاتيح بيوتهم وحملوها كما حملوا العيال، ثم انحدروا هابطين من الجبل. لم يُودِّعوا الزيتون ولا اقتربوا من الحقول، فمَنْ يملك قلبا مدرّعا ليحدق في جذع زيتونة غرس شتلتها ورعاها وكبرها ورأى عقد الثمار عليها عاما بعد عام. تهربوا من الزيتون، وغادروا في صمت وبلا سلام، وحين فاجأهم على الطريق النخيل، جفلوا وغضّوا الطرف وتشاغلوا بعيالهم.

ـ لماذا لا تغنون، غنّوا!

كان الصوت زاجرا وآمرا. قالت المرأة الكبيرة: غنوا، ثم بدأت بالغناء، فامتد صوتها في سفوح الجبال عريضا وواسعا كشباك الصيادين. أمسكت امرأة بدف ودقت. أخرج رجل مزماره من جعبته ونفخ فيه. غنت النساء، فغنى من بعدهن الرجال. اضطرب الصبية والصبايا، وخاف الصغار فبكوا، ولكن الكبار واصلوا الغناء.

عند شاطئ دانيا توقفت القافلة. كان من سبقهم من الأهالي يفترشون الأرض أو يروحون ويجيئون أو يقطعون الوقت بالكلام، ونساء تعد طعاما للصغار، لأن الرحيل ـ حتى الرحيل، لا يسقط جوع الصغار، والصبية يتصايحون مستثارين بركوب البحر، والأهل يتممون عليهم بالنداء، يحذرونهم من اللعب بعيدا كي لا يضيعوا في الزحام. تطلق سفينة صفيرها إيذانا بالمغادرة، وموظفون هنا وهناك جلسوا وراء طاولات خشبية، وفتحوا دفاترهم ليسجلوا أسماء المصطفين أمامهم لركوب السفينة التالية، امرأة تبكي، وأخرى تضحك، وثالثة تثرثر مع رفيقتها كأنهما جالستان في ليلة صيف بباب الدار. شيخ يكلم نفسه، ورجال يتشاجرون وآخرون انهمكوا في صفقة بيع وشراء. وهذه المرأة ماذا تفعل؟!

سمراء طويلة خصيبة الجسم ومكتهلة، كأنها فضة وقد حلّت شعرها فتدافعت خصلاته مموجة كثيفة يختلط أبيضها بأسودها. تحرك المرأة كتفيها، تهز جذعها، تشمخ برأسها، تشيح بوجهها فجأة كأنها جفلت أو نفرت أو مسّها ألم أو جنون. تصهل. تدب على الأرض بقدميها. ترجمها رجما كالخيول. تقفز وتلف وتدور وتهتز وتميل. تعلو وتهبط. يستطيل جذعها كوتر مشدود ثم ترتخي. تهز كتفيها. ترفع ذراعيها، تلتف وتنفتل دوّامة دوّارة، وشعرها حول رأسها يتطاير ويدور.

«هل ركبتها الشياطين؟!» قفزت المرأة عاليا، ثم انحنت مقرفصة، أسندت كفيها على ردفيها، وثبتت قدميها في الأرض، وراحت تحرك فخذيها وساقيها، تلتقي الركبتان ثم تفترقان، تتلامسان ثم تنفرجان، والرأس يهتز وكذلك الكتفان، والوجه يشرق ويغيم. تنبسط ملامحه وتنقبض كأن المرأة في ذروة نكاح أو ولادة، والروح معلقة بخيط بين موت وحياة. «هل هي مجنونة؟!»، «يبدو أنها ترقص!».

تقدمت منها امرأة أخرى ممتلئة مُدمجة وارتفع صوتها بالغناء. كلمات الأغنية تشكو الزمان، ولكن الصوت لا يشكو. انفلت من عقاله واستبد به جنون. «غريب أمر النساء. لا الرقص رقص ولا الغناء غناء!».

يحدق عليّ في موج البحر، يعلو ثم يهبط، ويدنو ليلامس الأرض في رفق لحظة اللقاء. تشرد عيناه في المدى. البحر واسع ولكن سواحله تتصل، الأمواج فيه هنا، وناحية القدس هناك. لا حاجز، لا حدود، لا قيود. لو أن هذا البحر كنهر حدرهُ لنادى بالصوت فسمعوه على الضفة الأخرى في مصر والمغرب والشام. الطيور أيضا كموج البحر تذهب من مكان إلى مكان. تطلع إلى النوارس، ثم تحسس العصافير المشطوفة في خشب صندوقه، يحمله معه ساعة الرحيل، ولكن صندوق مريمة باق هناك في البيازين، مغلق على الكتب، مطمور في بستانها، مستقر تحت التراب لا يطوله مرسوم.

صندوق مريمة من خشب الزيتون، ولونه زيتونيّ جميل يحمل نقش غصون وزهور وعصافير، كل عصفورين متقابلان متلامسان، إلف وإلفه كزوج الحمام. هل تسري عصافير مريمة إليها في قبرها البعيد لتؤنسها، وتنقل لها كالحمام الزاجل رسائل أحبابها؟

تمدد على رمال الشاطئ وأسند رأسه إلى صندوقه. غفا فرأى نفسه في المنام يهبط درجا إلى باطن الأرض، يهبط ويهبط، كأن في الأرض سبع طبقات كتلك التي في السماء، ثم وصل إلى كهف رحب يجري فيه جدول. هل كان كهفا أم سردابا، أم قصرا مطمورا أم روضة عجيبة؟ رافق مجرى الماء. كانت الجدران على الجانبين مزينة بنمنمات النقوش، تتكاثف عليها الزخارف والأشكال ورسم غصون وزهور. عرس من الألوان يحفّه من الجانبين فيتوغل أكثر. يا الله من أين أتت كل هذه العصافير. كانت تندفع أمامه وتدفعه دفعا إلى الأمام، تشدو وتغرد وتزقزق وتغرغر وتصفر، ثم دخلت به إلى بهو عظيم كأنه قاعة مُلك، هبت عليه رائحة الخزامى. تطلع إلى الجدران، كلها من الفسيفساء، رفع عينيه، سقف كأنه بستان. أجال النظر فرأى سريرا عاليا من رخام. اقترب منه. مريمة؟! كانت غافية على السرير، جسدها ساج ووجهها مبتسم وعلى قمة رأسها عصفور الجنة، ولصق الأذنين على كل جانب حمامة، وعلى الصدر طير من طيور القطا يغرغر، وعند القدمين حَبّ تحوم حوله العصافير، تدنو لتلتقط الحب، ثم ترفع رأسها وتثب وترفرف ثم تطير. بلابل وقبّرات وعنادل وحساسين وذوات أطواق وأيضا كروان.

أيقظه صوت سفينة مغادرة. لم يكن ما رآه سوى حلم. ماتت مريمة منذ زمان والعصافير لا تسكن القبور، لابد إذن من الرحيل. كيف يبدأ المرء حياته وهو في السادسة والخمسين؟ لا زوجة لا أولاد يبددون وحشة الأرض الغريبة، ولا قبر جدة ينمو فوق صندوقها بستان؟ لماذا يرحل إذن؟ قد يكون الموت في الرحيل وليس في البقاء. لابد أن يعرف معنى الحكاية وتفاصيلها

وأيضا ما فعله الأجداد. يلح عليه السؤال حارقا فمن أين يأتي بالجواب؟! من الأرض الغريبة أم من هنا؟ لعله يكون مطمورا كالكتب المحفوظة في صندوق مريمة. سيبقى. قد يقبضون عليه ويحكمون بموته لمخالفة القرار. سيرحل. يحدق في ماء البحر، تشرد عيناه ثم ينتبه على صفّارة عالية تؤذن بالرحيل.

قام عليّ، أدار ظهره للبحر، وأسرع الخطو ثم هرول ثم ركض مبتعدا عن الشاطئ والصخب والزحام. التفت وراءه فأيقن أن أحدا لم يتبعه، فعاد يمشي بثبات وهدوء، يتوغل في الأرض، يتمتم: لا وحشة في قبر مريمة!

رقم الإيداع ١١٦٧٤ / ٢٠٠١
الترقيم الدولى 5 - 0737 - 09 - 977

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى - ت٤٠٢٣٣٩٩٠ - فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٨١٧٢١٣-٣١٥٨٥٩ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

ثلاثية غرناطة

• جائزة أحسن كتاب فى مجال الرواية لعام 1994 من معرض القاهرة الدولى للكتاب.

• الجائزة الأولى للمعرض الأول لكتاب المرأة العربية فى نوفمبر 1995.

• «تجعل حقائق التاريخ تنتفض أمامنا حارة دافقة». **على الراعى**

• «إضافة قيمة إلى الرواية العربية». **محمود أمين العالم**

• «اللغة في غرناطة هى الذاكرة. ومن هنا هذا الاحتفاء الكبير بجلال اللغة ورصانتها وإيقاعها وشاعريتها، ومن هنا هذا المعجم الواسع، ومتعدد المقاصد في السرد والوصف معاً». **لطيفة الزيات**

• «غرناطة رواية المقموعين، حيث يصبح مجرد البقاء على قيد الحياة بطولة في عالم عدواني يقمع تاريخا كاملاً». **جابر عصفور**

• «عندما تترك (الكاتبة) المجال لخيالها تكتب أدبا حقيقيا لم يخطه قلم من قبل». **صلاح فضل**

• «توغل في الزمان لتنتمي إلى المكان، الآن هنا، تطرح سؤال الحاضر العربي على التاريخ». **إعتدال عثمان**

• «تدخل بكتابة المرأة إلى مجال الرواية التاريخية ثلاثية ضافية، بعد أن ظلت ثلاثية نجيب محفوظ عملا فريدا فى هذا المضمار لسنوات طويلة». **صبرى حافظ**

• «حين ينتهي المرء من قراءة غرناطة لابد أن تعتريه قشعريرة في الروح». **فريدة النقاش**

دار الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٢٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨٠٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)